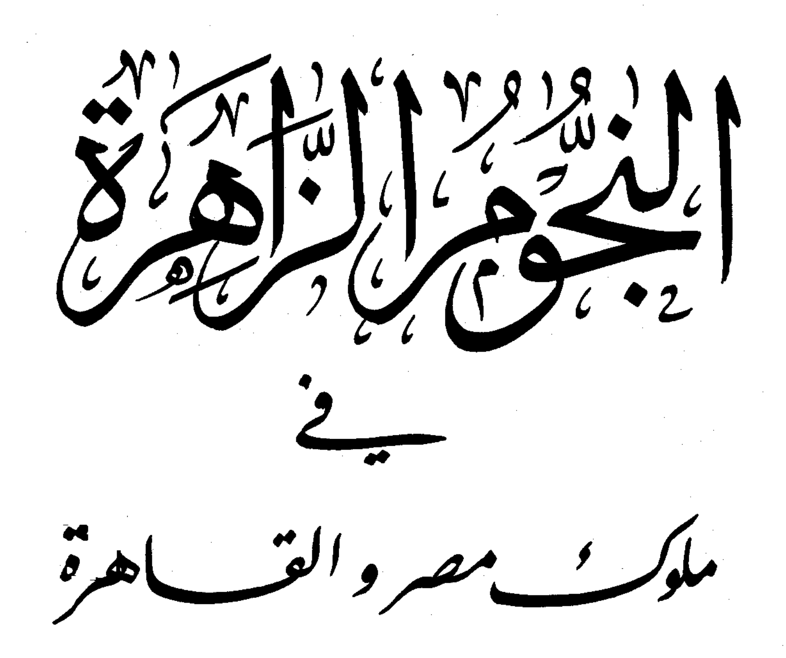


النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي
٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه
محمد حسين شمس الدين

الجزء الثاني عشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

ذكر سلطنة الملك الظاهر برقوق[1] الثانية على مصر

تقدّم ذكر الملك الظاهر برقوق وأصله وخبر قدومه من بلاد الجارَكْس إلى الديار المصريَّة وما وقـع له بها إلى أن ملكها وتسلطن، كلُّ ذلك في ترجمته الأولى من هذا الكتاب. وذكرنا أيضاً ما وقع له من يوم خَلَع نفسَه وسُجِن بالكَرك إلى أن خرج من الحبس وقاتل منطاشاً وآنتصر عليه وعاد إلى الديار المصرية بعد أن أُعيد إلى السلطنة بمنزلة شَقْحَب، وأشهد على الملك المنصور بخَلْـع نفسه، ثم سار حتى نزل بالصالحية، كلُّ ذلك في ترجمة السلطان الملك المنصور حاجي مفصّلاً؛ فمن أراد شيئاً من ذلك فلينظره في محلّه ومن يومئذ نذكر رحيلَه من منزلة الصالحية إلى نحو الديار المصرية فنقول:

ولَمّا نزل الملك الظاهر برقوق على منزلة الصالحيّة في يوم عاشر صفر سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة أقام بها نهارَه، وأعيانُ الدولة تأتيه فَوْجاً بعد فوج، مثل أكابر الأمراء الذين كانوا بالحبوس وأعيان العلماء ومباشري الدولة وغيرهم.

ثمّ رَحَل من الغد بعساكره وصحبته الخليفة والملك المنصور حاجي والقضاة، وسار بهم يُريد الديار المصرية إلى أن نزل بالرَّيْدَانِيّة[2] خارج القاهرة في بكرة يوم الثلاثاء رابـع عشر صفر؛ فخرج الأعيان من العلماء والأمراء إلى لقائه: فخرجت الأشراف مع السيد الشريف عليّ نقيب الأشراف، وخرجت طوائف الفقراء بأعلامها

---

(١) في مصادر ترجمته وأخباره راجـع الجزء الحادي عشر من هذا المطبوع، سلطنة برقوق الأولى.

(٢) الريدانيّة: اسم كان يطلق على بستان كبير أنشأه ريدان الصقلبي، حد خدّام العزيز بالله الفاطمي. وكان هذا البستان يقـع في حدود الصحراءالواقعة في شمال القاهرة. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/ ١٣٩.

وأذكارها، ومشايخ الخوانق بصوفيّتها، وخرجت العساكر المصريّة بلبوسها الحربيّة ـ لأن العسكر المصريّ كان من يوم خروج بُطَا وأصحابه من السجن وملكوا الديار المصرية عليهم آلة الحرب ـ وخرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل، ومعهم الشموع المشعولة. وخرج من الناس ما لا يُحصِيه إلا الله تعالى، وعندهم من الفرح والسرور ما لا يُوصف، وهم يصيحون بالدعاء له حتّى لقوه وخاطبوه.

فشرع الملك الظاهر يُكلِّم الناس ويُدْنِيهم ويُرْجِع رُؤوسَ النُّوَب عن منعهم من السلام عليه، وكلّما دعا له شخص منهم رَحَّب به. هذا وقد فُرشت له الشُّقَق الحرير خارج التُّرب إلى باب السلسلة[١] فلمّا وصل الملك الظاهر إلى الشقق المفروشة له، تنحّى بفرسه عنها وقدم الملك المنصور حاجِّي، حتى مشى بفرسه عليها، ومشى الملك الظاهر برقوق بجانبه خارجاً عن الشقق، فصار الموكب كأنه للملك المنصور لا للظاهر؛ فوقع هذا من الناس مَوْقِعاً عظيماً، ورفعوا أصواتَهم له بالدعاء والابتهال لتواضعه في حال غَلَبته وقَهْره له، وكون المنصور معه كالأمير، وصارت القُبَّةُ[٢] والطيرُ على رأس الملك المنصور أيضاً، والخليفة أمامهما، وقضاةُ القضاة بين يدي الخليفة. وتناهبت العامّةُ الشُّقق الحرير بعد دَوْس فرس السلطان عليها، من غير أن يمنعهم أحد، وكذلك لمّا نُثِر عليه الذهب والفِضّة تناهبته العامّة. وكانت عادة ذلك كلّه للجَمداريّة[٣]، فقصد الظاهرُ بذلك زيادةَ التحبّب للعامّة،

---

(١) باب السلسلة: يعرف اليوم بباب العزب، نسبة إلى طائفة من العسكر تسمى عزبان، وظيفتهم المحافظة على القلاع. وعرف قديماً بباب الإسطبل وباب الإنكشارية.

(٢) القبّة والطير: من الآلات الملوكية التي تظهر في المواكب والاحتفالات. وهي المظلّة، ويقال لها أيضاً: الجتر. وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس الملك أو السلطان، على رأس رمح بيد أمير يكون راكباً بحذاء الملك، يظلّه بها حالة الركوب من الشمس. قال القلقشندي: ويعبّر العامة عن المظلة بالقبّة والطير، ورفع المظّلة في المواكب كان من رسوم الدولة الفاطمية، واستمر مع الدولة الأيوبية ودولة المماليك. وفي دولة المماليك اعتبرت من علامات السلطنة. ـ انظر صبح الأعشى للقلقشندي: ١٤١/٢ و٦/٤، طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) الجمداريّة: واحدهم جمدار، وهو موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. (صبح الأعشى: ٤٥٩/٥).

كونَهم أظهروا المحبّة له في غَيْبته، وقاموا مع المماليك، وصاروا مع مماليكه. وصار الملك الظاهر يُعظِّم الملك المنصور في مشيه وخِطابه، ويُعامله كما يعامِل الأمير سلطانه، إلى أن أدخله دارَه بالقلعة.

ثم عاد الملك الظاهر إلى حيث نزل من القلعة، وتفرّغ عند ذلك لشأنه، وآستدعى الخليفةَ وقضاةَ القضاة والشيخَ سِراج الدين عُمر البُلْقينيّ والأمراءَ وأعيانَ الدولة، فجدّد عَقْد السلطنة له وتجديدَ التفويض الخليفتيّ، فَشَهِد بذلك القضاةُ على الخليفة ثانياً، وأُفيضت التشاريفُ الخليفتيّة على السلطان بسلطنته، ثم أفيضت التشاريفُ السلطانية على الخليفة ورَكِب السلطان الملكُ الظاهر من الإسطبل[1] السلطانيّ من باب السلسلة بأُبَّهة السلطنة وشِعار الملك، وطَلَع إلى القلعة ونزل إلى القصر، وجلس على تخت الملك، ودُقت البشائر وعُمِلت التهاني والأفراح بالقلعة وفي دور الأمراء وأهل الدولة، وكان هذا اليوم من الأيام التي لم يقع مثلها إلا نادراً.

ثم قام السلطان ودخل إلى حرمه وإخوته، فَفُرِشت له أيضاً الشُّقَقُ الحرير والشقق المذهَّبة تحت رجليه، ونُثِر عليه الذهب والفِضة، ولاقتْهُ التهاني من خارج باب السَّتارة[2].

ثم أصبح السلطان في يوم الأربعاء؛ فأمر أن يُكْتب إلى ثغر الإسكندرية بالإفراج عن الأمراء المسجونين بها، وإحضارِهم إلى الديار المصريّة.

ثم خَلَع السلطان على فخر الدين بن مكَانِس صاحب ديوان الجيش باستقراره في وظيفته نَظَر الجيش عوضاً عن القاضي جمال الدين محمود القَيْصَرِيّ العجميّ بحكم توجُّهه مع منطاش إلى دِمشق، وخَلَع على الوزير موفّق الدين أبي الفرج

---

(١) حدّد الأستاذ محمد رمزي مكانه اليوم بمجموعة المباني التي بها مخازن ورش الجيش المصري بالقلعة الواقعة على يمين الداخل من باب العزب، في المسافة الممتدة بين جامع أحمد آغا قيوقجي إلى نهاية الورش.

(٢) باب الستارة: كان من أبواب القصور المخصصة لسكن السلطان وحرمه. وحدّد محمد رمزي مكان تلك القصور بالسراي الكبرى التي أنشأها محمد علي باشا سنة ١٢٤٣هـ لسكناه هو وحرمه.

وآستقرّ به في الوزارة ونظر الخاصّ، وعلى ناصر الدين محمد بن آقبغا آص شادّ الدواوين بآستمراره. وأنعم على الأمير بُطا الطُّولُوتَمُريّ الظاهريّ بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وعُيّن للدواداريّة الكبرى، وأخلع على الأمير قرقماس الطشتمريّ أستاداراً.

ثم في سابع عشر صفر قَدِم الأمراء من الإسكندرية إلى بر الجيزة، فباتوا به، وعدّوا في ثامن عشره وطلعوا إلى القلعة، وهم سبعة عشر أميراً: أعظمهم الأتابك يَلْبُغا الناصريّ، الذي كان خرج على الملك الظاهر، وقَبضَ عليه وحَبَسه بالكَرَك؛ ثم الأمير أَلْطُنْبُغَا الجُوبانيّ نائب الشام الذي كان قبض على الملك الظاهر بَرْقُوق من بيت أبـي يزَيد، وطلَع به إلى القلعة نهاراً؛ ثم الأمير الكبير قَرَادِمِرداش الأحمديّ الذي كان الظاهر جعله أتابَك العساكر بديار مصر، وأنعم عليه بثلاثين ألف دينار، فتركه وتوجَّه إلى يلبغا الناصري المقدّم ذكرهُ؛ والأمير ألطنبغا المعلّم أمير سلاح ــ وهؤلاء الأربعة من أعيان اليلبُغاوية خُشْداشِيّة الملك الظاهر برقوق ــ ثم الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس الذي كان سبباً لكسرة عسكر الملك الظاهر بدِمَشق بهروبه إلى الناصريّ، والأمير قُرْدُم الحسنيّ اليلبُغاويّ رأس نَوْبة النُّوب، والأمير سُودون باق أحدُ أمراء الألوف اليلبغاوية، والأمير سودون طُرُنْطاي أحدُ الألوف أيضاً، والأمير آقبغا الماردينيّ الأُستادار أحدُ الألوف، وكُشْلِي القَلَمْطاوي وبَجَاس النَّورُوزِي ــ كلاهما أيضاً مقدّم ألف ــ ومأمور القَلَمْطاوي نائب حماة والكَرَك، وألطنبغا الأشرفيّ أحد الألوف أيضاً، ويلبغا المَنْجَكيّ، ويُونُس العثمانيّ، فوقف الجميع بين يدي الملك الظاهر برقوق وقبَّلوا الأرض له، وهم في غاية ما يكون من الخَجَل والحياء منه، بما تقدّم منهم في حقّه؛ فرحّب بهم الملك الظاهر، وطَيَّب خواطرهم، ولم يذكر لهم ما فعلوه به، ولا عَتَبهم عن شيء مما وقع منهم في حقّه، بل أكرمهم غايةَ الإكـرام بكلّ ما يُمكن القُدرة إليه؛ ثم أمرهم بالنزول إلى بيوتهم، فنزل الجميـع وهم في غاية السرور.

ثم في يوم الاثنين العشرين من صفر جلس السلطان بالإيوان من القلعة المعروف بدار العدل، وأخلع على الأمير سُودون الفخريّ الشيخونيّ بنيابة السلطنة بالديار

المصرية على عادته أوّلاً، وعلى الأمير إينال اليوسفيّ اليَلْبُغاوي بآستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، وعلى الأمير الكبير يلبغا الناصري صاحب الوقعة بآستقراره أمير سلاح، وعلى الأمير أَلْطُنْبغا الجوبانيّ بآستقراره رأس نَوْبة الأمراء وأطابكاً، وعلى الأمير كَمَشْبُغا الأشرفيّ الخاصكيّ بآستقراره أمير مجلس، وعلى الأمير بُطا الطُّولُوتَمُريّ الظاهريّ بآستقراره دواداراً كبيراً ـ وهو الذي كان خرج من حبس القلعة ومَلَك باب السلسلة في فتنة الملك الظاهر ـ وعلى الأمير طُوغان العُمريّ باستقراره أمير جاندار[١]، وعلى سودون النظاميّ بآستقراره نائب قلعة الجبل؛ ونزل الجميع بالخِلَع وتحتهم الخيول بالسروج الذهب والكنابيش الزَّرْكَش إلى دورهم، بعد أن خرجت الناس للفرجة عليهم، فكان يوماً من الأيام المشهودة.

ثم في يوم حادي عشرين صفر أخلع السلطان على الأمير بَكْلَمُش العلائي بآستقراره أمير آخور كبيراً، وسكنَ بالإصطبل السلطانيّ.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرين صفر قُرِىء عهدُ السلطان الملك الظاهر برقوق بدار العدل، وخلَع السلطان على الخليفة المتوكّل على الله، وأخلع على القاضي علاء الدين عليّ بن عيسى المُقَيِّريّ الكَرَكِي كاتب سِرّ الكرك في كتابة سرّ مصر، لِمَا تقدم له من الأيادي على الظاهر في القيام معه بالكرك، عوضاً عن القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله بحكم توجّهه أيضاً مع منطاش إلى دِمَشق.

ثم أخلع السلطان على بيجاس[٢] السُّودونيّ بآستقراره في نيابة صَفَد.

وفي سادس عشرينه قَبَض السلطان على حسين بن الكُورانيّ وأَمَر به فعُذِّب بأنواع العذاب.

---

(١) أمير جاندار: هو الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان ويقدّم البريد مع الدوادار وكاتب السرّ. (صبح الأعشى: ٤/ ٢٠).

(٢) في نزهة النفوس والأبدان: «سيف الدين بخاص السودوني».

وفيه قَدِم البريدُ على السلطان من صفد بفرار الأمير طُغَاي تَمُر القبلاويّ من دمشق إلى حلب في مائتين وواحد من المنطاشية.

وفي سابع عشرين صفر آستقرّ الأمير محمود بن علي الأستادار كان[١] بآستقراره مشيرَ[٢] الدولة.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشرينه جلس السلطان الملك الظاهر بالميدان من تحت القلعة للنظر في أحوال الرعية والحُكم بين الناس على العادة، وآستمرّ على ذلك في كلّ يوم أحد وأربعاء.

وفي ثامن عشر شهر ربيع الأوّل أخلع السلطان على الشيخ محمد الرِّكراكيّ المالكيّ بآستقراره في قضاء المالكية بالديار المصرية عوضاً عن تاج الدين بهرام الدَّمِيريّ. والرِّكراكيّ هذا هو الذي كان آمتنع من الكتابة على ٱلفُتيا في أمر الملك الظاهر برقوق لَمّا كَتَب عليها البُلْقِينيّ وغيرُه من القضاة والعلماء، وضرَبه منطاش بسبب عدم كتابته، وحبسه إلى أن أطلقه بطا فيمن أطلق من سجن منطاش، فَعَرف له الظاهر ذلك وولّاه قضاءَ المالكية.

وفيه آستقر سعد الدين أبو الفرج بن تاج الدين مُرْسِي المعروف بآبن كاتب السعديّ بآستقراره في نظر الخاصّ عوضاً عن الصاحب موفّق الدِّين، وآنفرد موفّق الدين بالوَزَر.

وفي خامس عشرين شهر ربيع الأوّل آستقرّ الأمير أَلْطُنْبُغا الجُوبانيّ رأسَ نَوْبة الأمراء في نيابة الشام عوضاً عن جَنْتَمُر أخي طاز بحُكم آنضمامه مع منطاش، وآستقرّ الأمير قرا دمرداش الأحمديّ في نيابة طرابلس، ورسم لهما الملك الظاهر في محاربة الأمير منطاش.

وفي يوم السبت أوّل شهر ربيع الآخر آستقرّ الأمير مأمور القلمطاويّ في

(١) أي إنه كان قبل ذلك أستاداراً. وهذه الصيغة شائعة الاستعمال في العصر المملوكي.

(٢) سبق التعريف به. راجع فهرس المصطلحات.

نيابة حماة، وآستقرّ أَرْغُون العثماني في نيابة الإسكندرية، وآلابغا العثمانيّ حاجب ـ حجّاب دمشق، وأَسَنْدَمر السيفي حاجب ـ حجّاب طرابُلُس.

وفيه أيضاً أنعم السلطان على كل من أَلْطُنْبُغا الأشرفيّ وسُودون باق وبَجْمان المحمّديّ بإمرة مائة بدِمَشق، ورسم لهم أن يخرجوا نوّاب البلاد الشامية.

وفي سابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور آستقرّ سعد الدين نصر الله بن البَقَريّ في الوزارة عوضاً عن موفّق الدين أبي الفرج، وآستقرّ الصاحب علم الدين سِنّ إِبْرة في نظر الدولة.

وفي رابع عشرينه قَبَض السلطان على الأمير سَرْبُغَا الظاهريّ وعلى الأمير أَيْدَكار العُمَريّ وعلى بَكْتَمُر الدوادار وعلى طشبُغا الحسني وقرابُغا وأَرْغُون الزَّيْنِيّ.
وفيه أيضاً خَلَع السلطان على الأمير جُلبان الكمشبُغاويّ الظاهريّ المعروف بقَراسُقل بآستقراره رأس نوبة النُّوب بعد وفاة الأمير حُسين قجا. كلُّ ذلك والأخبار ترد على السلطان بأن المنطاشيّة تدخُل في الطاعة شيئاً بعد شيء وأن منطاشاً في إدبار.

وفيه أخلع السلطان على الأمير يلبغا الناصريّ وآستقرّ به مقدَّم العساكر المتوجِّهة لقتال منطاش، وندبه للتوجّه صحبة النوّاب، وقال له: «هو غريمُك، اعرف كيف تقاتله» وجعل إليه مَرْجِعَ العسكر جميعه.

وفيه أيضاً خلع على نوّاب الشام خِلَع السَّفر. وأنعم السلطان على جماعة كبيرة من مماليكه وغيرِهم بإمريات بالبلاد الشامية، ورسم أيضاً لجماعة من أمراء مصر بالسفر صحبةَ الأمير يلبغا الناصريّ لقتال منطاش.

وفي عاشر جُمادَى الأولى بَرَزَت أطلابُ[1] النُّواب والأمراء إلى الرَّيْدانية خارج

(١) الأطلاب: جمع طُلْب، بضم أوله وتسكين ثانيه. وهي وحدات عسكرية صغيرة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة، حتى إنه كان للسلطان نفسه طلبه من الفرسان. وهذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ـ أنظر بدائع الزهور: ٣/٢٤ ـ ٢٥، وخطط المقريزي: ١/١٣٩.

القاهرة، هذا بعد دخول الأمير قُطْلُوبُغا الصَّفَويّ في طاعة السلطان وحضوره إلى الديار المصرية بمن معه، كما سيأتي ذكره.

وكان من خبر قُطلوبُغا الصَّفَويّ أن منطاشاً جهّزه على تجريدة من دِمَشْق لمحاصرة مدينة صَفَد، فلما قارب قُطلوبُغا صَفَد، دَخَل هو وجميع مَن معه في طاعة السلطان.

ثم قَدِم قطلوبغا المذكور بمَنْ معه في ثالث عشر جُمادَى المذكورة، وكان لقدومه يومٌ مشهود. وعند دخوله إلى القاهرة قَدِم البريدُ في إثره بأن منطاشاً لمّا بلغه مخامرةُ الصفويّ بمَن معه، قبض على الأمير جَنْتَمر أخي طاز نائب الشام، وهو أعظم أصحابه، وعلى ولده وعلى أستاداره ألطنبغا وعلى الأمير أحمد بن خوجي وعلى الأمير أحمد بن قجق وعلى كمشبغا المنجكيّ نائب بعلبك وعلى القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر القرشيّ الشافعيّ قاضي دمشق وعلى عدّة من الأمراء والأعيان؛ هذا ومجيء المنطاشية يتداولُ إلى مصر شيئاً بعد شيء.

وفي تاسع عشرينه آستقرّ الأمير محمود بن عليّ الأستادار أستاداراً على عادته عوضاً عن الأمير قرقماس الطشتمُريّ بعد وفاته.

هذا والقتال عَمّال بالبلاد الشامية في كلّ قليل بين عسكر منطاش وعساكر السلطان.

ثم قَدِم البريد بأن منطاشاً أخذ بعلبك بعدما حاصرها محمد بن بيْدَمر نحو أربعة أشهر وأنه وَسَّط آبنَ آلحنش وأربعة نفر معه.

وفي سابع عشر جُمادى الآخرة قدم البريد بأن منطاشاً لمّا بلغه قدوم العساكر لقتاله بَـرزَ من دِمَشق وأقام بقبة[1] يلبغا أيـامـاً، ثم رَحـل نصف ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الآخرة بخواصّة، وهم نحو ستمائه فارس، ومعه نحو

(١) هي قبة الأمير يلبغا اليحياوي التي عمرها بدمشق. وكان يقال لها قبة النصر ـ راجع الجزء العاشر من هذا المطبوع، ص ١٢١.

سبعين حملاً ما بين ذهب وفضة، وتوجّه نحو قَارَا والنَّبْك(١)، بعد أن قَتَل جماعة من المماليك الظاهرية وقَتل الأمير ناصر الدين محمّد بن المهمندار نائب حماة كان، وأنّ الأمير الكبير أيتمش خَرج من سجنه بقلعة دمشق، وأفرج عمن كان محبوساً بها، وملك القلعة وأرسل إلى النوّاب يُعلمهم بذلك، فلمّا سمع النوّاب ذلك ساروا إلى دمشق وملكوها من غير قتال، فَسُرَّ السلطان بذلك سروراً عظيماً، ودُقت البشائر، ونودي بالقاهرة ومصر بالزينة.

وفي سابع عشر جُمَادى الآخرة المذكور، قَدِم البريد من دِمشق بثلاثة عشر سيفاً من سيوف الأمراء المنطاشية الذين قبض عليهم بدمشق.

ثم في حادي عشرينه قدم البريد أيضاً بثمانية سيوف أيضاً من المنطاشية، ثم قدم البريد بسبعة سيوف أخر، منهم سيف الأمير ألطنبغا الحلبيّ وسيف دمرداش اليوسفيّ.

وفي ثالث عشرينه قدم البريد بأن الأمير نُعَيْر بن حَيّار قبض على الأمير منطاش فدُقّت البشائر لذلك، ثم تبيّن كذب الخبر.

وفي سابع عشرينه حضر الأمراء المقبوض عليهم من المنطاشية بدمشق. وفي يوم الخميس ثاني شهر رجب قَدِم القاضي عماد الدين أحمد بن عيسى المُقيَّري قاضي الكرك إلى القاهرة، بعد أن خرج الأعيان إلى لقائه، وطلع إلى القلعة؛ فلمّا وقع بصرُ السلطان عليه قام له، ومشى لتلقّيه خطوات، وعانقه وأجلسه بجانبه، وحادثه ساعة، ثم قام ونزل إلى داره؛ كلُّ ذلك لِمَا كان له على السلطان أيام حبسه بالكرك من الخدم.

وفي ثاني عشر شهر رجب حضر من دمشق القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر والقاضي جمال الدين محمود العجميّ ناظر الجيش ونزلا في

---

(١) قارا: ويقال أيضاً: قارة. وهي قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق. (معجم البلدان) والنَّبك: قرية بذات الذخائر (وادي) بين حمص ودمشق. (معجم البلدان).

بيوتهما من غير أن يجتمعا بالسلطان لتوغّر خاطر السلطان عليهما لكونهما توجّها إلى دمشق صحبة منطاش.

وفي ثالث عشره أخلع السلطان على القاضي عماد الدين الكركيّ المقدّم ذكره باستقراره قاضي قضاة الديار المصرية عوضاً عن القاضي بدر الدين محمد بن أبـي البقاء، فصار عماد الدين هذا قاضي قضاة مصر وأخوه علاء الدين المقدّم ذكرُه كاتب سرّ مصر.

ثم قَدِم الخبر على السلطان من حلب بأن الأمير كمشبغا الحموي نائب حلب لمّا آنهزم [من شقحب][1] وتوجّه إلى حلب جهّز إليه منطاش من دمشق بعد عود الملك الظاهر إلى مصر عسكراً عليه الأمير تمان تَمُر الأشرفي، فوصل تمان تَمُر المذكور إلى حلب وآجتمع به أهل بَانقُوسا[2]، وقاتلوا كمشبغا المذكور وحصروه بقلعة حلب نحو أربعة أشهر ونصف، وأحرقوا الباب والجسر، ونقبوا القلعة من ثلاثة مواضع، فنقب كمشبغا على أحد النُّقوب من أعلاه، ورمى على مَنْ به من فوق بالمكاحل[3] وآختطفهم بكلاليب الحديد، وصار يقاتلهم من النقب فوق السبعين يوماً، وهو في ضوء الشموع بحيث إنه لا ينظر شمساً ولا قمراً ولا يَعرِف الليل من النهار، وقاسى شدائد ومِحناً. ودام ذلك عليه إلى أن بلغ تمان تمر المذكور فِرار منطاش من دمشق، فضعف أمره، فثار عليه أهل بانقوسا ونهبوه فحضر حاجب[4] حُجّاب حلب إلى الأمير كمشبغا وأعلمه بذلك، فعمّر كمشبغا الجسر في يوم واحد، ونزل وقاتل أهل بانقوسا يومين، وقد أقاموا عليهم رجلاً يُعرف بأحمد بن[5] الحَراميّ. فلمّا كان اليوم الثالث وقت العصر آنكسر أحمد بن الحراميّ المذكور وقبض كمشبغا عليه وعلى أخيه على نحو الثمانمائة من الأتراك والأمراء والبانقوسية،

(١) زيادة عن السلوك ونزهة النفوس.
(٢) بانقوسا: من قرى حلب. سميت باسم جبل بانقوسا في ظاهر حلب من جهة الشمال. (معجم البلدان).
(٣) أي مكاحل النفط.
(٤) في السلوك ونزهة النفوس: «فحضر حجّاب حلب... وأعلموه».
(٥) في السلوك ونزهة النفوس: «أحمد الحرامي».

فوسّطهم كمشبغا بأجمعهم، وضرب بانقوسا حتى صارت دّكاً، ونَهب جميعَ ما فيها. ثمّ إن الكتاب يتضمّن أيضاً أن كمشبغا بالغ في تحصين قلعة حلب وعمارتها وأعدَّ بها مؤونة عشر سنين، وأنه جمع من أهل حلب مبلغ ألف [ألف](١) درهم، وعمّر سور مدينة حلب وكان منذ خرّبه هولاكو خراباً، فجاء في غاية الحسن، وعمل له بابين، وفَرغَه(٢) في نحو الشهرين ونصف، وكان أكثر أهل حلب يعمل فيه، وأنَّ الأمير شهاب الدين أحمد بن المِهْمِندار والأمير طُغْجي نائب دوركي(٣) كان لهما قيام تام مع الأمير كمشبغا في هذه الوقعة. اِنتهى.

قلت: يقال إنه قُتِل في واقعة كمشبغا مع الحلبيين بحلب نحو العشرين(٤) ألفاً من الفريقين. ثم أُشِيع بالقاهرة أن الأمير بطا الطولوتمري الدوادار يريد إثارة فتنة، فتحرّز الأمراء وٱعتدّوا للحرب، إلى أن كان يوم الاثنين عشرينه جلس السلطان بدار العدل على العادة، ثم توجّه إلى القصر ومعه الأمراء، فتقدّم الأمير بُطا إلى السلطان وقال للسلطان: «قد سمعتَ ما قيل عني وها أنا!»(٥)، وحلّ سيفه وعمل في عنقه مِنديلاً [كالمستسلم للموت](٦)، فسأل السلطانُ الأمراءَ عما ذكره الأمير بطا وأظهر أنه لم يسمع شيئاً من ذلك، فذكر الأمراء أن الأمير كمشبغا رأس نوبة تنافس مع الأمير بَكْلَمُش العلائي أمير آخور، ثم وقع بين الأمير بطا ومحمود الأستادار مخاشنة في اللفظ، فأشاع الناس ما أشاعوه، فجمعهم السلطان وأصلح بينهم، ثم حلَّفهم على طاعته وحلّف المماليك أيضاً، وطيّب خواطر الجميع بلين كلامه ودهائه؛ وفي النفس من ذلك شيء.

---

(١) زيادة ضرورية عن السلوك ونزهة النفوس.

(٢) أي فرغ منه. وللمؤلف أخطاء لغوية كثيرة من هذا النوع.

(٣) كذا أيضاً ورد اسمها في الدر المنتخب لابن الشحنة: ص ٢٤٠ ــ وفي صبح الأعشى: ٤/ ٢٣٤ «دبركيّ» وهي واقعة في بلاد الروم، تابعة للبلاد الحلبية، وولايتها كانت من نائب حلب.

(٤) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «عشرات الآلاف من الناس بحيث لم يمكن عدّهم لكثرتهم».

(٥) كذا أيضاً في السلوك. وفي نزهة النفوس: «قد بلّغوك عني ما ليس له صحّة، وها أنا بين يديك، فاصنع ما تختار».

(٦) زيادة عن السلوك ونزهة النفوس.

ثم أحضر السلطان مملوكاً اتُّهم أنه هو الذي أشاع الفتنة، فضُرب ضرباً مبرِّحاً وسُمِّر على جمل وشُهِّر، ثم سُجن بخزانة شمائل، فلم يُعرف له خبرٌ بعد ذلك، وهو من المماليك الظاهرية.

ثم قبض السلطان على الأمير يلبغا[١] أحد أمراء العشرات، وسُمِّر ونودي عليه: «هذا جزاء من يرمي الفتن بين الأمراء». وسكنت الفتنة بعد أن كادت أن تثور.

وبينما السلطان في ذلك وصل إليه الخبر من الشام بأن منطاشاً ونُعَيْر بن حَيّار جمعوا جمعاً كبيراً من المماليك الأشرفية والتركمان والعربان وقصدوا النوّاب[٢]، والأمير يلبغا الناصريّ مقدّم العساكر[٣] فلمّا بلغ الناصريّ ذلك خرج بالعساكر هو والأمير ألطنبغا الجوبانيّ نائب الشام وغيره من دمشق ونزل بسَلَمْية، وخلّفوا الأمير الكبير أَيْتَمُش البجاسي بدمشق لحفظها؛ فثار على أيتمش المذكور بدمشق بعد خروج العسكر منها جماعةٌ من المماليك البَيْدَمُريّة والطازيّة والجنتمريّة في طوائف من العامّة يريدون أخذَ مدينة دمشق من أيتمش، فأرسل أيتمش بطاقة[٤] من قلعة دمشق إلى سلمية، يعُلِم الأمراء والنوّاب بذلك. فحالَما سَمِع الناصريّ الخبرَ ركب ليلاً في طائفة من عسكَره وقَدِم دمشق ومعه الأمير آلابغا العثمانيّ حاجب حجّاب دمشق، وقاتل المذكورين قتالاً شديداً، قُتِل بينهما خلائق كثيرة من العامّة والأتراك، حتى آنتصر الناصريّ وقبضَ على جماعة منهم ووسّطهم تحت قلعة دمشق، وقبض أيضاً على جماعة كثيرة فقطع أيديهم وهم نحو سبعمائة رجل ـ قاله الشيخ تقيّ الدين المقريزيّ، ـ سامحه الله ـ وحبس جماعة أُخَر.

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. وفي نزهة النفوس: «بكبغا».

(٢) أي قصدوا قتال نواب البلاد الشامية من قبل الظاهر برقوق.

(٣) عبارة: «والأمير يلبغا الناصري مقدّم العساكر» زائدة ولا مكان لها هنا.

(٤) أي بطاقة يحملها الحمام الرسائلي. وهي الرسائل التي يحملها الحمام وتكتب على ورق خاص رقيق للغاية من صنف الورق الشامي يعرف بورق الطير، ويكون من القطع الصغير في عرض ثلاثة أصابع مطبوقة. ـ انظر صبح الأعشى: ٧٩/٦، ١٧٣ و ٤٣٤/١٤.

ثم عاد الناصري إلى سلمية بعد أن مهّد أمر الشام وآجتمع مع أصحابه النوّاب، فذكروا له أنّ منطاشاً فرّق أصحابه ثلاث فرق، فأشار عليهم الناصريّ بأنه أيضاً يُفرّق أصحابه وعساكره، فتفرّقوا هم أيضاً ثلاث فرق: الناصريّ فرقة، والجوبانيّ فرقة، وقرادمرداش نائب طرابلس فرقة.

فأما الناصريّ، فإنه تولّى قتال نُعير بن حيّار، فحاربه وكسره أقبح كسرة، وقَتَل جمعاً كبيراً من عُرْبانه ـ على أن نعيراً كان من أصحاب الناصريّ قبل ذلك، وممن خرج على منطاش غضباً للناصريّ ـ وركب الناصريّ قَفَا زُهير إلى منازله.

وأما الأمير قرادمرداش الأحمديّ نائب طرابلس فآنتُدب لقتال منطاش، فإنه كان من بينهما عداوة قديمة، فتواقعا وتقاتلا قتالاً شديداً، بَرزَ فيه كلٌّ من منطاش وقرادمرداش صاحبه، وضرب كلٌّ منهما الآخر بسيفه، فجاءت ضربةُ منطاش في يد قرادمرداش، فقلعت عدة أصابع من أصابعه، وجاءت ضربة قرادمرداش في كتف منطاش فحلّته. هذا والجوبانيّ في القلب واقفٌ بعساكره، فخامرت جماعةٌ من الأشرفية من خجداشية منطاش وجاءت إليه، وصارت من عساكره. وكان حضر إلى الجوباني قبل ذلك جماعة أُخَر من المماليك الأشرفيّة، فأحسن إليهم ألطنبغا الجوباني وقرّبهم وجعلهم من خواص عسكره، فاتفقوا مع بعض مماليك الجوبانيّ على قتل الجوبانيّ؛ فلمّا كان وقت الوقعة، وقد آلتحم القتال بين الناصريّ وزُهَير وبين قرادمرداش ومنطاش، وثبوا عليه من خلفه وقتلوه بالسيوف، ثم قبضوا على الأمير مأمور القلمطاويّ نائب حماة ووسّطوه، ثم قتلوا الأمير آقبغا الجوهريّ، والثلاثة من عظماء المماليك اليلبغاوية خجداشية الملك الظاهر برقوق وأكابر أمرائه، ثم قتلوا عدّة أمراء أُخَر من اليلبغاوية. وكانت هذه الوقعة من أعظم الملاحم، قُتِلَ فيها من الفريقين عالَم لا يُحصى كثرةً وآنتهبت العربان والتركمان والعشير (١) ما كان مع العسكرين وقدم البريد بذلك على السلطان، فشقّ عليه قتل الأمراء إلى الغاية وأخبر البريد أيضاً أنّ منطاش لما آنْكسر من قرادمرداش وهو مجروح أُشيع موته، فأقام الأشرفية عوضه عليهم خجداشهم الأمير ألطنبغا الأشرفي؛ فلما حضر منطاش من الغَضب من ذلك وأراد قتل

---

(١) أي العشائر. وكان يقال أيضاً: العشران.

ألطنبغاالأشرفيّ فلم تمكّنه الأشرفية من ذلك.

وأما يلبغا الناصريّ فإنه لما رجع من محاربة نُعير ووجد الأمير ألطنبغا الجوباني قد قُتِل، جمع العساكر وعاد إلى دمشق وأقام به يومين حتى أصلح أمرَه ثم خرج من دمشق بجميع العساكر وأغار على آل عليّ(١)، فوسَّط منهم جماعة كبيرة نحو مائتي نفس ونهب بيوتهم وكثيراً من جمالهم، وعاد إلى دِمَشق وكتب للسلطان أيضاً بذلك. فكتب السلطان للناصريّ الجوابَ بالشكر والثناء والتأسف على الأمير ألطنبغا الجوبانيّ وغيره، وأرسل إليه الأمير أبا يزيد بن مراد بالتقليد والتشريف بنيابة الشام عوضاً عن أَلْطنبغا الجوُبانيّ ومبلغ عشرين ألف دينار برسم النفقة في العساكر.

قلت: وأبو يزيد هذا هو الذي كان آختفى عنده الملك الظاهر برقوق لمّا خلع نفسه عند حضور الناصريّ ومنطاش إلى الديار المصرية.

ثم في يوم الخميس أوّل ذي الحجة من سنة آثنتين وتسعين المذكورة، رَسَم السلطان للأمير قرادِمِرْداش الأحمديّ نائب طرابلس باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن الأمير كَمَشْبُغا الحموي بحكم عزله وقدومه إلى القاهرة، وجهّز إليه التقليدَ والتشريفَ على يد الأمير تَنْبَك المعروف بتَنَم الحسنيّ الظاهريّ.

ثم في خامس ذي الحجّة آستقرّ السلطان بالأمير إينال من خجَا أتابكَ حلب بآستقراره في نيابة طرابلس عوضاً عن الأمير قرادِمِرْداش المنتقِل لنيابة حلب، وآستقرّ الأمير آقبغا الجماليّ الظاهريّ أتابك حلب عوضاً عن إينال المذكور، وآستقرّ الأميرُ محمد بن سَلاّر حاجب حُجّاب حلب، وكتب لسُولي بن دُلْغادِر بنيابة أَبلُسْتَين(٢).

---

(١) آل علي: هم إخوة آل فضل. وآل فضل وآل مِرا من آل ربيعة طيىء الذين كانوا أمراء قبائل العرب في الشام والعراق والحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين. قال ابن فضل الله العمري: «وديار آل علي مرج دمشق وغوطتها بين إخوتهم آل فضل وبين أعمامهم آل مرا، ومنتهاهم إلى الجوف والحيَّانيّة إلى الشبكة إلى تيماء إلى البراذع. (مسالك الأبصار: ١٣٦/١ ـ ١٣٧).

(٢) أبلستين: موقعها في الشرق من قيصرية. وتعد من مدن الثغور في أيام الروم. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٧٨).

ثم في يوم عيد النحر خرج الأمير بِيليك المحمديّ لإحضار الأمير كمشبغا الحمويّ اليلبُغاويّ نائب حلب، ثم أرسل السلطان الملك الظاهر الأمير تَمرُبُغا المنجَكِيّ بمال كبير يُنفِقه في العساكر الشاميّة ويجهّزهم إلى عَيْنتـاب[1] لقتال مِنطاش.

ثم في سادس محرّم سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ورد الخبر من دِمَشق بأن الأمير يلبغا الناصريّ تنافس هو والأمير الكبير أَيْتَمُش البَجاسيّ فأضمر الناصريّ الخروج عن الطاعة ولَبِس السلاح وألبس حاشيَتَه ونادَى بدمشق: «مَنْ كان من جهة منطاش فليحضُر»، فصار إليه نحو ألف ومائتي فارس من المنطاشيّة، فقبَض على الجميـع وسجنهم[2] ثم قلـع السلاح وكتب بذلك إلى السلطان يعرِّفه، فأجابه السلطان بالشكر والثناء.

ثم في ثاني صفر رَسَمَ السلطان بهدم سلالم[3] مـدرسة السلطان حسن فهُدِمت، وفُتِـح بابُها من شباك بالرُّمَيْلة تجاه باب السلسلة.

ثم قَدِم الأمير كَمَشْبُغا الحمويّ نائب حلب إلى القاهرة في سابـع صفر، بعد أن خرج الأمير سُودون النائب مـع أعيان الأمراء والحجّاب إلى لقائه، وطلـع إلى القلعة، وقبّل الأرض، فقام له السلطان وآعتنقه وأجلسه في الميمنة فوق الأمير الكبير إينال اليوسفيّ، ونزل إلى دار أُعِدّت له، وبعث له السلطان ثلاثة أرؤس من الخيل بقُماش ذهب. وحضر مـع كَمَشْبُغا أيضاً الأميرُ حسام الدين حسن الكُجْكُنِيّ نائب الكرك، وكان قد آنهزم مـع كمشبغا نائب حلب من يوم وقعة شَقْحَب، فرحّب السلطان به أيضاً وأكرمه وأرسل إليه فرساً بقماش ذهب؛ وقدِم معهما أيضاً عِدّة أمراء أُخَر.

(١) عينتاب: وترسم عين تاب وعنتاب. وهي مدينة في الجنوب من تركية، وهي إلى الشمال من مدينة حلب السورية التي تقابلها. وانظر معجم البلدان: ٤/١٧٦، والدرّ المنتخب: ١٧٠.

(٢) أشار الخطيب الجوهري في نزهة النفوس إلى أن ذلك كان حيلة من يلبغا الناصري ليبلـغ مراده من المنطاشية الذين استتروا بعد هزيمتهم.

(٣) أورد ابن حجر هذا الخبر بتفصيل. ــ انظر إنباء الغمر: ٣/٦٥.

ثم قدِم البريد في أثناء ذلك بأن العساكر الشامية وصلت إلى مدينة عَيْنتاب ففرّ منطاش إلى جهة مَرْعش(١) وفرَّ من عنده جماعة كبيرة ودخلوا تحت طاعة السلطان.

ثم أحضر السلطان الأمير حُسام الدين حسن بن باكيش نائب غزّة من السجن وضربه بالمقارع، وأحضر أيضاً آقْبُغا الماردينيّ نائب الوجه القبلي وضربه على أكتافه، وأمر والي القاهرة بتخليص حقوق الناس منه، وآستقرّ عوضه في كشف الوجه القبليّ الأمير يلبغا الأحمديّ المجنون أحد المماليك الظاهرية.

ثم في تاسع عشرينه أحضر السلطان القاضي شهاب الدين أحمد بن الحَبَّال الحنبليّ قاضي طرابلس فضرب بين يديه عدّة عِصيٍّ بسبب قيامه مع منطاش. ثم أنعم السلطان على الأمير حسام الدين الكُجْكُني نائب الكرك كان بإقطاع أرغون العثمانيّ البَجْمقدار نائب الإسكندرية، والإقطاع تقدمة ألف بالقاهرة.

ثم خرج البريُد من مصر بإحضار الأمير أَيْتَمُش البَجَاسيّ من دِمَشق ــ وكان بها من يوم قَبَض عليه الناصريّ في واقعة الناصريّ ومنطاش مع الملك الظّاهر برقوق وحُبِس بقلعة إلى أن أُطلِق بعد خروج منطاش من دمشق وآستمرّ بدمشق لمصالح الملك الظاهر حتى طُلِب في هذا التاريخ ــ وخرج بطلبه الأمير قُنُقُ باي الأحمديّ رأس نَوْبة، فقَدِم في يوم الاثنين رابع جُمادَى الأولى على البريد، فتلقّاه الأمير سُودون النائب والحُجّاب. وقَدِم مع أيتمش المذكور عِدّة أمراء، منهم: آلابغا العثمانيّ حاجب حُجّاب دمشق، والأمير أَيْتَمُش المذكور، والأمير جَنْتَمُر أخو طاز نائب دمشق كان، وأمير ملك آبن أخت جنتمر، ودِمِرداش اليوسفيّ، وأَلْطُنْبُغا الحلبيّ، وكثير من المماليك السلطانية، وجماعة أُخر، والجميع في الحديد على ما يأتي ذكرهم، ما خلا المماليك الظاهريّة. وطَلَع الأمير أيتمش إلى السلطان وقبّل الأرض، فأكرمه السلطان وأجلسه في المَيْسَرة تحت الأمير سودون النائب، وكانت منزلتُه في الميمنة، فإنّه كان أتابك العساكر

(١) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم، أحدثها هارون الرشيد. ولها ربض يعرف بالهارونية. (مراصد الاطلاع: ١٢٥٩/٣).

بالديار المصرية قبل توجُّهه إلى قتال الناصريّ، لكنه لمّا حضر الآن كان بَطّالاً[١] وكان الأتابك يومئذ الأمير إينال اليوسُفيّ اليَلْبُغاويّ، على أنه يجلس تحت الأمير الكبير كمشبغا الحمويّ نائب حلب كان، فلو جَلَس الأمير أيتمش الآن في الميمنة لجلس ثالثاً، فإنّه لا يمكنه الجلوس فوق إينال كونه مُتَولياً أتابك العساكر وأَيْتَمُش الآن منفصل، فرسَم له السلطان أن يجلس في الميسرة، ولم يَجْسُر أن يأمره بالجلوس فَوْقَه لكِبرَ سِنِّه وقِدْمَته، فجلس تحته.

قلتُ: وهذا شأن الدنيا، الرفع والخفض.

ثم أحضر السلطان الأمراء القادِمين صُحبةَ الأمير الكبير أيتَمش، وعدّتُهم ستة وثلاثون أميراً ومعهم أيضاً قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن عمر القرشيّ الشافعي قاضي قضاة دِمشق والقاضي فتح الدين محمد بن محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن الشهيد كاتب سِرّ دِمَشق وآبن شُكْر ناظر جيش دمشق والجميع في القُيود، فوبّخ السلطان أَلْطُنْبُغا الحلبيّ وجَنْتَمُر نائب الشام وآبن القرشيّ وأطال الحديثَ معهم، وكانوا قابلوه في محاربته لدمشق بأشياء قبيحة إلى الغاية وأفحشوا في أمره إفحاشاً زائداً، بحيث إنّ القاضي شهاب الدين القُرَشيّ المذكور كان يقف على سُور دمشق ويُنادِي: «إن قتال بَرْقُوق أوجبُ من صلاة الجمعة»، وكان يجمع عوامَّ دمشق ويحُرّضهم على قتاله، ويرمي الملك الظاهرَ بعظائمَ في دينه، ويختلق عليه ما ليس هو فيه. ثم أمَرَ بهم الملك الظاهر فَسُجِنوا، وأَسْلَم آبنَ شُكر لشادّ الدواوين، فعصَره وألزمه بحَمْل ستة الآف دينار ثم أفرجَ عنه.

ولما نزل الأمير أَيْتَمُش إلى داره بعث إليه السلطان بأشياء كثيرة من الخيل والجمال والقماش والمماليك؛ ثم قبض السلطان على أَسَنْدمر وإسماعيل التُّركمانيّ وكُزُل القِرَميّ وآقْبُغا البجاسيّ وسَرْبُغا وسلّمهم إلى والي القاهرة.

ثم قبض السلطان أيضاً على أحد عشر أميراً وهم: قُطلُوبغا الطِّشْتَمريّ

---

(١) أي عاطلاً من أعمال الدولة ووظائفها. والأمراء البطّالون يعفون من أعمال الدولة بناءً على طلبهم بسبب كبر السنّ أو طلباً للراحة، أو إنهم يبعدون عنها نتيجة لغضب السلطان، ويكون هذا الوضع الأخير عادة لأسباب سياسية. ويمكن أن يقرّر للأمير البطّال جامكية (راتب شهري) أو يكون محروماً من ذلك.

الحاجب، وطُقْطَاي الطّشتمريّ الطواشي الروميّ، وآلابُغا الطشتمريّ، وقرابُغا السيفيّ، وآقبغا السيفيّ، وبَيْبُغا السيفيّ، وطَيْبُغا السيفيّ، ومحمد بن بَيْدَمُر أتابك دِمَشق، وخير بك الخُوَارَزْميّ، ومَنْجَك الزَّيْنيّ، وأرغون شاه السيفيّ، وحَبسَهم؛ ورسم بتسمير أسندمر الشَّرَفيّ رأس نَوْبة، وآقبغا الظَّريف البجاسِيّ، وإسماعيل التُّركمانيّ، وكُزُل القِرَميّ، وسَرْبُغا، فسُمِّروا وشُهِّروا بالقاهرة. ثم وُسِّطوا بالكوم[1]، وهذا شيء لم يفعله مَلِك قبله بأمير، ففعل ذلك لِمَا كان في نفسه منهم.

ثم أحضر السلطان الأمير أَلْطُنبغا الحلبيّ وأَلْطُنبغا أُستادار جَنْتَمر إلى مجلس قاضي القضاة شمس الدين الرِّكْرَاكيّ المالكيّ وآدّعى عليهما بما يقتضي القتل، فسجنهما القاضي بخِزَانة شمائل[2] مُقَيَّدين.

ثم قَبَض السلطان على الأمير سَنْجق الحسنيّ نائب طرابُلُس كان ثم شكا رجل القاضي شهاب الدين القرشيّ إلى السلطان فأحضره السلطان من السجن وآدّعى عليه غريمُه بمال له في قِبله وبدعاوَى شنيعة، فأمر به السلطانُ فضُرِب بالمقارع وسُلِّم إلى والي القاهرة ليخلِّص منه مالَ المدَّعِي عليه، فضرَبه الوالي وأهانه وعَصَره مراراً ثم سجنه بخِزَانة شمائل.

ثم وقف شخص وآدّعى أن أميرَ مَلَك آبن أخت جَنْتَمُر أَخَذ له ستمائة ألف درهم وأغْرَى به منطاش، حتّى ضربه بالمقارع، فأحضره السلطان حتّى سَمِع الدَّعْوَى. ثم أَمَر به فضُرب بالمقارع ضرباً مُبَرِّحاً وسلّمه إلى والي القاهرة، فمات بعد ثلاثة أيام تحت العقوبة.

ثم قَبَض السلطان على مماليك الأمير بَرَكة الجُوبانيّ والمماليك الذين خدموا عند منطاش وتُتُبِّعوا من الأماكن، ثم ضَرَب والي القاهرة القاضيَ شِهاب الدين أحمد القُرَشِي نحو مائتي شِيب[3].

(١) الكوم: الرمل المشرف. وهو اسم لمواضع كثيرة بمصر تضاف إلى أربابها أو إلى شيء عرفت به. (معجم البلدان).

(٢) خزانة شمائل: كانت من سجون القاهرة ــ راجع فهرس الأماكن.

(٣) الشيب: السوط.

ثم قَدِم البريد من الشام بأن منطاشاً في أوّل شهر رجب قَدِم دمشق. وكان من خبر منطاش أنّ الناصريّ لَمّا كان بدمشق ورد عليه الخبرُ بمجيء منطاش إليه، فخرج من وقته بعساكره يريد لقاءه على حِين غفلة، ومَرّ من طريق الزَّبَدَانِيّ، فبادر أحمد بن شُكْر بجماعة البَيْدمُرية ودخل دِمشق من باب كَيْسان[1] ونهب إسطبل الناصريّ وإسطبلات أمراء دمشق، وخرج يوم الأحد تاسع عشرين جُمادى الآخرة من دمشق ليلحق منطاش، فدخل منطاش من صبيحة اليوم وهو يوم الاثنين أوّل رجب إلى دمشق من طريق آخر ونزل بالقصر الأبلق ونزل جماعته حوله؛ فعاد ٱبن شكر في إثره إلى دمشق وأحضر إليه الخيولَ التي أخذها وهي نحو ثمانمائة فرس. وكان منطاش لمَّا خرج من عند نُعَير يريد دمشق، سار إلى مَرْعَش على العُمق[2] حتى قَدِم على حماة، فطرق نائبها بغتة، فانهزم نائب حماة إلى نحو طرابلس من غير قتال، فدخل منطاش حماة ولم تحدث بها مظلمة.

ثم توجّه منها إلى حِمص، ففرّ منها أيضاً نائبها إلى دمشق ومعه نائب بعلبك وٱجتمعا بالناصريّ وعرّفاه الخبر، فخرج الناصريّ على الفور ـ كما قدمنا ذكره ـ من طريق، وجاء منطاش من طريق آخر. ٱنتهى.

ثم إن منطاشاً لما أقام بالقصر الأبلق ندب أحمد بن شكر المذكور ليدخل إلى مدينة دمشق ويأخذ من أسواقها المال، فبينما هو في ذلك إذ قدم الناصري بعساكره فٱقتتلا قتالاً عظيماً دام بينهم أياماً إلى أواخر الشهر، وقُتِل كثير من الفريقين والأكثر ممن كان مـع منطاش، وفرّ عن منطاش معظم التركمان الذين قَدِموا معه شيئاً بعد شيء، وصار منطاش محصوراً بالقصر الأبلق، والقتال عَمَّال بينهم في كل يوم، حتى وجد منطاش له فرصة، ففرّ إلى جهة التركمان؛ وتبعه عساكر دمشق فلم يُدركه أحد، فعظُم هذا الخبرُ على الملك الظاهر برقوق إلى الغاية وٱتَّهم الناسُ الناصريّ بالتراخي في قتال منطاش.

---

(١) باب كيسان: أحد أبواب سور دمشق في الزاوية الشرقية الجنوبية منه.

(٢) العمق: كورة بنواحي حلب.

ثم إن الملك الظاهر خلع على الأمير قطلوبغا الصفويّ بآستقراره حاجب الحُجّاب بديار مصر، وعلى الأمير بتخاص بآستقراره حاجب ميسرة، وعلى الأمير قُدَيْد باستقراره حاجباً ثالثاً بإمرة طبلخاناه، وعلى الأمير علي باشاه بآستقراره حاجباً رابعاً، وخلع على الأمير يلبغا الأشقر الأمير آخور بآستقراره في نيابة غزة عوضاً عن آقبغا الصغير بحكم طلبه إلى القاهرة، وعلى ناصر الدين محمد بن شهري في نيابة مَلَطْية. ثم خلع السلطان على الأمير أرغون شاه الإبراهيميّ الظاهريّ الخازندار بآستقراره حاجب حجاب دمشق عوضاً عن آلابغا العثمانيّ، وآستقر آلابغا العثماني المذكور في نيابة حماة.

قلت: وكلُّ مَنْ نذكره من هذا الوقت وننعته بالظاهريّ فهو منسوب إلى الملك الظاهر برقوق ولا حاجة للتعريف بعد ذلك.

ثم أنعم السلطان على كلٍّ من قاسم آبن الأمير الكبير كمشبغا الحمويّ ولاجين الناصريّ وسُودون العثماني النظاميّ وأَرْغُون شاه الآقبغاويّ وسودون من باشاه الطغايْ تَمُريّ وشُكْر باي العثماني الظاهريّ وقُجُق[1] القرمشيّ الظاهريّ بإمرة طبلخاناه، وعلى كل من قطلوبغا الطّقْتمشِيّ وعبد الله أمير زاه آبن مَلِكِ الكُرْج[2] وكُزُل الناصريّ وعلّان[3] اليَحْياويّ الظاهريّ وكَمَشبغا الإسماعيليّ الظاهريّ وقلمطاي العثمانيّ الظاهريّ بإمرة عشرة.

ثم في تاسع شهر رجب ضُرِب القاضي شهاب الدين القُرشيّ قاضي قضاة دِمشق بخزانة شمائل، حتى مات تحت العقوبة من ليلته وأُخرج على وقف الطّرْحَى[4].

---

(١) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «قجقار».

(٢) الكرج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق، ثم ملكوا مدينة تفليس. (معجم البلدان).

(٣) في السلوك ونزهة النفوس: «ألان». وقال ابن حجر في إنباء الغمر أن الصحيح هو «ألان» والعامة تقول: علّان.

(٤) في السلوك: «وأخرج من وقف الطرماء». والمراد بالطرحى: الذين يموتون ويطرحون في الطريق.

ثم في خامس عشر رجب اجتمع القضاة والأمير بتخاص الحاجب بالمدرسة الصالحية بين القصرين وأُحْضِر الأمير ألطنبغا دوادار جَنْتَمر وأُوقِف تحت الشباك عند خيمة الغلمان على الطريق وادُّعِي عليه بما اقتضى إراقة دمه وشهد عليه وضُرِبت رقبتُه، ثم فُعِل بالأمير أَلْطُنبغا الحلبيّ مثله وحُمِلت رؤوسهما على رُمْحين، ونَودِي عليهما بشوارع القاهرة.

ثم رسم السلطان في أوّل شعبان بخروج تجريدة من الأمراء إلى الشام لتكون معاونة للناصريّ على قتال منطاش، فأَخَذَ من عُيِّن للسفر في التجهيز ثم أُشِيع سفرُ السلطان بنفسه، وأخذ أربابُ الدولة في إصلاح أمر السفر.

ثم في خامس شعبان قَتَل السلطانُ الأميرَ حُسام الدين حسن بن باكِيش نائب غَزَّة كان. وسببُه أنّه لمّا عُوقِب واستمرّ محبوساً بخزانة شمائل، جمع ولدُه كثيراً من العَشِير ونهب الرملة وقتل كثيراً من الناس؛ فلما بلغ السلطان ذلك أَمَرَ بقتله، فقُتِل. ثم ضرب السلطان الأمير حُسام الدين حُسين بن عليّ الكُورانيّ في سجنه بخزانة شمائل بالمقارع ضرباً مُبَرِّحاً.

ثم في عاشر شعبان عَلَّق السلطانُ جاليشَ[1] السفر إلى بلاد الشام فتحقَّقَ كلُّ أحد عند ذلك بسفر السلطان. وأصبح من الغد وهو يوم حادي عشر شعبان تَسَلَّم الأمير علاء الدين عليّ بن الطَّبلاوِيّ والي القاهرة الأمير صَرَاي تَمُر دوادار منطاش الذي كان والي الغَيْبة بديار مصر وكان سَكَن بباب السلسلة والأميرَ تُكا الأشرفيّ ودِمِرْداش القَشْتَمُريّ ودمرداش اليوسفي وعَلِياً الجَرَكْتَمُرِيّ، فقُتِلوا جميعاً إلاّ علياً الجركتمريّ فإنّه عُصِر وعُوقِب، ثم قُتِل بعد ذلك مع الأمير قطلوبغا النظاميّ نائب صفد.

ثم في ثاني عشره عَرَض السلطان المحابيس من المنطاشية فأفرد [منهم] جماعة كبيرة للقتل فقُتِلوا في ليلة الأحد ثالث عشرة، منهم الأمير جَنْتَمُر أخو طاز نائب الشام والأمير ألطنبغا الجربُغاويّ والطواشي طُقْطَاي الطَّشْتَمُريّ الروميّ

(١) الجاليش أو الشاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر، كانت ترفع إيذاناً بالاستعداد للحرب. واستعمل اللفظ أيضاً بمعنى طليعة الجند.

والقاضي فتح الدين محمد بن الشهيد كاتب سِر دمشق، ضُرِبت أعناقُهم بالصحراء.

ثم خَلَع السلطان في يوم خامس عشر شعبان على القاضي جمال الدين محمود القَيْصَرِيّ العجميّ وأُعِيد إلى قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية، وصُرِف قاضي القضاة مجد الدين إسماعيل ونزل في موكب جليل وكُتِب له في توقيعه الجنَاب[1] العالي، كما كُتِب للقاضي عماد الدين أحمد الكَرِكيّ. وكان سبب كتابة ذلك لعماد الدين أيَاديَ سلفت له على الملك الظاهر برقوق في أيام حبسه في الكرك وأيضاً آعتنى به أخوه القاضي علاء الدين الكركيّ كاتب السر الشريف، وهو أوّل من كُتِب له: الجناب العالي من المتَعمِّمين، وما كان يُكْتَب ذلك إلا للوزير بديار مصر فقط، وكان يكتب للقضاة بالمجلس العالي[2].

ثم في ثامن عشر شعبان المذكور قَبَض السلطان على عدّة من الأمراء فسُجِنوا بالقلعة، فكان ذلك آخر العهد بهم.

وفيه عَيَّن السلطان لنيابة الغَيْبة[3] الأميرَ كمشبغا الحمويّ اليلبُغاويّ، ورسم للأمير سُودون الفخريّ الشيخونيّ النائب أن يتحوَّل إلى قلعة الجبل، فتحوّل إليها هو والأمير بَجَاس النَّوْرُوزيّ. ورَسَمَ السلطان بأن يقيم بالقلعة أيضاً ستمائة مملوك وأميرهم تَغْرِي بَرْدي اليَشْبُغاوي الظاهريّ رأس نوبة ـ أعني الوالد ـ والأمير الطواشي صواب السعديّ شَنْكل مقدَّم المماليك السلطانية؛ وتعيّن للإقامة بالقاهرة من الأمراء الأمير قُطلوبغا الصَّفَوِي حاجب الحجّاب، والأمير بَتْخاص السُّودُونيّ الحاجب الثاني، والأمير قُدَيْد القَلْمطاويّ الحاجب الثالث وأحد أمراء الطبلخاناه، والأمير طُغاي تَمُر باشاه الحاجب، وقرابغا الحاجب، في عدة من الأمراء العشرات.

ورسم للشيخ سراج الدين عُمر البُلْقِينيّ، وقاضي القضاة بدر الدين بن

(١) كان «الجناب العالي» أرفع الألقاب لطبقة العلماء والقضاة. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) انظر حول هذه الألقاب ودرجاتها واستعمالاتها: الألقاب الإسلامية لحسن الباشا (مرتّب على الحروف) وصبح الأعشى للقلقشندي: ٤٦٤/٥، طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) نائب الغيبة: هو الذي ينوب عن السلطان في حال غيابه. وكذلك كان لنائب الشام من ينوب عنه في حال غيابه يسمى نائب الغيبة.

أبـي البقاء وهو غيرُ قاضٍ، والقاضي بدر الـدين محمد بن فضـل الله [العمري] المعزول عن كتابة السرّ، وقضاة العسكر، ومفتي دار العدل، بالسفر صحبة السلطان من جملة القضاة الأربعة فتجهّزوا لذلك.

ونزل السلطان بعد صلاة الظهر في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شعبان المذكور من قلعة الجبل وتوجّه حتى نزل بالرِّيدانية خارج القاهرة وأقام به[١]. ثم طَلب من الغد سائر المسجونين بخزانة شمـائل إلى الـريدانيـة، فحضروا وعُـرِضوا على السلطان، فأفرد منهم سبعة وثلاثين رجلاً، فأمر بثلاثة منهم فَغُرِّقوا في النيل: وهم محمد بن الحُسام أُستادار أَرْغون أُسْكي وأحمد بن النقوعيّ ومقبل الصَّفَوِيّ؛ وسَمّر منهم سبعة وهم: شيـخ الكَرِيمي وأَسَنْدَمُر نائب قلعة الجبل وثلاثة من أمراء الشام وآثنان من التُّركمان، ثمّ وَسِّطوا، ثمّ قَتَل مَنْ بَقِي منهم في السجن.

ثمّ في رابـع عشرينه آستقر ناصر الدين محمد بن كلبك[٢] شاد الدواوين، وأنعم على الأمير أبـي بكر بن سُنْقر الجمالي بإمرة طبلخاناه ورسم له بإمرة الحاج.

ثم رحل السلطان الملك الظاهر بعساكره من الريدانية في سادس عشرين شعبان سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. بعد سَفَر السلطان من الرَّيْدَانية قَتَل والي القاهرة آثني عشر أميراً من الأمراء المسجونين بالقاهرة في ليلة الثلاثاء، وهم: أَرْغـون شـاه السَّيْفي، وآلابغـا الـطشتمـريّ، وآقبغـا السيفي، وبُـزْلار الخليليّ وآخرون[٣].

ثمّ في ليلة الأربعاء سلخه قُتِل الأمير صنجق[٤] الحسني نائب حماة ثمّ طرابلس، وقرابُغا السيفيّ، ومنصور حاجب غَزّة. وأظنّ هؤلاء هم تمام السبعة والثلاثين نفراً الذين عَرَضهم السلطان بالريدانية. والله أعلم.

ثمّ آستقل السلطان بالمسير إلى نحو البلاد الشامية حتى دخل دِمَشق في يوم

---

(١) استعمل المؤلف ضمير التذكير لأن المراد بذلك بستان الريداينة.

(٢) في السلوك ونزهة النفوس: «محمد بن رجب بن كلفك».

(٣) كذلك اقتصر كل من المقريزي والخطيب الجوهري على ذكر هؤلاء، ولم يذكروا تتمة الإثني عشر أميراً. ونرجـحّ أن الجوهري وأبا المحاسن ينقلان هنا عن المقريزي في السلوك.

(٤) في نزهة النفوس: «منجق الحسني». وفي السلوك: «سنجق الحسني».

الخميس ثاني عشرين شهر رمضان، وقد زُيِّنت له دمشق، وخرج الأمير يلبغا الناصري نائب الشام إلى لقائه بمنزلة اللجُّون[١]، فكان لدخوله إلى دمشق يوم مشهود. وحَمَل الناصريّ على رأسه[٢] القُبَّةَ والطير. وعند دخول السلطان إلى دمشق نادى فيها بالأمان لأهل دمشق، فإنهم كانوا قاموا مع منطاش قياماً عظيماً وأفحشوا في أمر الملك الظاهر وقتاله.

ثم في يوم ثالث عشرين شهر رمضان صَلّى السلطان صلاةَ الجمعة بجامع دمشق وعندما فَرَغ السلطان من الصلاة نادَى الجاويش[٣] في الناس بالأمان، «والماضي لا يُعاد، ونحن من اليوم تعارفنا»، فضجَّ الناس بالدعاء للسلطان، وخرجوا من بيوتهم إلى معايشهم وحوانيتهم، وأَمِنوا بعد أن كانوا في وَجَل وخَوْف، وهم مترقِّبون ما يحلُّ بهم منه، لما وقَعَ منهم في حقّه في السنة الماضية لَمَّا حضر منطاش ومبالغتهم في سَبِّه ولَعْنه وآستمرارهم على قتاله.

وأمّا الأمير كَمَشْبُغا نائب الغَيْبة فإنه عَمِل النيابةَ على أعظم حُرْمة، حتى إنّه نادَى في تاسع عشرين شهر رمضان بمَنْع النساء في يوم العيد [من الخروج] إلى التُّرب، ومَنْ خرجتْ وُسِّطت هي والمُكارِي، وألاّ يركبَ أحد في مَرْكب للتفرُّج [على النيل][٤] وأشياء كثيرة من هذا النَّموذَج، فلم يجسُر أحد على مخالفته.

ثم نادَى ألّا تلبسَ آمرأةٌ قميصاً واسعَ الأكمام ولا يزيد تفصيل القَميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً؛ وكان النساء بالغن[٥] في سَعة القُمصان حتى كان يُفَصَّل القميصُ الواحد من آثنين وسبعين ذراعاً من القُماش، فمشى ذلك وفصّلوا قمصاناً

---

(١) اللَّجُّون: بفتح أوله وضم ثانيه وتشديده. قرية بفلسطين تقع على بعد ١٨ كلم شمالي غرب مدينة جنين وتبعد كيلومترين من تلّ المتسلّم أي مجدّو. (الموسوعة الفلسطينية: ٤/٣٦).

(٢) الضمير عائد على السلطان برقوق. وعن القبة والطير راجع ص ٤، حاشية(٢).

(٣) الجاويش: ويقال أيضاً الشاويش. وكان الجاويشية في نظام دولة المماليك بمصر أربعة جنود من الحلقة وظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب في مواكبه للنداء وتنبيه المارة. والجاويش أيضاً جندي من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها. (صبح الأعشى: ٤/٤٧، ٤٨، ٢٣٩).

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) أشار المقريزي إلى أن ذلك كان منهنّ تشبهاً بنساء الملوك والأعيان.

سَمُّوْها كمشبُغاويّة. ورأيتُ أنا القُمصان الكمشبُغاوية المذكورة، وكان أكمامها مثل أكمام قُمصان العُربان.

وأمّا السلطان الملك الظاهر برقوق فإنّه أقام بدِمَشق إلى ثاني شوّال وخَرج منه يُريد مدينة حلب؛ فسار بعساكره حتى وصلها في ثاني عشرين شوّال، بعد أن أقام بمدينة حِمْص وحماة أيّاماً كثيرة وأعاد السلطانُ القاضِيَ بدر الدين محمد بن فضل الله إلى كتابة السِّرِّ لضعْف القاضي علاء الدين الكَرَكيّ. وعندما دخل السلطان إلى حلب ورد عليه الخبرُ أن سالماً الدُّوكَارِيّ قَبَض على الأمير مِنْطاش وأنّ صاحب ماردين[1] قبض أيضاً على جماعة من المنطاشية، فسُرَّ السلطان بذلك وبعث بالأمير قرا الأحمديّ نائب حلب في عساكر حلب لإحضار منطاش من عند سالم الدُّوكاريّ؛ فسار قرادمرداش حتى وصل إلى سالم الدوكاريّ وأقام عنده أربعة أيام يطالبه بتسليم منطاش وهو يُماطِله، فحَنِق منه قرادمرداش وركب بمنَ معه من العساكر ونهب بيوته وقَتَل عدَّة من أصحابه؛ وفرّ سالم بمنطاش إلى سِنْجار[2]، وآمتنـع بها. وفي عَقِب ذلك وصل الأميرُ يلبغا الناصريّ نائب الشام إلى بيوت سالم الدُّوكَارِيّ، [فأنكر على][3] قَرادِمرداش ما وقـع منه في حقّ سالم، وأغلظ له في القول، وهَمّ أن يضربه بالسيف، فدَخل بعضُ الأمراء بينهما حتى سَكن ما به، وكادت الفتنةُ أن تقوم بينهما ويعودَ الأمرُ على ما كان عليه أوّلاً.

وأما الأمير الكبير إينال اليوسفيّ فإنّه وجَّهه السلطان إلى صاحب مَارِدين، فسار إلى رأس عين وتسلّم منه الجماعةَ المقبوض عليهم من المنطاشية، وعاد بهم إلى السلطان، وكبيرُهم الأمير قَشْتَمُر الأشرفيّ، وبكتاب صاحب ماردين وهو يعتذر فيه ويَعِد بتحصيل غريم السلطان، فكتَب له الجوابَ بالشكر والثناء.

وأما السلطان لمّا بلغه ما جَرَى بين يلبغا الناصريّ نائب الشام وبين قرادمرداش

---

(١) ماردين: مدينة في تركيا. وهي تقع على نحو نصف المسافة بين رأس العين ونصيبين. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٢٥).

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. (معجم البلدان).

(٣) زيادة عن السلوك يقتضيها السياق.

الأحمديّ نائب حلَب وعودهما من غير طائل، غلَب على ظنه صحةُ ما نُقِل عن يلبغا الناصريّ قبل تاريخه أنّ قصده مطاولة الأمر بين الملك الظاهر وبين منطاش، وأن منطاش لم يحضُر إلى دِمَشق فيما مضى إلاّ بمكاتبته له بقدومه، وأنه طاوله في القتال، (أعني: لمَّا كان نَزَلَ منطاش بالقصر الأبلق بميدان دِمشق) ولو شاء الناصريّ لكان أخذه في أقل من ذلك، وأنّ رُسل الناصريّ كانت ترد على منطاش في كلّ ليلة بما يأمره به، وأنّ سالماً الدُوكَارِيّ لم يدخل بمنطاش إلى سِنْجار إلاّ بمكاتبته. وقوي [الشكّ] عند الملك الظاهر برقوق، وتحرّكت عنده تلك الكمائِنُ القديمةُ من خروجه عليه وخلعه من الملك وحبسه بالكَرك، وكلُّ ما هو فيه إلى الآن من الشرور والفتن، فالناصريّ هو السبب فيها. وسَكَت [السلطان] حتى قَدِم الناصريّ إلى حلب، فقَبَض عليه وعلى الأمير شهاب الدين أحمد بن المِهْمِنْدار نائب حماة وعلى الأمير كُشْلِي أمير آخور الناصريّ والشيخ حسن رأس نوبته وسَجَن الجميع بقلعة حلب، ثم قتلهم من ليلته بقلعة حلب.

وكان الناصريّ من أَجَلِّ الأمراء ومن أكابر مماليك الأتابك يلبغا العمريّ، وقد تقدّم من أمره في ترجمة الملك الظاهر برقوق الأولى وفي ترجمة الملك المنصور حاجي وما وقع له مع منطاش وغيره ما يغني عن التعريف به هنا ثانياً.

قال قاضي القضاة بدر الدين محمود العَيْنِيّ الحنفيّ في تاريخه[1] في حق يلبغا الناصريّ المذكور: وكان من ٱبتداء إنشائه من أيام الملك الناصر حسن إلى آخر عمره على فتنة وسوء رأي وتدبير وشُؤْم؛ حتى قيل: إنه ما كان مع قوم في أمر من الأمور إلا وقد حصل لهم العكس، وشوهد ذلك منه؛ كان مع أستاذه يلبغا الخاصَّكيّ العُمَريّ فٱنكسر، ثم أَسَنْدَمُر الناصريّ فغُلِب وٱنْقَهر، ثم مع الأشرف شعبان بن حسين فقُتِل، ثم مع الأمير بَرَكَة فَخُذِل، ٱنتهى كلام العينيّ.

قلتُ: نُصْرتُه على الملك الظاهر برقوق وأخذُه مملكة الديار المصريّة وحبسُه للملك الظاهر برقوق بالكَرَك بكلّ ما قاله العَيْنِيّ؛ وقد فات العَيْنِيّ أيضاً كسرةُ

---

(١) هو عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. تاريخ في الحوادث والوفيات على السنين، انتهى فيه إلى سنة ٨٠٥هـ.

الناصريّ من منطاش بباب السلسلة وحَبْس منطاش له، لأن قضيتَه مع منطاش كانت أعظمَ شاهد للعينيّ فيما رماه به من الشؤم. اِنتهى.

ثم عَزَل الملك الظاهر الأميرَ قرادمرداش عن نيابة حلب، وأنعم عليه بتقدمة ألف بالديار المصريّة، عِوَضاً عن الأمير بُطا الطُّولُوتَمُري الظاهريّ الدوادار الكبير بحكم آنتقال بُطا إلى نيابة الشام عوضاً عن الأمير الكبير يلبغا الناصريّ المقدّم ذكُره وخَلَع السلطان على بُطا المذكور، وعلى جُلْبان الكَمَشْبُغاوِي الظاهريّ رأس نَوْبة النُّوب المعروف بقرا سُقْل بآستقراره في نيابة حلب عوضاً عن قرادمرداش الأحمديّ في يوم واحد، وهما أوّلُ مَن تَرقَّى من مماليك الملك الظاهر إلى الرُّتَب وولي الأعمال الجليلة.

ثم خَلَع الملك الظاهر على الأمير فخر الدين إياس الجِرْجَاوي بآستقراره في نيابة طرابُلُس، وأخلع على الأمير دِمِرداش المحمديّ الظاهري بنيابة حماة، وخلع على الأمير أبي يزيد بن مراد الخازن بآستقراره دواداراً كبيراً عوضاً عن بُطا المنتقل إلى نيابة الشام، وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، لما لأبي يزيد المذكور على السلطان من الأيادي عندما آختفى عنده في محِنْة الناصريّ ومنطاش.

ثم أنعم السلطان على الأمير تَنْبَك اليَحْيَاوِيّ الظاهريّ بإقطاع جُلْبان قَرَا سُقْل المنتقل إلى نيابة حلب.

ثم خَرَج السلطانُ من حلب في يوم الاثنين أوّل ذي الحجّة عائداً إلى دمشق، فدخلها في ثالث عشرين ذي الحجّة، وقَتَل بها يومَ دخوله الأمير آلابغا العثماني الدوادار الكبير كان، والأمير سُودون باق أحد مقدّمي الألوف أيضاً، وسَمَّرَ ثلاثة عشر أميراً منهم الأميرُ أحمد بن بَيْدَمُر أتابك دِمَشق، وأحمد بن أمير عليّ الماردينيّ أحدُ مقدّمي الألوف بدمشق، ويلبغا العلائيّ، وقُنُق باي السَّيفيّ، نائب مَلَطْية، وكَمَشْبغا السيفي نائب بعلبكّ، وغريبُ الخاصّكي أحدُ أمراء الطبلخاناه بمصر، وقرا بُغا العُمرِي، وجماعةٌ أُخَر، ووُسِّطوا الجميع. وأقام السلطان بدمشق، وأهلُها على تَخَوُّفٍ عظيم منه، إلى أن خَرجَ منها في العشر الأخير من ذي الحجّة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة عائداً إلى الديار المصرية فسار بعساكره حتى دخل مدينة غَزَّة في

يوم الجمعة ثالث محرّم سنة أربع وتسعين وسبعمائة، فعند ذلك نُودِي بالقاهرة بالزِّينة لقدومه، فزُيِّنت أعظمَ زينة إلى يوم ثالث عشر المحرّم، فقَدِم البريدُ من السلطان إلى مصر بالخروج إلى ملاقاته إلى بُلْبَيْس[1]، فخَرَج الأميرُ كمشبغا الحمويّ نائب الغَيْبة، ومعه الأمير سُودون الشيخونيّ النائب، وبقيةُ الأمراء، وساروا حتى وافَوْا السلطانَ بمدينة بلبيس، فقبَّلوا الأرض بين يديه، وعادوا في ركابه حتى نزل السلطان بالعِكْرِشة، وأقام بها إلى ليلة الجمعة ثم رَحَل في صبيحة الجمعة سابع عشر المحرّم، فخرج من القاهرة سائرُ الطوائف إلى لقائه ومشَوْا في خدمته، وقد ٱصطفَّت الناسُ لرؤيته إلى أن طلع إلى القلعة يوم الجمعة المذكور في مَوْكِب جليل إلى الغاية، وكان لطلوعه يومٌ مشهود.

ولمّا طلع إلى القلعة جَلَس بالقصر وخلَع على الأمراء وأرباب الوظائف.

ثم قام ودخل إلى الدور السلطانية، فاستقبله المغاني والتهاني وفُرِشَت الشُّقَقُ الحرير تحت أقدامه، ونُثِر على رأسه الذهبُ والفِضّة، هذا وقد تَخلَّق غالبُ أهل القلعة بالزَّعْفَران.

فلم يَمْضِ بعد ذلك إلا أيامٌ يسيرةٌ، وقَدِم البريدُ من دمَشق في يوم خامس عشرينه بسَيْف الأمير بُطا الطُّولُوتَمُريّ الظاهريّ نائب الشام ــ وبُطا هذا هو خرج من سجن القلعة ومَلَك باب السلسلة في غَيْبَة الملك الظاهر برقوق حسب ما ذكرناه في وقته من هذا الكتاب، وٱتُّهِم الملكُ الظاهر في موته ــ فخلع السلطان في يوم سابع عشرينه على الأمير سُودون طُرُنْطَاي بنيابة دِمَشق، عوضاً عن بُطا المذكور.

ثمّ في يوم الاثنين ثاني عشر صفر قَبَض السلطان على الأمير قرادمرداش الأحمديّ اليلبُغاويّ المعزول قبل تاريخه عن نيابة حلب وعلى الأمير أَلْطُنْبُغا المعلم نائب الإسكندرية وهو أيضاً يلبُغاويّ، وسُجِنا بالبُرْج من القلعة. وقرادمرداش هذا هو الذي كان الملك الظاهر خَلَع عليه بٱستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، وأنعم عليه بثلاثين ألف دينار، فأخذها قرادمرداش وخامر عليه وتوجّه

(١) بلبيس: من المدن المصرية القديمة، تقع على الشاطىء الغربي لترعة الإسماعيلية من حدود الصحراء الشرقية.

إلى الناصريّ ومنطاش، فأسرَّ له السلطانُ ذلك إلى يوم قُبِض عليه، فذكرها للأمراء، وقد ذكرنا ذلك كلَّه مفصّلاً في ترجمة الملك الظاهر الأولى.

ثمّ في خامس عشرين صفر أيضاً مَسك السلطان الأمير قَرْدَم الحسنيّ اليلبُغاويّ رأس نَوْبة النوب كان، وأُخرج بعد أيام على إمرة عشرة بغزّة ثم خلع السلطان على الأمير قَلَمْطاي العثمانيّ الظّاهريّ بآستقراره أمير جاندار بعد موت قطلوبغا القَشْتَمُرِيّ، وخَلَع على ناصر الدين محمد ابن الأمير محمود الأستادار بنيابة الإسكندرية عوضاً عن أَلْطُنبغا المعلّم المقبوض عليه.

ثمّ قَدِم البريدُ من دِمَشق بأنّ خمسة من المماليك أَتَوْا إلى نائب قلعة دمشق مشاةً، وشَهروا سيوفَهم وهاجموا القلعة وملكوها وأغلقوا بابَها، وأخرجوا مَنْ بها من المنطاشيّة والناصريّة وهم نحوُ مائة رجل، وقتلوا نائب القلعة ومَنْ معه، وأنّ حاجب حُجّاب دِمَشق رَكِبَ بعسكر دِمشق وقاتلهم ثلاثة أيام حتى أخذ القلعة منهم، وقَبَض على الجميع إلا خمسة، فإنهم فرّوا، فوَسّط الحاجبُ الجميع.

ثمّ في ثالث عشرين شهر ربيع الاخر رَسَم السلطان بقتل الأمير أَيْدَكار العُمَرِيّ حاجب الحّجاب كان، والأمير قَرَاكُسك، والأمير أَرْسلان اللَّفّاف، والأمير أرغون شاه.

ثمّ في أوّل جُمادَى الأُولى أُحْضِرت إلى القاهرة من الإسكندريّة عِدّةُ رؤوس من الأمراء المسجونين بها وغيرهم.

وفي تاسع عشر شهر جُمادَى الأولى المذكور خَلَع السلطان على الأمير كَمُشْبُغا الحَمَوِيّ باستقراره أتابَك العساكر بالديار المصرية بعد موت الأمير إينال اليوسفيّ اليَلْبُغَاوِيّ، على أن كَمَشْبُغَا كان يجلس فوق إينال المذكور.

ثمّ خَلَع السلطان على الأمير أَيْتَمش البجاسِيّ بآستقراره رأسَ نَوْبة الأمراء وأطابكاً، وأنعم عليه بزيادة على إقطاعه حتى صار إقطاعُه يُضاهي إقطاعَ الأمير الكبير، لأن أَيْتَمُش المذكور كان وَلِي الأتابكيّة بديار مصر في سَلْطَنة الملك الظاهر الأولى إلى أن مَسكه الناصريّ وحَبسه بقلعة دمشق، وقد تقدّم ذلك.

وفي يوم الاثنين أوّل شهر رمضان خَلَـع السلطان على الأمير كَمَشْبُغَا الأشرفيّ الخاصكيّ أمير مجلس بآستقراره في نيابة دمشق بعد موت سُودون طُرُنْطاي.

قلت: هذا رابـع نائب وَلِي دمشق في أقلّ من سنة: الأوّل الناصريّ، والثاني بُطَا، والثالث سُودون طُرُنْطَاي، والرابـع كَمَشْبُغا هذا؛ فلعمري! هل هذه آجال متقاربة لديهم، أم كؤوس منايا تدور عليهم.

ثم قَدِم البريد على السلطان بقتال عسكر حلب لمنطاش وفِـرَار منطاش وآنهزامه أمامهم حتى عدّى الفُرات.

ثم أنعم السلطان في اليوم المذكور على الوالد بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وأنعم بطبلخاناه[١] الوالد على الأمير قلمطاي العثمانيّ الظاهريّ، وكان الإقطاع المُنْعَم به على الوالد عوضاً عن كمشبغا الخاصّكي المنتقل إلى نيابة الشام. وأنعم السلطان بإقطاع قلمطاي على الأمير شادي خُجا الظاهريّ، والإقطاع إمرة عشرة.

ثمّ أمسك السلطان شيـخ الشيوخ[٢] المعروف بالشيـخ أَصْلَم بن نِظَام الدين الأصبهانيّ صاحب الزاوية على الجبل تجاه باب الوزير وسلّمه لشادّ الدواوين عَلَى حَمْل مائتي ألف درهم؛ وسببه أنّ السلطان لما آختلّ أمره في حركة الناصريّ ومنطاش وهَمّ بالهرب طلب أصْلَم المذكور، وأعطاه خمسة الآف دينار، وواعده أنه ينزِلُ إليه ويَخْتفِي عنده، فلم يَفِ له أصلم بذلك، وأخذ الذهب وَغَيّب، فآختفَى السلطان في بيت أبـي يزيد من غير ميعاد واعده.

---

(١) المراد أنه أنعم بإقطاع والد المؤلف على الأمير المذكور. والطبلخاناه هي إمرة أربعين إلى ثمانين مملوكاً. وكان إقطاع كل أمير يتناسب مـع مرتبته العسكرية. وكانت إمرة مائة ـ تقدمة ألف هي أرفـع الرتب العسكرية في النظام المملوكي.

(٢) شيـخ الشيوخ: لقب يطلق على من يتولى الإشـراف على رجال الطرق الصوفية. وكان هذا اللقب يطلق خاصة في عصر المماليك على شيـخ الخانقاه الصلاحية التي بناها صلاح الدين بالقاهرة وتعرف بسعيد السعداء، وكذلك الخانقاه التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس من ضواحي القاهرة. (صبح الأعشى: ٦/٣٨ و ١١/٩٠، ٩٨).

وفي سابع عشرين شوّال آستقرّ الأمير بُكَلْمَشُ العلائيّ الأمير آخور[١] أميرَ سلاح، وآستقر الأمير تَنْبَك اليَحْيَاوِيّ الظاهريّ أميرَ آخور كبيراً عِوَضه.

وفي ثاني عشر ذي القعدة قُتِل الأميرُ قرادِمِرْداش الأحمديّ اليَلْبُغاويّ نائب حلب كان، والأمير تُغَاي تَمُر نائب سيس في عدة أمراء أخر.

وفي ثالث محرّم سنة خمس وتسعين وسبعمائة قَدِم البريدُ على السلطان من الشام بموت الأمير كَمَشْبُغا الخاصّكي الأشرفي نائب دِمَشق، فاستقر السلطان بالأمير تَنْبك الحسنيّ الظاهريّ المعروف بتَنَم أتَابَك دِمشق في نيابتها عوضاً عن كمشبغا المذكور.

قلت: الآن طاب خاطرُ السلطان الملك الظاهر برقوق بنيابة تَنَم المذكور، فإنّ الشام صار الآن بيد مملوكه، كما نيابة حلب وحماة مع جُلْبان ودِمِرْداش. ولمّا آستقرّ تَنَم في نيابة دِمَشق، رسم السلطان بنقل الأمير إياس الجرجاويّ نائب طرابُلُس إلى أتابكيّة دِمَشق، عوضاً عن تَنَم المذكور، ونَقْل الأمير دمرداش المحمدي الظاهري من نيابة حماة إلى نيابة طرابُلُس عِوضَه، وآستقر الأمير آقبغا الصغير في نيابة حماة عوضاً عن دِمِرْداش المذكور.

وفي أثناء ذلك قَدِم البريدُ على السلطان، يُخْبِر بأنّ منطاشاً[٢] ونُعَيْراً أمير العرب وآبن بزْدغَان التُّركمانيّ وآبنَ إينال التركمانيّ صاروا في عسكر كَثِيف وحضروا به إلى سَلَمْية فلقِيَهم محمد بن قارا أمير العرب على شَيْزَر بتراكِمين الطاعة[٣]، فقاتلهم وقُتِلَ ابن بَزْدغان وابنُ إينال، وجُرِحَ منطاش وسَقطَ عن فرسه، فلم يُعرَف لأنه كان حَلَق شارِبه ورَمَى شعره حتى أدركه ابن نُعَير وأردفه خلفه وآنهزم به، بعد

(١) أمير آخور: هو الذي يتحدّث على اسطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الاسطبلات.
وأمير سلاح: هو أحد الأمراء المقدّمين، وهو المقدّم على السلحدارية من المماليك السلطانية، وله الإشراف على السلاح خاناه السلطانية. (انظر صبح الأعشى: ١٨/٤ و ٤٦١/٥).

(٢) كان منطاش صهر الأمير نُعير.

(٣) أي الذين ما زالوا على طاعتهم للسلطان. ويقال مثل ذلك: عربان الطاعة، ومماليك الطاعة.. الخ.

أن قُتل من الفريقين عالمٌ كبير وحُملت رأس ابن بزدغان وآبن إينال إلى دمشق، فعلقّتا على قلعتها، ففرح السلطان بذلك، وكتب لمحمد بن قارا بالشكر والثناء وأرسل إليه خِلعة هائلة.

ثمّ بعد أيام يسيرة ورد الخبر بأن نُعيراً والأمير منطاشاً كبسا حماة في عسكر كبير، فقاتلهم الأمير آقبغا الصغير نائب حماة فيما بين حماة وطرابلس وكسرهما فلمّا بلغ الأمير جُلبان الكمشبغاوي قراسقل نائب حلب ذلك ركب بعسكره وسار إلى أبيات نُعير ونهبها وأخذ ما قدر عليه من المال والخيل والجمال والأغنام والنساء والأطفال، وأضرم النيران فيما بَقِي عندهم ثمّ أكمن كميناً. فلما سمع نعير بما وقع عليه رجع إلى نحو بيوته بجماعته، فخرج الكمين عليه وقَتَل من عربانه جماعة كبيرة وأسرَ مثلها، وقُتل في هذه الوقعة من عسكر حلب نحو المائة فارس، وعدّة من الأمراء، فأعجب السلطان ما فعله نائب حلب، وكتب إليه بالشكر والثناء، وأرسل إليه خلعة عظيمة وفرساً بسرج ذهب وكُنبوش[١] زركش.

ثم أخرج السلطان الأمير ألطنبغا المعلّم أمير سلاح كان، من السجن وأرسله إلى ثغر دمياط بطالاً وأفرج السلطان أيضاً عن الأمير قطلوبغا السيفي حاجب الحجاب كان في أيام منطاش وأرسله إلى الثغر المذكور.

ثم في رابع عشر جمادى الآخرة من سنة خمس وتسعين وسبعمائة قَدِم البريد بموت الأمير يلبغا الإشْقَتَمُري نائب غزة وفي تاسع عشرين جُمادى المذكورة خَلَع السلطان على الأمير قلمطاي العثمانيّ الظاهريّ باستقراره دواداراً كبيراً بعد موت الأمير أبـي يزيد بن مراد الخازن، وخلع السلطان على الأمير ألطنبغا العثماني الظاهري بآستقراره في نيابة غزة عوضاً عن يلبغا الأقشتمريّ.

قلت: أدركت أنا ألطنبغا العثماني الظاهريّ هذا في نيابته على دِمَشق في دولة

(١) الكنبوش أو الكنفوش: البرذعة تجعل تحت سرج الفرس.

الملك المؤيَّد شيخ. اِنتهى.

وأنعم السلطان بإقطاع ألطنبغا العثمانيّ على الأمير تمراز الناصريّ الظاهريّ رأس نوبة ـ والإقطاع إمرة طبلخاناه ـ وأنعم السلطان بإمرة تمراز المذكور على الأمير شرف الدين موسى بن قُماري أمير شكار[1]، والإقطاع إمرة عشرة.

وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من سنة خمس وتسعين المذكورة قَدِم البريد من حلب بالقبض على الأمير منطاش. وكان من خبره أن الأمير جُلبان نائب حلب لم يزل في مدّة ولايته على حلب يبذل جهده في أمر منطاش، حتى وافقه الأمير نُعَير على ذلك بعد أمور صدرت بينهما. وكان منطاش في طول هذه المدّة مقيماً عند نعير، فبعث جلبان شادّ شراب خاناته السيفي كمشبغا في خمسة عشر مملوكاً إلى نعير، بعد أن آلتزم الأمير جلبان لنعير بإعادة إمرة العرب عليه، فسار كمشبغا المذكور حتى قارب أبيات نعير، فنزل في موضع، وبعث يأمر نعيراً بالقبض على منطاش ويُعلمه بحضوره؛ فندب نعير أحد عبيده إليه يستدعيه، فأحس منطاش بالشر وفطن بالقصد، فهمّ بالفِرار، فركب فرسه وأراد التوجه إلى حال سبيله، فقبض العبد على عنان فرسه، فهمَّ منطاش بضربه، فأدركه عبدٌ آخر وأنزلاه عن فرسه وأخذا سيفه، فتكاثروا عليه فلما تحقّق منطاش أنه أُخذ ومُسك أخذ سكيناً كانت معه وضرب نفسه بها أربع ضربات أُغشي عليه، وحُمِل وأتي به إلى عند كمشبغا المذكور ومعه فرسه وربعة جمال، فتسلمه كمشبغا وسار به إلى حلب، فدخلها في أربعمائة فارس من عرب نُعير، فكان لدخوله حلب يوم عظيم مشهود، وحُمِل منطاش إلى قلعة حلب وسجن بها.

ثمّ كتب إلى السلطان بمسكه، فلما بلغ السلطان ذلك سُرّ سروراً عظيماً،

---

(١) أمير شكار: يتحدث صاحب هذه الوظيفة على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وعلى سائر أمور الصيد. وشكار: لفظ فارسي معناه الصيد. (صبح الأعشى: ٢٢/٤ و ٤٦١/٥).

(٢) الفوقاني: لباس كالجبّة يلبسه القضاة والأمراء. وهو القباء.

أم الهمة آضمحلّت؟! وما الشيء إلا كما كان وزيادة، غيرَ أنّ قِلّة العِرفان تمنع السيادة. اِنتهى.

وفي يوم ثاني شعبان خلع السلطان على الشيخ بدر الدين محمود الكلستاني المقدّم ذكرُه بآستقراره في كتابة سِر مصر، بعد موت القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله؛ وكانت تولية الكلستاني هذه الوظيفةَ كتابة السرّ من غريب الاتفاق، كونه كان فقيراً مُمْلقاً خائفاً من السلطان، وعند طلب السلطان له من خانقاه شَيْخون لقراءة الكتاب الوارد عليه من العَجَم لم يخرُج من الخانقاه حتى أوصى. ثم إنّه بعد قراءة الكتاب سافر صُحبة السلطان إلى دِمَشق، وآشتغل السلطان بما هو فيه عنده، فضاق عيشُه إلى الغاية وبَقِي في أعوز حال، وبات ليلته يتفكّر في عمل أبيات يمدَح بها قاضي دِمَشق، لعلّه يُنعم عليه بشيء يَرُدُّ به رَمَقه، فنَظَم قصيدة هائلة، وكان بارعاً في فنون عديدة وأصبح من الغد ليتوجه بالقصيدة إلى القاضي، فجاءه قاصدُ السلطان بولاية كتابة سرّ مصر، فجاءته السعادةُ فجأة.

وكان من أمر السلطان أنه لَمّا مات كاتب السرّ طَلَب مَن يُوليه كتابة السرّ، فَذُكِر له جماعةٌ وبذلوا له مالاً له صورةٌ، فلم يلتفت السلطان إلى ذلك، وأراد مَنْ يكون كفؤاً لهذه الوظيفة التي يكون متولِّيها صاحبَ لسان وقَلَم فلم يجد غيرَ الكلستاني المذكور، وكان أهلاً لها، فطلبه وولّاه كتابة السرّ، فباشرها على أجمل وجه. اِنتهى.

ثمّ قَدِم على السلطان رُسُل طقْتَمُش خان صاحب كُرْسي بلاد القَفْجَاق بأنه يكون عوناً مع السلطان على تَيْمُورْلنك، فأجابه السلطان لذلك[1].

(١) كان قيام طقتمش صاحب بلاد القبجاق بمهاجمة الأراضي التيمورية سبباً أساسياً في تغيير خطة تيمورلنك، إذ لم يودّ خوض معركة فاصلة مع برقوق وعاد مسرعاً لإنقاذ بلاده. (الدولة المملوكية: ٣٢٦).

(٢) هو بايزيد الأول. ولقبه «يلدرم» أي الصاعقة. وهو ابن مراد الأول خداوندكار بن أرخان بن عثمان. وعليه تكون الصيغة الصحيحة للعبارة هي: «ثم قدمت رسل يلدرم بايزيد بن خداوندكار مراد بن أرخان بن عثمان». وقد حكم بايزيد من سنة ٧٩٢ إلى سنة ٨٠٥ هـ وقتل في هذه السنة الأخيرة على يد تيمورلنك بعد أن أسره وجعله في قفص كان يحمله معه أينما ذهب. (دائرة المعارف الإسلامية: ٦/١٦٤، ومعجم زامباور: ٢٣٩).

ثم قَدمت رسلُ خَوَنْدكار يلْدرم با يزيد[٢] بن عثمان متملّك بلاد الروم بأنّه جهز لنُصرة السلطان مائتي ألف درهم، وأنّه ينتظر ما يرد عليه من جواب السلطان ليعتمدَه.

ثمّ قَدِم رسول القاضي برهان الدين أحمد صاحب سِيواس[١] بأنّه في طاعة السلطان ويترقّب ورودَ المراسيم السلطانية الشريفة عليه بالمسير إلى جهة يعيِّنه السلطان إليها، عند قدوم تَيْمور، فكُتِب جوابُ الجميع بالشكر والثناء وبما آختاره السلطان.

ثمّ في أوّل ذي القعدة خرج السلطان من دِمَشق يريد البلاد الحلبية وسار حتى دخلها في العشر الأوسط من ذي القعدة.

وبعد دخوله حلب بأيام قليلة، عَزَل نائبَها الأمير جُلْبان من كَمَشْبُغا الظاهريّ المعروف بقراسقل، وخلع على الوالد بآستقراره عوضه في نيابة حلب، وأنعم على الأمير جُلْبان المذكور بإقطاع الوالد وإمرته، وهي إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، ولم يستقرّ به في وظيفته؛ وكانت وظيفة الوالد قبل نيابة حلب رأسَ نَوْبة النُّوب.

ثم أمسك السلطان الأمير دِمِرْداش المحمديّ نائب طرابُلس وحبسه، وخلع على الأمير أرغون شاه الإبراهيمي الظاهريّ نائب صفد بآستقراره عوضه في نيابة طرابلس وخلع على الأمير آقبغا الجمالي الظاهري أتابك حلب بآستقراره في نيابة صفد، عوضاً عن أرغون شاه الإبراهيمي؛ وخلع على الأمير دُقماق المحمّديّ الظاهريّ باستقراره في نيابة مَلَطْيَة، وعلى الأمير كور[٢] مُقْبل بآستقراره في نيابة طَرَسُوس[٣].

ثم قبض السلطان على عدّة أمراء من أمراء حلب: منهم الأمير أَلْطُنبغا

---

(١) سيواس: إقليم من بلاد الروم. وسيواس اليوم مركز ولاية سيواس في تركية، وتبعد حوالى ٢٢٥ ميلاً إلى الشرق من أنقره.

(٢) في إحدى نسخ السلوك: «كاور مقبل».

(٣) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. (معجم البلدان).

وأنعم على كمشبغا المذكور بخمسة آلاف درهم وخلع عليه فوقانياً بطرز ذهب مُزركش، ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوه بالخلـع، ودُقّت البشائر لهذا الخبر بالديار المصرية، وزُيِّنت القاهرة من الغد زينة عظيمة.

ثمّ خلـع السلطان على الأمير طولو من عليّ باشاه الظاهريّ أحد أمراء العشرات وندبه للتوجُّه إلى حلب على البريد لإحضار رأس منطاش، بعد أن يعذِّبه بأنواع العذاب ليُقِرّ على أمواله فسار طولو في خامسه إلى حلب وأحضر منطاشاً وعَصَره، وأجرى عليه أنواعَ العذابِ ليُقرِّ بالمال، فلم يعتـرف بشيء، فذَبَحـه بعـد عذاب شـديد. قيـل: إنه عُـذِّب بأنـواع العذَاب والكسّـارات والنـار في أطرافه، حتى لم يبق فيه عضو إلا وتكسّر، وهو مصمم على أنه لا يملك شيئاً؛ ثم قطـع رأسه وحُملت على رمـح وطيف بها بمدينة حلب، ثمّ أخذها طولو وعاد يريد الديار المصرية، فصار كلما دخل إلى مدينة طاف بها على رمـح، وعَمِل بها كذلك في سائر مدن الشام، حتى وصلت إلى الديار المصرية صحبة طولو المذكور في يوم الجمعة حادي عشرين رمضان، فعلّقت على باب قلعة الجبل، ثمّ طِيف بها القاهرة على رُمْـح، ثمّ علقت على باب زَويلة أياماً، ثم سُلمت إلى زوجته أم ولده، فدفنتها في سادس عشرينه.

ثمّ ندب السلطان يلبغا السالميّ الظاهريّ إلى نُعير بالخِلـع.

ثمّ في سادس عشرينه قدمت رسل الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين على السلطان تُخبر بأن تيمورلنك أخذ مدينة تِبْريز وأرسل يستدعيه إلى عنده، فاعتذر لمشاورة سلطان مصر، فلم يقبل منه تيمور ذلك وقال له: «ليس لصاحب مصر بملكك حكم» وأرسل إليه خلعة وسكة(١) ينقش بها الذهب والدنانير. وقدم

(١) عبارة نزهة النفوس أوضـح في المقام، وهي: «وأنه جهزّ إليه بخلعة يلبسها نائباً عنه وبسكّة عليها اسمه تنقش بها الدراهم والدنانير، وأمره أن يدعى له على المنابر».

مـع القاصد أيضاً رسول صاحب بسطام[١]، يذكر بأن تيمور قتل شاه منصور متملّك شِيراز وبعث برأسه إلى بغداد، وبعث بالخِلـع والسكة إلى السلطان أحمد[٢] بن أُويْس صاحب العراق، فلبس السلطان أحمد الخلعة وطاف بها في شوارع بغداد وضرب بٱسمه السكة. وكان ذلك خديعة من تيمور، حتى ملك منه بغداد في يوم السبت حادي عشرين شوّال من سنة خمس وتسعين المذكورة.

وكان سبب أخذ تَيْمور بغداد أن آبن أُوَيْس المذكور كان أسرف في قتل أمرائه وبالـغ في ظلم رعيته وآنهمك في الفجور والفساد.

قلت فائدة: حكى بعض الحكماء أن الرجل إذا كان فيه خصلة من سبع خصال تمنعه السيادة على قومه، ونظم السبعةَ بعضُهم فقال: [الخفيف]

منـع النـاس أن يسـود عليهم — سـبعـةٌ قـالـه ذوو الـتـبيـانِ
أحـمقٌ كـاذبٌ صـغيـرٌ فـقيـر — ظـالم النفس مُمْسك الكَفِّ زان

ولما وقـع من السلطان أحمد ذلك كاتب أهل بغداد تَيْمور بعد آستيلائِه على مدينة تِبْريز[٣] يحثونه على المسير إلى بغداد، فتوجّه إليها بعساكرها حتى بلـغ الدَّرْبَند[٤] وهو من بغداد مسيرة يومين، فبعث إليه أحمد بن أُويس بالشيـخ نور الدين الخُراسانيّ [يسأله في الكفّ عنهم، وأن ابن أويس نائبه ويجهّز له ما اختار من

---

(١) بسطام: قرية من قرى قومس على جادة الطريق إلى نيسابور، بعد دامغان بمرحلتين. (معجم البلدان).

(٢) هو أحمد بن أويس بن حسن الجلايري، آخر سلاطين الدولة الجلايرية ببغداد. مغولي الأصل مستعرب. كان أسلافه من رجال جنكيز خان وهولاكو، وآل أمر العراق إلى جدّه الشيـخ حسن. وفي سنة ٧٨٤هـ تولى الشيـخ أحمد السلطنة بعد أن قتل أخاه السلطان حسين بن أويس. ولم يكد ينتظم أمره حتى ظهر في تركستان وبخارى الطاغية تيمورلنك وهاجم خراسان، فشغل السلطان أحمد بحربه، فلم يقو على صدّه، فالتجأ إلى حلب ثم إلى مصر سنة ٧٩٥هـ فأكرمه السلطان برقوق وتزوّج بابنة أخيـه حسين بن أويس. وابتعد تيمور لنك عن بغداد متوغلاً في صحراء القفجاق (بلاد الدشت) فرجـع أحمد إلى بغداد واستردها سنة ٧٩٧هـ. ولم تهدأ له حال إلا بعد موت تيمـورلنك سنة ٨٠٧هـ وهو في طريقه إلى الصين لفتحها. وفي سنة ٨١٣هـ ثار ببغداد مغولي آخر اسمه الأمير قرا يوسف وقتل السلطان أحمد. (الأعلام: ١/١٠١ ـــ ١٠٢).

(٣) تبريز: أشهر مدن أذربيجان بإيران.

(٤) الدربند أو باب الأبواب: اسم لبُليدة على ساحل بحر الخزر بين البحر والجبل.

الأموال][١] فأكرمه تيمور وقال له: «أنا أترك بغداد لأجلك» ورحل يريد السلطانية، فبعث نور الدين كتبه بالبشارة إلى بغداد.

ثم قدم في إثرها فاطمأن أهلها. وكان تيمور قد سار يريد بغداد من طريق أخرى، فلم يشعر أحمد بن أُويس، وقد آطمأن، إلا وتيمور نزل غربي بغداد قبل أن يصل الشيخ نور الدين، فدهش عند ذلك ابن أويس وأمر بقطع الجسر ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر من ليلته، وهي ليلة السبت المذكورة، وترك بغداد، فدخلها تيمورلنك، وأرسل ابنه في إثر ابن أُويس فأدركه بالحِلّة[٢]، ونهب ماله وسبى حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه، فنجا السلطان أحمد بن أويس بنفسه في طائفة وهم عُراة، فقصد حلب، وتلاحق به مَن بقي من أصحابه.

ثم بعد ذلك قَدِم البريد على السلطان الملك الظاهر برقوق بأنّ ابن أويس المذكور نزل بالرحبة[٣] في نحو ثلاثمائة فارس. وقدم كتاب ابن أويس وكتابُ نُعير، فأجيب أحسن جواب وكتب بإكرامه والقيام بما يليق به، فلما وصل كتاب السلطان إلى نُعير توجه إليه، وعندما عاين آبن أُوَيْس نزل عن فرسه وقبَّل الأرض بين يديه وسار به إلى بيوته وأضافه.

ثم سيّره إلى حلب، فقدمها ومعه أحمد بن شكر ونحو الألفي فارس، فأنزله الأمير جُلبان قراسُقل نائب حلب بالميدان وقام له بما يليق به، وكتب مع البريد إلى السلطان بذلك، وعلى يد القادم أيضاً كتاب السلطان أحمد بن أويس يستأذن في القدوم إلى مصر، فجمع السلطان الأمراء للمشورة في أمر آبن أويس، فآتفقوا على إحضاره وأن يخرج إلى مجيئه الأمير عز الدين أزدمر ومعه نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار برسم النفقة على آبن أويس في طريقه إلى مصر. وتوجه أَزْدَمر المذكور في سادس عشرينه، وسار أزدمر إلى حلب، وأحضر السلطان أحمد ابن أويس المذكور إلى نحو الديار المصرية؛ فلما قَرُب آبن أويس من ديار مصر أخرج السلطان عدّة من الأمراء إلى لقائه.

(١) زيادة عن نزهة النفوس والأبدان.

(٢) أي حِلَّة بني مزيد، مدينة بين الكوفة وبغداد.

(٣) على نحو فرسخ من الفرات.

فلمّا كان يوم الثلاثاء سابع عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة ست وتسعين وسبعمائة، نزل السلطان الملك الظاهر من قلعة الجبل بأمرائه وعساكره إلى لقاء أحمد بن أويس، وجلس بمسطبة مطعم[1] الطير من الرِّيدانية خارج القاهرة إلى أن قرب السلطان أحمد بن أُويس ووقع بصره على المسطبة التي جلس عليها السلطان، فنزل عن فرسه ومشى عدّة خطوات، فتوجه إليه الأمير بتخاص حاجب الحجّاب بالديار المصرية ومن بعده الأمراء للسلام على ابن أويس، فتقدّم بتخاص المذكور وسلم عليه ووقف بإزائه وصار كلما تقدّم إليه أمير لِيُسلِّم عليه يعرّفه بتخاص بآسمه ووظيفته وهم يقبّلون يده واحداً بعد واحد، حتى أقبل الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس فقال له الأمير بتخاص: «هذا أمير مجلس وآبن أستاذ السلطان»، فعانقه آبن أويس ولم يدعه يُقبِّل يده.

ثمّ جاء بعده الأمير بَكْلَمش العلائي أمير سلاح فعانقه أيضاً، ثمّ من بعده الأمير أيتمش البجاسيّ رأس نوبة الأمراء وأطابك فعانقه، ثمّ من بعده الأمير سُودون الفخريّ الشيخونيّ نائب السلطنة فعانقه، ثمّ الأمير الكبير كمشبغا الحمويّ أتابك العساكر فعانقه، وآنقضى سلام الأمراء فقام عند ذلك السلطان ونزل من على المسطبة ومشى نحو العشرين خطوة، فلمّا رأى آبن أويس مَشْيَ السلطان له هرول حتى آلتقيا، فأومأ أحمد بن أويس لِيُقبِّل يد السلطان فمنعه السلطان من ذلك وعانقه.

ثمّ بكيَا ساعة، ثم مشيَا إلى نحو المسطبة، والسلطان يطيِّب خاطره ويَعِده بكل جميل وبالعود إلى ملكه، ويده في يده، حتى طلعا على المسطبة وجلسا معاً على البساط من غير أن يقعد السلطان على مرتبته، وتحادثا طويلاً ثمّ طلب السلطان له خلعة، فقُدّم قَباء حرير بنفسجيّ بفرو قاقم بطرز زركش هائلة، فألبسه الخلعة المذكورة وقدّم له فرساً من خاصّ مراكيب السلطان بسرج ذهب وكُنبوش زركش وسلسلة ذهب، فركبه آبن أويس من حيث يركب السلطان، ثمّ ركب السلطان بعده وسارا يتحادثان، والأمراء والعساكر سائرة على منازلهم ميمنة وميسرة، حتى قَرُبا من

(١) المقصود مطعم طيور الصيد؛ وكان يقع في الشمال الشرقي لخانقاه السلطان برقوق في صحراء الريدانية. (السلوك: ٧٩٩/٣، حاشية).

القلعة. هذا والناس قد خرجت إلى قريب الرِّيدانية وآمتلأت الصحراء منهم للفرجة على موكب السلطان، حتى أدهش كثرتهم السلطان أحمد بن أويس، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة. ولما وصلا إلى قريب القلعة، وأخذت العساكر تترجّل عن خيولهم على العادة، صار آبن أويس مواكباً للسلطان حتى بلغا تحت الطبلخاناه من قلعة الجبل، فأومأ إليه السلطان بالتوجه إلى المنزل الذي أعدّ له على بركة الفيل، وقد جُدّدت عمارته وزخرفت بالفرش والآلات والأواني، فسلّم آبن أويس على السلطان، وسار إليه، وجميع الأمراء في خدمته، وطلع السلطان إلى القلعة.

فلما دخل آبن أويس إلى المنزل المذكور ومعه الأمراء، مدّ الأميرُ جمال الدين محمود الأستادار بين يديه سماطاً جليلاً إلى الغاية في الحسن والكثرة، فأكل السلطان أحمد وأكل الأمراء معه، ثم آنصرفوا إلى منازلهم. وفي اليوم جهّز السلطان إليه مائتي ألف درهم فضة، ومائتي قطعة قماش سكندريّ، وثلاثة أفراس بقماش ذهب، وعشرين مملوكاً وعشرين جارية؛ فلما كان الليل قَدِم حريم آبن أويس وثقله.

ثمّ في يوم الخميس عمل السلطان الخدمة بدار العدل المعروفة بالإيوان وطلع القان أحمد بن أُويس المذكور، وعَبَر من باب الجسر الذي يقال له باب السر، وجلس تُجاه الإيوان حتى خرج إليه رأس نوبة ومضى به إلى القصر، فأخذه السلطان، وخرج به إلى الإيوان، وأقعده رأس الميمنة فوق الأمير كمشبغا الحمويّ أتابك العساكر. فلما قام القضاة ومُدّ السماط، قام الأمراء على العادة، فقام آبن أويس أيضاً معهم ووقف، فأشار إليه السلطان بالجلوس فجلس، حتى فرغ الموكب. ولما آنقضت خدمة الإيوان دخل مع السلطان إلى القصر، وحضر خدمة القصر أيضاً، ثمّ خرج الأمراء بين يديه، حتى ركب وقدّامه جاويشه ونقيب جيشه، فسار الأمراء في خدمته إلى منزله.

ثمّ علّق السلطان جاليش السفر إلى البلاد الشامية على الطبلخاناه، فشرع الأمراء والمماليك وغيرهما في تجهيز أحوالهم إلى السفر صحبة السلطان.

ثمّ في حادي عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور، ركب السلطان من القلعة ومعه السلطان أحمد بن أويس إلى مدينة مصر وعدّى النيل إلى برّ الجيزة، ونزل بالخيام ليتصيّد، فأقام هناك ثلاثة أيام وعاد وقد أذهل آبن أويس ما رأى من تجمّل المملكة وعظمتها من ندماء السلطان ومغانيه وترتيبه في مجلس موكبه وأنسه. ثم في سلخه قَدِم البريد من حلب بتوجّه الأمير ألطنبغا الأشرفيّ نائب الرُّها كان، وهو يوم ذلك أتابك حلب، والأمير دُقماق المحمديّ نائب مَلَطْية بعسكريهما وموافقتهما لطلائع تيمورلنك وهزيمتهما له، بعد أن قتلا من الَّلنكيّة[١] خلقاً كثيراً، وأسرا أيضاً جماعة كبيرة، وعاد إلى حلب بمائة رأس من التَّمُريّة[١].

وفي يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر ابتدأ السلطان بنفقة المماليك، لكل مملوك مبلغ أَلْفَيْ درهم، وعدّتهم خمسة الآف مملوك، فبلغت النفقة في المماليك خاصة عشرة الآف درهم فضة، سوى نفقة الأمراء وسوى ما حُمِل في الخزائن وسوى ما تكلّفه[٢] لِلْقَان أحمد بن أُوَيْس فيما مضى، وفيما يأتي ذكره.

وبينما السلطان في ذلك قَدِم عليه كتاب تيمور يتضمن الإرداع والتخويف، ونصُّه:

﴿قل[٣] اللهم مالكَ الملك﴾، ﴿فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾[٤].

---

(١) اللَّنكيّة والتَّمُريّة هم عساكر تيمورلنك، نسبة إليه.

(٢) الواضح مما رأيناه سابقاً أن السلطان برقوق بالغ في إكرام أحمد بن أويس، وأنفق مبالغ طائلة عليه وعلى حاشيته. كما انفق مبالغ كبيرة على الأمراء والمماليك بهدف توطيد سلطته بعد أن تمَّ له القضاء على خصميه العنيدين منطاش ويلبغا. هذا في وقت كانت فيه خزائن الدولة فارغة، مما سيدفع السلطان برقوق إلى اتخاذ تدابير جديدة لتأمين المال اللازم للحرب، فيفرض على أعيان الدولة ضرائب جديدة، ثم يحاول مصادرة أموال الأوقاف، هذا بالإضافة إلى الاستدانة من التجار، وخاصة التجار الكارمية. ثم جبى الأموال من الناس بالعصا ــ على حدّ تعبير ابن إياس ــ وانتزع الزكاة من التجاّر. ونحن نميل إلى الاعتقاد أن الاهتمام البالغ بالسلطان أحمد بن أويس لم يكن فقط تعبيراً عن موقف تضامني تجاه عدوّ داهم مشترك، وإنما بالإضافة إلى ذلك كان تعبيراً عن محاولة اقتناص فرصة تاريخية سانحة ربما تسمح للسلطان برقوق بأن يبسط الهيمنة والرعاية المملوكية على العراق بالإضافة إلى مصر والشام وذلك للمرة الأولى منذ ابتداء الصراع المملوكي المغولي للسيطرة على أملاك الخلافة العباسية التي سقطت في بغداد.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٦. (٤) سورة الزمر: الآية ٤٦.

إعلموا أَنا جند الله مخلوقونٰ من سخطه، ومسلَّطون على من حلّ عليه غضبه، لا نَرقّ لشاك، ولا نرحم عَبْرة باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل ثم الويلُ لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا! قد خرّبنا البلاد، وأيْتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذّلت لنا أَعزَّتُها، وملكنا بالشوْكة أزمَّتها فإن خُيِّل ذلك على السامع وأشكل، وقال: إن فيه عليه مشكلاً، فقل: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعِزَّة أهلها أذلَّة﴾[1]، وذلك لكثرة عَدَدنا، وشِدّة بأسنا؛ فخيولُنا سوابق، ورماحُنا خَوارِق، وأَسِنَّتُها بوارق، وسيوفُنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشُنا كعَدد الرمال، ونحن أبطال وأقيال، ومُلْكنا لا يُرام، وجارُنا لا يُضام، وعزُّنا أبداً لسؤدد مُنقام[2]. فمن سالَمنَا سَلِم، ومن حاربنا ندِم، ومن تكلّم فينا بما لا يعلم جُهِّل. وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبِلتم شرطنا، فلكم ما لَنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتُم، فلا تلوموا إلا أنفسكم فالحصون منّا مع تشييدها لا تمنع، والمدائن بشدّتها لقتالنا لا تَردّ ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُستجاب فينا فلا يُسْمع، فكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وطغيتم[3] جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقَبلتم الرشوة من الحكّام، وأعددتم لكم النار وبئس المصير: ﴿إن[4] الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾. فبما[5] فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد قتلتم العلماء، وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغي والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادَى عليكم: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾[6]، فأبشروا بالمذلّة والهوان، يا أهل البغي والعدوان وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا والله أنكم الكفَرَة الفجرَة، وقد سلَّطنَا عليكم

---

(١) سورة النمل ــ الآية: ٣٤.

(٢) في السلوك: «وعزّنا أبداً بالسؤدد مُقام».

(٣) كذا بالأصل. وفي السلوك: «وضيّعتم جميع الأنام» وفي نزهة النفوس: «ورضعتم جميع الآثام».

(٤) سورة النساء ــ الآية: ١٠.

(٥) في السلوك: «فلما». وفي النزهة: «ولما».

(٦) سورة الأحقاق ــ الآية: ٢٠.

الإله[١]، له أمور مقدّرة، وأحكام محُرّرة؛ فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منكم[٢] كلّ سفينة غصباً وقد أوضحنا لكم الخِطاب، فأسرعوا بردّ الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتُضرِم الحربُ نارها، وتضع أوزارها، وتصير كلُّ عين عليكم باكية، وينادِي منادي الفراق: ﴿هل ترى لهم من باقية﴾[٣] ويُسمِعكم صارخ الفناء بعد أن يهزّكم هزا، ﴿هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزا﴾[٤]، وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسَلين، كما فعلتم بالأوّلين، فتُخالفوا كعادتكم سنن الماضين، وتعصوا رب العالمين، ﴿فما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[٥]، وقد أوضحنا لكم الكلام، فأرسلوا بردّ الجواب والسلام.

فكتبَ جوابه[٦] بعد البسملة الشريفة:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعزّ من تشاء وتذل من تشاء﴾[٧].

وحصل الوقوف على ألفاظكم الكفريّة، ونزعاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الخانيّة، وسِيرة الكفرة الملائكية[٨]، وأنكم مخلوقون من سخط الله ومسلطون على من حلّ عليه غضب الله، وأنكم لا ترِقُّون لشاكٍ، ولا ترحمون عَبْرة باكٍ، وقد نزع الله الرحمةَ من قلوبكم، فذاك أكبر عُيوبكم، وهذه من صفات

(١) في السلوك: «وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدّرة وأحكام مدبّرة». وفي نزهة النفوس: «وقد سلطنا عليكم الإله الذي له الأمور مقدّرة والأحكام مدبَّرة».
(٢) السلوك والنزهة: «منها».
(٣) سورة الحاقّة ـ الآية: ٨.
(٤) سورة مريم ـ الآية: ٩٨.
(٥) سورة المائدة ـ الآية: ٩٩.
(٦) كان هذا الجواب من تأليف القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمري كاتب السرّ بالديار المصرية. (نزهة النفوس: ١/٣٨١).
(٧) سورة آل عمران ـ الآية: ٢٦.
(٨) في السلوك: «عن الحضرة الجنابية، وسيرة الكفرة الملاكية». وفي نزهة النفوس: «عن الحضرة الجنابية، وسيرة الكفر الملاكية».

الشياطين، لا من شِيَم السلاطين، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما وصفتُم به أنفسَكم ناهية، ﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دينِ﴾(١) ففي كل كتاب لُعِنتم، وعلى لسان كلّ مُرْسَل نُعِتُّم، وبكل قبيح وُصِفتم، وعندنا خبركُم من حين خرجتُم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين من تمسّك بالأصول فلا يُبالي بالفروع، نحن المؤمنون حقاً، لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا رَيْب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلِمنا ببركته تأويلَه، فالنار لكم خُلِقت، ولجلودكم أُضرِمت، ﴿إذا السماء آنفطرت﴾(٢). ومن أعجب العجب تهديدُ الرتوت(٣) بالتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكُراع نحن خيولنا برقيّة وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، ولبوسنا مصرية، وأكُفّنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إنْ قتلناكم فنعم البِضاعة، وإن قُتل منا أحدٌ فبينه وبين الجنة ساعة، **﴿ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاَّ خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾**(٤). وأمّا قولكم: «قلوبنا كالجبال، وعددُنا كالرمال»، فالقصَّاب لا يُبالي بكثرة الغنم، وكثيرُ الحَطَب يغْنيه الضَّرم(٥) ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(٦). الفرارَ الفرارَ من الزوايا، وطول البلايا، وآعلموا أنّ هجوم المنيّة، عندنا غاية الأمنية إن عِشنا عشنا سعداء، وإن قُتِلنا قُتلنا شهداء. ألا إن حزب الله هم الغالبون. أَبعدَ أمير المؤمنين، وخليفة رب

---

(١) سورة الكافرون.

(٢) سورة الانفطار ــ الآية: ١.

(٣) الرتوت: ومفردها رتّ، هم الرؤساء من الرجال في الشرف والعطاء. (لسان العرب). والرتوت أيضاً ذكور الخنازير وفحولها التي فيها شدة وجرأة. (أساس البلاغة للزمخشري).

(٤) سورة آل عمران ــ الآيات: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

(٥) في السلوك: «وكثير الحطب يغنيه القليل من الضرم». وفي نزهة النفوس: «وكثير الحطب يكفيه قليل من الضرم».

(٦) سورة البقرة ــ الآية: ٢٤٩.

العالمين، تطلبون منا طاعة؟ لا سمعَ لكم ولا طاعة وطلبتم أن نُوَضّح لكم أمرَنا، قبل أن ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك، وفي سِلْكه تلبيك، لوكُشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفرتُم[١] بعد إيمان؟ أم آتخذتم إلها ثان؟ وطلبتم من معلوم رأيكم، أن نتبع دينكم، ﴿لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السمواتُ يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتَخِرّ الجبال هدّاً﴾[٢]. قل لكاتبك الذي وضَع رسالتَه، ووصف مقالتَه: وصلَ كتابُك كضرب رَبَاب، أوكطَنين ذُباب، «كلّا سنكتبُ ما يقول ونَمدُّ له من العذاب مدًّا، ونَرِثه ما يقول [ويأتينا فرداً][٣] إن شاء الله تعالى. لقد لَبَكْتم[٤]، في الذي أرسلتُم، والسلام». اِنتهى.

فَعُرِض هذا الجوابُ على السلطان ثمّ خُتِم وأُرسِل إليه.

ثم في سادس شهر ربيع الآخر المذكور عَرَض السلطان أجناد الحلقة الذين عُيِّنوا للسفر، وعَيَّن منهم أربعمائة فارس للسفر صحبةَ السلطان وترك الباقي بالديار المصرية.

ثمّ في سابعه خرجت مُدَوَّرة[٥] السلطان من القاهرة ونُصِبت بالريدانية خارج القاهرة.

ثمّ في يوم الأربعاء تاسعه عَقَد السلطان عقدَه على الخاتون تَنْدِي بنت حسين آبن أُويس، وكانت قَدِمت مع عمها السلطان أحمد بن أُويس، ومبلغ الصداق ثلاثة الآف دينار، وكان صرفُ الدينار إذ ذاك ستة وعشرين درهماً ونصفَ درهم، وبَنَى عليها ليلة الخميس عاشره وهو يوم سفره إلى الشام.

وأصبح من الغد في يوم الخميس المذكور نزل السلطان من قلعة الجبل إلى الإسطبل السلطانيّ، ثمّ خرج من باب السلسلة إلى الرميلة، وقد وقف القان أحمد

---

(١) في السلوك والنزهة: «أكفرٌ بعد إيمان؟».
(٢) سورة مريم ــ الآتيان: ٨٩، ٩٠.
(٣) سورة مريم: ٧٩، ٨٠.
(٤) لبكتم أي خلطتم في الأمر.
(٥) مدوّرة السلطان أي خيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له في الأسفار.

ابن أوَيس وجميعُ الأمراء وسائر العسكر مُلبسين آلةَ الحرب ومعهم أطلابُهم فسار السلطان وعليه قَرْقل[١] بلا أكمام وعلى رأسه كَلْفتة[٢] وتحته فرس بعرقيّة[٣] من صوف سميك إلى باب القرافة والعساكر قد ملأت الرُّميلة، فرتَّب هو بنفسه أطلابَ الأمراء، ومرّ في صفوفها ذهاباً وإياباً غير مرّة، حتى رتّبها أحسن ترتيب، وصاحبُها ينظر، وأخذ يخُالف في تعبئة الأطلاب، كلُّ تعبئة بخلاف الذي يتقدّمها، حفِظتُ أنا غالبَها عن الأستاذ الأتابك آقبغا التمرازيّ عن أستاذه تمراز الناصريّ النائب، ولولا الإطالة والخروج عن المقصود لرسمتها هنا بالنقط. اِنتهى.

فلمّا فَرغَ السلطان الملك الظاهر برقوق من تعبئة أطلاب أمرائه، أخذ في ترتيب طُلْب نفسه، وجعله أمام أطلاب الأمراء كالجاليش لكثرة من كان به، وعبّأه قلباً وجناحَ يمين وجناحَ شمال ورديفاً وكميناً، وأمر الكوسات والطبـول فدُقّت حربياً.

ثمّ ترك جميعَ الأطلاب ومضَى في خواصّه إلى قبة الإمام الشافعيّ [رضي الله عنه] وزاره وتصدّق على الفقراء بمال كثير خارج عن الحدّ. ثم سار إلى المشهد النفيسيّ وزاره وتصدّق به أيضاً، وفي طول طريقه بجملة مستكثرة، ثمّ عاد إلى الرّميلة. وأشار إلى طُلب السلطان فسار إلى نحو الرَّيْدانيّة في أعظم قوّة وأبهـج زيّ

---

(١) القرقل: الثوب الذي لا أكمام له. ـ والقرقل أيضاً نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد وتغشى بالديباج الأحمر والأصفر وقد تكون مبطنة، وتجمع على قرقلات. (صبح الأعشى: ٢/١٤٣ و ٤/١١).

(٢) الكلفتة والكلفتاة والكلفة هي الكلوتة. وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة. وقد استحدث سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة بمصر فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، وكذلك كان يفعل أمراؤهم وجندهم ومماليكهم. ولم يزل السلاطين والجند يلبسون الكلوتات الصفر بغير عمامة إلى أواسط دولة المماليك البحرية ـ فلما ولي السلطان قلاوون السلطنة غيرَّ هذا الزيّ إذ أضاف لبس الشاش على الكلوتة. وفي عهد ابنه الأشرف خليل رسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزكش وتركت الكلوتات الجوخ الصفر لمن دونهم، على أنها ظلت تلبس فوق ذوائب الشعر المرخاة على ما كان عليه الأمر أولاً. فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون استجدّ العمائم الناصرية وهي صغار، وحلق رأسه وحلق الأمراء رؤوسهم، وتركت ذوائب الشعر. ثم حلّت الكلوتة اليلبغاوية المنسوبة إلى الأمير يلبغا الخاصكي العمري محل العمائم الناصرية. وظل الأمر على ذلك حتى عهد السلطان برقوق فأحدث هذا السلطان الكلوتات أو الكلفتاة الجركسية وهي أكبر من اليلبغاوية. (صبح الأعشى: ٤/٦، ٣٩ ـ وخطط المقريزي: ٢/٩٨).

(٣) العرقيّة: غطاء للرأس. ولعل المراد بها هنا غطاء رأس الفرس.

وأفخر هيئة وأحسن ملبس، جُرّ فيه من خواصّ الخيل مائتا جنيب مُلْبسة آلة الحرب التي عظُمت من الآلات المذهبة والمفضَّضة والمزركشَة على آختلاف أنواعها وصفاتها التي تُحَيِّر العقول عند رؤيتها.

ثمّ أشار لأطلاب الأمراء فسارت أيضاً بأعظم هيئة، وقد تفاخر الأمراء أيضاً في أطلابهم، وخرج كل طُلْب أحسن من الآخر، حتى حاذوا القلعة، فوقفوا يميناً ويساراً حتى سار السلطان في موكبه في غاية العظمة والأُبَّهة، وإلى جانبه القان أحمد بن أُوَيْس على فرس بقماش ذهب، وبجانب آبن أويس الأمير الكبير كمشبغا الحمويّ، ثم الأمراء ميمنة وميسرة، كلُّ واحد في رتبته، حتى آنقضى ممرّ السلطان وأمامه العساكر وخلفه ثمّ سارت أطلاب الأمراء تريد الريدانية شيئاً بعد شيء، وسار السلطان حتى نزل بمخيّمه بالريدانيّة وأقام بها أياماً.

ثم في رابع عشره خلع على القاضي بدر الدين محمد بن أبي البقاء باستقراره قاضي قضاة الشافعية بديار مصر، بعد عزل القاضي صدر الدين المُناوِيّ. ودخل [السلطان] من الرَّيْدانية إلى القاهرة ومعه تَغْري بَرْدِي من يَشبغا رأس نوبة النُّوَب (أعني الوالد)، والأمير قلمطاي من عثمان الدوادار الكبير وآقبغا اللكّاش رأس نوبة ثان وجماعة أخر.

ثم قدم على السلطان بالريدانية ولدُ الأمير نُعَير ومعه محضر أنّ أباه أخذ مدينة بغداد[١] وخَطَب بها للسلطان الملك الظاهر برقوق، فخلع السلطان عليه ووعده بكل خير.

ثمّ كتب السلطان بإحضار الأمير أَلْطُنبغا المعلّم من ثغر دِمياط.

ثمّ خلع السلطان على الأمير سُودون النائب لِيُقيم بالقاهرة في مدّة غَيْبة السلطان، وعلى الأمير بجَاس لِيُقيم بالقلعة، وعلى الأمير محمود الأستادار، وعلى ولده؛ وخلع على التاجر برهان الدين المحَلِّيّ، وعلى التاجر شهاب الدين أحمد بن

---

(١) لعلّ هذا الخبر غير صحيح، لأن نائب تيمورلنك على بغداد سوف يواجه أحمد بن أويس عند دخوله إلى بغداد. (انظر السلوك: ٣/٨١٧).

مسلم، وعلى التاجر نور الدين على الخَرُّوبيّ لكون السلطان آقترض منهم مبلغ ألف ألف درهم[١].

ثمّ في ثالث عشرينه رحَلَ السلطان بعساكره وأمرائه من الريدانية، بعد أن أقام بها نحو ثلاث عشر يوماً، وفرّق من الجمال في المماليك نحو أربعة[٢] الآف جمل، ومن الخيل ألفي فرس وخمسمائة فرس، وحمل معه أشياء كثيرة مما يحتاج السلطان إليه، منها خمسة قناطير من العاج والآبنوس برسم الشِّطْرَنج الذي يلعب به السلطان، وسببه أنه كان إذ لعب بشِطْرنج وفرغ من لعبه أخذه صاحب النَّوْبة وجدّد غيره، وأشياء كثيرة أخر من هذه المقولة.

ثمّ في ثامن عشرينه أرسل السلطان يطلب بدر الدين محمود الكلستانيّ، فأخذ محمود المذكور من خانقاه شَيْخون فإنه كان من بعض صوفيتها، وسار وهو خائف وَجِل، لأنه كان من ألزام ألطنبغا الجُوبانيّ إلى أن وصل إلى السلطان. وخبره أنّ السلطان كان ورد عليه كتاب من بعض الملوك بالعجميّ، فلم يعرف القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر يقرؤه، فطلب السلطان من يقرؤه، فنوّه بعضُ من حضر من الأمراء بذكر الكلستانيّ هذا، فَطُلِب لذلك وحضر وقرأه فأعجب السلطانَ قراءتُه، فأمره بالسفر معه، فسافر صحبة السلطان وصار ينزل مع الأمير قلمطاي الدوادار كأنه من بعض حواشيه، فإنه كان في غاية من الفقر إلى أن وصل إلى دمشق كما سنذكره.

وأما السلطان فإنه دخل دمشق في عشرين جُمادَى الأولى وأقام بها إلى أن أخرج عسكراً إلى البلاد الحلبية في سابع عشر شهر رجب، وعليهم الأميرُ الكبير كمشبغا الحمويّ والأمير بَكْلَمش أمير سلاح والأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس وبيبرس آبن أخت السلطان الملك الظاهر برقوق، ونائب صفد ونائب غزّة، كل ذلك والسلطان مقيم بدمشق في آنتظار قدوم تَيْمورلَنْك.

---

(١) وهؤلاء كانوا من تجار الكارم، أي الذين بيدهم تجارة منتوجات بلاد الهند. وكان هؤلاء أكبر أغنياء البلاد المصرية. ــ انظر حول تجارة الكارم أو التجار الكارمية فهرس المصطلحات.

(٢) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «أربعة عشر ألف جمل».

ثم أمر السلطان للقان غياث الدين أحمد بن أُويس بالتوجه إلى محل مملكته ببغداد، فخرج من دمشق في يوم الاثنين أوّل شعبان من سنة ست وتسعين المذكورة، بعد ما قام له السلطان بجميع ما يَحْتَاج إليه؛ وعند وَدَاعه خلَع عليه الملك الظاهر خِلعة أطلسين مُتمَّراً وقَلَّده بسيف مُسَقَّط بذهب، وكَتَب له تقليداً بسلطنة بغداد، وناولَه إيّاه، فأرادَ أحمد بن أُوَيْس أن يُقَبِّل الأرض فلم يُمكّنه السلطان من ذلك، إجلالاً له وتعظيماً في حقه، وقام له وعانقه وودّعه، ثمّ آفترقا وكان ما أَنْعم به السلطان الملكُ الظاهر على القان غِياث الدين أحمد بن أوَيس عند سفره خاصّة من النقد خمسمائة ألف درهم، سوى الخيل والجِمال والسلاح والمماليك والقُماش السكندريّ وغيرذلك. وآستمرّ آبن أُوَيس بمخيّمه خارج دمشق إلى يوم ثالث عشر شعبان، فسافر إلى جهة بغداد، بعد أن أظهر الملك الظاهر من علوّ همته ومكارمه وإنعامه لابن أويس المذكور ما أدهشه.

قلت: هكذا تكون الشِّيَم الملوكية، وإظهار الناموس، وبَذْل الأموال في إقامة الحُرمة، مع أن الملك الظاهر لم يخرج من الديار المصرية، حتّى تحمّل جملةً كبيرة من الديون؛ فإنه من يوم حُبِس بالكرك ومَلَك الناصريّ ومنطاش ديارَ مصر فرّقا جميع ما كان في الخزائن السلطانية، وحضر الملك الظاهر من الكَرَك فلم يجَد في الخزائن ما قلّ ولا كَثُر، وصار مهما حصَّله أنفقه في التجاريد والكُلَف، فلله دَرُّه من مَلِك! على أنه كان غيرَ مشكور في قومه[1].

حدّثني غيرُ واحد من حواشي الأسياد أولاد السلاطين، قالوا: «كُنّا نقول من يوم تسلطن هذا المملوك: هذه الكَعْب الشؤم نشَّفت القلعةَ من الرِّزق وخَربت الدنيا». هذا وكان الذي يُصرف يوم ذلك على نزول السلطان إلى سَرْحة سِرْياقوس بكُلْفة ملوك زماننا هذا من أوّل السنة إلى آخرها! فلعَمْرِي، هل الأرزاق قلّت

(١) أي الأمراء الجراكسة. إذ بالرغم من الجركسة الكاملة للدولة التي قام بها السلطان برقوق فإن أمراءه ظلوا يتعاملون معه من زاوية مصالحهم الخاصة والمكاسب والإنعامات، وإذا بدر منه أي تصرّف احترازي لضبط الأمور الداخلية بادر الأمراء إلى استعدائه خفية. (انظر الدولة المملوكية: ٣٢٧ ـ ٣٢٩).

الأشرفي، والأمير تمرباي الأشرفي، وقطلوشاه الماردِيني، وحُبِس الجميع بقلعة حلب. وآنفضّ الموكب، والوالد واقفٌ لم يتوجه، فقال له السلطان: «لم لا تتوجه!» فقال: «يا مولانا السلطان! أَسْتحي أنزل من الناس. يُمْسَك أخي دِمرداش نائب طرابُلُس وأتولّى أنا نيابة حلب! وما يقبل السلطان شفاعتي فيه»، فقال له السلطان: «قَبِلت شفاعتك فيه؛ غير أنه يمكُث في السجن أيّاماً، ثم أُفرِج عنه لأجلك، لئلا يقال: يُمْسِك السلطان نائبَ طرابلس ويُطْلقه من يومه! فيصير ذلك وهْناً في المملكة»، فقال الوالد رحمه الله: «السلطان يتصرّف في مماليكه كيف يشاء، ما علينا من قول القائل!» ثم قَبّلَ الأرضَ ويدَ السلطان، فتبسّم السلطان، وأمر بإطلاق دِمرداش وحضوره؛ فحضر من وقته، فخلع عليه بأتابكية حلب عوضاً عن آقبغا الجمالي المستقرّ في نيابة صفد، ثم قال له السلطان: «خذ أخاك وآنزل»، فكانت هذه الواقعة أول عظمة نالت الوالدَ من أستاذه الملك الظاهر برقوق اِنتهى هذا الخبر.

والأخبار ترِد على السلطان شيئاً بعد شيء من بلاد الشمال بعَوْد تَيْمورلنك إلى بلاده والسلطان لا يصدّق[1] ذلك، ويَتَقحّم[2] على لقاء تيمورلنك، فلم يجسُر تيمور على القدوم إلى البلاد الشامية مخافةً من الملك الظاهر برقوق، وتوجّه إلى بلاده فلما تحقّق السلطان عودَه تأسف على عدم لقائه.

وخرج [السلطان] من حلب بعساكره في سابـع محرّم سنة سبـع وتسعين وسبعمائة يريد دِمَشق، فوصلها ولم يُقِـم بها إلا أياماً قليلة لطول إقامته بها في ذَهابه وخرج منها بعساكره في سابـع عشر المحرّم المذكور، يريد الديار المصرية، بعد أن خلَـع على الأمير بَتْخاص السودونيّ حاجب حجّاب الديار المصرية بآستقراره في نيابـة الكرك، عوضاً عن الأمير شهاب الدين أحمد آبن الشيـخ عليّ، ونَقَل الشهابـيّ المذكور إلى حجوبية دمشق الكبرى، عوضاً عن الأمير تَمربُغا المَنْجَكي بحكم قدوم تمربغا المنجكيّ إلى مصر صحبة السلطان.

---

(١) راجع ص ٥٨، حاشية(١).

(٢) المراد أنه يريد لقاءه في أقرب وقت.

وسار السلطان إلى أن وصل مدينة قَطْيا[١]، فأمسك مملوكه الأمير جُلبان الكَمَشْبُغاويّ قراسقل المعزول عن نيابة حلب وبعثه من قَطْيا في البحر إلى ثغر دِمْياط.

وسار السلطان من قَطْيا حتى وصل إلى ديار مصر في ثامن عشر صفر؛ وطلع إلى القلعة من يومه، بعد أن آحْتَفل الناسُ لطلوعه، وزُيِّنت القاهرة أياماً، غيرَ أن الغلاء كان حصل قبل قدوم السلطان، فتزايد بعد حضوره لكَثْرة العساكر.

ومن يومئذ صفا الوقت للملك الظاهر، وصارت مماليكُه نوّابَ البلاد الشامية من أبواب الروم إلى مصر وأخذَ السلطان يُكْثر من الركوب والتوجُّه إلى الصيد، وعَمِل له الأمير تَمُربُغا المَنْجَكيّ شراباً من زبيب، يسمى التمربُغاوي[٢]، وأقبل السلطان على الشرب منه مع الأمراء، ولم يكن يُعرف منه السُّكْرُ قبل ذلك.

ثمّ أنعم السلطان على الأمير فارس من قُطْلوجا الظاهري الأعرج بإمرة مائة وتقدمة ألف وولّاه حجوبية الحجاب عوضاً عن بَتْخاص السودوني المستقر في نيابة الكرك، وأنعم على الأمير نَوْرُوز الحافِظِي الظاهري بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، عوضاً عن الوالد، وهو الاقطاع الذي كان أنْعم به السلطان على جُلْبان نائب حلب.

ثم أنعم السلطان على الأمير أرْغون شاه البَيْدَمُري بإمرة مائة وتقدمة ألف. وأنعم السلطان أيضاً على كل من تَمربُغا المَنْجكي، وصلاح الدين محمد بن محمد [بن][٣] تَنْكِز، وصَرغتمش المحمدي الظاهري بإمرة طبلخاناه وأنعم أيضاً على كل من مُقْبِل الروميّ، وآقباي من حُسَين شاه الظاهريّ، وآق بلاط الأحمدي، ومَنْكَلي بغا الناصري بإمرة عشرة.

---

(١) بلدة في الطريق بين مصر والشام في وسط الرمل قرب الفرما. وقد اندثرت هذه القرية ولم يبق إلا أطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش.

(٢) ذكر المقريزي في صفة هذا الشراب أنه «يعمل لكل عشرة أرطال من الزبيب أربعون رطلاً من الماء، ويدفن في جرار بزبل الخيل أياماً، ثم يشرب فيكسر» ـ (السلوك: ٨٢٦/٣).

(٣) زيادة عن السلوك.

ثم بعد أشهر خلع السلطان على الأمير نوروز الحافظي الظاهري بآستِقرارِه رأس نوبة النوب، عوضاً عن الوالد بحكم آنتقاله إلى نيابة حلب، وكانت شاغرة من تلك الأيام.

ثم قَبَض السلطان على الأمير محمود بن علي الأستادار المعروف بابن أصفر ـ عَيَّنه في صفر سنة ثمان وتسعين ـ وعلى ولده وعلى كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غُراب.

وخلع السلطان على قطلوبك العلائي أستادار الأمير أيتمش باستقراره في الأستادارية، عوضاً عن محمود المذكور، وأنعم السلطان عليه بإمرة عشرين، وآستمرّ محمود على إمرته وهو مريض محتفظ به. وخلع السلطان أيضاً على سعد الدين إبراهيم بن غُراب كاتب محمود بآستقراره ناظر ديوان المفرد[١] وهذا أول ظهور ابن غراب في الدولة الظاهرية. وآستمال السلطان آبنَ غراب، فأخذ يدُلُّ على ذخائر أُستاذه محمود، ومحمود في المصادرة، إلى أن أظهر شيئاً كثيراً من المال.

ثم أنعم السلطان على جماعة من مماليكه بإمرة طبلخاناه وهم: طولو من علي باشاه الظاهريّ، ويلبغا الناصريّ الظاهريّ، وشاذي خجا الظاهري العثماني، وقَيْنار العلائي وأنعم أيضاً على جماعة بإمرة عشرة وهم: طَيْبُغا الحلبي الظاهري، وسُودون من عليّ باشاه الظاهري المعروف بسُودُون طاز، ويعقوب شاه الخازندار الظاهري، ويَشبك الشعباني الخازندار، وتمان تمر الإشقْتَمُريّ رأس نَوْبة الجَمَدَارية.

ثم خلع السلطان على الأمير فارس الحَاجب بآستقراره في نظر الشيخونية، وخلع على الأمير تمربغا المنجكيّ حاجباً ثانياً بتقدمة ألف.

وفي هذه الأيام عَظُم الغلاء وفقد الخبزُ من الدكاكين.

---

(١) قال القلقشندي: «وهو ديوان أحدثه الظاهر برقوق في سلطنته، وأفرد له بلاداً، وأقام له مباشرين، وجعل الحديث فيه لأستاداره الكبير، ورتب عليه نفقة مماليكه من جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك».
ثم ذكر القلقشندي بعد هذا أنه رأى في ولايات الدولة الفاطمية ما يدل على أنه كان للخليفة الفاطمي ديوان يسمى الديوان المفرد. (صبح الأعشى: ٥٢٤/٣، طبعة دار الكتب العلمية).

وفي آخر ذي العقدة ٱستقرّ سعد الدين إبراهيم بن غراب كاتب محمود في وظيفة نظر الخاصّ بعد القبض على سعد الدين بن أبي الفرج بن تاج الدين موسى.

ثم رَسَم السلطان بإحضار الأمير محمود فَحُمِل إلى بين يدي السلطان، وهو في ألم عظيم من العَصْر والضرب والعقوبة، فانتصب إليه كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غُراب في محاققته والفُحْش له في الكلام، حتى ٱمتلأ السلطان غَضَباً على محمود وأمر بعقوبته حتى يموت من عِظَم ما أغراه سعد الدين المذكور به.

ثم ورد الخبرُ بقدوم الأمير تَنَم الحَسَنِيّ نائبُ الشام، وكان خرج بطلبه الأمير سُودون طاز؛ وقَدِم من الغد في يوم الاثنين ثالث صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة، بعد أن خرج السلطان إلى لقائه بالرَّيْدَانيّة، وجلس له على مطعم الطير، وبعث الأمراء والقضاة إليه فسلّموا عليه، ثم أَتَوْا به، فقَبّل الأرض، فخلع عليه خلعة بٱستمراره على نيابة دِمَشق ثم قَدّم من الغد تقدمته، وكانت تقدمة جليلة، وهي عشرة كواهِي[1]، وعشرة مماليك صِغار في غاية الحسن، وعشرة الآف دينار، وثلاثمائة ألف درهم فضة، ومصحف عليه قراءات، وسَيْف مُسَقّط[2] ذهب مرصّع، وعِصابته مُنسبكة من ذهب مرصَّع، بجوهر نفيس وبدلة فرس من ذهب، فيها أربعمائة مثقال ذهب، وكان أجرةُ صائغها ثلاثة الآف درهم فِضّة، ومائة وخمسين بقجة فيها أنواع الفرو، ومائة وخمسين فرساً، وخمسين جملاً، وخمسة وعشرين جِمْلاً من نصافي ونحوه، وثلاثين جِملاً فاكهة وحَلْوى، فخلع السلطان على أرباب الوظائف.

ثم نزل السلطان بعد أيام إلى بَرّالجيزة، ومعه الأمير تَنَم وغيرُه، وتصيّد ببّرالجيزة، ثم عاد.

---

(١) الكواهي: واحدتها كوهية، وهي نوع من الصقور موشّاة بالبياض والسواد يخالط لونها صفرة. (صبح الأعشى: ٢/٦٨).

(٢) في السلوك: «وسيف بسقط ذهب مرصع» وفي نزهة النفوس: «سيف مثمن مسقط بالذهب».

وعَمِل السلطان الموكب بدار العدل في يوم سابع عشر صفر من سنة تسع وتسعين المذكورة، وخَلَع على الأمير تنم خِلْعة الاستمرار ثانياً، وجُرّت له من الإسطبل ثماني جنائب بكنابيش وسروج ذهب؛ فتقدّم تَنَم، وشَفَع في الأمير جُلبان الكمشبُغاوي المعزول عن نيابة حلب، فقَبِل السلطان شفاعتَه، وخرج البريدُ بطلبه من ثغر دِمْياط، فقَدِم بعد أيام، وقَبّلَ الأرض بين يدي السلطان، فأنعم عليه السلطان بإقطاع الأمير إياس الجِرْجاوي وخلع عليه بأتابكية دِمَشق عوضاً عن إياس المذكور بحكم القَبْض عليه وحضوره إلى الديار المصرية، وبعث إليه ثمانية أفراس بقماش ذهب ــ أعني عن جُلبان.

ثم أمر السلطان أن يُسلِّم الأميرُ أياس الجرْجاوي إلى آبن الطبلاوي ليخلص منه الأموال، فأخذه آبنُ الطبلاويّ فآلتزم بحَمل خمسمائة ألف درهم، وبعث مملوكَه لإحضار ماله وهو مريض، فمات إياس بعد يومين؛ وآختلف الناس في موته، فمنهم من قال: إنه كان معه خاتَمٌ فيه سمٌّ فشَرِبه فمات منه قَهْراً مما فعله معه الملك الظاهر، ومنهم من قال: إنه مات من مرضه. والله أعلم بحاله.

ثم في يوم الخميس رابع شهر ربيع الأول أمسك السلطان الوزير سعد الدين نصر الله بن البَقَريّ وولده تاج الدين وسائر حواشيه، وخلع على بدر الدين محمد بن محمد بن الطُّوخي وآستقر عوضه في الوزارة، وآستقر في نظر الدولة سعد الدين ابن الهَيْصَم.

ثم خلع السلطان على شرف الدين محمد بن الدَّمامِيني بآستقراره في وظيفة نظر الجيش بديار مصر بعد موت القاضي جمال الدين محمود القيصري العجميّ، نُقِل إليها من حِسْبة القاهرة.

ثم من الغد في يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأول المذكور آستقر القاضي شمس الدين محمد بن أبي بكر الطرابُلُسي قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضاً عن جمال الدين محمود القيصَري المقدّم ذكره.

ثم في خامس عشرينه قَدِمت هدية مُمَهِّد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل

عباس بن المجاهد علي بن داود بن يوسف بن عمر بن رَسُول ملك اليمن صحبة التاجر برهان الدين إبراهيم المَحّلي والطواشي آفتخار الدين فاخر، وهي عشرة خُدّام طواشية، وبعض عَبيد حُبوش، وست جوار، وسيف بحِلْية ذهب مرصّع بعَقيق، وحياصة[١] بعواميد عقيق مكلّلة بلؤلؤ كِبار، ووَجْه فرس عَقِيق، ومرآة هنديّة محلاّة بفضّة قد رُصعت بعقيق، وبَراشم[٢] برسم الخيول عشرة، ورِماح عِدّة مائتين، وشِطْرنج عقيق أبيض وأحمر، وأربع مراوح مصفّحة بذهب، ومِسْك ألف مِثقال، وسبعون أوقية زباد[٣]، ومائة مضرَّب غالية[٤]، ومائتان وستة عشر رطلاً من العود، وثلاثمائة وأربعون رطلاً من اللّبان، وثلاثمائة وأربعة وستون رطلاً من الصَّندل[٥]، وأربعة بَراني من الشّند[٦]، وسبعمائة رطل من الحرير الخام ومن البُهار والأنطاع[٧] والصيني وغير ذلك من تحف اليمن فشيء كثير.

ثم في يوم الخميس ثاني جمادى الأولى نُقل الأمير جمال الدين محمود الأستادار إلى خزانة شمائل وهو مريض.

وفي سادس عشر جمادى الآخرة أنعم على الأمير بَيْسق الشَّيْخيّ بإمرة طبلخاناه.

ثم خلع السلطان على الأمير صَرْغتمش القَزْويني بآستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل الأمير قُدَيد عنها ونَفْيه إلى القُدس بطّالاً وأنعم السلطان على الأمير شيخ المحمودي الساقي الظاهري (أعني عن الملك المؤيَّد) بإمرة طبلخاناه، عوضاً عن صَرغتمش القَزْويني المتولي نيابة الإسكندرية، وأنعم بإقطاع شيخ

(١) الحياصة: هي الحزام أو المنطقة.
(٢) البراشم: جمع برشوم، وهو برقع يستخدم للخيل.
(٣) الزباد: نوع من الطيب يستخرج من بعض الحيوانات الثديية.
(٤) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.
(٥) الصندل: نوع من الخشب له رائحة تشبه رائحة النعناع.
(٦) الشند: نوع من الرياحين يجلب من الحجاز.
(٧) الأنطاع: مفردها نطع، وهو بساط من أديم.

المحمودي وهو إمرة عشرة على الأمير طُغُنْجي نائب البِيرَة[١]. وأنعم السلطان أيضاً على يَشبك العثماني الظاهري بإقطاع الأمير صلاح الدين محمد بن محمد بن تَنْكِز.

ثم في سادس عشرينه آستقرّ الأمير يلبغا الأحمدي الظاهري المعروف بالمجنون أستادار السلطان، عوضاً عن قُطلوبَك العَلائِي، وآستقرّ قُطلوبك على إمرة عشرين.

ثم في يوم الاثنين ثامن محرم سنة ثمانمائة توجّه السلطان إلى سَرْحة سِرْياقوس بعساكره وحَرِيمه على العادة في كل سنة، فأقام به أياماً على ما يأتي ذكرُه.

وفي ثاني عشر المحرم المذكور خرج الأمير بَكْتَمُر جِلَّق الظاهري على البريد إلى حلب لإحضار الوالد ــ رحمه الله وعفا عنه ــ بعد عزله عن نيابة حلب، وكتب بانتقال الأمير أرغون شاه الإبراهيمي الظاهري نائب طَرَابُلُس إلى نيابة حلب عوضاً عن الوالد، وخرج الأمير يشبك العثماني بتقليد أرغون شاه المذكور. ورسم بآنتقال الأمير آقبغا الجمالي الظاهريّ من نيابة صَفَد إلى نيابة طَرَابُلس عوضاً عن أَرْغون شاه المذكور، وتوجّه بتقليده الأمير أَزْدَمُر أخو إينال ومعه أيضاً خِلعة للأمير تَنَم الحسني بآستمراره في نيابة الشام. ورسم بآنتقال الأمير شهاب الدين أحمد ابن الشيخ علي حاجب حُجّاب دمشق إلى نيابة صفد عوضاً عن آقبغا الجَمالي المذكور، وحَمل إليه التقليد والتشريف الأمير يلبغا الناصري الظاهري رأس نوبة.

ثم قَدِم في هذه الأيام جماعةٌ من سوابق الحاجّ وأخبروا أنه هَلَك بالسبع[٢] وعَرَات من شِدّة الحر نحو ستمائة إنسان.

ثم عاد السلطان من سَرْحة سِرْياقُوس في خامس عشرينه ولم يخرج إليها بعد ذلك، ولا أحدٌ من السلاطين، وبَطَلَت عوائدُها وخُرِّبت تلك القصورُ، وكانت من

---

(١) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية.

(٢) السبع وعرات: موضع قرب ينبع يعرف أيضاً بالمحاطب لأن أهل ينبع يجمعون منه حطبهم. (الخطط التوفيقية: ١٤/٢٧).

أجمل عوائد الملوك وأحسنها. وكان النزول إلى سِرْياقوس يُضاهي نزولَ السلطان إلى الميدان؛ فالميَادِين أبطلها الملك الظاهر، وسِرْياقوس أبطله الملك الناصر[١]. ثم صار كل ملك يأتي بعد ذلك يُبْطِل نوعاً من تراتيب مصر، حتى ذهب الآن جميعُ شِعار الملوك السالفة، وصار الفَرْق بين سلطنة مصر ونيابة الأُبُلُسْتَيْن اسم السلطنة ولُبْس الكَلَفْتاة في المواكب لا غير.

قلت: والفرق بين براعة الاستهلال وبين براعة المقطع واضحٌ.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشرين المحرّم من سنة ثمانمائة المذكورة قبض السلطان في وقت الخدمة بالقصر على الأمير الكبير كَمَشْبُغا الحمويّ أتابك العساكر بالديار المصرية وعلى الأمير بَكْلَمُش العلائيّ أمير سلاح، وقُيِّدا وحُبِسا بقلعة الجبل يأتي ذكر السبب على قبضهما في الوفيات، وفي هذه الترجمة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ثم نزل في الحال الأمير قَلمطاي الدوادار، والأمير نَوْرُوز الحافظيّ رأس نوبة النُّوَب، والأمير فارس حاجِب الحجّاب إلى الأمير شيخ الصَّفَوِي أمير مجلس ومعهم خِلْعة له بنيابة غزّة، فلبِسها شيخ المذكور وخرج من وقته ونزل بخَانقاه سِرْياقوس.

ثم في ليلة الثلاثاء سلخه توجّه الأمير سُودون الطيّار الظاهري بالأتابك كَمَشْبُغَا وبَكْلَمُش في الحديد إلى سجن الإسكندرية فسُجِنا بها وفي الغد آستعفى الأميرُ شيخ الصّفويّ من نيابة غزّة وسأل الإقامة بالقدس فرُسِم له بذلك.

وفي يوم الخميس ثاني صفر آستقرّ الأمير أَيْتَمُش البجاسِيّ أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن كمشبغا الحموي؛ وأنعم السلطان على أيتمش المذكور، وعلى قلمطاي الدوادار، وعلى الأمير تَنْبك اليحياوي الأمير آخور بعِدّة بلاد من إقطاع كمشبغا المذكور زيادةً على ما بأيديهم، وأنعم ببقيّة إقطاع كَمَشْبُغا على الأمير سُودون المعروف بسيِّدي سُودون آبن أخت الملك الظاهر وجعله من جُملة أمراء

---

(١) أي الناصر فرج بن برقوق.

الألوف بالديار المصرية، وأنعم بإقطاع سيِّدي سُودون المذكور على ولد السلطان الأمير عبد العزيز آبن الملك الظاهر برقوق.

ثمّ أنعم السلطان بإقطاع بَكْلَمُش العلائي على الأمير نَوْرُوز الحافظيّ رأس نَوْبة النُّوب.

وأنعم بإقطاع نَوْرُوز المذكور على الأمير أرغون شاه البَيْدَمُريّ الظاهريّ، وأنعم بإقطاع أرغون شاه على الأمير يلبغا المجنون الأستادار، والجميع تقَادِمِ ألوف، لكنّ التفاوت بينهم في زيادة المُغَلّ والخراج.

ثم عيَّن السلطان الأمير شيخ الصفويّ أمير مجلس للوالد قبل قدومه إلى القاهرة من نيابة حلب.

ثم في رابعة آستقر الأمير باي خَجَا الشَّرَفي الأمير آخور المعروف بطَيْفُور في نيابة غزة.

ثم في تاسع صفر آستقر الأمير بيبرس آبن أخت السلطان أمير مجلس عوضاً عن شيخ الصفوي المقدَّم ذكرُه.

ثم في سابع عشرين صفر أنعم السلطان على الأمير بهادُر فُطَيْس بإمرة طبلخاناه، عوضاً عن طَيْفُور بحكم آنتقاله إلى نيابة غزّة، وآستقر عوضه أيضاً في الأمير آخورية الثانية، وأنعم بإقطاع بهادُر فُطَيْس المذكور، وهو إمرة عشرة، على يلبغا السالِميّ الظاهري.

وفي ليلة الجمعة ثاني شهر ربيع الأول عَمِل السلطان المَوْلد النبويّ على العادة في كلّ سنة.

قلت: نذكُر صِفَة ما كان يُعْمَلُ بالمولد قديماً ليَقْتدِي به من أراد تجدِيدَه. فلمّا كان يومُ الخميس المذكور، جلس السلطان بمخيَّمه بالحوش السلطاني، وحضر القضاةُ والأمراء ومشايخ العِلم والفقراء، فجلس الشيخ سراج الدين عمر البلقيني عن يمين السلطان وتحته الشيخ برهان الدين إبراهيم بن زُقاعة، وجلس على يسار السلطان الشيخ المعتَقَد أبو عبد الله المغربي، ثم جلس القضاة يميناً وشمالاً

على مراتبهم ثم حضر الأمراء فجلسوا على بُعد من السلطان، والعساكر ميمنةً وميسرة، فقرأت الفقهاء فلمّا فَرِغ القُرَّاءُ، وكانوا عِدّة جُوَق كثيرة، قام الوعاظ واحداً بعد واحد، وهو يدفع لكل منهم صُرّة فيها أربعمائة درهم فضة، ومن كلّ أمير شُقَّة حرير خاصّ، وعِدَّتُهم عشرون واحداً. وأنعم أيضاً على القُرَّاء لكل جُوقة بخمسمائة درهم فِضة، وكانوا أكثرَ من الوُعّاظ.

ثم مُدَّ سِماطٌ جليل يكون مقداُره قدرَ عشرة أسمطة من الأسمطة الهائلة، فيه من الأطعمة الفاخرة ما يُسْتَحى من ذكره كثرةً، بحيث إن بعض الفقراء أخذ صحناً فيه من خاصّ الأطعمة الفاخرة فوُزِن الصحنُ المذكور فزاد على ربع قنطار. ولَمّا آنتهى السِّماط مُدّت أسمطةُ الحلوَى من صدر المخيَّم إلى آخره.

وعند فراغ ذلك مضى القضاة والأعيان وبِقِي السلطان في خواصّه وعنده فقراءُ الزوايا والصوفية؛ فعند ذلك أُقيم السَّماع من بَعْد ثُلُث الليل إلى قريب الفجر، وهو جالس عندهم، ويدُه تُملأ من الذهب، وتُفَرِّغ لمن له رِزْق فيه، والخازندار يأتيه بكِيس بعد كِيس، حتى قيل: إنّه فرّق في الفقراء ومشايخ الزوايا والصوفية في تلك الليلة أكثرَ من أربعة الآف دينار.

هذا، والسِّماط من الحَلْوَى والفاكهة يتداولُ مدّة بين يديه، فتأكله المماليك والفقراء، وتَكرّر ذلك أكثر من عشرين مَرّة.

ثم أصبح السلطان ففَرّق في مشايخ الزوايا القمح من الأهراء لكل واحد بحسب حاله وقَدْر فقرائه، كلُّ ذلك خارج عمّا كان لهم من الرواتب عليه في كلّ سنة حسب ما يأتي ذكرُ ذلك في آخر ترجمة الملك الظاهر بعد وفاته.

ثم في خامس عشر شهر ربيع الأوّل المذكور قَدِم الوالُد إلى القاهرة معزولاً عن نيابة حلب، فنزل السلطان الملك الظاهرُ إلى لقائه. قال الشيخ تَقِيُّ الدين المَقْرِيزيّ ـ رحمه الله ـ: «وفي خامس عشر شهر ربيع الأوّل قَدِم الأمير تَغْري بَرْدي اليَشْبُغاوي من حلب بتجمُّل زائد عظيم إلى الغاية، فخرج السلطان وتلقّاه بالمطعم من الريدانية خارج القاهرة، وسار معه من غير خلعة؛ فلمّا قارب القلعة

أمره بالتوجّه إلى حيث أنزله، وبَعَث إليه بخمسة أفراس بقماش ذهب، وخمس بُقَج فيها قماش مفصَّل له مُفَرّى[١]. انتهى كلام المقريزي.

قلت: وقوله «وعاد معه بغير خِلْعة» هي العادة؛ فإنّه منفصل عن نيابة حلب ولم يُعطَ إلى الآن وظيفة حتى يلبَس خِلْعتها.

وفي سابع عشرة قَدّم الوالد تقدمتَه إلى السلطان، وكانت نيِّفاً وعشرين مملوكاً وخمسة طواشية بِيض من أجمل الناس ـ من جملتهم خُشْقَدم اليَشْبَكي مقدّم المماليك السلطانية في دولة الملك الأشرف برَسْباي: أنعم به الملك الظاهر على فارس الحاجب، ثم ملَّكه يَشبِك الشعباني بعده وأعتقه ـ وثلاثين ألف دينار مصرية، ومائة وخمسة وعشرين فرساً، وعدّة جمال بخَاتي[٢] تزيد على الثمانين، وأحمالاً من البُقَج، فيها من أنواع الفرو والشقق الحرير وأثواب الصوف والمُخمل زيادة على مائة بُقْجة؛ فابتهج السلطان بذلك وقَبِله، وخلَع على أصحاب وظائف الوالد، ونزلوا في غاية الجبر.

حَكَى لي بعضُ أعيان الظاهرية، قال: لما رأى الملك الظاهر تقدمة والدك تعجّب غاية العجب من حسن سيرته وقلّة ظلمه بحلب، ومع هذا كيف قام بهذه التقدِمة الهائلة مع كثرة مماليكه وخَدمِه.

وكان سبب عزل الوالد ـ رحمه الله ـ عن نيابة حلب، شَكْوَى الأمير تَنَم الحَسَنِي نائب الشام منه للملك الظاهر، ورماه بالعِصيان والخروج عن الطاعة. وخبر ذلك أن الوالد وتَنَم لمّا توجّها في السنة الماضية إلى سِيواس وغيرها بأمر الملك الظاهر، وتَلاَقى الوالد مع تنم بظاهر حلب، وعادا جميعاً إلى حلب، وكلٌّ منهما سَنْجَقُه[٣] منتصب على رأسه، فعظُم ذلك على تنم، كون العادة إذا حضر نائب

---

(١) أي فيه فرو. وأبو المحاسن ينقل عن المقريزي ببعض تصرّف. ـ قارن بالسلوك: ٣/٨٩٠ ـ ٨٩١.
(٢) البخاتي: جمال ضخمة ذات سنامين ووبر أسود، وتستعمل في أسفار الشتاء. (محيط المحيط).
(٣) السنجق: لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح. وفي الاصطلاح هو الراية أو اللواء الذي يعقد للملوك والأمراء.

الشام يصير هو رأسَ العساكر ويُنْزِل نائب حلب سنجقَه؛ فلمّا سارا وكلٌّ منهما سنجقُه على رأسه، تكلّم سلحدارية تَنَم مع سلحداريّة الوالد في نزول السَّنجق، فلم يفعل حاملُ السنجق، فخرجا من القول إلى الفعل، وتقاتلَ الفريقان بالدبابيس بسبب ذلك، وكادت الفتنة تقَع بينهما، والوالدُ يتجاهل عمّا هم فيه، حتى التفتَ تنم ونَهى مماليكَه عن القتال، وسار كلٌّ واحد وسنجقُه على رأسه، حتى نزلاَ بمخيَّمهما، فآستشهد تَنَم أمراءَ دِمَشق بما وقع من الوالد ومماليكه، وكتب للسلطان بذلك فلم يشكّ السلطان في عصيانه، وكتب بعزله وطَلَبه إلى القاهرة.

وأما الوالدُ لمّا نزل بمخيَّمه كلَّمه بعضُ أعيان مماليكه فيما وقع، فقال الوالد: «أنا خرجتُ من مصر جندياً حتى أُنْزِلَ سنجقي!» أشار بذلك أنه ولي نيابة حلب وهو رأس نوبة النوب، وأن تَنَم ولي أتابكيّة دِمَشق، وهو أمير عشرة بمصر قبل ولايته نيابة دِمشق، ثم نُقِل من أتابكية دِمشق إلى نيابتها ـ يعني بذلك أن تنم لم تَسْبِق له رياسة بمصر قبل ولايته نيابة دمشق فلمّا بلغ تنم ذلك قامت قيامتهُ. اِنتهى.

ثم أنعم السلطان على سُودون بن زادة بإمرة عشرة، بعد موت الأمير طُوغان الشاطر.

ثم نزل السلطان وعاد الأمير قلمطاي الدَّوادار، فَفَرش قلمطاي تحت حوافر فرسه الشُّقَق الحرير، مشى عليها السلطان من باب داره حتى نزل بالقصر، فمشى من باب القصر على الشقق النخ[1] المذهب حتى جلس؛ فقدَّم إليه طبقاً فيه عشرة الآف دينار، وخمساً وعشرين بقجة قماش، وتسعة وعشرين فرساً، ومملوكاً تركيّاً بديعَ الحُسن؛ فقبل الملك الظاهر ذلك كله، ورجع إلى القلعة وفي حال رجوعه قَدِم عليه الخبر بأن تيمورلنك سار من سَمَرْقَنْد إلى بلاد الهند وأنه ملك مدينة دِلِّي[2].

---

(١) النخّ: بساط طوله أكثر من عرضه.

(٢) هي مدينة دلهي في شمالي الهند. وقد اتخذها المغول عاصمة لهم، ثم أصبحت عاصمة دولة الهند في العصر الحديث. وبنيت بجانبها مدينة جديدة سميت دلهي الجديدة أو نيودلهي.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر جمادى الأولى خلع السلطان على قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد المَلَطِي باستقراره قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية، بعد موت شمس الدين محمد الطرابلسي، بعد ما شَغَر قضاء الحنفية بمصر مائة يوم واحد عشر يوماً، حتى طلب جمال الدين المذكور لها من حلب وقدم على البريد.

قلت: هكذا تكون ولاية القضاء.

ثم أنعم السلطان على الأمير عليّ باي بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن الأمير تنبك الأمير آخور بعد موته.

ثم بعد أيام أنعم على الأمير يشبك العثماني بإمرة مائة وتقدمة ألف بعد موت الأمير قَلَمْطاي العثماني الدوادار، وأنعم على الأمير أَسَنْبُغا العلائي الدوادار الثاني بطبلخاناه الأمير بكتمر الركني، وكان بكتمر المذكور أخذ طبلخاناه الأمير عليّ باي المنتقل إلى تقدمة تَنْبك الأمير آخور.

ثمّ أنعم السلطان على آقباي الطُّرُنطائي بإمرة طبلخاناه، وعلى تَنْكِزبغا الحَطَطِي بإمرة عشرين.

وفي يوم تاسع عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على جماعة من الأمراء بعدة وظائف؛ فخلع على الوالد بآستقراره أمير سلاح عوضاً عن بَكْلَمش العلائي، بعدما شغَرت أشهراً، وعلى الأمير آقبغا الطولُوتَمُري الظاهري المعروف باللَّكّاش بآستقراره أمير مجلس عوضاً عن بيبرس ابن أخت السلطان، وعلى نَوْرُوز الحافظي رأس نوبة النوب بآستقراره أمير آخوراً كبيراً، بعد موت الأمير تَنْبك، وعلى الأمير بيبرس ابن أخت السلطان بآستقراره دواداراً كبيراً، عوضاً عن الأمير قلمطاي بعد موته، وعلى الأمير عليّ باي الخازندار بآستقراره رأس نوبة النوب عوضاً عن نوروز الحافظي، وعلى يشبك الشعباني بآستقراره خازنداراً عوضاً عن عليّ باي المذكور.

ثمّ في ليلة الجمعة ثامن شعبان أمسك السلطان الأمير علاء الدين عليّ بن

الطبلاوي وأمسك أخاه ناصر الدين محمداً والي القاهرة وجماعة من ألزامه وأوقع الحوطة على دورهم، وتسلمه الأمير يلبغا الأحمدي المجنون الأستادار ليخلِّص منه الأموال، فأخذه يلبغا وتوجّه به إلى دار آبن الطبلاوي وأخذ منها مالاً وقماشاً بنحو مائة وستين ألف دينار. ثم أخذَ منها أيضاً بعد أيام ألفاً ومائةَ[1] قُفَّة فلوساً، وصَرْفُها ستمائة ألف درهم، ومن الدراهم الفِضَّة خمسةً وثمانين ألف درهم فضة. وآستمر علاءُ الدين في المصادرة. وخلَع السلطان على الأمير الكبير أيتمش البجاسِي بآستقراره في نظر البيمارسْتان المنصوري عوضاً عن آبن الطَّبلاوي المذكور، ومن يومئذ آستمر نظر البيمارستان مع كلّ مَنْ يَلي الأتابكية بمصر.

ثم بعد أيام طَلَب ابن الطَّبلاوي الحضورَ بين يدي السلطان، فأذِن له السلطان في ذلك، فحضر في الحديد، بعد أن عُوقِب أياماً كثيرة؛ وطلب من السلطان أن يُدنيه منه، فآستدناه، حتى بَقِي من السلطان على قدر ثلاثة أذرع، فقال له: «تكلّم»، قال: «أريد أن أسارّ السلطان في أُذنه»، فلم يُمكِّنه من ذلك فألحّ عليه آبن الطبلاوي في مسارّة السلطان في أُذنه، حتى آستراب منه وأمر بإبعاده وآستخلاص المال منه، فأخذه يلبُغا وأخرجه من مجلس السلطان إلى باب النحاس[2] من القلعة [حيث يجلس خواص الخدّام الطواشية][3]. فجلس ابن الطبلاوي هناك ليستريح، فَضَربَ نفسَه بسكِّين كانت معه ليقتل نفسه، وجُرِح في موضعين من بَدَنه، فمسكوه ومنعوه من قتل نفسه، وأخذوا السكينَ منه.

وبلغ السلطانَ ذلك، فلم يشكّ أنه أراد الدنوّ من السلطان حتى يقتلَه بتلك السكين التي كانت معه، فلمّا فاته السلطان ضرب نفسه فعند ذلك أمر السلطان بتشديد عقوبته، فعاقبه يلبغا المجنون، فدلّ على خَبيئة فيها ثلاثون ألف دينار، ثم

---

(١) في السلوك: «ألفاً ومائتي قفَّة».

(٢) باب النحاس: من أبواب الدور السلطانية بقلعة القاهرة. عمَّره الناصر محمد بن قلاوون. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٢).

(٣) زيادة عن السلوك.

أخرى فيها تسعون ألف دينار، ثم أخرى فيها عشرون ألف دينار[١]. ودام في العقوبة، ثم نقله يَلْبُغا المجنون إلى خِزانة شمائل.

ثمّ في خامس عشر شوال خَتَنَ السلطان الملك الظاهر ولديه، الأميرَ فرجاً والأمير عبد العزيز، وختَن معهما عِدّة من أولاد الأمراء المقتولين، منهم: ابن الأمير مِنطاش وغيره، وأنعم عليهم بقُماش وذهب. وعمل السلطان مُهمّاً عظيماً بالقلعة للنساء فقط، ولم يَعْمَل للرجال، مخافةً على الأمراء من الكُلَف.

وفي يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة عَمِل السلطان مُهِمّاً عظيماً بالميدان تحت القلعة، سببُه أنه لَعب بالكُرة مع الأمراء على العادة، فغلب السلطانُ الأميرَ الكبيرَ أيتمش البجاسِي، فلزم أيْتَمش عمل مُهمّ بمائتي ألف درهم فضة، كونه غُلِب، فقام عنه السلطان بذلك، وألزم السلطانُ [به][٢] الوزيرَ بدر الدين محمد بن الطوخي والأميرَ يلبغا الأستادار. ونُصِبت الخِيمُ بالميدان وعُمِل المهم، وكان فيه من اللحم عشرون ألف رطل، ومائتا زوج إوز، وألفُ طائر من الدَّجَاج، وعشرون فرساً [ذبحت][٢]، وثلاثون قنطاراً من السكر [عملت حلوى ومشروباً][٢]، وثلاثون قنطاراً من الزبيب عُمِلت أقْسِماً[٣]، وستون إردباً دقيقاً لعمل[٤] البوزا، وعُمِلت المسكرات في دِنان من الفَخّار.

ونزل السلطان سَحَر يوم السبت المذكور، وفي عزمه أن يُقِيم نهارَه مع الأمراء

---

(١) وأضاف المقريزي بعد هذا: «. . . وتتبّعت أحواله وأبيع موجوده وعقاره، وألزم ابن عمه ناصر الدين محمد بحمل مائتي ألف درهم، وعوقب عقوبة شديدة حتى أوردها، وألزم أخوه ناصر الدين محمد بمائة ألف درهم، وألزم أربعة من خواصه بمائتي ألف درهم». وفي حاشية نزهة النفوس: ٤٦٤/١، عن الإعلام لابن قاضي شهبة أن ابن عم الطبلاوي اسمه تقي الدين بن الصاحب فخر الدين أبي شاكر.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الأقسما: شراب مسكر يتخذ من نقيع الزبيب. ـــ وعبارة إنباء الغمر: «وعمل الزبيب ستون قنطاراً نبيذاً».

(٤) في السلوك: «وستون إردباً دقيقاً لعمل الشراب المسكر». وفي إنباء الغمر: «وستون إردباً من الدقيق عمل بها بوزة، عملت في الدنان، وقيل كان فيها مائة إردب، وأضيف إليها عشرة قناطير حشيش فطحنت وخلطت بها». والروايتان تتفقان على أن «البوزا» أو «البوزة» من المسكرات. على أن الرواية الأولى تشير إلى أنه شراب، والثانية توحي بأنه مسكر جاف.

والمماليك، يعاقرهم الشرابَ، فأشار عليه بعضُ ثقاته بترك ذلك وخَوَّفه العاقبة، فمدَّ السِّماط وعاد إلى القصر قبل طلوع الشمس. وأنعم على كلّ من الأمراء المقدَّمين بفرس بقُماش ذهب. وأَذِن السلطان للعامَّة في آنتهاب ما بَقي من الأكل والشراب. قال المقريزي: «فكان يوماً في غاية القُبْح والشَّناعة، أُبِيحَت فيه المسكراتُ، وتجاهرَ الناس فيه بالفواحش، بما لم يُعْهد مثلُه، وفَطِن أهلُ المَعرفة بزوال الأمر، فكان كذلك. ومن يومئذ انتُهِكت الحُرمات بديار مصر وقلَّ الاحتشام». اِنتهى كلامُ المقريزي[1].

---

(١) وذكر ابن حجر في إنباء الغمر أنه أثناء تلك الوليمة «صاح فقير تحت القلعة بإنكار هذه الوليمة، فقبض عليه وضرب وجرِّس».

ذكر وقعة عليّ[١] باي مع السلطان الملك الظاهر برقوق

لَمَّا كان يوم السبت تاسع عشر ذي القعدة من سنة ثمانمائة أوفى النيلُ، وقَدِم أيضاً البريد بقتل سُولِي بن دُلْغَادِر أمير التُّركمان، فركِب السلطان بعد صلاة الظهر يُريد المقياس ليُخَلِّقَه ويفتح خليجَ[٢] السَّدّ على العادة، ومعه جميعُ الأمراء إلّا الأميرَ عليّاً باي الخازندار، فإنه كان انقطع بداره أياماً وتَمارضَ، وفي باطن أمره أنه قصد الفَتْكَ بالسلطان؛ فإنّه عَلِم أنه إذا نزل لفتح الخليج يدخلُ إليه ويعودُه كما جَرَت به عادته مع الأمراء فَدَبَّر عليٌّ باي على السلطان، وأخلى إسطبلَه من الخيل، وَدارَه من حريمه، وأَعَدَّ قوماً اختارهم من مماليكه. فتهيّؤوا لذلك، فرآهم شخصٌ كان يسكُن بأعلى الكبش[٣] من المماليك اليلبُغاويّة يسمى سُودون الأعور، فركب إلى الملك الظاهر في أثناء طريقه بعد تخليق المقياس وفَتْح خليج السدّ، وأسرّ إليه أنه شاهد من سكنه مماليكَ عليّ باي، وقد لَبِسُوا آلة الحرب ووقفوا عند بوائك[٤] الخيل من إسطبله، وستروا البَوائِك بالأنخاخ ليخفى أمرهم، فقال له

---

(١) ذكره المقريزي باسم «ألي باي».

(٢) استعمل المؤلف هذه التسمية أكثر من مرة. ومراده: سدّ الخليج. والخليج المعتاد سدّه وفتحه سنوياً هو خليج القاهرة المعروف بالخليج الناصري. وأما السدّ الذي كان يقام سنوياً في هذا الخليج ويفتح وقت فيضان النيل فكان قريباً من فم هذا الخليج. ومكانه يقع اليوم في نهاية شارع الخليج المصري من الجهة القبلية في نقطة واقعة جنوبي البقعة المعروفة بعشش الساقية. (محمد رمزي).

(٣) الكبش: كانت في الأصل مجموعة من القصور على جبل يشكر تشرف على بركة قارون وبركة الفيل وعلى البساتين التي في بر الخليج الغربي من المقس إلى فم الخليج. وقد بناها الصالح نجم الدين أيوب حوالي سنة ٦٤٠هـ. وما زالت بعد الملك الصالح من المنازل الملكية إلى أن هدمها الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٨هـ، فحكر الناس الكبش وبنوا فيه مساكن. (خطط المقريزي: ٢/١٣٣).

(٤) البوائك: في اللغة، هي النخل الثوابت في مكانها. والبوائك من البيوت: ذات الأعمدة الضخام، مولّدة عامية. =

السلطان: «اكتُم ما معك»، فلم يُبْدِ السلطانُ ذلك إلا لأكابر أمرائه.

ثم أمر السلطان الأميرَ أَرسطاي رأس نوبة أن يتوجّه إلى دار عليّ باي ويُعلمه أن السلطان يدخل إليه لعيادته، فتوجّه أرسطاي عادةً وأعلم عليّاً باي بذلك. فلمّا بلغ عليّاً باي أن السلطان يعودُه آطمأن وظنّ أن حيلته تمّت. ووقف أرسطاي على باب عليّ باي ينتظر قدومَ السلطان. وعندما بعث السلطان أرسطاي إلى عليّ باي أمر الجاويشية بالسكوت فسكتوا عن الصِّياح أمامَ السلطان.

ثم أبعدَ السلطان العصائبَ السلطانية عنه وأيضاً السَّنْجَق الذي يُحمل على رأس السلطان، وتقدّم عنهم حتى صار بينه وبين العصائب مدى بعيد من خلفه. وسار السلطان كآحاد الأمراء وسار حتى وافى الكَبشَ، وهو تُجاه دار عليّ باي، والناس قد آجتمعوا للفُرجة على موكب السلطان، فصاحت آمرأةٌ من أعلى الكَبْش على السلطان: «لا تدخل، فإنّهم قد لَبِسوا لقتالك»، فحرّك السلطانُ فرسَه وأسرع في المشي ومعه الأمراء ومن ورائه المماليك الخاصَّكِيّة يريد القلعة. وكان باب عليّ باي مردودَ الدَّرفتين، وضَبَّته مطرقَة ليمنـعَ الناس من الدخول إليه، حتى يأتي السلطان؛ فلمّا مرّ السلطان ولم يعلم به مَنْ ندبَه عليّ باي لرؤية السلطان وإعلامه به، حتى جاوزهم السلطان بما دبَّره السلطانُ من المَكِيدة بتأخير العصائب السلطانية والسَّنْجَق والجاويشيّة وتقدُّمه عنهم.

ثم بلـغ عليّاً باي أن السلطان فاته، فرَكِب. وبادر أحدُ أصحابه يُريد فتـح الضَّبّة فأغلقها، وإلى أن يحضر مفتاح الضَّبّة ويفتحونها فاتَهم السلطان، وصار بينه وبينهم سَدٌّ عظيمٌ من الجَمداريّة والغِلمان وغيرهم. فخرج عليّ باي ومَن معه من

= وهذا اللفظ معروف إلى اليوم في الشام، ويطلق على مخازن الغلال للتجار. وأصحاب هذه البوائك يسمون البوايكية.

وفي جنوبي لبنان (جبل عامل) يطلق هذا اللفظ على البيوت الكبيرة تعدّ للبقر والإبل والخيل.

أما في منطقة البقاع فإنه يطلق تحديداً على قسم أرضي متّسع من البناء، معدّ لتخزين علف الدواب من بقر وخيل وغيرها. ونرجّح أن هذا المعنى الأخير هو المراد في النص هنا. ولعلّه قسم من الإسطبل معدّ لعلف الدواب، وخاصة الخيل. (أنظر معجم متن اللغة).

أصحابه لابسين السلاح، وعِدَّتُهم نحو الأربعين فارساً، يريدون السلطان، وقد ساق السلطان ومعه الأمراء، حتى دخل باب السلسلة وآمتنع به. فوقف علي باي من معه تجاه باب السلسلة، فنزل إليه في الحال طائفةٌ من المماليك السلطانية لقتاله، فقاتلهم، وثبت لهم ساعة حتى جُرح من الفريقين جماعةٌ وقُتِل من المماليك السلطانية بَيْسَق المُصارع.

ثم آنهزم عليّ باي وتفرّق عنه أصحابه، وقد آرتجت مصر والقاهرة، وركب يلبغا المجنون الأُستادار ومعه مماليك لابسين يريد القلعة. وأرجف بقتل السلطان، وآشتدَّ خوف الرعيّة، وتشعّب الذُّعر[١].

ثم لَبِست المماليك السلطانية السلاح، وأتى السلطانَ مَن كان غائباً عنه من الأمراء والخاصكيّة وتحلّقوه.

فعندما طَلع يلبغا الأحمديّ المجنون الأُستادار إلى السلطان وثب عليه الخاصكيّة، وآتّهموه بموافقة عليّ باي لكونه جاء هو ومماليكُه في أسرع وقت بآلة الحرب؛ فأخذه اللّكم من الخاصكيّة من كل جهة، ونزعوا ما عليه من السلاح، وألْقَوْهُ إلى الأرض ليذبحوه، لولا أن السلطان منعهم من ذلك. فلمّا كفُّوا عن ذبحه سجنوه بالزَّرَدْخاناه السلطانية مقيّداً.

ثم قُبض على نُكباي شادّ شرا بخاناه عليّ باي، وقُطِّع قِطعاً بالسيوف[٢]، فإنه أصلُ هذه الفتنة.

وسبب ركوب عليّ باي على السلطان وخبرُه أن نُكْباي هذا كان تعرّض لجارية من جواري الأمير آقباي الطُّرُنطائي، وصار بينهما مشاكلة، فبلغ ذلك آقباي، فمسك نُكْباي المذكور وضربه ضرباً مبرِّحاً، ثم أطلقه. فحَنِق عليّ باي من ذلك، وشكا

(١) كذا بالأصل. ونرجّح أنها: «وتشغَّب الزُّعْر» أي إن الزُّعر ــ وهم من جماعات اللصوص والنهابين ــ استغلوا هذه المناسبة ليحققوا مآربهم في الشغب والنهب على عادتهم.

(٢) ذكر الخطيب الجوهري أن نكباي ساق وراء السلطان والسيف مسلول بيده إلى أن وصل إلى باب السلسلة، فاجتمعت عليه المماليك السلطانية وهبروه بالسيوف ولم يرفعوه إلا وهو ميّت من كثرة الضربات. (نزهة النفوس: ١/٤٦٩).

آقبايَ للسلطان، فلم يلتفت السلطان إليه، وأعرض عنه ـ وكان في زعمه أن السلطان يغضَب على أقباي بسبب مملوكه ـ فغضب عليّ باي من ذلك، ودبَّر هذه الحيلة الباردة، فكان في تدبيره تدميرُه.

وبات السلطان تلك الليلة بالإسطبل السلطاني، ونهبت العامّة بيتَ عليّ باي، حتى إنهم لم يُبقوا به شيئاً.

وأما عليّ باي فإنه لما رأى أمرَه تلاشى ذهب وآختفى في مستوقد حَمّام، فَقُبِض عليه وحُمِل إلى السلطان، فقيّده وسجنه بقاعة[١] الفِضّة من القلعة.

فلما أصبح النهار وهو نهار الأحد والعشرين من ذي القعدة نَزَع العسكر السلاح وتفرّقوا. وطلع السلطان إلى القلعة من الإسطبل، وأخذ عليّ باي وعَصره[٢]، فلم يُقِر على أحد. وأُحضر يلبغا المجنون، فحلفَ عليّ باي أنه لم يُوافقه ولا عَلِم بشيء من خبره، وحَلَف يلبغا أنه لم يعلم بما وقع، وأنه كان مع الوزير بمصر. فلمّا أُشِيع بركوب عليّ باي لَحِق [يلبغا المجنون] بداره، ولَبِس السلاح ليقاتل عليّاً باي، فأفرج عنه السلطان وخلع عليه بآستمراره على الأستادارية، ونزل إلى داره، فلم يجد بها شيئاً، وجميع ما كان فيها نهبتْه العامّة، حتى سُلِبت جواريه، وفرّت آمرأته خوند بنت الملك الأشرف شعبان بن حسين، وأخذوا حتى رُخام بيته وأبوابه، وتشعّثت داره وصارت خراباً؛ والدار هي التي على بركة الناصري بيت سونجبغا الناصري الآن.

ثم قَدِم البريد على السلطان من حلب بأن أولاد آبن بَزْدغان من التُّركمان والأمير عثمان بن طُرْعَلِي المدعو قَرَايُلك تقاتلوا مع القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس، فَقُتِل برهان الدين في المعركة وقام من بعده آبنُه[٣].

---

(١) هي إحدى قاعات القصر الكبير بقلعة الجبل بالقاهرة.

(٢) كان العَصْر من أنواع التعذيب الشائعة في ذلك الوقت. ومن أنواعها أيضاً: الشدّ، والتَّعليق، والتسمير، والصلب. وكان التوسيط ـ أي قطع المراد قتله نصفين من الوسط ـ هو أكثر أشكال القتل شيوعاً.

(٣) انظر هذا الخبر بتفصيل في السلوك: ٣/٩٠٦.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين ذي القعدة جلس السلطان بدار العدل، وعَصرَ عليّاً باي المذكور فلم يُقِر على أحد.

وبينما السلطان في ذلك إذا بِهجّة[١] عظيمة قامت في الناس، فلَبِس العسكر ووقفوا تحت القلعة، وقد غُلقت أبواب القلعة. وأشِيـع أن يلبغا المجنون، والأمير آقبغا الطُولُوتَمريُّ المعروف باللّكّاش أمير مجلس خامرا على السلطان، ولم يكن الأمـر كذلك. وبلـغ اللكاش ذلك، فركب من وقته فطلـع إلى القلعة.

وأما يَلْبُغا المجنون فإنه كان في بيت الأمير فرج، فرَكِب فرج المذكور ليُعْلِم السلطان بأنه كان في داره بالقاهرة حتى يبرأ ممّا رُمِي به. وطلـع في الحال جميـعُ الأمراء، فأمر السلطان بقلـع السلاح ونزول كلّ أحد إلى داره، وسَكَن الأمر، ونُودِي بالأمان والاطمئنان.

ثم في ليلة الثلاثاء عُذِّب علي باي أيضاً بين يدي السلطان عذاباً شديداً، كُسِرت فيه رجلاه وركبتاه وخُسِف صدره، فلم يُقِرّ على أحد. ثم أُخِذ إلى خارج وخُنِق. فتنكّرت الأمراء وكَثُر خوفُهم من السلطان، خشيةَ أن يكون عليّ باي ذكر أحـداً منهم من حرارة العقـوبة. ومن يـومئذ فَسـدَ أمرُ السلطان مـع ممـاليكه الجراكسة[٢]. ودخل السلطان إلى زوجته خَوَنْد الكُبْرى أرد[٣] وكانت تركية الجنس، وكانت تحذره عن آقتناء المماليك الجراكسة وتقول له: «اجعل عسكرَك أبلقَ من أربعة أجناس: تتَرَ وجارَكْس ورُوم وتُرْكمان، تستريـح أنت وذريتّك»، فقال لها: «الذي كنت أشرْتِ به عليّ هو الصواب، ولكن هذا كان مقدّراً، ونرجـو الله تعالى إصلاحَ الأمر من اليوم».

---

(١) هجَّت النار هجاً وهجيجاً: اتقدت وسمـع صوت استعارها. والعامة تقول: هـجَّ هجيجاً إذا فرّ هارباً مسرعاً، وكأنه اتقدت ناره. والمراد بالهجّة هنا اضطراب الناس وتسارع اللغط فيما بينهم. وهو تعبير عامّي.

(٢) وذكر المقريزي أنه من يومئذ لم ينصلـح أمر السلطان معهم إلى أن مات. ولخوفه منهم لم ينزل بعد ذلك من القلعة. (السلوك: ٣/٩٠٧).

(٣) ورد في السلوك: ٣/٣٨٠ أنه كان للأمير الكبير برقوق ــ هذا قبل أن يتسلطن ــ جارية اسمها «أردو» استولدها ولداً ذكراً سماه محمداً.

ثمّ في يوم الثلاثاء أمرَ السلطان الأميرَ يَلْبُغا المجنون أن يُنْفق على المماليك السلطانية، فأَعطى الأعيانَ منهم خمسمائة درهم، فلم يُرْضهم ذلك. وكَثُرت الإشاعات الرديَّة والإرجاف بوقوع فتنة، وباتوا ليلةَ الخميس على تَخَوُّف، ولم تُفْتح الأسواقُ في يوم الخميس، فنُودِي بالأمان والبَيْع والشراء، ولا يتحدّث أحد فيما لا يَعْنيه.

ثمّ أنعم السلطان على الأمير أرسْطاي بتقدمة عليّ باي، ووظيفتُه رأسُ نَوْبة النُّوب، وأنعم على الأمير تمان تَمُر الناصري بإقطاع أرسطاي، والإقطاع: إمرة طبلخاناه.

ثم في سادس عشرينه نزل الأمير فارس حاجبُ الحجاب، والأمير تَمُرْبُغا المَنْجكي أحد أمراء الألوف، وحاجب ثاني، وقَبَضا على الأمير يلبغا الأحمدي الظاهريّ المعروف بالمجنون الأستادار من داره، وبعثاه في النِّيل إلى ثغر دمياط، واستقرّ عِوَضه أستاداراً الأمير ناصر الدين محمد بن سنْقُر بإمرة خمسين فارساً. وأنعم السلطان على الأمير بَكْتَمُر جِلَّق الظاهري رأس نَوبة بتقدمة ألف عوضاً عن يَلْبُغا المجنون.

وفي يوم السبت ثالث ذي الحجة خَلَع السلطان على أميرين بآستقرارهما رؤوس نُوَب صغاراً وهما: طُولُو بن علي باشا الظاهري وسودون الظريف الظاهريّ.

وفي يوم الأحد رابع ذي الحجة سمَّر السلطان أربعة نفر من مماليك عليّ باي ثم وُسِّطوا.

ثم رَسَم السلطان بإحضار الأمير بكلمش العلائيّ أمير سلاح كان من سجنه بالإسكندرية وتوجّه إلى القدس بطّالاً على ما كان للأمير شيخ الصّفوي من المرتَّب.

ثمّ استهّل القرن التاسع ــ أعني سنة إحدى وثمانمائة ــ والخليفة المتوكِّل على الله أبو عبد الله محمد العباسي، والسلطان الملك الظاهر أبو سعيد بَرْقوق بن أنص الجارَكْسي اليَلْبُغاويّ، والقاضي الشافعيّ تقي الدين عبد الرحمن الزُّبَيْري، والقاضي الحنفي جمال الدين يوسف المَلَطِيّ، والقاضي المالكي ناصر الدين أحمد

التَّنَّسي، والحنبليّ برهان الدين إبراهيم بن نصر الله، والأمير الكبير أَيْتَمُش البجاسيّ، وأمير سلاح تغري بَرْدي بن يَشْبُغا الظاهري (أعني عن الوالد)، وأمير مجلس آقبغا اللكّاش الظاهري، والأمير آخور نَوْروز الحافظي الظاهري، وحاجب الحجاب فارس الظاهري، والدوادار بيبرس آبن أخت الملك الظاهر برقوق، ورأس نوبة النُّوَب أرسْطاي.

ونوّاب البلاد: صاحب مكة المشرفة الشريف حسن بن عَجْلان الحَسَنيّ المَكّي، وأمير المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ الشريف ثابت بن نُعَيْر الحُسَينيّ، ونائب الشام الأمير تنبك الحسني المعروف بتنمَ الظاهري، ونائب حلب أرغون شاه الإبراهيمي الظاهري، ونائب طرابلس يُونُس الظاهري المعروف بيونس بَلْطَا، ونائب حماة آقبغا الجمالي، ونائب صَفَد شهاب الدين أحمد ابن الشيخ علي، ونائب غزّة بيخجا المعروف بطيفور الظاهري، ونائب الإسكندرية صَرْغَتْمُش القَزْويني. وجميع من ذكرنا من النوّاب بالبلاد الشامية وأصحاب الوظائف بالديار المصرية هم مماليك الظاهر برقوق ومشترواته، ما خلا نائب صفد وهو أيضاً نشؤه، والأتابك أيتمش وقد آشتراه بعد سلطنته، حسبما تقدم ذكره أنه آشتراه من أولاد معتق أستاذه.

ثم في يوم سابع عشر المحرم المذكور سمَّر السلطان سبعة نفر من المماليك يقال لأحدهم آقبغا الفيل الظاهري، وآخر من إخوة عليّ باي ظاهري أيضاً، الباقي من مماليك عليّ باي، وشُهِّروا بالقاهرة، ثم وسِّطُوا.

وفيه أيضاً تَنَكَّر السلطان على سُودون الحمزاوي الخاصَّكِي الظاهري وضربه ضرباً مبرحاً وسجنه بخِزانة شمائل مدّة، ثم أخرجه منفيًّا إلى بلاد الشام لأمر آقتضى ذلك.

وفي هذا الشهر توعَّك السلطان وحدَثَ له إسهالٌ مُفْرط لزم منه الفراش مدّة تزيد على عشرين يوماً.

ورَسَم السلطان بتفرقة مال على الفقراء، فَفُرِّقَ فيهم، فاجتمع تحت القلعة

منهم عالمٌ كثير وآزدحموا لأخذ الذهب، فمات في الزِّحام منهم سبعةٌ وخمسون شخصاً، ما بين رجل وآمرأة وصغير [وكبير](١)، قاله المقريزي.

وفي يوم ثاني عشره رَسَم السلطان بجَمْع أهل الإسطبل السلطاني من الأمير آخوريَّة والسلاخورية(٢) ونحوهم، فآجتمعوا، ونزل السلطان من القصر إلى مَقْعده بالإصطبل السلطاني وهو متوعِّك البَدَن لعرْضهم، وعرَضهم حتى انقضى العَرْض. فأمسك [السلطان] جَرباشَ الظاهريَّ أحدَ الأمير آخورية الأجناد وقال له بعد ذلك: «على ماذا تريد قتلي وأنا أستاذك!» فلم ينزعج جرباش المذكور وقال، بعد أن أشار بيده إلى حياصته: «أكون أنا لابس حياصة وهؤلاء أمراء!» وأشار لمن حول السلطان من الأمراء من مماليكه، «وهم الجميع أقلّ مني وبعْدِي شَرَيْتَهم!» فأشار السلطان بأخذه، فأُخِذ وسُجِن، فكان ذلك آخر العهد به.

ثم عرض السلطان الخيل وفرّق خيلَ السِّباق على الأمراء، كما كانت العادة يوم ذلك.

ثم عرض الجمال البخاتي، كلُّ ذلك تشاغلاً(٣)، والمقصودُ القبضُ على الأمير نَوْرُوز، الحافظي الظاهري الأمير آخور الكبير. ثم أظهر السلطان أنه تَعِب، واتّكأ على الأمير نَوْرُوز، ومشى من الإسطبل متكئاً عليه، حتى وصل إلى الباب الذي يُطْلَع منه إلى القصر، فأدار السلطانُ يدَه على عُنُق نوروز المذكور، فبادر الخاصَّكيّة إليه باللَّكم حتى سقط إلى الأرض، ثم قبضوا عليه وحملوه مُقَيَّداً إلى

---

(١) زيادة عن المقريزي.

(٢) السلاخورية أو السراخورية، مفردها سلاخور أو سراخور، وهو الذي يتحدث على علف الدواب من الخيل وغيرها. واللفظ مؤلف من «سر» الفارسية بمعنى الرأس، و«أخور» أي المعلف. ويقول القلقشندي إن لفظ سلاخور هو خطأ شائع. (صبح الأعشى: ٥/٤٦٠). ويرى الدكتور أحمد السعيد سليمان أن وجود سلاخور باللام يقوّي احتمال أن يكون المقطع الأول من الكلمة منحوتاً من الكلمة الفارسية «سالار». (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٣١).

والأمير آخور: هو المتحدث على أمر الاسطبل السلطاني وما فيه. وقد سبق التعريف به، فانظر فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٣) أي تظاهراً بالانشغال بالعرض.

السجن. ودخل السلطان من الباب وطلع إلى القلعة. وكان للأمير نوروز ذنوبٌ كثيرة، منها الممالأة لعليّ باي، ومعه أيضاً الأمير آقبغا اللَّكَّاش، ثم تخاذل نُوروز في فتح باب السلسلة للسلطان يوم وقعة عليّ باي.

ثمّ بعد ذلك بَلغ السلطان أن نوروز المذكور قَصَد الركوب عليه، فمنعتْه أصحابه، وأشاروا عليه أن يصير حتى ينتظر ما يصير من أمر السلطان في مرضه، فإن مات فقد حصل له القصد من غير تعب ولا شُنْعة، وإن تعافَى من مرضه فليفعل عند ذلك ما شاء. وكان ممن حضر هذه المَشُورة مملوك من خاصّكية الملك الظاهر، فلم يُعْجِب نوروز ذلك، وقرّر مع أصحابه من الخاصّكية الذين وافقوه أنه إذا كان ليلة نَوْبَتهم في خدمة القصر ودخلوا مع السلطان في القصر[1] الصغير المعروف بالخرجة المطلّ على الإسطبل السلطاني يثبون عليه بمن اتفق معهم ويقتلون السلطان على فراشه، ثم يكسرون الثُّريَّةَ المعلقة بقناديلها المُوقَدة ـ يكون ذلك إشارةً بينهم وبين نوروز، بعد قتل السلطان ـ فيركب نوروز عند ذلك ويملك القلعة من غير قتال. فأخذ الخاصّكية يستميلون جماعة أُخر من الخاصكية ليكثُر جمعُهم، وكان من جملة مَن استمالوه قاني باي الصغير الخاصكيّ ـ وأظنه الذي ولِيَ نيابة الشام في دولة الملك المؤيّد شيخ، والله أعلم ـ فأجابهما قاني باي بالسمع والطاعة وحلَف لهم على الموافاة. ثم فارقهم ودخل إلى السلطان من فوره وقعد لتكبيسه، فحكى له القصة بتمامها وكمالها، فاحترز الملك الظاهر على نفسه، ودبّر على نوروز حتى قبض عليه.

ثم بعد مدة في يوم السبت رابع صفر خلع السلطان على الأمير آقبغا اللَّكَّاش الظاهريّ بنيابة الكرك وأُخْرج من ساعته وأذِن له بالإقامة بخانقاه سِرْياقوس حتى يُجهّز أمره، ووكّل به الأمير تنبك الكركي الخاصّكي وهو مُسفّره.

ثم في ليلة الأحد أنزِل الأمير نوروز الحافظي من القلعة مقيّداً إلى سجن الإسكندرية، ومسفّرة الأمير أردبغا الظاهري أحد أمراء العشرات.

---

(١) هو القصر الغربي، وكان موضعه حيث البيمارستان المنصوري، وهو من بناء العزيز بالله الفاطمي. (خطط المقريزي: ١/٤٥٧).

ثم قبض السلطان على قوزي الخاصّكي أحد من كان آتفق مع نوروز، وسُلِّم إلى والي القاهرة.

ثم أنعم السلطان بإقطاع الأمير نوروز الحافظي على تمراز الناصري، وصار من جملة مقدّمي الألوف بالديار المصرية. وأنعم على سُودون الماردينيّ بإقطاع آقبغا اللّكّاش، وهو تقدمة ألف أيضاً. وخلع على الأمير أرغون شاه البيدمري الظاهري باستقراره أمير مجلس، عوضاً عن آقبغا اللكاش المذكور. وخلع على سودون المعروف بسيّدي سُودون قريب الملك الظاهر برقوق باستقراره أمير آخور عوضاً عن نوروز الحافظيّ.

وفي ثالث عشرين صفر أيضاً أمْلَى بعضُ المماليك السلطانية سكّان[1] الأطباق بالقلعة على بعض فقهاء الأطباق أسماءَ جماعة من الأمراء والمماليك أنهم اتفقوا على إقامة فتنة والقيام على السلطان، وكتبها ودخل بها المملوك على السلطان، فلما قُرئت الورقة على السلطان، آستدعى المذكورين وأخبرهم بما قيل عنهم، فحلفوا أن هذا شيء لم يسمعوه إلا الآن، وحلُّوا أوساطهم ورمَوْا سيوفهم، وقالوا: «يوسِّطنا السلطان أو يخبرنا بمن قال هذا عنا»، فأحضر السلطان المملوك وسلّمه إليهم وضربوه نحو الألف عصا، حتى أقرّ أنه آختلق هذا الكلام عليهم حنقاً من واحد منهم، وسمَّى شخصاً كان خاصمه قبل ذلك. ثم أحضر السلطان الفقيه الذي كتب الورقة وضربه بالمقارع وسُمِّر، ثم شُفع فيه من القتل وحبس بخزانة شمائل.

ولما وصل الأمير آقبغا اللكاش إلى غزة متوجّهاً إلى محل كفالته بمدينة الكرك، قُبض عليه بها وأُحيط على سائر ما كان معه، وحُمِل إلى قلعة الصُّبَيْبَة[2] فسُجن بها.

ثم ورد الخبر على السلطان في صفر المذكور أن السكّة ضُرِبت بآسمه بمدينة

(١) عبارة الأصل: «المماليك السلطانية إليه بالأطباق على بعض..». والتصحيح عن السلوك.

(٢) قلعة الصبيبة في بانياس بالجولان.

ماردين[١]، وخُطِب له بها وحملت له الدنانير والدراهم وعليها آسم السلطان.

ثم في شهر ربيع الأول في رابعه ورد الخبر على السلطان بموت الأمير أرغون الإبراهيمي الظاهري نائب حلب، فرسَم السلطان أن ينقل الأمير آقبغا الجمالي الظاهري المعروف بالأطروش من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، وحَمل إليه التقليدَ والتشريفَ[٢] إينال باي بن قجماس، ورسم أيضاً بآستقرار يونس بلطا نائب حماة في نيابة طرابلس عوضاً عن آقبغا المذكور، وتوجّه بتقليده وتشريفه الأمير يلبغا الناصري الظاهري. ورسم أن يستقر دمرداش المحمدي أتابك حلب في نيابة حماة، وتوجه بتقليده الأمير شيخ المحمودي الساقي رأس نوبة وهو الذي تسلطن [فيما بعد].

ثم خلع السلطان على الأمير سودون الظاهري المعروف بالظريف في نيابة الكرك.

وفي خامس عشر شهر ربيع الأول أنعم السلطان على الوالد بجميع سَرْحة البُحيرة وداخلها مدينة الإسكندرية.

ثم في سلخِ ربيع الأول المذكور أمسكَ السلطانُ الأميرَ عزّ الدين أَزْدمُر أخا إينال اليوسفي وأَمسكَ معه ناصر الدين محمد بن إينال اليوسُفِيّ ونُفِيا إلى الشام.

ثم في يوم الأربعاء أوّل شهر ربيع الآخر خَلَع السلطان على الأمير سَرَاي تمرُشلُق الناصري أحد أمراء الطبلخانات ورأس نَوْبة بديار مصر بآستقراره أتابك العساكر بحلب عوضاً عن دِمِرداش المحمّدي المنتقل إلى نيابة حماة.

ثم في عشرينه أَنعم السلطانُ على الأمير علي بن إينال اليوسفي بخُبْز[٣] أخيه

---

(١) ماردين: مدينة في تركيا. وهي تقع في منتصف المسافة بين رأس العين ونصيبين. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٢٥).

(٢) التشريف: هو الملابس الخاصة التي ينعم بها السلطان على من يقلّده وظيفة هامة. (انظر صبح الأعشى: ٤/٥٢ ــ ٥٤).

(٣) الخبز هو الإقطاع بلغة ذلك العصر.

محمد؛ وأمير عليّ هذا هو أستاذ الملك الظاهر جَقْمَق الآتي ذكرهُ، وبه عُرف بالعَلائيّ.

وفيه أَنعم السلطانُ على كل من سُودون من زَادة الظاهري، وتَغْرِي بَرْدِي الجُلباني، ومَنْكَلي بُغا الناصري، وبَكْتَمر الظاهري، وأحمد بن عمر الحَسَني بإمرة طبلخاناة بالديار المصرية.

وأَنعم أيضاً على كلٍّ من بشباي الظاهري، وتمربغا من باشاه، وشاهين من إسلام الأفرم الظاهريّ، وجُوبان العثماني الظاهري، وجكم من عوض الظاهريّ بإمرة عَشَرة.

ثم في خامس عشرينه طلَع إلى السلطان رجلٌ عجميٌّ، وهو جالس للحُكم بين الناس، هيئته كهيئة الصوفية، وجلس بجانب السلطان، ومدَّ يدَه إلى لحِيْته ليقبض عليها وسبَّه سبّاً قبيحاً. فبادر إليه رؤوس النُّوَب وأقاموه، ومرُّوا به، وهو مستمرٌّ في السبّ، فأمر به السلطان، فَسُلِّم لوالي القاهرة، فأخذه الوالي ونزل به وعاقبه حتى مات تحت العُقوبة.

ثم في يوم الخميس سلخه خلَع السلطان على تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج بن نُقولا الأرمنيّ الأسلميّ والي قَطْيا بآستقراره وزيراً عوضاً عن الوزير بدر الدين محمد بن الطوخي.

وفي رابع جُمادَى الأولى رَسَم السلطانُ بإحضار الأمير يلبغا الأحمدي المجنون من ثغر دِمْياط.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر جُمادَى الأولى المذكور رسم السلطانُ باستدعاء رئيس الأطبّاء فتح الدين فتح الله بن معتصم بن نَفِيس الداودِيّ التِّبريزي وخلعَ عليه بآستقراره في كتابة السّر، بعد موت القاضي بدر الدين محمود الكلستاني. وكان نَفيس جدّ فتح الله هذا يهودياً من أولاد نبيّ الله داود عليه السلام.

وفي رابع عشرينه خَلَع السلطان على الأمير فرج الحلبي أُستدار الذخيرة والأملاك[1] بٱستقراره في نيابة الإسكندرية.

ثمّ في يوم الاثنين ثامن شهر رجب رَسَم السلطان بٱنتقال الأمير جقْمَقْ الصَّفَوِي حاجب حُجّاب حلب إلى نيابة مَلَطْية بعد عَزْل دُقماق المحمّديّ الظاهريّ، وجهّز تقليده على يد مُقْبِل الخازندار الظاهري.

ثم في حادي عشرين شهر رجب المذكور خَلَع السلطان على الشيخ تقي الدين المقريزي المؤرِّخ باستقراره في الحِسْبة بالقاهرة، عوضاً عن شمس الدين البجاسيّ.

ثم في خامس عشرينه أعيد قاضي القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم المُناوِي إلى قضاء الشافعيّة بالديار المصرية، بعد عزل قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن الزُّبَيْرِيّ.

وفي هذه الأيام أُعِيد أيضاً يَلْبُغا المجنون إلى وظيفة الأُستدارية، بعد عزل ناصر الدين محمد بن سُنْقُر وٱستقر ابن سنقر أستادار الذخيرة والأملاك عوضاً عن فرج المنتقل إلى نيابة الإسكندريّة.

ثم كتب السلطان للأمير تَنَم الحَسنِيّ نائب الشام بالقبض على الأمير شهاب الدين أحمد ٱبن الشيخ على نائب صفد، وعلى الأمير جُلْبان الكَمَشْبُغاوي الظاهري المعروف بقراسُقْل أتابَك دمَشق؛ فورد مرسومُ السلطان على تَنَم وهو بالغَوْر، فٱستدعَى نائب صفد المذكور وقبض عليه، ثم قَبَض على الأمير جُلْبان المذكور وبعث بهما إلى قلعة دمشق فسُجِنا بها.

ورَسَم السلطانُ بنقل الأمير أَلْطُنْبُغا العثماني الظاهري من حُجُوبيّة دِمَشق إلى نيابة صَفَد، ونَقَل الأمير بيخجا الشرقي المعروف بطيفور نائب غزة منها إلى حجوبية دِمشق، ونقل ألطنبغا الظاهريّ نائب الكَرَك كان إلى نيابة غزة.

---

(١) هو الذي يتولى الإشراف على أملاك السلطان الخاصة. والذخيرة هي ممتلكات السلطان من الأموال المنقولة. ــ وعن الأستادار راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

ثم في تاسع شعبان خلع السلطانُ على كمال الدين عمر بن العَدِيم بآستقراره قاضي قضاة حلب بسفارة الوالد.

ثم في رابع عشرين شهر رمضان كتبَ السلطانُ بالإفراج عن الأمير شهاب الدين أحمد آبن الشيخ عليّ من محبسه بقلعة دِمَشق وآستقرارِه أتابَك العساكر بها، عوضاً عن الأمير جُلبان قراسُقل.

ثم في سابع عشرينه أُخرِج الأمير علاء الدين عليّ بن الطبلاوي من خزانة شمائل وسُلِّم للأمير يَلُبغا المجنون الأستادار.

ثم قدِم الخبر على السلطان بموت الأمير الكبير كَمَشْبُغا الحمويّ بسجن الإسكندرية، فابتهج السلطان بموته، ورأى أنه قد تمّ له أمرُه، فإنه آخر من بَقِي من الْيلبُغاويّة الأمراء.

وأصبح من الغد في يوم الجمعة وهو أوّل شوّال، صَلّى صلاة العيد بالميدان على العادة، ثم صَلّى الجمعة بجامع[1] القلعة فتفاءل الناس بزوال السلطان، كونه خُطب بمصر في يوم واحد مرّتين.

قلت: وهذه القاعدةُ غيرُ صحيحة، فإنّ ذلك وقع للملك الظاهر جَقْمَق في أوّل سِنين سلطنِته، ثمَ وقَع ذلك في سلطنة الملك الأشرف إينال.

ثم في سادس شوّال أُخْرِج آبن الطبلاويّ علاء الدين منفيّاً إلى الكَرَك ومعه نقيب واحد.

وفي يوم الثلاثاء خامس شوّال من سنة إحدى وثمانمائة، فيه كان آبتداء مرض السلطان الملك الظاهر برقوق. وسببه أنّه ركب لِلَعِب الكُرَة بالمَيْدان، فلما فرغ منه قَدم عليه عسلُ نحل وَرَدَ من كخْتا[2]، فأكل منه ومن لحم بَلشُون[3] مشويّ. ثم

(١) هو الجامع الناصري بالقلعة، من إنشاء الناصر محمد بن قلاوون ــ أنظر خطط المقريزي: ٢/٣٢٥.

(٢) كختا: هي في ديار بكر في تركيا اليوم. وهي إحدى الثغور الإسلامية في طرف الحدّ الشمالي للشام. (تقويم البلدان: ٢٦٢ ــ ٢٦٣).

(٣) البلشون: اسم مصري قديم يطلق على عدد من الطيور كبيرة الحجم، طويلة المنقار المدبّب، طويلة =

دخل إلى مجلس أُنسه وشرب مع ندمائه، فآستحال ذلك خِلْطاً رديئاً لزم منه الفراش من ليلته. ثم أصبح وعليه حمّى شديدة الحرارة. ثم تنوّع مرضه، وأخذ في الزيادة من اليوم الثالث وليلة الرابع، وهو البُحْران[1] الأوّل، فأنذر عن السابع إنذاراً رديئاً لشدّة الحُمى وضَعف القوّة، حتى أيس منه. وأُرجِف بموته في يوم السبت تاسعه، وآستمرّ أمره في الزيادة إلى يوم الأربعاء ثالث عشره، فقوي الإرجاف بموته، وغلِّقت الأسواق، فركب الوالي ونادى بالأمان.

فلما أصبح يوم الخميس آستدعى السلطان الخليفة المتوكل على الله وقضاةَ القضاة وسائر الأمراء وجميع أرباب الدولة، فحضر الجميع في مجلس السلطان، فحدّثهم السلطان في العهد لأولاده. وآبتدأ الخليفة بالحلف للأمير فرج آبن السلطان، وأنه هو السلطان بعد وفاة أبيه. ثم حلف القضاةُ والأمراءُ وجميعُ أرباب الدولة، وتولى تحليفهم كاتب السرّ فتح الله، فلما تمّ الحلف للأمير فرج، حلَفُوا أن يكون القائمَ بعد فرج أخوه عبد العزيز، وبعد عبد العزيز أخوهما إبراهيم.

ثم كُتِبتْ وصيّةُ السلطان، فأوصَى لزوجاته وسرارِيه وخُدّامه بمائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وأن يُعمَّر له تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس الدّوادار بثمانين ألف دينار، ويُشترى بما فَضلَ عن عمارة التربة المذكورة عَقارٌ ليوقَف عليها، وأن يُدفن السلطان الملكُ الظاهر برقوق بها في لحد تحت أرجل الفقراء: وهم الشيخ علاء الدين السيراميّ الحنفيّ، والشيخ أمين الدين الخلواتي الحنفيّ، والمعتقد عبد الله الجبرتيّ، والمعتقد طلحة، والشيخ المعتقد أبو بكر البجائيّ، والمجذوب أحمد الزهوريّ. وقرّر أن يكون الأمير الكبير أيتمش هو القائم بعده بتدبير آبنه فرج، وأن يكون وصيّاً على تركته ومعه تَغْري بردي من بشبغا أمير السلاح، أعني عن الوالد، والأمير بيبرس الدوادار آبن أخت السلطان بعدهما، ثم

= العنق والرجلين والجناحين. والفصيلة البلشونية يمثلها بمصر الطائر المعروف بأبـي قردان. (الموسوعة العربية الميسرة: ٣٩٧).

(١) بحران المريض: التغيرّ الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة. وهو لفظ مولّد. (معجم متن اللغة).

الأمير قطلوبغا الكركيّ أحد أمراء العشرات، ثم الأمير يلبغا السالميّ أحد أمراء العشرات أيضاً، ثم سعد الدين إبراهيم بن غراب، وجعل الخليفة ناظراً على الجميع.

ثم آنفضّ المجلس، ونظر الأمراء بأسرهم في خدمة الأمير الكبير أيْتَمش البَجاسيّ إلى منزله، فوعدَ الناسَ أنه يُبْطِل المظالم وأخذَ البراطيل على المناصب والولايات.

وأكثر السلطان في مرضه من الصدقات، فبلغ ما تصدّق به في هذا المرض أربع عشرة ألف دينار وتسعمائة دينار وتسعة وتسعين ديناراً. وأخذ في النزع من بعد الظهر إلى أن مات السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته بعد نصف الليل، وهي ليلةُ الجمعة خامس عشر شوّال، وقد تجاوز ستّين سنةً من العمر، بعد أن حكم على الديار المصرية والممالك الشامية أميراً كبيراً مدبراً وسلطاناً إحدى وعشرين سنة وسبعة وخمسين يوماً، منها تحكّمه بديار مصر، بعد مسك الأمير الكبير طشتمر العلائيّ الدوادار أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وكان يسمَّى إذ ذاك بالأمير الكبير نظام الملك، ومنذ تسلطن سلطنته الأولى في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة إلى أن خُلع وآختفى في واقعة الناصري ومنطاش في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً. وتسلطن عوضه الملك المنصور حاجِّيّ آبن الملك الأشرف شعبان بن حسين، ودام مخلوعاً محبوساً، ثم خارجاً بالبلاد الشامية، ثمانية أشهر وستة عشر يوماً. وأُعيد إلى السلطنة ثانياً. فمن يومِ أعيد إلى سلطنته ثانية إلى أن مات في ليلة الجمعة المذكورة تسع سنين وثمانية أشهر. وتسلطن من بعده آبنه الملك الناصر فرج وجلس على تَخْت المُلْك حسبما يأتي ذكرُه في سلطنته.

ثم أخذ الأمراءُ في تجهيز السلطان الظاهر برقوق ــ رحمه الله ــ وغُسِّل وكُفِّن. وصَلَّى عليه بالقلعة قاضي القضاة صدر الدين المُناوي [الشافعي]، وحَمل نعشه سائرُ الأمراء على أعناقهم إلى تُربته، فدُفن بها ــ حيث أوصَى ــ على قارعة الطريق، ولم يكن بذلك المكان يوم ذاك حائط، ودُفن قبلَ صلاة الجمعة. ونزل

أمامَ نعشِه سائرُ الأمراء وأربابُ الدولة مشاةً يصيحون ويَصرُخون بالبكاء والعويل، وقد آمتلأتْ طرق الصحراء بالجواريّ والنساء السَّبيات الحاسرات منشَّرات الشعور من حرم مماليكه وحواشيه، فكان يوماً فيه عبرةٌ لمن آعتبر. ولم يُعهد قبله أحدٌ من ملوك مصر دُفِن نهاراً غيرُه وضربت الخيامُ على قبره، وقرىء القرآنُ أياماً، ومُدّت الأسمطةُ العامة الهائلة، وتردّدتْ أكابرُ الدول في كل ليلة إلى قبره عدّة أيام، وكثر أسفُ الناس عليه.

قلتُ: وهو أوّل من ولِيَ السلطنة من الجراكسة بالديار المصرية بعد الملك المظفَّر بيبرس الجاشْنَكيز، على خلاف في بيبرس، وهو القائم بدولة الجراكسة، وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلِّه في أوّل ترجمته.

وخلّف من الأولاد ثلاثة ذكور: الملك الناصر فرجاً؛ وأمه أمّ ولد رومية تُسمَّى «شِيرِين» وهي بنت عمّ الوالد، وقيل أخته، وماتت في سلطنة آبنها الملك الناصر فرج، وعبد العزيز؛ وأمُّه أمُّ ولد أيضاً تركيّة الجنس، تُسمى قنق باي، ماتت في سنة خمس وثلاثين وثمانمائة، وإبراهيم؛ وأمّه خَوَنْد بركة، ماتت في أواخر دولة الملك الأشرف برسباي.

وخلّف أيضاً ثلاث بنات: خوند سارة: وأمها أمّ ولد، تزوّجها الأمير نوروز الحافظيّ، ثم مقبل الروميّ، وماتت في سنة ست عشر وثمانمائة بطريق دِمشق، وخَوَنْد بيرَم: وأمُّها خوند هاجر بنت مَنْكَلِي بُغا الشمسيّ، تزوجها إينال باي بن قجماس، وماتت بالطاعون في سنة تسع عشرة وثمانمائة، وخوند زينب: وأمّها أمّ ولد، تزوجها الملك المؤيّد شيخ، ثم من بعده الأتابك قجق، وماتت في حدود سنة ثلاثين وثمانمائة.

وخلّف في الخزانة وغيرها من الذّهب العَين ألفَ ألفَ دينار وأربعمائةَ ألف دينار، ومن الغلال والقُنُود[1] والأعسال والسكّر والثياب وأنواع الفَرْو ما قيمته أيضاً ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار.

---

(١) القند: عسل قصب السكر إذا جد.

وخلّف من الخيل نحو ستّة آلاف فَرس، ومن الجِمال نحو خمسة آلاف جَمَل، ومن البغال وحميرِ التراب عدّةً كبيرة.

وبلغتْ عدّةُ مماليكه المشتروات خمسة آلاف مملوك، وبلغت جوامك مماليكه في كل شهر نحو أربعمائة ألف درهم فضة، وعليق خيولهم في الشهر ثلاثة عشر ألف إردب شعير، وعليق خيوله بالإسطبل السلطاني وغيره، وجمال النَّفْر وأبقار السواقي وحمير التراب في كل شهر أحد عشر ألف إردب من الشعير والفول.

وكان ملِكاً جليلاً حازماً شَهْماً شجاعاً مقداماً صارماً فَطِناً عارفاً بالأمور والوقائع والحروب. ومما يدل على فرط شجاعته وُثُوبُه على المُلك وهو من جملة أمراء الطبلخانات، وتملّكه الديار المصرية من تلك الشجعان. وما وقع له مع الناصريّ ومنطاش عند خلعه من السلطنة كان خِذلاناً من الله تعالى ﴿لِيَقضِيَ الله أمراً كانَ مفعولاً﴾. وما وقع له بعد خروجه من حبس الكرك، فهو من أكبر الأدلة على شجاعته وإقدامه.

وكان ـ رحمه الله ـ سَيُوساً عاقلاً ثَبْتاً، وعنده شهامةٌ عظيمة ورأي جيّد ومكرٌ شديد وحَدْس صائب. وكان يتروّى في الشيء المدّة الطويلة حتى يفعله، ويتأنّى في أموره، مع طمع كان فيه وشرهٍ في جمع المال. وكان يحِب الاستكثار من المماليك، ويُقدِّم جنس المماليك الجراكسة على غيره، ثم ندم على ذلك في أواخر عمره، بعد فتنة عليّ باي.

وكان يُحب آقتناء الخيول والجِمال. وكان يتصدى للأحكام بنفسه ويباشرُ أحكامَ المملكة برأيه وتدبيره، فيصيب في غالب أموره. على أنه كان كثيرَ المَشُورة لِأرباب التجارب، يأخذ رأيَهم فيما يفعلُه، ثم يقيسُ رأيهم على حَدْسِه، فيظهر له ما يفعله.

وكان يحب أهل الخير والصلاح، وله آعتقاد جيّد في الفقراء والصُّلَحاء. وكان يقوم للفقهاء والصلحاء إذا دخل عليه أحدٌ منهم، ولم يكن يُعهد هذا من مَلِك كان قبله من ملوك مصر. على أنه صار يغضّ من الفقهاء في سلطنته الثانية، من أجل

أنهم أفتَوْا في قتالِه وقتلِه، لا سيما القاضي ناصر الدين آبن بنت ميلق، فإنه كان كثير الاعتقاد فيه، ومع شدّة حَنَقِه عليهم كان لا يترك إكرامَهم.

وكان كثيرَ الصَّدَقات والمعروف، أوقف ناحية بهتيت[١] على سَحابة[٢] تسير مع الحاج إلى مكة في كلّ سنة، ومعها جمال تحمل المشاة من الحاج وَتَصْرِف لهم ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهاباً وإياباً. ووقف أيضاً أرضاً على قبور إخوة يوسف عليه السلام بالقرافة[٣]. وكان يذبح دائماً في طول أيام إمارته وسلطنتِه في كلّ يوم من أيام شهر رمضان خمساً وعشرينَ بقَرة، يتصدّق بها بعد أن تُطبَخ، ومعها آلاف من أرغفة الخبز النّقي، تُفرّق على أهل الجوامع والمساجد والرُّبُط وأهل السجون، لكل إنسان رطل لحم مطبوخ، وثلاثة أرغفة، وهذا غير ما كان يفرّق في الزوايا من اللحم أيضاً؛ فإنه كان يُعطي لكل زاوية خمسين رطلاً من اللحم الضأن، وعدّةَ أرغفة في كل يوم، وفيهم من يُعطى أكثر من ذلك بحسب حالهم. وكان يفرق في كل سنة في أهل العلم والصلاح مائتي ألف درهم، الواحد إلى مائة دينار. وكان يفرّق في فقراء القرافتين[٤] لكل فقير من دينار إلى أكثر وأقلّ، ويُفَرِّق في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً على أهل الخير وأرباب الصلاح. و[كان] يبعَث في كل سنة إلى بلاد الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحاً، تُفرّق في الحرمين وفرّق في مدة الغلاء كلّ يوم أربعين إردباً، عنها ثمانية آلاف رغيف، فلم يَمُتْ فيه أحدٌ من الجوع.

وكان، غيرَ هذا كلِّه، يبعث في كل قليل بجملة من الذهب تُفرّق في الفقهاء والفقراء، حتى إنه تصدّق مرة بخمسين ألف دينار مصرية على يد خازنداره العبد الصالح الطواشي صندل المَنْجكي الروميّ.

---

(١) هي المعروفة اليوم باسم بهتيم. وهي الآن تربة زراعية من قرى ضواحي القاهرة. (محمد رمزي).

(٢) هم طائفة يرافقون الحاج للمحافظة عليهم.

(٣) هي القرافة الكبرى في سفح جبل المقطم. والقرافة هي المقبرة عند أهل مصر. ــ انظر في ذلك خطط المقريزي: ٢/٤٤٣ ــ ٤٤٥.

(٤) أي الكبرى والصغرى.. راجع المصدر أعلاه.

وأَبطلَ عدّةَ مكوس: منها ما كان يؤخذ من أهل شُورى وبَلْطيم من البُرلُّس، وكانت شبه الجالية[١] في كل سنة [مبلـغ ستين ألف درهم][٢]. قلتُ: أُعيد ذلك في سلطنة الملك الظاهر جَقْمَق.

وأَبطل ما كان يؤخذ على القمـح بثغر دِمياط عما تبتاعه الفقراءُ وغيرُهم.

وأَبْطَل مكسَ معَمَل الفراريـج بالنحريرية[٣] وما معها من بلاد الغربية، وأَبطَل مَكْس المِلْـح بعينتاب[٤]، ومَكْسَ الدقيق بالبِيرة[٥]، وأَبطَل من طرابُلُس ما كان مقرَّراً على قُضاة البرّ وُلاة الأعمال عند قدوم النائب إليها، وهو مبلـغ خمسمائة درهم على كلّ منهم، أو بغلة بدل ذلك.

وأَبطَل ما كان يؤخذ على الدَّريس والحَلْفاء بباب النصر خارج القاهرة.

وأَبطَل ضمان المغاني[٦] بمدينة الكرك والشَّوْبَك، وبمنيـة آبن خصيب، وأعمال الأشمونين وزفتة ومُنْية غمر.

وأَبطِل رميُ الأبقار، بعد الفراغ من عمل الجسور بـأراضي مصر، على البطَّالين بالوجه البحريّ.

وأنشأ بالقاهرة مدرسته التي لم يُعمر مثلُها ببين القصرين، ورتّب لها صوفية بعد العصر كلّ يوم، وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم على المذاهب الأربعة، أعظمهم بالإيوان القبليّ الحنفي، ثم دَرْساً للتفسير، ودرساً للحـديث، ودرساً للقراءات، وأَجْرَى على الجميـع في كلّ يوم الخبز ولحم الضَّأن المطبوخ، وفي

(١) الجالية: ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة. ولفظ الجالية أيضاً يطلق على أهل الذمة أنفسهم. انظر صبح الأعشى: ٤٦٢/٣ ــ ٤٦٣.

(٢) زيادة عن نزهة النفوس.

(٣) النحريرية: هي نفسها اليوم النحارية إحدى قرى مركز كفرالزيات بمديرية الغربية بمصر.

(٤) عينتاب. بلدة بين حلب وأنطاكية.

(٥) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية.

(٦) ضمان المغاني: هو ما كان يؤخذ من المغنيّات مقابـل مزاولتهن لعملهن. ــ وراجـع أيضـاً فهرس المصطلحات.

الشهر الحَلْوَى والزيت والصابون والدراهم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضي والدُّور ونحوها.

وعمّر جسراً[١] على نهر الأُردن بالغور في طريق دِمَشق، طوله مائة وعشرون ذراعا في عرض عشرين ذراعاً. وجدّد خزائن السلاح بثغر الإسكندرية، وسور دَمَنْهور، وعمَّر جبال الشرقية بالفيوُم [وكانت منذ عشرين سنة خراباً][٢]، وزاوية[٣] البرزخ بدِمْياط، وقناة العَرُّوب[٤] بالقُدْس، وبنى أيضاً بِركة بطريق الحجاز، وبركة أُخرى برأس وادي بني سالم [بطريق الحجاز][٢]، وجدّد عمارة القناة التي تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وجدّد عمارة الميدان من تحت القلعة، بعد ما كان خَرِب، وسقاه وزَرعَ به القُرط، وغَرسَ فيه النخل. وَعمّر صِهريجاً ومكتباً يَقرأُ فيه أيتامُ المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً. وعمّر أيضاً بالقلعة طاحوناً. وعمر أيضاً سبيلاً تُجاه باب دار الضيافة تُجاه القلعة.

وخُطِب له على منابر تِبْريز، عندما أخذها قرا محمد التُّركماني، وضُرِبت الدنانير والدراهم فيها بآسمه. وخُطب له على منابر الموصل من العراق، وعلى منابر مَارِدين بديار بكر، ومنابر سِنْجار. وخَرَب عساكره مدينةَ دوركي وأرزنكان من أرض الروم.

وكان نائبه بالديار المصرية الأمير سُودون الفخري الشيخونيّ إلى أن مات سودون المذكور، فلم يستنب الملك الظاهر أحداً بعده.

---

(١) هو جسر الشريعة على نهر الأردن. ونهر الأردن يسمى بالشريعة.

(٢) زيادة عن نزهة النفوس.

(٣) في نزهة النفوس: «زريبة البرزخ». وفي السلوك: «زربية البرزخ».

(٤) جاء في معجم البلدان أن العرّوب (بتشديد الراء) اسم قريتين بناحية القدس فيهما عينان عظيمتان. ــ وجاء في الموسوعة الفلسطينية: ٥٣٥/٣ أن ماء العروب جلبها إلى القدس في سنة ٥٨٩هـ الملك العادل أبو بكر الأيوبي. وتبعد عين العروب قرابة ٢٢ كلم إلى جنوب القدس بالقرب من برك سليمان. وقد بنى الملك العادل سقاية، أي حوضاً، لحفظ الماء في الجهة الجنوبية بالقرب من باب المتوضأ المعروف بباب المطهرة، وهو أحد أبواب الحرم الشريف الغربية. ومدخل السقاية القديم لا يزال قائماً فوقه كتابة تشير إلى عمل الملك العادل. وهذا العمل يسجل المحاولة الأولى لتموين القدس بالماء من الخارج في مدة الحكم الإسلامي.

وكانت نُوّابه بدمشق (أعني الذين تولوا في أيام سلطنته): الأميرَ بَيْدَمر الخُوارَزْمي، وإشِقْتَمُر الماردينيّ، وأَلْطُنبغا الجُوبانيّ غير مرة، وطُرُنطاي السيفيّ، ويلبغا الناصري صاحب الوقعة معه، وبُطا الطُّولُو تمريّ الظاهريّ [وسودون الطرنطاي، وكمشبغا الأشرفي، وتاني بك](١) المعروف بتنم [الحسني](١)، ومات الملك الظاهر وهو على نيابتها.

ونوّابه بحلب: يَلْبُغا الناصري غيرَ مرّة، وسُودون المظفَّري، وكمشبُغا الحموي، وقرادِمِرْداش الأحمدي، وجُلْبان الكمشبُغاوي الظاهري قَرَسُقل، وتَغْري بَرْدِي عن بَشْبُغَا الظاهري (أعني عن الوالد)، وأرغون شاه الإبراهيمي الظاهري، وآقْبُغا الجمالي الظاهري الأُطْروش، ومات السلطان وهو على نيابتها.

ونُوّابُه بطرابُلس: مأمور القلمطاويّ، وكمشبغا الحمويّ اليلبُغاويّ، وأسندمر السيفيّ، وقَرَادمرداش الأحمديّ اليَلْبُغاويّ، وإينال بن خجا على، وإياس الجرْجاوي، ودمرداش المحمديّ الظاهريّ، وأرغون شاه الإبراهيميّ الظاهريّ، وآقبغا الجمَاليّ الظاهريّ الأَطْرُوش، ويُونس بلْطا الظاهريّ، ومات الملك الظاهر وهو على نيابتها.

ونُوَّابُه بحَماة: صَنْجَق الحَسَنِيّ، وسُودون المظفَّري، وسُودون العلائيّ، وسُودون العثمانيّ، وناصر الدين محمد بن المِهْمِنْدار، ومأمور القَلَمْطاويّ اليلبُغاويّ، ودِمِرْداش المحمديّ الظاهريّ وليها مرَّتين، وآقبغا السلطانيّ، ويُونُس بلْطا الظاهري، ثم دِمرْداش المحمدي، ومات برقوق وهو على نيابتها.

ونُوَّابُه بصفد: أركماس السيفيّ، وبَتْخاص السُّودونيّ، وأرغون شاه الإبراهيمي الظاهريّ، وآقْبُغا الجماليّ الأطْرُوش الظاهريّ، وأحمد آبن الشيخ عليّ، وأَلْطُنبغا العثماني الظاهريّ، ومات الملك الظاهر وهو على نيابتها.

ونُوّابُه بالكَرك: طُغاي تَمُر القبلائي، ومأمور القَلَمْطاويّ اليلبُغاوي، وقُدَيْد

(١) زيادة عن السلوك.

القَلمطاويّ اليلبغاويّ، ويونُس القشتمري، وأحمد آبن الشيخ علي، وبتَخْاص السُّودُنيّ، ومحمد بن مبارك شاه المهمندار، وأَلطنبغا الحاجب، وسُودون الظريف الظاهريّ الشمسيّ، ومات السلطان وهو على نيابتها.

ونُوّابُه بغزّة: قُطْلُوبغا الصَّفَويّ، وآقْبُغا الصغير، ويلبغا القَشْتَمري، وأَلْطَنبغا العثماني الظاهريّ، وبِيَخجا الشرفيّ المدعوّ طَيْفُور، وألطنبغا الحاجب، ومات الملك الظاهر وهو على نيابتها.

ذكر قضاته بالديار المصرية

فالشافعية: بُرْهان الدين إبراهيم بن جَمَاعة، وبدر الدين محمد بن أبي البقاء، وناصر الدين محمد ابن بنت مَيْلَق، وعماد الدين أحمد المُقَيَّري الكركِيّ، وصدر الدين محمد المُناوِي، وتَقيّ الدين عبد الرحمن الزُّبَيْري، ثم المُناوِي ثالث مرة، ومات السلطان وهو قاض.

والحنفيّة: صدر الدين محمد بن منصور الدِّمشقي، وشمس الدين محمد الطرابُلُسي، ومجد الدين إسماعيل بن إبراهيم، وجمال الدين محمود القَيْصَرِيّ العَجَمِيّ، وجمال الدين يوسف المَلَطِيّ، ومات الملك الظاهر وهو قاض.

والمالكية: جمال الدين عبد الرحمن بن خير السَّكَنْدَرِيّ، ثمّ وَليُّ الدين عبد الرحمن بن خَلْدون، وشمس الدين محمد الرُّكْرَاكِيّ المغربي، وشهاب الدين أحمد النَّحريريّ، وناصر الدين أحمد بن التَّنَسِيّ، ثم آبن خَلْدُون [ثانياً]، ومات الملك الظاهر وهو قاضٍ.

والحنابلة: نصر الدين نصر الله العَسْقَلانِيّ، ثم آبنه برهان الدين إبراهيم، ومات السلطان وهو قاض[1].

وأما أصحاب وظائفه من أكابر أمراء مصر فلم يضبُطْهم أحد من مؤرّخي تلك العصر، وآكتَفَوْا بذكرهم عند ولاية أحدهم أو عزله أو موته، إن كانوا فعلوا ذلك.

ذِكْرُ مُباشِري دولته.

(١) ثم ذكر المقريزي بعد هذا قضاته الشافعية بدمشق. ــ انظر السلوك: ٩٤١/٣.

أُسْتَادارِيَّتُه: بهادُر المَنْجَكِيّ، ثم محمود بن علي بن أصفر عينه، ثم قَرْقَماس الطَّشْتَمُرِيّ، ثم عمر بن محمد بن قَايْماز، ثم قُطْلُوبك العلائي، ثم يلبغا الأحمدي المجنون، ثم محمد بن سنقر، ثم يلبغا المجنون، ومات السلطان وهو على وظيفته.

ووزراؤه بديار مصر: عَلَم الدين عبد الوهاب المعروف بِسنّ إبرة، وشمس الدين إبراهيم بن كاتب أُرْنان، وعَلَم الدين عبد الوهاب بن كاتِب سَيِّدي، وكَرِيم الدين عبد الكريم بن الغَنَّام، وموفّق الدين أبو الفَرَج، وسعد الدين نصر الله بن البَقَرِيّ، وناصر الدين محمد بن الحُسام، وركن الدين عُمر بن قايْماز، وتاج الدين عبد الرحيم بن أبي شاكر، وناصر الدين محمد بن رجب بن كَلْبك، ومُبارك شاه، وبدر الدين محمد بن الطُّوخِيّ، وتاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج، ومات السلطان وهو وزير.

وكُتَّاب سِره: القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله، وأوحد الدِّين عبد الواحد [بن ياسين]، وعلاء الدين علي المُقَيِّري الكَركِيّ، ثم آبن فضل الله ثانياً، ثم بدر الدين محمود الكلسْتَانيّ، وفتح الدِّين فتح الله، ومات السلطان وهو كاتب سِرِّه.

ونُظَّار جيشه: تقيّ الدين عبد الرحمن بن محبّ الدين، وموفّق الدين أبو الفرج، وجمال الدين محمود القَيْصَريّ العجميّ، وكَرِيم الدين عبد الكريم بن عبد العزيز، وشرف الدين محمد الدَّماميني، وسعد الدين إبراهيم بن غُراب، ومات السلطان وهو ناظر الجيش.

ونظّار خاصِّه: سعد الدين نصر الله بن البَقَرِيّ، وموفَّق الدين أبو الفرج، وسعد الدين أبو الفرج بن تاج الدين موسى كاتب السعدي، وسعد الدين بن غراب، ومات السلطان وهو ناظر الجيش والخاص معاً، والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة. على أن الملك المنصور حاجِّي آبن الملك الأشرف شعبان حكم منها ثمانيةَ أشهر وسبعةَ أيام من يوم سلطنته إلى يوم طلوع الملك الظاهر برقوق إلى قلعة الجبل.

فيها تُوُفِّي الأمير سيف الدين آقبُغا بن عبد الله الجوهريّ اليَلْبُغَاوِيّ. كان من أكابر اليلبغاويّة، وتولّى الأستادارية وحجوبيّة الحُجّاب كِلَيْهِما بديار مصر، ووقع له أمورٌ، وهو أحدُ مَنْ أخرجه الملك الظاهر من حبس مِنْطاش بالإسكندرية، وندَبه فيمن ندب من الأمراء لقتال مِنطاش، فقُتل في وقعة حِمْص عن بضع وخمسين سنة. وكان أميراً جليلاً عارفاً يُذَاكر بمسائل جيِّدة فقهيّة وغيرها في عدّة فنون، مع حِدّة مِزاج.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين أَرْدبُغا بن عبد الله العثمانيّ اليَلْبُغاوي أحد أمراء الطبلخانات قتيلاً أيضاً في وقعة مِنْطاش، وكان من كِبار اليَلْبُغاويّة.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبغا بن عبد الله الجُوبانيّ اليلبُغاوي نائب الشام قتيلاً في واقعة منْطاش؛ وقد تقدّم ذكرُ موته وكيفيّة قتلِه في أوائل سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية. وكان من عظماء المماليك اليلبُغاوية. ولاّه الملِك الظاهر في سلطنته الأولى أميرَ مجلس[١]، ثم ولاّه نيابة الكرك، ثم نقله إلى نيابة الشام، ثم قَبَض عليه وحبسه إلى أن أخرجه الناصريّ بعد خلع الملك الظاهر برقوق وحبسه، فولاّه الناصريّ رأسَ[٢] نوبة الأمراء إلى أن أمسكه مِنْطاش وحبسه بالإسكندرية ثانياً، حتى أخرجه الملك الظاهر برقوق فيمن أخرجه بعد عَوْده إلى سلطنة مصر، وولاّه نيابة الشام، وندَبه لقتال منطاش فتوجّه وقاتله، وقُتِل في

(١) أمير مجلس: هو الذي يتحدّث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم. ومن عمله أيضاً أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره. (صبح الأعشى: ١٨/٤ و ٤٥٥/٥).

(٢) أي رأس نوبة النوب. ومن الأفضل أن يقال: رأس رؤوس النوب، على حد تعبير القلقشندي. وهو أعلى رؤوس النوب الذين يحكمون على المماليك السلطانية. ــ انظر صبح الأعشى: ١٨/٤، ٦٠ و ٤٥٥/٥.

الواقعة، وتَوَلّى الناصريّ نيابة الشام بعده. ومات الجُوباني وقد قارب الخمسين سنة من العُمْر. وكان حشِماً فخوراً معظّماً في الدول متجَمِّلاً في مرْكَبه ومماليكه ولُبْسه، وعنده سياسةٌ وأدبٌ ومعرفةٌ، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قازان اليَرْقَشي[١] أحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصرية؛ وكان من حواشي الناصري. قُتل في واقعة منطاش على حِمْص. وقبل أن يخرج منطاش بالملك المنصور من مصر لقتال الملك الظاهر برقوق لمّا خرج من سجن الكَرَك، أمر والي الفَيُّوم في الباطن بقتل جماعة كبيرة من الأمراء ممن كان بحبس الفيوم. ثم سافر مِنْطاش، وبعد سفره بأيّام قَدِم محضَرٌ مفتَعل من كاشف الفيوم: أنه لمّا كان يوم الجمعة حادي عشرين جُمَادى الآخرة سَقط على الأمراء المسجونين حائط سجنهم فماتوا جميعاً. فعظُم ذلك على الناس إلى الغاية، كونهم من أكابر الأمراء وأعيان الدولة، وهم: الأمير تَنْكِز العثماني اليلبُغاوي أحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، وكان من الشجعان، وتمان تمر الأشرفيّ نائب بَهْنَسا وكان من أكابر المماليك الأشرفيّة، وهو من خُشداشيّة منطاش، لكنه كان من حزب الناصريّ، وتَمُربَاي الحسني الأشرفي حاجب الحجاب بالديار المصرية ومن أجلّ المماليك الأشرفية، وهو حمو الوالد وكان من الشجعان، وجُمَق الكَمَشْبُغاوي أحد أعيان أمراء مصر والشام، وكان من حزب الناصري، وتَمُر الجَرَكْتَمُرَيّ أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، وكان من حزب الملك الظاهر برقوق، وقُطْلُوبُغا الأحمديّ اليلبُغاويّ أحد أمراء الطبلخانات بمصر، وقد وَلِي عِدَّة أعمال، وقَرابُغا البُوبَكْرِي أمير مجلس وأحد مقدَّمي الألوف بالديار المصرية، وقَرْقماس الطَّشْتَمُرِيّ أستادار العالية والخازندار، والدوادار الكبير بالديار المصرية، تنقَّل في جميع هذه الوظائف وغيرها، وكان أوّلاً من حزب الظاهر، ثم صار من بَعْد خَلْعه من حزب يلبُغا الناصريّ، ويُونُس الإسْعردي الرمّاح الظاهري أحد أمراء الطبلخانات: لم يكن في المماليك الظاهرية من يُضاهيه في حسن الشّكالة ولا في لَعِب الرُّمح، قُتِل الجميع في يوم واحد حسب ما ذكرناه.

---

(١) كذا أيضاً في نزهة النفوس بالياء المثناة، وفي السلوك: «البرقشي» بالباء الموحدة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين مأمور بن عبد الله القلَمطاوي اليلبُغاوي في واقعة حِمص أيضاً. وكان وَلِي نيابة الكَرك، وتقدمة ألف بديار مصر، وحجوبية الحجاب بها، ثم ولّاه الملك الظاهر في سلطنته الثانية نيابةَ حَماة، فقُتِل وهو على نيابة حماة. وكان من أجلّ المماليك اليلبُغاوية وأعيان أمراء مصر، وهو زَوْج بنت أستاذه الأتابك يَلْبُغا التي خَدَمت الملك الظاهر برقوقا لمّا حُبِس بالكَرَك.

وتُوُفِّي الشيخ المعتقد الصالح عليّ المُغَرْبِل في خامس جُمادِى الأولى، ودُفِن بزاويته خارج القاهرة بحكر الزرّاق. وكان للناس فيه آعتقاد حسن ويُقصد للزيارة.

وتُوُفِّيَ الشيخ المعتَقَد الصالح محمد الفاويّ في ثامن جُمادِى الأولى ودُفِن خارج باب النصر. وكان خَيِّراً مُعتقداً.

وتُوُفِّي الشيخ المقرىء شمس الدين محمد المعروف بالرفاء في سابع جمادى الأولى.

وتُوُفِّي الأديب الشاعر شمس الدين محمد بن إسماعيل الإفلاتيّ في سادس جُمَادَى الأولى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع ونصف. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وإصبعان. والوفاء حادي عشر مسرى. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الأمير شهاب الدين أحمد آبن الأمير الكبير آل ملك الجوكندار في يوم الأحد ثاني عشرين جمادى الآخرة.

وتُوفِّي قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن مسلم بن سعيد بن بدر القُرشيّ الدمشقي الشافعي قاضي قضاة دِمشق بِخزانة شمائل، بعد عقوبات شديدة، في ليلة الأحد تاسع شهر رجب. وكان غيرَ مشكور السِّيرة، مُسرفاً على نفسه. وهو ممن قام على الملك الظاهر برقوق بدِمَشق، وحرَّض العامَّة على قتاله وقد مرّ من ذكره ما فيه غُنْية عن ذكره ثانياً.

وتُوُفِّي الأمير حُسام الدين بن عليّ بن الكُورانِيّ أحد أمراء الطبلخانات ووالي القاهرة مخنوقاً بخزانة شمائل بعد عقوبات كثيرة، في عاشر شعبان. وكان غير مشكور السيرة وفيه ظلمٌ وجَبَروت. قَتَل من الزُّعْر في أيام ولايته خلائِقَ لا تدخل تحت حَصْر.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلَّامة جَلالُ الدين جلال بن رَسُول بن أحمد بن يوسف العجميّ الثِّيرِيّ التَّبَّانيّ الحنفيّ خارج القاهرة في يوم الجمعة ثالث [عشر][1] شهر رجب. والتَّبانيّ نسبة إلى سَكَنه، موضع خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير، يقال له: التَّبانة، وكان إماماً عالماً بفنون كثيرة. أفتى وأقرأ ودرّس عدّة سنين، وعُرِض عليه قضاءُ مصر فآمتنع عِفَّة منه. وله مصنفات كثيرة: منها «شرح المنار» في أصول الفقه، و«شرح مختصر آبن الحاجب» وخرّج أيضاً «مختصر التلويح في شرح الجامع الصحيح» للحافظ مُغْلطَاي، وله «منظومة في الفقه»، وشرحها في أربع مجلدات، وله «مختصر في ترجيح الإمام أبي حنيفة»، وله تعليق على البزدوي ولم يكمله، وشَرَح كتباً كثيرة غير ذلك. وأصله من بلدة بالروم يقال لها: ثيرة بكسر (الثاء المثلثة) وسكون الياء آخر الحروف.

وتُوُفِّي الشيخ المعتقَد الصالح علي الروبيّ في رابع ذي الحجة. وكان للناس فيه آعتقاد ويقصد للزيارة للتبرك به.

وتُوُفِّي قاضي القضاة شمس الدين محمد بن يوسف الرِّكْرَاكِيّ المالِكيّ قاضي

(١) زيادة عن السلوك.

قضاة الديار المصرية وهو قاض بحمْص، في رابع عشر شوّال، وقد تجرّد صحبة السلطان. وكان عالماً ديِّناً مشكورَ السِّيرة.

وتُوُفِّي شيخ الخانقاه الصلاحيّة سعيد السعداء شهاب الدين أحمد بن الأنصاري الشافعي في عاشر ذي القعدة.

وتُوُفِّي قاضي قضاة الحنابلة بدِمشق الشيخ شرف الدين عبد القادر بن شمس الدين محمد بن عبد القادر الحنبلي النابُلُسي الدمشقي في عيد الأضحى بدمشق، وكان فقيهاً فاضلاً، أفتى ودرّس.

وتُوُفِّي القاضي فتح الدين أبو بكر محمد آبن القاضي عماد الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إسحاق بن أبي الكَرَم محمد الدِّمشقي الشافعي المعروف بآبن الشَّهِيد كاتب سرّ دمشق قتيلاً بِخزانة شمائل، في ليلة الثلاثاء تاسع عشرين شعبان. وكانَ ممن خرج على الملك الظاهر برقوق ووافق منطاشاً، وحرَّض على قتال بَرْقُوق. وقد مَرّ من ذكره نبذةٌ كبيرة عند حضوره إلى القاهرة مع جَنْتَمُر نائب دمشق وآبن القرشي قاضي دمشق وغيرهما. وكان فتح الدين رئيساً فاضلاً بارعاً في الأدب والترسُّل، مشاركاً في فنون كثيرة، ماهراً في التفسير، مليح الخطّ. وله مصنفات، منها أنه نظم السِّيرة النبوية لابن هشام، في مسطور مرجَّز، وجملتها خمسون ألف بيت، ولمّا وَلِي كتابة سرّ دمشق، قال فيه بدر الدين بن حبيب: [السريع]

كِتابةُ السرّ علا قدرُها ... بآبن الشهيد الألمعيّ الأديبْ
وكيف لا تعلو وقد جاءها ... (نصرٌ من الله وفتحٌ قريبْ)

ومن شعر القاضي فتح الدين هذا ــ رحمه الله ــ قوله: [الوافر]

مُدِيرَ الكأسِ حدِّثْنا ودَعْنا ... بعيشك عن كؤوسِك والحثيثِ
حديثُك عن قديم الراح يُغنِي ... فلا تسقِ الأنام سوى الحديثِ

وله: [الكامل]

قاسوا حماة بجِلِّقٍ فأجبتُهم ... هذا قياسٌ باطل وحياتِكم

فعروسُ جامعِ جِلّقٍ ما مِثلُها شتان بين عروسِنا وحماتِكم

وله في عين[١] بعلبك ـ رحمه الله ـ: [الكامل]

ولقد أتيتُ لبعلبكَّ فشاقني عينٌ بها روضُ النعيم منعَّمُ
فلأهلِها من أجلِها أنا مُكرمٌ ولأجل عينٍ ألفُ عينٍ تُكرمُ

وتُوفي الأمير الكبير يلبغا بن عبد الله الناصريّ اليلبغاويّ قتيلاً بقلعة حلب. وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقوق التي خُلِع الملك الظاهر فيها من المُلك وحُبِس بالكرك. وكان أصله من أكابر مماليك يلبغا العُمري أستاذ برقوق. وتولّى في أيام أستاذه يلبغا إمرة طبلخاناه، ثم صار أميرَ مائة ومقدّمَ ألفٍ بالقاهرة في دولة الملِك الأشرف شعبان، وكان معه في العقبة، ثم مَلكَ باب السلسِلة من الإسطبل السلطانيّ، كلُّ ذلك وبرقوق لم يتأمّر إلا من نحو شهر واحد. ثم وقع له أمور وحُبِسَ ونُفِي إلى البلاد الشامية على إمرة مائةٍ وتقدِمةِ ألف بدِمشق حتى ولي نيابة حلب عن المنصور عليّ، ثم عن أخيه، ثم عن الملك الظاهر برقوق. ثم أطلقه [برقوق] وولّاه نيابة حلب ثانياً. فعصى بعد مدّة ووافق مِنطاش، وقهر الظاهر برقوقاً، وخلعه من السلطنة، وحبسه بالكرك. ورُشّح إلى سلطنة مصر، فأمتنع غاية الامتناع، وسلطن الملك الصالح حاجيّاً ثانياً ولقبّه بالمنصور، وصار هو مدبِّر مملكته. وحكم مصر إلى أن خرج عليه منطاش وكسره وقَبضَ عليه وحبسه بسجن الإسكندرية، إلى أن أفرج عنه الملك الظاهر برقوق لما خرج من حبس الكركَ وكسر مِنطاش وتسلطن ثانياً، فأخرجه ولم يؤاخذه. وندَبه [برقوق] لقتال مِنطاش، ثم ولّاه نيابة الشام بعد قتل الجُوباني، ثم قَبض عليه في هذه السنة، وقتلَه بقلعة حلب ليلته هو وكُشلي أمير آخوره والأمير محمد بن المهمندار نائب حماة. وقد تقدّم ذلك كله مفصلاً في ترجمة الملك الظاهر برقوق الأولى والثانية، وترجمة المنصور حاجّي، فإنه كان في الحقيقة هو السلطان، وحاجي له الاسم لا غير، فيكتفى بما وقع من ذكره هناك، ولا حاجة للإعادة هنا.

(١) ما زالت معروفة إلى اليوم باسم رأس العين.

وكان يلبغا الناصريّ من أجلِّ الملوك عِفّة وصِيانة. وَلِي مصر وخلع الملك الظّاهر، وولّى الملك المنصور. ولم يقتل أحداً صَبْراً غير واحد يسمّى سودون من مماليك الظاهر. ويكفيه من عفته عن سفك الدماء عدمُ قتلِه للملك الظاهر برقوق بعد أن أشار عليه جميع أصحابه بقتله. وكان مذهبي فيه أنّ الملِك الظاهر برقوقاً لا يقتله أبداً، بل إذا ظهر منه ما يُخيفه يحبِسه إلى أن يموت مراعاة لما سبق له من آلمنّ عليه لمّا خلعه من الملك والسلطنة وحبسه ولم يقتله. اِنتهى.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة أربع وتسعين وسبعمائة.

وفيها تُوفِّي الشيخ الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الدُّنَيْسِريّ[1] المعروف بآبن العطار الشاعر المشهور في سادس عشر شهر ربيع الآخر. وقد مرّ من شعره نبذة كثيرة في عدّة مواطن. ومِن نظمه المشهور في الأقباط قوله: [السريع]

قالوا ترى الأقباط قد رُزِقوا حظاً واضحَوْا كالسلاطِينِ
وتملّكوا الأتراك قلت لهم: رِزقُ الكلابِ على المجانِينِ

وتُوفِّي الأمير الكبير إينال بن عبد الله اليوسفيّ اليلبغاويّ أتابك العساكر بالديار المصرية بها في رابع عشرين جمادى الآخرة. وتولّى الأتابكية من بعده الأمير كَمَشْبُغا الحموي اليلبغاوي. على أن كمشبغا كان يجلس في الخِدمة تحت إينال المذكور. وكان إينال شجاعاً مِقداماً، وقد تقدم ركوبُه على الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته والقبض عليه وحبسه مدّة إلى أن أخرجه برقوق إلى بلاد الشام وصار بها أميراً، ثم نقله إلى عدّة وِلاياتٍ إلى أن ولّاه نيابة حلب، ثم عزله في سلطنته الأولى عن نيابة حلب، وجعله أتابك دِمشق، ثم ولّاه نيابة حلب بعد عِصيان الناصريّ،

---

(١) نسبة إلى دُنَيْسر، بلدة من نواحي الجزيرة الفراتية قرب ماردين. (معجم البلدان).

فلم يتم له ذلك. وخرج إينال أيضاً على الظاهر، ووافق الناصريّ. فلمّا ملك الناصريّ مصر ولّاه نيابة صفد، ووقع له أمور حتى ولّاه الملك الظاهر برقوق أتابكية العساكرِ بالديار المصرية في سلطنته الثانية، فدام على ذلك إلى أن مات في التاريخ المذكور. وقد تقدّم ذكرُ إينال هذا في عدّة تراجم من هذا الكتاب، فيها كفاية عن التعريف بحاله.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين بُطا بن عبد الله الطولوتمريّ الظاهريّ نائب الشام بها، بعد أن ولي نيابة الشام أياماً قليلة، في حادي عشرين المحرم. وقد ذكرنا أمر بُطا هذا في أواخر ترجمة الملك المنصور، وكيفية خروجه من سِجن القلعة، وكيف ملك باب السلسِلة من صراي تمر نائب غيبة مِنطاش، وإقامته بباب السلسلة إلى أن قدِم أستاذه الملك الظاهرُ برقوق إلى الديار المصرية. وولّاه [برقوق] الدوادارِية الكبرى، ثم ولاه نيابة دِمشق بعد القبض على الأتابك يلبغا الناصري، فلم تطل أيامه، ومات. وكان من أعيان المماليك الظاهرية. وآتُّهِم الملِك الظاهرُ في أمره أنه آغتاله بالسم، والله أعلم.

وتُوفّي الأمير سيف الدين ملِكتمر بن عبد الله الناصريّ بطّالاً ملازِماً لبيته في حادي عشرين شهر ربيع الأوّل. وكان قديم هجرةٍ في الأمراء. تأمرّ في دولة الناصر حسن، ثم أنعم عليه الملك الأشرف شعبان بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، ثم جعله نوبة النُّوَب، بعد واقعة أسندمر الناصري، ثم نُقِل إلى إمرة مجلس، ثم صار أستاداراً كبيراً في سنة إحدى وسبعين وسبعمائة عوضاً عن عَلَم دار المحمدي. ثم أُخرج إلى نيابة صفد في السنة المذكورة، ثم عُزِل وأُحضِر إلى القاهرة وأُنعِم عليه بإمرة مائة وتقدِمة ألف بها. ثم ولي حجوبية الحُجّاب بالدّيار المصرية مدّة سنين، ثم تعطّل ولزم داره إلى أن مات.

وتُوفي الأمير سيف الدين سُودون بن عبد الله الطُّرُنْطائي نائب دمشق بها في شعبان. وكان ولِي نيابة دِمشق بعد موت الأمير بُطا المقدّم ذكره، فحكم بدمشق ومات. وتولى بعده نيابة دِمشق الأمير كمشبغا الأشرفي الخاصّكيّ أمير مجلس.

وتُوفِّي الشيخ المعتقد المجذوب طلحة المغربيّ في رابع عشر شوال بمدينة مصر، وكانت جنازته مشهودة، ودُفِن خارج باب النصر من القاهرة. وهو أحد مَن أوصى الملك الظاهر برقوق أن يُدفَن تحت أرجلهم من الصالحين والعلماء، فدُفِن هناك، ثم عمّرت التربة الناصرية الموجودة الآن. وكان للناس فيه آعتقاد كبير، لا سيما الملك الظاهر برقوق.

وتُوفي الشيخ الإمام العالم العلامة عز الدين يوسف بن محمود بن محمد الرازي الحنفي العجمي، المعروف بالأصم، شيخ خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجَاشْنَكِير، ثم شيخ الخانقاه الشيخونية في ثالث عشرين المحرم، وقد أناف على السبعين سنة، وكان من العلماء.

وتُوفي الأديب الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن، وقيل عبد الوهاب، ابن عبد الرزاق بن إبراهيم القبطي الحنفي الشهير بابن مكانس وزير دمشق، وناظر الدولة بالديار المصرية، والشاعر المشهور، بالقاهرة في خامس ذي الحجة. وكان أديباً فاضلاً شاعراً فصيحاً بليغاً لا يُعرف في أبناء جِنسه الأقباط من يُقاربه ولا يدانيه، وهو أحد فحول الشعراء بالديار المصرية في عصره، وشعرُه في غاية الحسن والرِّقة والانسجام. وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس. وقد آستوعبنا من شعره أشياء كثيرة في كتابنا (المنهل الصافي)، إذ هو كتاب تراجم، نذكر هنا بعضها. ومن شعره وقد صادره الملك الظاهر برقوق، فقال: [الرمل]

رَبِّ خُذ بالعدلِ قوماً ... أهلَ ظلم متوالي
كلَّفوني بَيْعَ خيلِي ... برخيصٍ وبِغالي

ولما علّقه الملِك الظاهر برقوق في مصادرته منكّساً على رأسِه قال: [البسيط]

وما تعلّقت بالسِّرْياقِ[1] منتكِساً ... لجُرمةٍ أوجبتْ تعذيبَ ناسوتي[2]

---

(١) السرياق: خشبة يعلَّق عليها المراد تعذيبه وتأديبه منكّساً، رجلاه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل.
(٢) الناسوت: الطبيعة الإنسانية. ويقابلها اللاهوت. والمراد هنا بالناسوت الجسم.

لكنني مذ نفثتُ السِّحْرَ من أدبي عُلِّقتُ تعليقَ هاروتٍ وماروتِ[١]

وله ــ عفا الله عنه ــ: [الكامل]

زارتْ معطرةُ الشذا ملفوفةً كي تَختفي فأبى شذا العِطْرِ

يا معشر الأدباءِ هذا وقتكُم فتناظموا في اللَّفِّ والنَّشْرِ

وله ــ سامحه الله تعالى ــ: [الوافر]

يقول مُعذِّبي إذ هِمْتُ وجداً بخدّ خِلت فيه الشَّعْر نَمْلا

أتعرِف خدّه للعِشق أهلاً فقلت لهم نعم أهْلاً وسهلا

وتُوفِّي القاضي علاء الدين عليّ بن عيسى بن موسى بن عيسى بن سليم بن حميد الأزرقي المُقيَّري الكركيّ الشافعي، كاتب سرّ الكرك ثم الديار المصرية، في أوّل شهر ربيع الأول، ودُفن خارج باب النصر. وهو أحد من قام بنصرة الملك الظاهر عند خروجه من حبس الكرك، وقد تقدّم ذكر ذلك في ترجمة الملك الظاهر برقوق، فعَرَف له برقوق ذلك، وولّاه كتابة سرّ مصر، وولى أخاه القاضي عماد الدين قضاء الديار المصرية. وآستمرّ علاء الدين هذا في وظيفته كتابة السر إلى أن مرض ومات، وأعيد بدر الدين بن فضل الله من بعده في وظيفته كتابة السرّ.

وتُوفّي القاضي علاء الدين عليّ بن عبد الله بن يوسف البِيريّ الحلبيّ الشاعر الكاتب المنشىء في رابع عشر شهر ربيع الأوّل مخنوقاً بأمر الملك برقوق. وكان بارعاً في الإنشاء والأدب. وخدم جماعة من الملوك إلى أن آتصل بخدمة الأتابك يَلْبُغَا الناصري، وسار صحبته إلى الديار المصرية لقتال الملك الظاهر برقوق. ولمّا ملك الناصريّ ديارَ مصر صار علاء الدين هذا من عظماء مصر؛ ولا زال على ذلك حتى قُبِضَ على الناصريّ وحُبِس بالإسكندرية، فآستمر علاء الدين بمصر. فلمّا عاد الظاهر إلى مُلكه وأُخْرِج الناصريّ، عاد علاء الدين هذا إلى خدمته، إلى أن قَبضَ

(١) هاروت وماروت: ملكان مذكوران في القرآن (البقرة: ٢-١) يعلّمان السحر. وهما مسلسلان معذبان في بئر بأرض بابل، منكّسين إلى يوم القيامة. فتنتهما امرأة جميلة فاختارا عقاب الدنيا. (الموسوعة العربية الميسّرة: ١٨٨١).

عليه الملك الظاهر وقتله، وأُمْسِكَ علاء الدين هذا وحُمِلَ إلى القاهرة في الحديد، ثم قُتِل. وكان بارعاً أديباً شاعراً. ومن شعره: [الطويل]

أرى البدرَ لمّا أن دنا لغُروبه وأُلْبِس منه أزرقُ الماء أبيضا
تـوهّم أن البحر رام ٱلتقامَه فسلّ لـه سيفاً عليه مفضَّضا

وتُوُفِّي الأمير عَنْقاء بن شَطِّي ملك العرب وأمير آل مِرَا. كان قد خرج عن طاعة الملك الظاهر، وقَتَلَ الأميرَ يونس الدّوادار، ووافق الناصريّ ومنطاشاً. فلمّا عاد الملك الظاهر إلى مُلْكه لم يزل يُرسل إليه الفِدَاوِيَّة[1] ويَعِد الناسَ في قتله حتى قتلته الفِدَاويَّة في هذه السنة في رابع المحرم.

وتُوفي الأمير سيف الدين قُطلوبُغا بن عبد الله الصَّفَوِي. كان أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، وحاجبَ الحُجّاب بها في أوّل شهر ربيع الآخرة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبد الله السيفي طشتمر الدوادار. كان أحد أمراء العشرات مات في عاشر صفر.

وتُوفِّي الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله المِنْهاجيّ الفقيه الشافعي المعروف بابن الزَّرْكَشِيّ المصنّف المشهور في ثالث رجب. وكان فقيهاً مصنِّفاً.

وتُوفِّي الشيخ الصالح المعتقد أبو عبدالله محمد الرِّكْرَاكِيّ المغربيّ المالكيّ في ثالث عشر جُمادَى الأولى، وقد قارب مائة سنة.

وتُوفِّي الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الأمير حُسام الدين لاجين الصقريّ المَنْجَكِيّ المعروف بٱبن الحُسام في ثاني عشر صفر، بعد مرض طويل، بعد أن وَلِي الوظائف الجليلة مثل وزَر مصر والأستادارية وغيرهما.

وتُوفي القاضي جمال الدين محمود ٱبن القاضي حافظ الدين محمد بن تاج الدين إبراهيم القَيْصَريّ الحنفيّ قاضي قضاة الحنفية بحلب.

(١) الفداويّة: طائفة من الإسماعيلية. وكانوا يتولّون كل من يحكم مصر ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته. ولصاحب مصر مزيّة بمشايعتهم له يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يقتل بعده. ومن بعثه إلى عدو له فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم. (انظر صبح الأعشى: ١/١١٩ ــ ١٢٢).

وتُوفي الأمير سيف الدين قَرَادِمِرْداش بن عبد الله الأحمدي اليَلْبُغَاويّ مقتولاً في محبسه بقلعة الجبل في ذي الحجة. وهو أيضاً من أعيان المماليك اليَلْبُغاويّة. وكان من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، وأمير سلاح في سلطنة الظاهر الأولى. فلمّا آنتصر الناصريّ على عسكر الملِك الظاهر برقوق بدِمَشق، وقبَض الناصريّ على الأتابك أَيتَمُش البَجَاسيّ، خَلَع الملك الظاهر على قَرادمرداش هذا بآستقراره عِوضَه أتابك العساكر بالديار المصرية، وأنعم عليه بثلاثين ألف دينار، فأخذها وعَصَى من ليلته، وتوجّه إلى الناصريّ، وصار من جملة عساكره. فلمّا ملك الناصريّ الديارَ المصرية آستقرّ به أميرَ مجلس إلى أن أمسك منطاشاً مع مَن أَمْسك من حواشي الناصريّ، وحبَسه إلى أن أطلقه الملك الظاهر برقوق، وولّاه نيابةَ طرابُلُس، ثم نقله إلى نيابة حلب وندَبه لقتال منطاش فدام على نيابة حلب إلى أن عزله عنها الملك الظاهر، بعد أن أَمْسك الناصريّ وأنعم عليه بتقدمة ألف بديار مصر، ثم قَبضَ عليه بمصر وحبسه ثم قتله.

وتُوفي الشيخ المحدِّث المُسْنِد بدر الدين محمد بن محمد بن مجير المعروف بآبن الصائغ وآبن المُشارف في ثالث شهر ربيع الآخر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة خمس وتسعين وسبعمائة.

وفيها تُوفي الأديب الشاعر زَيْن الدين أبو بكر بن عثمان بن العَجَمِيّ في سادس عشر ذي الحجّة. وكان عنده فضيلة، وله شعر جَيِّد. من ذلك قوله: [البسيط]

قد عَاوَدَ الحُبُّ قلبي بعد سَلْوَتِهِ وآستعذب الضَّيْمَ والتعذيبَ والنَّصَبا

وكان أقسمَ لا يصبُو لظَبْي نَقا فما رأى في هَوَى غِزْلانِه وَصَبا

وتُوفِّي الأميرُ زَيْن الدين أبو يزيد بن مُراد الخازن، دوادار السلطان الملك الظاهر برقوق وأحد أمراء الطبلخاناه، في رابع جمادى الآخرة، وحضر السلطان الصلاة عليه. وأبو يزيد هذا هو الذي كان أخفى الملك الظاهر برقوقاً عنده في نَوْبة الناصري ومنطاش، وأُخِذ من داره. وكان الظاهر توجّه إليه وآختفى عنده من غير مواعدة، فعَرَف له الملكُ الظاهرُ ذلك. فلما عاد الملك الظاهر إلى مُلْكه ثانياً أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، ثم آستقرّ به دواداراً كبيراً بعد توجُّه بُطَا لنيابة الشام، فدام على ذلك حتى مات في التاريخ المذكور. ودفِن بتربته التي أنشأها عند دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل. وكان أميراً فاضلاً عارفاً ذكيًّا له يدٌ في فنون، وكان يَعْرِف بالتُّركِي والعجميّ والأرمنيّ، على أنه كان فصيحاً باللغة العربية.

قلت: هكذا يكون الدوادار، لا كمن لا يَعْرف آسمه من آسم الحمار. وكان يميل إلى مذهب الصوفية. وكان الملك الظاهر يَثِق إليه، ويُشاوره في أموره.

وتُوفِّي الوزير الصاحب شمس الدين أبو الفرج عبد الله المقسيّ، في رابع شعبان، ودفن بجامعه[1] الذي جدّده على الخليج الناصريّ بالقرب من باب البحر. وكان معدوداً من رؤساء الأقباط.

وتُوفِّي الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير علاء الدين[2] آقبغا آص. قال المقريزي رحمه الله: كان أولاً من جملة أمراء الملك الأشرف شعبان الطبلخانات، ثم نزعها منه لمّا سَخطَ على والده، وتعطَّل مدّة وعَقّ أباه. وحُكِي عنه أمور شنيعة في عقوقه لوالده. وسافر إلى اليمن وعاد إلى القاهرة، وتنقّلت به الأيام إلى أن ولي شد الدواوين بإمرة عشرة مدّة. ثم أُمسك وصودر وعوقب عقوبة شديدة. وكان سيّء السيرة، من أشرّ خلق الله المتجاهرين بالمعاصي، إلى أن توفى في يوم الأربعاء ثامن عشرين شوّال». إنتهى كلام المقريزي.

---

(١) هو الجامع المعروف اليوم بجامع أولاد عنان بشارع إبراهيم باشا من جهة باب الحديد بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٢) في السلوك: «الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين آقبغا آص».

وتُوفِّي الأمير الطواشي مقبل بن عبد الله الشهابي شيخ الخدّام بالحرم النبويّ. وكان أصله من خُدّام الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون. وتنقّل في الخدم إلى أن آختص بالأمير شَيخون العُمري، ثم خدم السلطان حسن [بن محمد][١]. ثم ولي مشيخة الخُدّام بالحرم النبوي بعد وفاة الطواشي آفتخار الدين ياقوت الرسولي الخازندار الناصري؛ وكان مقبل يَنُوب عنه في الحرم، فلمّا مات ولي مكانَه.

وتُوفي قاضي القضاة ناصر الدين أبو الفتح نصرالله بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن هاشم بن إسماعيل بن إبراهيم الكناني العسقلانيّ الحنبلي، قاضي قضاة الديار المصرية بها في ليلة الأربعاء حادي عشرين شعبان. وكان مشكور السيرة مُحِبّاً للناس.

وتُوفي الشيخ نجم الدين محمد بن جماعة الشافعي خطيب القدس في يوم الأربعاء تاسع ذي القعدة [بالقاهرة ودُفِن خارج باب النصر][١].

وتُوفي الأمير صارم الدين إبراهيم آبن الأمير الكبير طشتمر الدوادار في شهر رمضان بثغر الإسكندرية. وكان من جملة أمراء الطبلخاناه بالديار المصرية.

وتُوفي الشيخ علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد الأَقْفَهْسِي[٢] الفقيه الشافعيّ في ثامن[٣] عشرين شوّال. وكان معدوداً من فقهاء الشافعية.

وتُوفي علاء الدين قُطلوبغا بن عبد الله الأَسَنْقَجاري[٤]، والمعروف بأبي دَرَقَة الكاشف[٥]. ولي الكشْفَ بجهات كثيرة، ووقع له أمور مع العُرْبان، وقَتَل منهم جماعةً كبيرة حتى مَهَّد البلاد القبلية.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) نسبة إلى أقفهس، قرية بمصر من أعمال البهنساوية.

(٣) في السلوك: «ثاني عشرين شوال».

(٤) في السلوك: «سيف الدين قطلوبغا الأسفقجاوي».

(٥) الكاشف: هو الذي يشرف على أحوال الأراضي والجسور، ولذلك سمي كاشف الجسور أو كاشف التراب. وكان بالوجه القبلي ثلاثة كشّاف مقرّهم الفيوم والصعيد الأدنى والصعيد الأعلى. وبالوجه =

وتوفي الشيخ صلاح الدين محمد بن الأعمى الحنبلي، مدرس مدرسة الملك الظاهر برقوق في شهر ربيع الآخر.

وتُوفي القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الضياء المُناوي الشافعي، شيخ المدرسة الجاولية بالكبش، وأحد نواب الحكم بالقاهرة في شهر ربيع الآخر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وأربعة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وعشرون إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة ست وتسعين وسبعمائة.

وفيها توفي الأمير سيف الدين أَبْرك بن عبد الله المحمودي الظاهري شادّ الشراب خاناه السلطانية، وهو مجرّد بدمشق، وبها دفن. وكان خَصيصاً عند أستاذه الملك الظاهر برقوق.

وفيها تُوفِّي الصاحب الوزير مُوَفَّق الدين أبو الفرج الأسلمي [القبطي][1] تحت العقوبة في يوم الاثنين [حادي][1] عشرين شهر ربيع الآخر. وكان أسوأ الوزراء سيرة، لأنه كان أُكره على الإسلام حتى قال كلمة الإيمان غصباً، ولبس العمامة البيضاء وهو باقٍ على دين النَّصرانية، فكان[2] على الناس بذنوبهم. ولما كان على دين النصرانية وهو يباشر الحوائج[3] خاناه كان مشكور السيرة، حتى أُكْرِه على

= البحري اثنان مقرهما الشرقية والغربية. وكان الكاشف من أمراء الطبلخاناه. (صبح الأعشى: ٤/٢٥، ٦٥ ـ وزبدة كشف الممالك: ١٢٩ ـ ١٣٠).

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) عبارة السلوك: «فتسلّط على الناس بذنوبهم».

(٣) الحوائج خاناه: أي بيت الحوائج. منها كان يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطاني والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ =

الإسلام، فبلغ من المسلمين مبلغاً عظيماً من الظلم والجور. وولي في بعض الأحيان نظر الجيش بديار مصر أيضاً.

قلت: لا ألومه على ما فعله وما الذنب إلا لمُوَلِّيه. لم لا اقتدى بمن كان قبله من الملوك السالفة ووزرائهم؟! مثل القاضي الفاضل عبد الرحيم، وآبن بنت الأعز وبني حِنّاء وغيرهم ــ رحمهم الله تعالى.

وتُوفي الشيخ المعتقد الصالح رشيد التَّكْروري[1] الأسود في البِيمارستان المنصوري في يوم السبت ثالث عشرين جمادى الآخرة. وكان يقيم بجامع راشدة خارج مدينة مصر القديمة، وهو آخر من سكنه، وهو يُقصد للزيارة، وللناس فيه آعتقاد حسن.

وتوفي الأمير سلّام (بتشديد اللام) آبن محمد [بن] سليمان بن فايد، المعروف بابن التركية، أمير خفاجة من الصعيد في سابع شهر ربيع الآخر، وكان من أجلّ أمراء العرب.

وتُوفِّي الرئيس علاء الدين علي بن عبد الواحد بن صغير رئيس الأطباء، وهو بمدينة حلب في التجريدة صُحبة السلطان في يوم الجمعة عاشر ذي الحجة ودفن بها، ثم نقل بعد مدّة إلى القاهرة. وكان من الأفراد في علم الطب والملاطفة، ماهراً في صناعته. كان من عظم آطلاعه في علم الطب يصف [الدواء] للموسر بأربعين ألفاً ويصف الدواء في ذلك الداء بعينه للْمُعسر بفَلْس واحد.

قال المقريزي: «وكنت عنده فَدخَل عليه شيخ وشكا شدة السُّعال، فقال له: إياك تنام بغير سراويل، فقال الشيخ: أي والله، فقال له: فلا تفعل، نم بسراويلك! قال: فصدفت ذلك الشيخ بعد أيام فسألته، فقال لي: عملت ما قال فبرِئتُ. قال:

= أسماؤهم الدفاتر، وكذلك توابل الطعام والزيت للوقود والحبوب وغير ذلك. (صبح الأعشى: ١٢/٤ ــ ١٣).

(١) التكروري: نسبة إلى بلاد التكرور، وهي مالي. والتكرور مدينة من مدنها. (التعريف بالمصطلح الشريف: ٤٤).

وكان لنا جار حدث لابنه رُعاف حتى أفرط فآنحلت قوى الصغير، فجاء به إلى ابن صغير هذا وشكا من كثرة الرُّعاف، فقال له: شرِّط أُذنه، فتعجّب وتوقف فقال له ثانياً: توكَّل على الله وآفعل، ففعل ذلك فبرىء الصغير. وذكر له أشياء كثيرة من هذا النموذج يطول شرحها.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد آبن القاضي علاء الدين علي آبن القاضي محيي الدين يحيى بن فضل الله بن مجلِّى بن دَعْجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد الله بن علي بن محمد بن أبي بكر عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي العُمَري المصري الشافعي كاتب سِر الديار المصرية ورئيسها بدِمَشق في يوم الثلاثاء العشرين من شوّال مجرداً صحبة السلطان الملك الظاهر برقوق ودفن بتربتهم بدِمشق. وولي كتابة السر من بعده القاضي بدر الدين محمود الكلستاني.

وتُوفي أخوه حمزة بن علي بن فضل الله بعده بشهر، فقال في موتهما بعض شعراء العصر: [الوافر]

قضى البدر بن فضل الله نحباً ... ومات أخوه حمزة بعد شهرِ
فلا تعجب لذي الأجلين يوماً ... فحمزة مات حقاً بعد بدرِ

وكان القاضي بدر الدين المذكور إماماً رئيساً فاضلاً في الإنشاء والأدب وله مشاركةٌ جيدة في الفقه وغيره. وكان محمودَ السيرة مشكور الطريقة. باشر كتابة سرّ مصر نحو سبع وعشرين سنة، على أنه آنفصل فيها أولى وثانية؛ فالأولى بأوحد الدين عبد الواحد، الثانية بعلاء الدين الكَرَكي، وهو ثالث واحد سُمِّيَ بدرَ الدين من بني فضل الله كتَّاب سرِّ دمشق، وآخِرُ مَنْ ولي كتابة سر مصر وغيرها من بني فضل الله، وبموته خرجت كتابة السر عن بني فضل الله ــ رحمه الله تعالى ــ.

وتُوفي القاضي تاج الدين محمد بن محمد بن محمد المَليجي المعروف بصائم الدهر، محتسب القاهرة، وناظر الأحباس، وخطيب مدرسة السلطان حسن، في تاسع عشر صفر عن سبعين سنة. وكان خيِّراً ديناً مشكور السيرة ــ رحمه الله ــ.

وتُوفي الأمير مَنْكِلي بغا بن عبد الله الشمسي الطرخاني، أحد الأمراء بديار

مصر ثم نائب الكرك، في ليلة عاشوراء. وكان من أكابر أمراء مصر، ولديه حشمة ورياسة.

وتُوفي الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الأتابك منكلي بغا الشمسي وآبن أخت الملك الأشرف شعبان بن حسين، وصهر الملك الظاهر برقوق، وأحد أمراء الطبلخانات بديار مصر بها في عاشر شعبان.

وتوفي الشيخ ناصر الدين محمد بن مقبل الجندي الفقيه الظاهريّ[١] المذهب في يوم الأربعاء ثالث عشر جُمادى الآخرة. وكان فاضلاً وله مشاركة جيّدة في فنون، وكان لا يتكتَّم الاقتداءَ بمذهب أهل الظاهر، ويحفّ شاربَه، ويرفَع يديه في كلّ خفض ورفع في الصلاة.

وتُوُفِّي الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير شرف الدين موسى بن [سيف الدين أَرُقْطاي بن][٢] الأمير جمال الدين يوسف أحد أمراء العشرات بالديار المصرية في ليلة الأربعاء سادس عشرين ذي القَعْدة. وكان أبوه وجدّه من أمراء الألوف بالقاهرة. وكان يُحبُّ علمَ الحديث، ويُواظب سَماعَه، وله مشاركة في المذهب.

وتُوفِّيَت الشيخة الصالحة المعتَقَدة المعروفة بالبغدادية، صاحبة[٣] الرِّباط بالقاهرة في يوم السبت ثاني عشرين جُمادَى الآخرة. وكانت على قَدَم هائل من الصلاة والعبادة. وللناس فيها آعتقاد، وتُقصد للزيارة.

وتُوُفِّي السلطان أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم

---

(١) المذهب الظاهري في الفقه هو المذهب الذي يأخذ بظاهر الكتاب والسنة والإجماع، ويعرض عن التأويل والرأي والقياس. وينسب هذا المذهب إلى الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني المتوفى سنة ٢٧٠هـ. وقد تجدّد هذا المذهب على يد الإمام ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ. ــ انظر كتاب الشيخ محمد أبو زهرة: ابن حزم: حياته وعصره وآراؤه الفقهية.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) البغدادية المتوفاة في هذه السنة ليست هي صاحبة هذا الرباط، وإنما صاحبته هي الشيخة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية المتوفاة على الأرجح قبل نهاية القرن السابع الهجري. وهذا الرباط بنته لها ابنة الظاهر بيبرس في سنة ٦٨٤هـ وأنزلتها به. قال المقريزي: «وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية. وأدركنا الشيخة الصالحة البغدادية أقامت به عدة سنين إلى أن ماتت في جمادى الآخرة سنة ٧٩٦هـ». ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٧ ــ ٤٢٨.

في ليلة الخميس رابع شعبان بمحلّ مُلكه مدينة تُونس من بلاد المغرب، بعد أن حكمها أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر ونصفاً، وقام من بعده على ملك تُونُس آبنُه السلطان أبو فارس عبد العزيز. وكان من أجلّ ملوك الغرب، وطالت أيام ولده عبد العزيز في الملك حسب ما يأتي ذكره في محلّه، إن شاء الله تعالى.

وتُوُفِّي أيضاً صاحب مملكة فاس من بلاد الغرب ـ السلطان أبو العباس أحمد بن أبـي سالم بن إبراهيم بن أبـي الحسن المَرِيني ملك الغرب في المحرّم، وأُقيم بعده آبنه أبو فارس عبد العزيز.

قلت: وهو يُشارك المقدّم ذكره في الاسم والكُنية وآسم الأب والجَدّ.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم ستة أذرع سواء. مبلـغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وأحد عشر إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة سبـع وتسعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الشيـخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم الآمدي الدِّمشقي الفقيه الحنبلي أحد أصحاب آبن تَيميّة.

وتُوفي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغا بن عبد الله الحلبـي الأشرفي، وهو مسجون بقلعة حلب. وكان من أعيان المماليك الأشرفية، وأحد أكابر الأمراء بديار مصر.

وتُوُفِّي الشيـخ المعتقد المجذوب أبو بكر البِجَائي المغربـي، أحدُ من أوصى السلطان الملك الظاهر برقوقاً أن يُدفن تحت رجلَيْه، في يوم السبت خامس جُمادَى الآخرة، ودُفِن خارج باب النصر حيث هي التربة الظاهرية الآن. وكانت جنازته مشهودة، وأخرجه السلطان وجهّزه على يد الأمير يلبغا السالمي. وكان للناس فيه آعتقاد لا سِيَّما الظاهر برقوق فإنه كان له فيه آعتقاد.

وتُوُفِّي العَلامة صدر الدين بَديع بن نَفيس التَبريزي رئيس الأطباء بالديار المصرية في سادس عشر شهر ربيع الأول؛ وهو عمّ القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السّر الآتي ذكرُه، وهو الذي كَفَله بعد موت جدِّه نَفيس. وكان مات والد فتح الدين مُعْتَصم بن نَفِيس، وفَتْحُ الله طفل صغير. وكان بديعاً ماهراً في علم الطبّ كثيرَ الحفظ لمتونه. وهو صاحب التصانيف المشهورة.

وتُوُفيِّ الشريف أبو الحسن عليّ بن عَجْلَان بن رُمَيْثة، وآسم رميثة مُنْجد بن أبي نُمَيّ بن أبي سعد حسن بن علي بن قَتَادة بن إدريس بن مُطاعِن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله المحض بن موسى بن الحسن السِّبط بن الحسن بن علي بن أبي طالب المكي الحسني، أمير مكة المشرفة. وَلِيها ثماني سنين ونحو ثلاثة أشهر مستقّلاً بالإمارة، غير سنتين أو نحوهما، فإنه كان فيهما شريكاً لعنان بن مُغامس بن رميثة؛ ووقع له أمور بمكة مع الأشراف ووقائع؛ وآخر الأمر توجّه أخوه الشريف حسن بن عجلان إلى القاهرة يريد إمرة مكة، فقبض عليه السلطان وحبسه؛ وبعث إلى عليّ هذا باستمراره على إمرة مكة، فاستمرّ على إمرتها إلى أن وقع بينه وبين بعض القُواد، وخرج إليهم عليّ هذا، فبدره بعضهم وسايره، وهو راكب على راحلته، والشريف عليّ هذا على فرس، فرمى القائد بنفسه على الشريف عليّ المذكور وضربه بجنبيّة[1] كانت معه، فوقعا جميعاً على الأرض، فوثب عليه عليّ وضربه بالسيف ضربة كاد منها يَهلك. وولَّى عليٌّ راجعاً إلى الحِلّة، فأغرى به شخص يقال له أبو نميّ غلام لصهره حازم بن عبد الكريم جندياً، وعُتْبة وحمزة وقاسماً، فوثبوا عليه وقتلوه وقطّعوه وبعثوا به إلى مكة، فدُفِن بالمَعْلاة على أبيه عجلان. وكان قتله في يوم الأربعاء سابع شوّال، ووَلي إمرةَ مكة بعده أخوه حسن بن عجلان.

وتُوفِّي الأمير ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر برقوق في يوم السبت ثالث عشرين ذي الحجة. ومولده في مستهل شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين

---

(١) الجنبيّة: خنجر يوضع في حزام الرجل إلى جنبه.

وثمانين وسبعمائة، وأمّه خَونْد الكبرى أُرْدُ، صاحبة قاعة العواميد[١]، ومات بعد أن أعيا الأطباء داؤه الذي كان برجليه من أرياح الشّوكة، وبه مات. وكان إقطاعه الديوان المفرد الآن، فإنه لما مات جعله السلطان إقطاعه لمماليكه المشتروات وأفرده فسمي المفرد من يومئذ، وجعل كاتبه الهيصَم. وكان محمد هذا أكبر أولاد السلطان وأعظمهم، ووجِد السلطانُ عليه وجْداً عظيماً.

وتُوُفِّي قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن عبد الدائم بن محمد المعروف بآبن بنت مَيْلَق الشاذلي الصوفي، قاضي قضاة الديار المصرية، وهو معزول، في ليلة الاثنين تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل. وكان أصله من أُشْمُوم الرمان. وُلِد قبل سنة ثلاثين وسبعمائة، وسمع الحديث وطلب العلم وتفقّه ووعظ دهراً، وقال الشعر، وأنشأ عِدّة خطبٍ بليغة، وجمع عدّة أجزاء في عِدّة فنون. كان يتزيّا بزيّ الفقراء ويتصدى لعمل المواعيد، وآعتقده الناس وتبرّكوا به، وخطب بعدّة جوامع وصار له أتباع وشُهرة كبيرة، إلى أن طلبه الملك الظاهر برقوق للقضاء بعد عزل القاضي بدر الدين محمد بن أبي البقاء، فامتنع، ثم أجاب فألبسه الملك الظاهر تشريف القضاء بيده، وأخذ طيلسانه يتبرّك به.

قال المقريزي: «فداخل الناسَ بولايته خوفٌ ووهم، وظنوا أنه يحمل الناس على محض الحق، وأنه يسير على طريق السلَف من القضاة، لِما ألفُوه من تشدّقه في وعظه، وتفخُّمه في منطقة، وإعلانه بالنّكير على الكافّة، ووقيعته في القضاة، وآشتماله على لبس الخشن المتوسط من الثياب، ومعيبه على أهل التّرف. فكان أوّل ما بدأ به أن عزل قضاة مصر جميعَهم من العريش إلى أُسوان. وبعد يومين تكلم معه الحاجّ مُفْلِح مولى القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتم السرّ في إعادة بعض مَنْ عزله من القضاة فأعاده، فانحلّ ما كان معقوداً بالقلوب من مهابته. ثم قلع زيّه الذي كان يلبسه، ولبس الشاش الكبير الغالي الثمن ونحوه من الثياب، وترفّع في مقاله وفعاله، حتى كاد يصعد الجو، وشح في العطاء، ولاذ به جماعة

---

(١) هي إحدى قاعات القلعة، وكانت مخصصة لحاجات السلطان المنزلية، وكانت تعرف بالقاعة الكبرى. (زبدة كشف الممالك: ٢٧).

غير مُحبَّبين إلى الناس. فآنطلقت ألسنة الكافَّة بالوقيعة في عِرْضه، وآختلقوا عليه ما ليس فيه. فلما قَدِم الأمير يلبغا الناصريّ إلى الديار المصرية، وغلب برقوقاً على المملكة وبعثه إلى سجن الكرك، كان هو قاضياً يومئذ فوقع في حقّ الظاهر، وأساء القول فيه، فبلغه ذلك قبل ذَهَابه إلى الكرك فأسرّها في نفسه. فلمَّا ثار منطاش على الناصري صرف آبن مَيْلق هذا عن القضاء بالصدر المُناوي، بعد ما كان أخذ خطَّه في الفتاوى المكتتبة في حقّ برقوق. فلمّا عاد برقوق إلى الملك لَهِجَ بدمه، فتنبهت أعين العِدا لابن ميلق هذا وحسنوا للبيدَفي أحمد أمين الحكم أن يقف للسلطان ويشكو آبن ميلق المذكور بسبب ما أخذه من أموال الأيتام، وكان نحو الثلاثين ألف درهم فضة، عنها قريب من ألف وخمسمائة مثقال من الذهب، فرفع فيه قصة إلى السلطان، فطلبه، فجاؤوا به، وقد حضر القضاة، فأُوقِف مع النقباء تحت مقعد السلطان في الميدان، فحالمَا مَثَل قائماً سقط مغشِياً عليه، وصار على التُّراب بحضرة ذلك الجمع العظيم. فتقدّم بعضُ مَنْ كان يلوذ به ليصلح من شأنه، فصرَخ فيه السلطان وتُرِك طويلاً حتى أفاق. وآدّعى عليه البيدَفي فلم يلحن بِحجة، وألزمه القضاة بغرامة ذلك، والقيام به للأيتام من ماله، ولم يكن المال المذكور في ذمته، وأنما كان آقترضه وصرَّه للحرمين، فلزمه غَصْباً. ورُسِم عليه وسُجِن بالمدرسة الشريفية[1] ليدفع المال؛ وما زال يُورده حتى أتى ذلك على غالب موجوده. ثم لزم داره وذهبت عينه، وتخلَّى عنه أحبابُه إلى أن مات، ودُفِن خارج باب النصر بتربة الصوفية. فلقد كان قبل ولايته حسنة من حسنات الدهر، ما رأيت قبله أحسن صلاة منه ولا أكثر خشوعاً، مع حسن منطق، وفصاحة ألفاظ، وعذوبة كلام، وبهجة زِيٍّ، وصدع في وعظه إذا قصَّ أو خطب، إلَّا أنه آمْتُحِن بالقضاء، وآبْتُلِي بما أرجو أن يكون كفارةً له. انتهى كلام المقريزي باختصار.

وتُوفِّي الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن صلاح الحريري، أحد نوّاب القضاة الحنفية ومشايخ القراء بالديار المصرية، في يوم الجمعة رابع عشرين شهر

(١) هي التي تعرف بجامع بيبرس الخياط بأول شارع الجودرية بالدرب الأحمر. (محمد رمزي).

رجب. وكان فقيهاً مقرئاً، أقرأ ودرّس وناب في الحكم[١] سنين.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين محمد بن عمر القليجي الحنفي مفتي[٢] دار العدل، وأحد نواب القضاة بالديار المصرية، في ليلة الثلاثاء العشرين من شهر رجب. وقد بلـغ من الرياسة مبلغاً عظيماً، وكانت لديه فضيلة تامّة.

وتُـوُفِّي العّلامـة شمس الدين محمـد الأقصرائي الحنفي شيـخ المـدرسة الأيتمشية[٣] بباب الوزير، في سابـع عشر جُمادى الأولى. وكان إماماً عالماً مدرساً فقيهاً ذكياً حافظاً. كان يُلقي الدرس عند الملك الظاهر أيام إمرته، وصدراً من سلطنته. وكان خَصِيصاً عند السلطان وله وجاهة في الدولة. وتَولّى بعد موته مشيخة الأيتمشية الشيـخ سراج الدين عمر القومي.

وتُوُفِّي القاضي برهان الدين إبراهيم القَلْقَشنديّ الشافعيّ مُوَقِّـع[٤] الحكم، وأحد الفقهاء الشافعية في ثالث عشرين شعبان.

وتُوُفيّ الأمير سيف الدين طُوغان بن عبد الله الظاهريّ أمير جانْدَار[٥]، في سادس عشر صفر. وكان أحد أعيان المماليك الظاهرية برقوق خصيصاً عند أستاذه.

وتُوُفِّي الشيـخ نور الدين أبو الحسن علي الهُورِينيّ الفقيه الشافعي شيـخ القَوْصُونية[٦] في شهر رجب وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً.

---

(١) نيابة الحكم هي النيابة مكان قاضي القضاة.

(٢) كان يشغل وظيفة إفتاء دار العدل أربعة قضاة كل منهم يمثل مذهباً من المذاهب الأربعة. وجلوسهم دون قضاة العسكر. وأما في الشام فكان بها مفتيان أحدهما شافعي الآخر حنفي، وولايتهما عن النائب. (صبح الأعشى: ٤/٣٦،١٩٨).

(٣) تقـع هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت القلعة برأس التبّانة. أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسي سنة ٧٨٥هـ. (خطط المقريزي: ٢/٤٠٠).

(٤) ينصرف لفظ «الحكم» عادة إلى القضاء. وموقـع الحكم هو من كبار الكتّاب بين يدي قاضي القضاة. ــ انظر صبـح الأعشى: ١٤/٣٦٥، طبعة دار الكتب العلمية.

(٥) راجـع فهرس المصطلحات.

(٦) أي خانقاه قوصون ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٥.

وتُوُفِّي الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد السفري الحلبي الحنفي في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الأوّل، وأصله من قرية خربتا من عمل عَزَاز[١]، وكان فقيهاً بارعاً، وله مشاركة في فنون.

وتُوُفِّي القاضي جمال الدين أبو محمد عبد الله بن فرج النُّوَيْرِي المالكي، أحد نُواب الحكم المالكية بالديار المصرية. وكان معدوداً من فضلاء المالكية.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قرابُغا بن عبد الله، والد الأمير جَرَكْتَمُر الخاصكي الأشرفيّ، في ثاني شهر ربيع الأوّل. وكان أحد أمراء العشرينات بالقاهرة، وكان مشكور السيرة خيِّراً ديِّناً.

وتُوُفِّي الشيخ المعتقَد شمس الدين محمد المقسي في يوم الأحد أول شهر رمضان، وكان يسكن بجامع المقسي على الخليج، وكان يقصد للزيارة.

وتُوُفي الشيخ المُعْتَقَد محمد السَّمَلُوطي الصعيدي المالكي، في ثاني عشر شهر رمضان. وكان فقيهاً خيِّراً ديِّناً، وللناس فيه آعتقاد ومحبة.

وتُوُفِّي الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبد العزيز المعروف بابن المُطرِّز في يوم الأحد سادس جُمادى الآخرة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وثمانية أصابع.

* * *

---

(١) خربتا وعزار من البلاد الحلبية.

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة ثمان وتسعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الشيخ المُقرىء الفقيه شهاب الدين أحمد بن محمد بن بيبرس الجُنْدِيّ، المعروف بآبن الركن البِيبرسي(١) الحنفي. وكان إماماً فاضلاً.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بهادُر بن عبد الله الأَعْسَر في يوم عيد الفطر. وكان من أعيان الأمراء، وتنقَّل في عِدّة ولايات.

وتُوُفِّي الأمير تمرُ بن عبد الله الشِّهابي الحاجب أحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصرية. وكان فقيهاً فاضلاً، وإماماً بارعاً في الفقه وفروعه، معدوداً من فقهاء الحنفيَّة. وكان شجاعاً مِقْداماً خَرجَ عليه العرب العُصاة فقاتلهم فجُرِحَ في المعركة، ومات من جراحه، رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير الجليل سُودون بن عبد الله الفخري الشيخوني، نائب السلطنة بالديار المصرية بها، في يوم الثلاثاء خامس جُمادى الآخرة، بعدما شاخ. وكان أصله من مماليك الأمير الكبير شيخون العُمَري الناصريّ، ثم تَرقَّى في الدول إلى أن وَلِي حجوبية الحجاب بالديار المصرية، في دولة الملك الصالح حاجي، ثم نقله الملك الظاهر برقوق إلى نيابة السلطنة في أوائل سلطنته. وطالت أيامه في السعادة، وكان وَقُوراً في الدُّول، معَظَّماً عند الملوك. ولما كَبِر وشاخَ أخذَ يتبرّم من الإمرة والوظيفة ويَسْتَعفي، إلى أن أعفاه الملك الظاهر بعد قدومه من سَفْرته إلى البلاد الشامية. وكان سودون مُقيماً بالقاهرة، فلَزِم دَاره من صفر سنة سبع وتسعين وسبعمائة إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره. وكان أميراً خيِّراً ديِّناً وافر آلحرمة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. ومنذ مات تَجاهَر الملك الظاهر برقوق بالمنكرات التي لم تكن قبلُ تُعرف منه. وكان مُحباً للعلماء والفقراء، كان يدور وينزل إلى بيوت الفقراء، ويتبرّك بهم ويبذلُ إليهم الأموال.

---

(١) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «البيسري».

قال قاضي القضاة العيني ــ رحمه الله ــ: وكان حصل له شيء من التَّغَفُّل والتساهِي.

قلت: كان فيه سلامةُ باطن مع دين وشفقة ولين جانب، حتى صار يُحْكى عنه أشياء في حكوماته مختلقة عليه، كما يذكرُ الناس ذلك عن الخادم بهاء الدين قَرَاقُوش الصَّلاحي الخصيّ، وليس لذلك صحة. اِنتهى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قُطلوبك بن عبد الله الطُّشْتَمُري، أحدُ أمراء الألوف بالديار المصرية. وكان جليلَ القدر وَقوراً من الأمراء المشايخ.

وتُوُفِّي الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن رجب بن كَلْبَك[1] التُّركماني الأصل المصري، في يوم الجمعة سادس عشرين صفر. كان شاباً جميلاً حسن الهيئة. وهو ممن تُوُفِّي [من الوزراء][2] بغير نَكْبة. ولّاه الملك الظاهر برقوق أوّلاً شادّ الدواوين بعد ابن آقبغا آص، ثم عُزِل بابن آقبُغا آص، وعُوِّض عن شدّ الدواوين بشد الدواليب[3] الخاصّ، عوضاً عن خاله محمد بن الحسام، بحكم آنتقال خاله إلى الوزارة. ثم بعد مدّة صُودر، وحُمِّل مائة وسبعين ألف درهم، وقبل أن يُغلِقها أفرج عنه. ثم ولاه الملك الظاهر الوزارة عوضاً عن الوزير مُوَفَّق الدين، في يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وسبعمائة، وأنعم السلطان عليه في يوم ولايته للوزارة بإمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر. ثم خَلَع السلطان على جماعة من الوزراء البطّالين بوظائف تحت يده تعظيماً له، وصار الجميع في خدمته؛ فآستقرّ الوزير سعد الدين نصر الله بن البَقَرِيّ ناظر الدولة[4]، وآستقرّ

---

(١) في السلوك: «ناصر الدين محمد بن رجب بن محمد بن كلفت».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الشدّ: التفتيش (راجع فهرس المصطلحات). والدواليب: جمع دولاب، وهو الآلة التي يُستقى بها الماء. وإذا أديرت هذه الآلات بالماء سميت النواعير. وإذا أديرت بالبقر أو بغيره من الدواب سمي الواحد منها «المنجنون». (انظر معجم متن اللغة، مادة: دلب؛ وصبح الأعشى: ٣٤٤/٣ طبعة دار الكتب العلمية).

(٤) ناظر الدولة أو ناظر الدواوين ــ راجع فهرس المصطلحات.

الوزير كريم الدين بن الغنَّام في نظر البيوت[١]، وآستقرّ الوزير علم الدين سِنّ إبرة في آستيفاء الدولة، شريكاً للوزير تاج الدين عبد الرحيم ابن أبـي شاكر، ونزل الجميع في خدمته، وباشروا بين يديه، كما كانوا بين يدي خاله الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الحُسام الصَّفَوي، فسُمِّيَ بوزير الوزراء، وباشر بحرمة وافرة إلى أن مات.

وتُوُفِّي السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن الشريف غياث الدين إبراهيم بن حمزة الحسنِيّ العراقيّ، نقيب[٢] الأشراف، في ليلة [السبت] ثالث شهر ربيع الآخر، ودفِن على أبيه بتربة الأتابك يلبغا العمري بالصحراء خارج القاهرة. وكان ولِّي نظر وقف الأشراف مع نقابة الأشراف، ونظر القدس والخليل. وكان شكلاً جميلاً مهيباً فصيحاً بالألسن الثلاثة: العربية والعجمية والتركية. وكان دَيِّناً خَيِّراً، صاحب عبادة ونُسُك. وكان له نظم على طريق البغاددة ـــ رحمه الله تعالى ـــ وهو قوله: [المتقارب]

بِحقِّي عليكم بِشــوقي إلـيكـم إذا اشْتَقْتُ لَيْكم تَعالُوا آبصرُوني

وتُوفِّي ملك الغرب وصاحب فاس السلطان أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبـي العباس أحمد بن أبـي سالم بن إبراهيم بن أبـي الحسن المَرِيني، وأُقِيم بعده على سلطنة فاس أخوه أبو عامر عبد الله.

وتُوُفِّي الشيخ صلاح الدين محمد الشَّطَنوفي موقِّع الحكم في شهر رمضان. وكان إماماً في صناعته.

---

(١) نظر البيوت: من الوظائف الديوانية التي يتولاها عادة أرباب الأقلام. واسمها الكامل: «نظر البيوت والحاشية». والقائم عليها يشارك الأستادار في إدارة بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان. (صبح الأعشى: ٣١/٦).

(٢) أي نقيب الأشراف الطالبيين. وله النظر في أمور الأشراف الطالبيين الذين ينتسبون إلى الإمام علي بن أبـي طالب، ويمنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا تشكك في أحد طلب منه شجرة نسبه. وعليه أن يعود مرضاهم ويمشي في جنائزهم ويسعى في حوائجهم ويأخذ على يد المعتدي منهم. ولا يقطع أمراً من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم. (صبح الأعشى: ٢٧٣/٣، ٤٨١ ـــ ٤٨٢ و ٣٧/٤).

وتُـوُفِّي الشيـخ نور الـدين علي بن عبـد الله بن عبـد العـزيـز [بن عمـر بن عَوَض][١] الدِّميري المالكي شيخ القرّاء بخانقاه شيخون، وأخو القاضي تاج الدين بَهْرَام، في ثاني عشرين شهر رمضان. وكان إماماً في القراءات مشاركاً في عدّة فنون.

وتُوُفِّي الأمير ناصر الدين محمد بن جُمَق بن الأمير الكبير أيتمش البجاسي في يـوم الجمعة خـامس صفر، وحضـر السلطان الصلاة عليـه. وكان أحـدَ أمراء الطبلخانات.

وتُوُفِّي الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير جاركس الخليلي في يوم الثلاثاء تاسـع صفر. وكان محمد المذكور أيضاً من أمراء الطبلخانات بالديار المصرية.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين محمد بن محمـد بن موسى الشنشي الحنفي المعروف بالرُّخ، أحد نوّاب القضاة الحنفية بمصر في [يوم الخميس سادس][١] جمادى الأولى.

وتُوُفِّي الشيـخ زَيْن الدين مُقْبل بن عبد الله الصَّرغَتْمشي الفقيه الحنفي في أول شهر رمضان بالقاهرة. وكان فقيهاً فاضلاً مستحضراً لفروع مذهبه، وله مشاركة في عدّة فنون.

وتُوفي الأمير سيف الدين تَغْري بَرْدِي بن عبد الله القَرْدَميّ قتيلاً في محبسه. وكان من أعيان الأمراء، ووقـع له أمور في واقعة الناصري ومنطاش مـع الملك الظاهر برقوق أوّلاً، ثم كان من حزب الملك الظاهر على منِطاش آخراً، ودام على ذلك إلى أن قُبِض عليه وحُبِس، ثم قُتِل في التاريـخ المذكور ــ رحمه الله ــ وكان شجاعاً مقداماً.

وتُوُفِّي الشيـخ الخطيب برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيـخ المعتقد الصالـح عبد الله المَنُوفي الفقيه المالكي في شهر رجب. وكـان أحد الفقهـاء

(١) زيادة عن السلوك.

المالكية. أَقْرأ ودرّس وخطب بجامع الأمير شرف الدين أمير حسين بن جَنْدر سنين؛ وهو آبن العبد الصالح المشهور عبد الله المَنُوفي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وآثنا عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وإصبعان.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة تسع وتسعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الأمير سيف الدين إياس بن عبد الله الجِرْجاوي نائب طرابُلُس بالقاهرة بعد أن قُبض عليه وأُلزم بحمل مال كبير، فأرسل خازنداره إلى حضور المال، فمات بعد يومين، في يوم الجمعة ثامن عشرين صفر. وكان أولاً من أمراء الألوف بالديار المصرية، ثم تنقل في عدّة أعمال بالبلاد الشامية، حتى إنه ولي نيابة طرابُس ثلاث مرات، آخرها في سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية، إلى أن عزله بالأمير دمرداش المحمدي الظاهري، نائب حماة. وتوجّه إياس أتابكاً بدمشق، فأقام بها يسيراً. وطُلب إلى القاهرة وصودِر وأهين إلى أن مات بعد يومين حسب ما تقدّم ذكرُه. وقيل إنه لما أهين كان في يده خاتم سُمّ فمصّه فمات من وقته، وقيل غير ذلك. وكان بَشِعَ المَنْظر ظالماً غَشوماً حدّ المزاج كريهَ المعاشرة، يُرمَى بعظائم. قيل إنه قال له رجل مرة: يا وجه القمر، بعد أن دعا له كما هي عادة العوامّ، فضَرب الرجلَ ضرباً مُؤلماً، وقال: أنا أعرَفُ بنفسي منك. وكانت بعض حظاياه مَلكها الوالدُ من بعده واستولدها، فكانت تَحْكِي عنه عظائم من سوء خُلُقه وخَلْقِه.

وتُوُفِّي الأمير أبو بكر بن [محمد بن واصل][1] المعروف بابن الأحدب أمير العربان ببلاد الصعيد قتيلاً.

---

(١) زيادة عن السلوك.

وتُوُفِّي الأمير ركن الدين بِيبرس بن عبد الله التُّمان تَمُري الأمير آخور الثاني، وأحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، في رابع عشر جمادى الآخرة. وكان من قدماء الأمراء، وهو من أوّل الأمر إلى آخره كان من حزب الملك الظاهر برقوق. وكان الملك الظاهر يُنادمه ويُمازحُه ويُعجبه كلامُه. وأنا أتعجّب غايةَ العجب من الملك الظاهر برقوق في عدم ترقّيه؛ ولعلَّه كان راضياً بما هو فيه، والله أعلم. وهو والد صاحبنا الناصري محمد بن بيبرس ـ رحمهما الله تعالى ـ.

وتُوُفِّي الأمير عمر بن عبد العزيز أمير عرب هَوارة[١] ببلاد الصعيد.

قلت: وعُمَرُ هذا هو والد بني عمر أمراء العربان ببلاد الصعيد في زماننا هذا، ولعله يكون أوّلَ من وَلِي منهم الإمرة.

وتُوُفِّي الشيخ المسند المعمَّر المعتقد زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك بن حماد المغربي المعروف بآبن الشيخة. ومولده في سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ومات في تاسع عشرين شهر ربيع الآخر، ودُفِن خارج القاهرة بعد أن حدّث سنين، وصار رُحلةً[٢] في زمانه.

وتُوُفِّي الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد العزيز العَقِيليّ (بفتح العين المهملة) المالكي إمام المالكية بالمسجد الحرام بمكة المشرفة، وأخو القاضي أبي الفضل ـ وكان يُعرف بالفقيه عليّ النُّوَيْريّ ـ في ثاني جُمَادى الأولى بمكة المشرفة. وكان سمِع الكثير وحدّث سنين.

---

(١) بنو هوّارة: من قبائل العربان بمصر. وكانت منازلهم من الإسكندرية إلى العقبة الكبيرة من برقة. وهم من جملة جماعة قائد بن مقدّم: زنارة، ومزاتة، وخفاجة، وهوّارة، وسماك. (مسالك الأبصار: ١/ ١٨٠). وذكر القلقشندي أنهم بطن من أوزيغ من البرنس من البربر. وبعضهم يزعم أنهم من عرب اليمن، وآخرون يقولون إنهم من عرب الحجاز. (نهاية الأرب للقلقشندي: ٣٩٠؛ ومعجم قبائل العرب: ٣/ ١٢٣٠). وفي أواخر أيام الظاهر برقوق غلبهم على مناطق البحيرة زنارة وحلفاؤها فخرجت هوارة منها إلى صعيد مصر ونزلت بالأعمال الإخميمية في جرهم (جرجا) وما حولها. ثم قوي أمرهم وصارت لهم الإمرة في بلاد إخميم. (القلقشندي: المصدر السابق).

(٢) الرُّحلة (بالراء المضمومة) الذي تشدُّ إليه الرحال طلباً لعلمه ومعرفته.

وتوفي الشيخ الإمام مَحِبّ الدين محمد بن الشيخ الإمام العَّلامة جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام النحويّ، في ليلة الاثنين رابع عشرين شهر رجب بعد أن تصدّى لإقراء النحو سنين، وآنتفع به جماعة الطلبة. وكان له مشاركة جَيِّدة في الفقه وغيره، وكان خَيِّراً دَيِّناً.

وتُوُفِّي قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابُلُسي الحنفيّ، قاضي قضاة الديار المصرية، في يوم السبت ثامن عشرين ذي الحجة. وكان عفيفاً دَيناً مشكور السِّيرة. وتولى القضاء من بعده قاضي القضاة جمال الدين يُوسف بن موسى بن محمد المَلَطِيّ، بعد أن خرج البريد بطَلبه، وشَغر مَنصِب القضاء بالقاهرة مائة يوم وأحد عشر يوماً، حتى حضر وولي قضاء الحنفية بديار مصر.

قلت: هكذا تكون ولاية قضاة الشرع الشريف بِعزَّةٍ وطلب وآحترام، لا كمن يَسعى فيها من بيت المال والأمير الكبير إلى بيت والي القاهرة، حتى يَلِيَ بالمال والبذل من غير تستُّر في ذلك، حتى إنه يَعرف ولايته بالبِرّطِيل كلّ أحد من المسلمين حتى النصارى واليهود، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم[1].

وتُوفِّي الشيخ الإمام العالم زين الدين ميكائيل بن حسن بن إسرائيل التُّرْكُماني، الفقيه الحنفيّ في ذي الحجة عن نيّف وسبعين سنة. كان فقيهاً فاضلاً بارعاً مشاركاً في فنون كثيرة من العلوم، وكان مستحضِراً لمذهبه، مُنَاظِراً، طَلِق اللسان فصيحاً. وأقرأ ودرَّس سنين.

---

(١) أشار أبو المحاسن في أكثر من موضع في كتابيه حوادث الدهور والنجوم الزاهرة إلى الفساد الذي داخل مؤسسة القضاء وإلى تولي القضاة والمتعممين الوظائف الدينية كالقضاء والحسبة ونظر الأوقاف بالسعي والبذل، وعاب عليهم أخذ الرشوة والبراطيل وأكل أموال الأوقاف. وقد أورد على لسان السلطان قايتباي عندما عزل قاضي قضاة الشافعية البلقيني في أول سنة من سلطنته قوله: «أريد قاضياً أوليه من غير رشوة». وعلى لسان الأمير الكبير سيف الدين جارقطلو أتابك العساكر بالديار المصرية قوله للقاضي بدر الدين العيني وهو يعظ في مجلس السلطان برسباي: «يا قاضي ما تذكر إلا شربة الخمر وتبالغ في حقهم بأنواع العذاب! ليش ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام؟!» ـ انظر حوادث الدهور: ١٩٦، ١٩٨، ٢٣٠، ٥٣٣ ـ والنجوم الزاهرة: الجزء الخامس عشر، حواث سنة ٨٣٧هـ، ترجمة الأمير سيف الدين جار قطلو.

وتُوُفِّي القاضي جمال الدين محمود بن أحمد، وسماه بعضهم محموداً بن محمد بن علي بن عبد الله القَيْصَرِي العجميّ الحنفي، قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية، وناظر الجيوش المنصورة بها، وشيخ شيوخ خانقاه شيخون، في ليلة الأحد سابع شهر ربيع الأول، بعد أن جمع بين هذه الوظائف الثلاث التي لم تُجمع لغيره. وكان من رجال الدهر حَزْماً وعزماً، ومعرفةً وعقلاً وفضلاً. وكان قَدِم إلى القاهرة في عُنفوان شبيبته فقيراً مُملِقاً، وتُرك بالمدرسة الصَّرْغتمشية مدّة يخدمُ الفقهاء، فرأى في منامه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول له: «أنت شاهنشاه»، ففسَّر المنامَ على الشِّنْشي[1]. وكان من جملة الصوفية بالصرغتمشية، وتنقّلت به الأحوال إلى أن صار يُقرىء المماليك بالأطباق من القلعة. وقُتل الملك الأشرف شعبان وصار مخدومُه طَشْتَمُر اللّفاف أتابك العساكر، فتكلّم له في حِسْبة القاهرة دَفْعة واحدة، فَوَلِيها، ونزل عند شخص في داره حتى تُعَيَّن له دارٌ يسكنها. وبعث له قاضي القضاة صدر الدين المناوي بثَوب حتى لَبسه، لعجزه عن شراء ثوب، وهذا كان أوّل مبدأ أمره. ثم تنقّل في الوظائف حتى كان من أمره ما كان. ولما مات خلّف موجوداً كبيراً وكُتباً حسنة، خلّف ثمانية أولاد من الذكور والإناث، منهم العلاّمة صدر الدين أحمد بن العجمي الآتي ذكره في وفيات ثلاث وثلاثين وثمانمائة. وتولّى قضاء الحنفيّة من بعده القاضي شمس الدين محمد الطرابلسي، ومات في السنة حسب ما تقدّم، ووَلِيَ الجيش بعده شرف الدين بن الدّماميني.

وتُوُفِّي الأمير جمال الدين محمود بن علي بن أصفر عينه، الأستادار، في يوم الأحد تاسع شهر رجب بخزانة شمائل، بعدما نُكِب وعُوقِب وصُودِر، ودُفِن بمدرسته خارج بابي زويلة المعروفة به. وجملة ما أخذه الملك الظاهر منه من المال في أيام مصادرته ألف ألف دينار، وأربعمائة ألف دينار، وألف ألف درهم فضة، وبضائع وغلال، وغير ذلك بما يُنيف على ألف ألف درهم فضة. وتَلِف له بأيدي من عاقبه وحواشيه جملة كبيرة. واخفى هو أيضاً أشياء كثيرة يترجَّى البقاء.

(١) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى الشنشي المعروف بالرخّ ـ سبق ذكره في وفيات السنة الماضية.

ومن عظِم ما ظهر له من المال، قالت العامة: «ألان الله الحديدَ لداود، والذهب لمحمود». وكان أصل محمود هذا أنه كان في مبدأ أمره فقيراً يتعانى الشدَّ[1] في إقطاعات الجند، ثم خدم عند بعض الأمراء، فصلُحت حاله، وحصَل وسعى، حتى ولي شدّ الدواوين بالقاهرة، فظهر منه نجابة ويقظة. وترقّى حتى ولي الأستادارية في دولة الملك الظاهر برقوق الأولى، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف. ونَكَبه الناصري لمّا ملك مصر، وحبسه إلى أن خرج من السجن في توبة بُطا وأصحابه من الجُبّ. وأعاده الملك الظاهر إلى وظيفة الأستادارية بعد مدة، فإنه كان أولاً لما قدم إلى مصر ولّاه مُشيراً[2]، ثم أعاده إلى الأستادارية، ودام بها إلى أن قَبَض عليه الظاهر بسعي كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غُراب، وأجرى عليه العقوبة إلى أن مات.

وتُوُفِّي الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله القبطي الأسلمي، المعروف بابن البقري، في ليلة الاثنين رابع جمادى الآخرة مخنوقاً، بعد عقوبة شديدة ومصادرة.

وتُوُفِّي قاضي القضاة سَرِيّ الدين [أبو الخطاب محمد][3] بن محمد قاضي قضاة الشافعية بدمشق، المعروف بابن المِسلّاتي الشافعي، بالقاهرة في يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب. وكان فقيهاً عالماً. أفتى ودرّس وولي قضاء دمشق. وكان معدوداً من علماء الشافعية.

وتوفي قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن قاضي القضاة عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز بن صالح بن أبي العز وُهيْب بن

(١) الشدّ: ترادف كلمة تفتيش. ويسمى متولي هذه الوظيفة «الشادّ» مضافاً إليها جهة الاختصاص مثل: شاد الجوالي، وشاد الأوقاف، وشاد الدواوين وغيرها. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩٣). والمراد هنا أنه لم يكن موظفاً في الدولة، وإنما كان يعمل لدى بعض الأجناد ممن لديهم إقطاعات بمعنى وكيل أو مراقب على أملاكهم.

(٢) لعلّ المراد أنه عيّنه من ضمن «أمراء المشورة». ويكونون عادة من كبار الأمراء والموظفين في الدولة ويشكلون هيئة استشارية للسلطان، لم تكن دائمًا تحمل الصفة الرسمية. علمًا أن المؤلف لم يشر في ترجمته للظاهر برقوق أنه كان يعتمد في مدة سلطنته هيئة من أمراء المشورة.

(٣) زيادة عن السلوك.

عطاء بن جُبَيْر بن جابر بن وهيب الحنفي الدمشقي، المعروف بابن أبـي العز وبابن الكُشك، قتيلاً بدمشق، في مستهل ذي الحجة بعد أن لزم داره مدّة وكان إماماً فقيهاً بارعاً عالماً مُفْتَنّاً ولي قضاء دمشق آستقلالاً غير مرة، وحسُنت سيرته. وأُشخص في سنة سبع وسبعين وسبعمائة إلى الديار المصرية، وولي بها قضاء الحنفية بعد قاضي القضاة صدر الدين محمد بن عبد الله التركماني بعد موته، فلم تطل مدته وآستعفى، وألـحَّ في ذلك حتى أعفاه السلطان، وولّاه قضاء الحنفية بدمشق على عادته، فدام بها سنين، ثم صُرِف عنها، ولزم داره حتى مات قتيلاً بدمشق ــ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنا عشر[١] إصبعاً. والله أعلم.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

وهي سنة ثمانمائة.

وفيها تُوُفِّي الأمير سيف الدين تَنْبك[٢] بن عبد الله اليَحْياوِيّ الظاهريّ، الأمير آخور الكبير، في ليلة الخميس رابـع عشر شهر ربيـع الآخر، ونزل السلطان إلى الإسطبل ومشى في جَنازته حتى حضر الصلاة عليه بمصلّاة المؤمني[٣]، ثم ركب وتوجّه أمام جنازته حتى شاهد دفنه. وأقام القرّاءَ على قبره أسبوعاً ووجِد السلطان عليه كثيراً وبكى عند دفنه. وكان من عظماء المماليك الظاهرية، أنعم عليه السلطان

---

(١) ذكر المقريزي أنه في يوم الجمعة ثامن ذي القعدة من هذه السنة ــ وهو عاشر مسرى من شهور القبط ــ أوفى النيل ستة عشر ذراعاً، فركب السلطان إلى المقياس، وفتح الخليج على العادة. وفي سادس عشرين ذي الحجة انتهت زيادة النيل إلى عشرين ذراعاً وخمسة عشر إصبعاً. (السلوك: ٣/٨٨١، ٨٨٢).

(٢) يرد هذا الاسم أيضاً برسم «تاني بك».

(٣) تنسب هذه المصلاة إلى الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله المؤمني.

بإمرة عشرة في أوائل واقعة الناصريّ ومنطاش، ثم رقّاه حتى ولّاه الأمير آخورية بعد الأمير بَكْلَمُش العلائي، لمّا نُقِل إلى إمرة سلاح، فدام في وظيفة الأمير آخورية إلى أن توفي وتولّى الأمير آخُورية بعد موته الأمير نَوْروز الحافظي الظاهريّ رأس نوبة النوب.

وتُوُفِّي السيد الشريف جمال الدين عبد الله بن عبد الكافي بن علي بن عبد الله الطَّباطبي نقيب الأشراف في ليلة رابع عشرين ذي القعدة.

وتُوُفِّي القاضي العَّلامة تاج الدين أبو محمد عبد الله بن علي بن عمر السِّنجارِي الحنفي المعروف بقاضي صَور (بفتح الصاد المهملة). وصَوْر: بُلَيْدة بين حصن كيفا، وبين ماردين من ديار بكر بن وائل. وكان إماماً عالماً مفتناً بارعاً في الفقه والأصلين، والعربية واللغة وأفتى ودرّس سنين بدمشق ومصر. وكان في ابتداء أمره لما قدم القاهرة اجتاز بدمشق واستوطنها مدّة، وأخذ بها عن العّلامة علاء الدين القُونَوِي الحنفيّ؛ ثم قدِم إلى القاهرة فأخذ عن العّلامة شمس الدين محمد الأصبهاني وغيره، حتى برع في عدّة فنون، وأفتى ودرّس وصنّف وأشغل ومن تآليفه كتاب «البحر الحاوي في الفتاوى» ونظَم كتاب «المختار في الفقه» ونظَم «السراجية في الفرائض» ونظم كتاب «سُلْوان المُطاع لابن ظَفَر». وناب في الحكم بالقاهرة، وولي وكالة[1] بيت المال بدِمَشق وكان من محاسن الدنيا ديناً وعلماً وخيراً وكرماً.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قَلَمْطاي بن عبد الله العثماني الظاهري الدوادار الكبير بالديار المصرية في ليلة السبت ثالث عشر جمادى الأولى، وحضر السلطان الملك الظاهر الصلاة عليه بمصلّاة المؤمني، وحضر دفنه أيضاً بتربته التي أنشأها

---

(١) وكالة بيت المال: وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر. وكان لمن يتولى هذه الوظيفة التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ودور وغير ذلك. وكانت هذه الوظيفة لا تسند إلا لذوي الهيبة من شيوخ العدول، ويفوض إليه عن الخليفة أو السلطان بيع ما يرى بيعه من كل ما يمتلك ويجوز التصرّف فيه شرعاً، وعتق المماليك وتزويج الإماء وتضمين ما يقتضي الضمان وإنشاء ما يرى إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك. وكان مجلس من يتولى هذه الوظيفة بدار العدل. وتارة يكون أرقى رتبة من المحتسب، وأحياناً أقل منه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦١).

عند الصُّوَّة بالقرب من باب الوزير، وبكى السلطان عليه بكاء كثيراً، وأقام القرَّاء على قبره أسبوعاً. وتولّى الدوادارية من بعده الأمير بيبرس ابن أخت السلطان. وكان قلمطاي من أجلّ المماليك الظاهرية. باشر الدوادارية بحرمة وافرة، ونالته السعادة وعَظُم في الدولة، وهو صاحب الحاصل بالقرب من البندقيين بالقاهرة، وخلّف مالاً كثيراً وهو أيضاً ممن نشّأه أستاذه الملك الظاهر برقوق في سلطنته الثانية، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي أمين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الأنصاري الحِمْصي الحنفي كاتب سرّ دمشق بها في ثاني عشر ذي الحجة. ومولده في يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وتفقه بدمشق، وبرع في الفقه والعربية، وشارك في عدّة فنون مشاركة جيّدة، ومَهَر في الأدب والترسُّل والنظم، وتولى كتابة سرّ دمشق وباشرها بحرمة وافرة، ونالتْه السعادة في مباشرته. وكان ذا شكالة حسنة، وعبارة نصيحة، وفضل وإفضال وكان له يدٌ في علم الموسيقى وتأديته، وعنده ميل إلى اللهو والطرب مع حِشمة ودين وكرم. ومن شعره لمّا عاد من تجريدَة أرْزَنْكان[1] صحبة الأمير تنم الحسني نائب الشام، وقد ضلَّ غالبُ العسكر في بعض الليالي عن الماء، فنزل هو على ماء في بعض الطريق، وقال في ذلك: [البسيط]

ضَلُّوا عن الماء لَمّا أن سَرَوْا سَحَرا ... قومي فظلوا حَيَارَى يلهثُون ظَما

والله أكـرمـني بـالـوِرْدِ دونـهـمُ ... فقلت «ياليتَ قَومي يعلَمون بما»[2]

وله أيضاً ــ سامحه الله تعالى ــ: [الوافر]

جـفـونٌ مـن تـأرُّقـهـا دوامـي ... مَـدامِعُـهـا تَفيضُ على الـدوامِ

فَـدَيْت عيون من حَـرمت عُيوني ... مُنـاهـا من لِقـا طِيبِ المنـامِ

(١) أرزنكان أو أرزنجان: بلدة من بلاد أرمينية من بلاد الروم.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة «يس»: قيل ادخل الجنَّة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربـي وجعلني من المكرمين. ــ وهو من باب التضمين في الشعر.

وراشت[١] من لواحِظها نبالاً مراشِقُها شَفَين من السقام
إذا لاحَظْنَني فتصيبُ قلبي على اللّحظات موفور السهام
لها شفتان قد شَفَتا فؤادي ولا شفتاهُ إلّا للغرام
وثغرٌ من يَعيش به آرتواء يموت من الصَّبابة وهو ظامِ
أدامت لي مُدامته آرتشافاً فوا سُكْراه من ذاك المدامِ
ولَمّا رام بدرُ الأفقِ فخراً وتشبيهاً بما تحت اللِّثامِ
بدتَ تختال عُجْباً عن عقود وتَبْسِمُ عن جُمانٍ بآنتظامِ
فأزْرَى ثغرُها بالدر نَقْصاً وأخجلَ وجهُها بدرَ التمامِ
بِعيشك يا كريم الخِيم[٢] كن لِي مُعيناً إن مررتَ على الخيام
وقل صَبٌّ توصّل في أوانٍ له قلب تقطَّع بالأوام[٣]
ولُبٌّ هام بالذكرى ودمع كوبل عطاءِ فخرِ الدينِ هامِي[٤]

وتُوُفِّي القاضي نجم الدين محمد بن عمر الطَّمْبدي وكيل بيت المال ومحتَسِب القاهرة في رابع عشرين شهر ربيع الأوّل. قال المقريزي: «وكان غايةً في الجهل».

وتُوُفِّي الشيخ الصالح المعتقد أبو عبد الله محمد بن سلامة النُّوَيْريّ المغربيّ، المعروف بالكَركي لطول إقامته بمدينة الكرك، في خامس عشرين شهر ربيع الأوّل. وكان عند الملك الظاهر برقوق بمنزلة مكينة جداً كان يُجلسه فوق قضاة القضاة، ولم يُغَيِّر لبس العباءة، ولا أخذ من الملك الظاهر شيئاً من المال وكان الناس فيه على قسمين ما بين مُفرط في مدحه، وما بين مُفرط في الحطِّ عليه. وتَولّى الأمير يلبغا السالمي تجهيزَه، وبعث السلطان مائتي دينار للقراءة على قبره مدّة أسبوع.

---

(١) راش السهم: ركّب عليه الريش ليسير بسرعة.
(٢) الخيم: الأصل، والطبع والسجيّة.
(٣) الأوام: شدّة العطش.
(٤) الهامي: الدائم الانصباب.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين آق بلاط بن عبد الله الأحمدي الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في شهر ربيع الآخر وكان تركي الجنس شجاعاً.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طُوغاي بن عبد الله العمري، أحد أمراء العشرات بالديار المصرية، ونقيب الفقراء السُّطُوحيّة في أوّل شهر ربيع الأوّل. وكان ديّناً خَيِّراً يُحب الفقراء، ويتردّد لزيارة الصالحين.

وتُوُفِّي الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد البَعْلَبَكي الدمشقي الضرير، المعروف بالبرهان الشامي، في ثامن جُمادى الأولى وكان فاضلاً أديباً فقيهاً.

وتُوُفِّي الأمير سُولي بن قَراجَا بن دُلغادر التُّركماني، صاحب أَبُلُسْتَيْن. قُتِل غِيلةً على فراشه، وكان غيرَ مشكور السيرة، كثيرَ الشرور والفتن.

وتُوُفِّي الأمير شرف الدين موسى بن قُمارِي أمير شِكار في ثاني عشر شهر رجب. وكان من جملة أمراء العشرات.

وتُوُفِّي الشيخ الأديب المادح أبو الفتح محمد بن الشيخ العارف على البِدِيويّ في ثامن عشر جُمادى الآخرة بالنِّحرِيرية[١] وكان أكثر شعره مدائح.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وآثنا عشر إصبعاً مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وسبعة أصابع، والله تعالى أعلم.

(١) النحريرية: تعرف اليوم باسم النحارية، إحدى قرى مركز كفرالزيات بمديرية الغربية بمصر. (محمد رمزي).

ذكر سلطنة الملك الناصر فرج[1] بن بَرْقُوق الأولى على مصر

السلطان الملك الناصر زَيْن الدين أبو السعادات فرج ابن السلطان الملك الظاهر أبي سعيد بَرقُوق ابن الأمير آنص، الجاركسي الأصل، المصريّ المولد والمنشأ، سُلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية؛ وهو السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثاني من الجراكِسة، وأُمّه أم ولدٍ رُومية تسمَّى شِيرين، ماتت في سلطنته. مولده في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، قبل خَلْع أبيه الملك الظاهر برقوق من السلطنة، وحبسِه بالكرك، فأراد أن يُسمِّيه «بُلْغاك» يعني «تَخْبِيط» باللغة التركية، فَسُمِّيَ «فَرَجاً».

جلَس على تخت الملك بقلعة الجبل صَبيحةَ موتِ أبيه يوم الجمعة النصف من شوّال سنة إحدى وثمانمائة بعهدٍ من أبيه إليه حسب ما تقدّم ذكره، في أواخر ترجمة أبيه، وحسب ما نذكره أيضاً.

وفي سلطنته يقول الأديب المقرىء شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن حسن الأوحدي[2]: [الطويل]

مضى الظاهر السلطان أكرمُ مالكٍ	إلى ربِّه يَرْقَى إلى الخُلْد في الدَّرَجْ
وقالوا ستأتي شِدَّةٌ بعد موته	فأكرمهم رَبِّي وما جا سِوى (فَرَجْ)

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٩٥٩/٣، ونزهة النفوس والأبدان: ٥/٢، والضوء اللامع: ١٦٨/٦، وإنباء الغمر: ٢٩/٤ وما بعدها، وبدائع الزهور: ٢٧٥/٣، وشذرات الذهب: ١١٢/٧، وخطط علي مبارك: ١١٤/١.

(٢) انظر ترجمته في الضوء اللامع: ٣٥٨/١.

ذكر جلوسه على تخت الملك

قال الشيخ تقيّ الدين المقريزي ــ رحمه الله تعالى: ولمّا كان صبيحة يوم الجمعة آجتمع بالقلعة الأميرُ الكبير أَيْتَمُش، والأمير تَغْري بَرِدْي أمير سلاح، وسائر أمراء الدولة، وآستُدعِي الخليفةُ وقضاةُ القضاة، وشيخُ الإسلام البُلْقِيني فلما تكاملوا بالإسطبل السلطاني، أحضِر فرجُ بن السلطان الملك الظاهر برقوق، وخَطبَ الخليفة، وبايعه بالسلطنة، وقلّده أمورَ المسلمين وأُحضِرت خِلْعة سوداء فأُفِيضت على فرج المذكور، ونُعت بالملك الناصر ورَكِب بشعار السلطنة، وطلع حتى جلس على تختِ الملك بالقصر السلطاني، وقبّل الأمراءُ كُلُّهم الأرضَ بين يديه على العادة، ولَبِس الخليفة تشريفاً جليلاً ثم أخذ الأمراء في تجهيز السلطان الملك الظاهر برقوق. اِنتهى كلام المقريزي.

قلت: ونذكر الآن في آبتداء دولة الملك الناصر فرج آسم خليفة الوقت ولَقَبه، وقضاةَ القضاة، وأربابَ الوظائف من الأمراء وغيرهم من النوّاب، بالبلاد الشامية، ليكون ذلك مقدّمة لما يأتي من تغيير الوظائف وتقلُّبات الدُّوَل. اِنتهى.

فخليفةُ الوقت: أميرُ المؤمنين المتوكِّل على الله أبو عبد الله محمد العباسِيّ، والقاضي الشافعي صدر الدين محمد المُناوِي، والقاضي الحنفي جمال الدين يوسف المَلِطي، والقاضي المالكيّ وَلِيّ الدين عبد الرحمن بن خَلْدُون، والقاضي الحنبلي برهان الدين إبراهيم بن نصر الله العسقلاني، والأمير الكبير أتابك العساكر أيْتَمُش البَجاسيّ، وأمير[1] سلاح تَغْرِي بَرْدي من يَشْبُغا الظاهريّ (أعني الوالد)

(١) أمير سلاح: هو الأمير المقدَّم على السلحدارية من المماليك السلطانية، وله الإشراف على السلاح خاناه =

وأمير مجلس[١] أَرغُون شاه البَيْدَمُري الظاهري، والأمير آخُور الكبير سَيِّدي سُودون قريب الملك الظاهر برقوق، وحاجب الحجاب[٢] فارس الأعرج الظاهري، ورأس نَوْبة النُّوب أَرِسْطَاي، والدوادار الكبير بيبرس آبن أخت السلطان الملك الظاهر، والخازندار يَشْبَك الشعباني الظاهريّ، وهو أمير مائة ومقدّم ألف، وشادّ الشراب خاناه سُودون المارِدانيّ، والأستادار الأمير يلبغا الأحمدي الظاهري المجنون، وكاتب السرّ فتح الدين فتح الله التِّبريزيّ، والوزير تاج الدين عبد الرزّاق بن أبي الفرج، وناظر الجيش والخاصّ معاً سعد الدين إبراهيم بن غُراب، ومحتسب القاهرة الشيخ تَقِيّ الدين أحمد المقريزيّ، ووالي[٣] القاهرة شهاب الدين أحمد بن الزين. وبالبلاد الحجازية والشامية: أمير مكة الشريف حسن بن عَجْلان الحسنيّ، وأمير المدينة النبوية الشريف ثابت بن نُعَيْر الحسني.

ونائب الشام الأمير تَنْبك الحَسني المعروف بتنم الظاهري، ونائب حلب آقبغا الجمالي الظاهري، المعروف بالأطروش، ونائب طرابُلُس يُونُس بَلْطا الظاهري، ونائب حماة دمرداش المحمدي الظاهري، ونائب صفد أَلْطُنْبغا العثماني الظاهري، [ونائب غَزّة أَلْطُنْبغا الحاجب الظاهري][٤]، ونائب الكرك

= السلطانية. والسلحدارية هم الذين يحملون السلاح في الحفلات والاجتماعات والمواكب. (صبح الأعشى: ٤/١٨).

(١) أمير مجلس: هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم. ولا يكون إلا واحداً. ومن عمله أيضاً أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره. (صبح الأعشى: ٤/١٨ و٥/٤٥٥).

(٢) حاجب الحجاب: هو الذي ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان. وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند، وما ناسب ذلك. (صبح الأعشى: ٤/١٩، و٥/٤٩٩).

(٣) الوالي: هو الذي يشرف على الولاية. ويقابله في أيامنا المحافظ. وكان بمصر أربع عشرة ولاية في الوجهين البحري والقبلي. وكذلك كان لكل من القاهرة والفسطاط ودمياط وأسوان وعيذاب والإسكندرية وال، إلا أن والي الإسكندرية كان يسمى «النائب». ولم يكن بالديار المصرية مدينة حاكمها موسوم بنيابة السلطنة سواها. وكان الوالي يعينً بمرسوم من السلطان، ويمنح عند التولية خلعة وفرساً. وكان عمل الولاة الأساسي هو القيام بأعمال الشرطة وحفظ النظام. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٥٨، عن صبح الأعشى وخطط المقريزي والتبر المسبوك للسخاوي).

(٤) ساقطة من طبعة كاليفورنيا. والزيادة عن السلوك ونزهة النفوس.

سُودون الشمسيّ الظاهري المعروف بالظريف، وعِدَّةُ نُوّاب أُخَر بِقلاع الساحل وغيرها يطول الشرح في ذكرهم.

ولمّا تم أمرُ الملك الناصر فرج في الملك، بعد أن دُفِنَ والده، وصار الأتابك أَيتمش مدبِّر مُلْكه، أراد أيتمش أن يطلُعَ إلى باب السلسلة ويسكُنَ بالإسطبل السلطانيّ، فمنعه[1] من ذلك الأمير سُودون الأمير آخور الكبير، قريب الملك الظاهر، وردّ ما بَعَثه الأمير الكبير أيتمش من القماش، فآستدعي سودون إلى حضرة السلطان فآمتنع. فأَمسك أيتمش عن الكلام في ذلك، وتكلَّم فيما يعود نفعه. فأمر فكتب إلى سائر الأقطار بالعزاء في الملك الظاهر برقوق، والهَنَاء بسلطنة ولده الملك الناصر فرج. وكتب تقليد الشريف حسن بن عَجْلان بإمرة مكّة، وكان بالقاهرة. وكتب إلى مكّة وبها الأمير بَيْسَق الشيخي والي المدينة النبوية، وتوجَّه بذلك بعضُ الخاصكية. وكتب إلى الأمير نُعَيْر بن حَيَّار بإمرة آل فضل على عادته. وعزل الأمير شمس الدين محمد بن عَنْقاء بن مُهنَّا، وعَرف بموت الملك الظاهر، وبسلطنة الملك الناصر فرج، وحُمِل إليه التشريفُ والتقليدُ على يد الأمير أسنبغا الدوادار. وعيّن الأمير سُودون الطّيار الأمير آخور بالكتُب والخِلَع إلى نائب الشام الأمير تَنَم الحسني. وعيّن يلبغا الناصري رأس نوبة إلى الأمير آقبغا الجمالي نائب حلب وعيّن الأمير تَغْري بردي قرا إلى الأمير يُونس بَلْطا نائب طرابُلس. وعيّن الأمير يَشبك إلى الأمير أَلْطُنْبُغا العثماني نائب صفد. وعيّن الأمير شاهين كُتُك إلى الأمير سُودون الظريف نائب الكرك، وعلى يد كل من

(١) كانت العادة أن الأمير الكبير أتابك العساكر هو الذي يتحدّث في المملكة نيابة عن السلطان إذا كان السلطان صغيراً في السن. وكانت العادة أيضاً أن يسكن الأمير الكبير في الاسطبل السلطاني بباب السلسلة حتى يكون قريباً من السلطان. ولذلك فإن امتناع سودون عن إخلاء الاسطبل السلطاني كان نوعاً من التمرد وعدم الاعتراف بالأتابك أيتمش. ـ قال الخطيب الجوهري: «. . . فما أجاب سودون إلى ذلك ولا رضي بانتـ اله، حتى دخل عليه أكابر الأمراء وباسوا صدره، ومنهم من باس يده، حتى قيل منهم من باس رجله، وذلك كله لأجل تسكين الفتنة ورعاية الخواطر، وكل ذلك وسودون مستمر على شؤمه وعدم إجابته والانفراد برأيه السخيف وعقله الضعيف، فعند ذلك غضب الأمراء وأعيان الدولة فمسكوه وأخذوا سيفه. . » (نزهة النفوس والأبدان: ٢/ ١٠).

هؤلاء كتابٌ يتضمّن العزاءَ والهناء، وأن يُحَلّف كلُّ نائب أمراء بلده للملك الناصر فرج على العادة. وقرر الأمير الكبير أيتمش مع أرباب الدولة إبقاءَ الأمور على ما هي عليه.

ثم كلَّم الوزير والأستادار في الكفِّ عن الظلم وتجهيز الجامَكِيَّة والعليق برسم المماليك السلطانية.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر شوّال خرج رَكْبُ المحمل إلى البركة[١] صحبة أمير الحج الأمير شيخ المحموديّ الظاهريّ ـ أعني الملك المؤيد ـ وأمير الركب الأوّل الأمير الطواشي بهادر مقدّم المماليك السلطانية.

وفي اليوم المذكور اجتمع الأمراء بالقلعة في الخدمة السلطانية على عادتهم، وطلبوا الأمير سُودون أمير آخور، فامتنع عن الحضور، فبعث الأمراء إليه ثانياً فامتنع، فكرروا الإرسال إليه ثلاث مرات إلى أن حضَر، فكلَّموه في النزول من الإسطبل فلم يُجِبْهم إلى ذلك. فتخيَّلوا منه واتّهموه بأنه يريد إثاره فتنة، فقبضوا عليه وعلى الأمير عليّ بن إينال اليوسفي، وأخرجوا ما كان له بالإسطبل من خيول وقماش ونحو ذلك، وسَكَن الأتابك أيتَمُش مكانه بالإسطبل من باب السلسلة، وأنْزِل سُودون و[علي] بن إينال في الحديد إلى الحرّاقة[٢] وجهزا إلى حبس الإسكندرية.

ثم نُودي بالقاهرة ومصر بخروج طائفة العجم من الديار المصرية، وهُدِّد مَن تأخّر بعد ثلاثة أيام بالقتل.

ثم خلع على الأمير يشبك الشعباني الخازندار باستقراره (لا لا)[٣] السلطان الملك الناصر فرج، ومعه الأمير قطلوبغا الكركي (لا لا) أيضاً.

---

(١) هي بركة الحاج، خارج القاهرة. وكانت نقطة تجمع وانطلاق للحجيج من الديار المصرية.

(٢) الحراقة: نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية، كالنار الإغريقية، وكان بها مرامٍ تلقى منها النيران على العدو. وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية. والحراقة المشار إليها في النص هنا من هذا النوع.

(٣) أي مربي السلطان.

ولمّا كان يوم حادي عشرين شوّال جلس السلطان الملك الناصر فرج بدار العدل ــ أعني بالإيوان من قلعة الجبل ــ على عادة الملوك، وخلع على الأمير الكبير أَيْتَمش، وعلى الوالد الأمير تَغْري بردي وهو أمير سلاح، وعلى أرغون شاه البيدمري أمير مجلس، وعلى بيبرس الدوادار، وأَرِسْطاي رأس نَوْبةِ النُّوب، وفارس[1] حاجب الحجّاب، وتَمربغا المَنْجَكِي الحاجب الثاني، وأحد مقدّمي الألوف، وعلى يَلبغا المجنون الأستادار، وعلى جميع أرباب الدولة.

ثم قام السلطان من دار العدل ودخل إلى القصر، وجلس القضاةُ بجامع القلعة حتى يَخْلَع عليهم؛ فعندما تكامل الأمراء وأرباب الدولة بالقصر، أغلق الأمراء الخاصكيةُ باب القصر ــ وكان رأسهم يوم ذاك سُودُون طاز، وسودون من زادة، وآقبغا رأس نوبة، وجركس القاسمي المُصارع ــ ثم سلُّوا سيوفَهم بمن معهم، وهجموا على الأمراء، وقبضوا على أرِسْطَاي رَأس نوبة النُّوب، وتِمراز وتَمربُغا المنجكي، وطُغُنْجي وبُلاط السعدي، وطولو رأس نوبة، وفارس الحاجب. وفرّ مبارك شاه وطُبْج، فأُدرِكا، وقُبِض عليهما أيضاً. وبلغ ذلك يلبغا المجنون الأستادار، وكان خارج القصر، فخَلع خِلعَته وسَلّ سيفَه، ونزل من القلعة إلى داره.

ثم أحضر الخاصكيّةُ الأمراءَ المقبوضَ عليهم إلى عند الأمير الكبير أَيتمش، وقد بُهتَ وأُسْكتِ، وقَيَّدُوا أَرِسْطاي رأس نوبة النُّوب، وتمراز وتَمربُغا المَنْجكِي، وطُغنجي أحد أمراء الطبلخانات، وبلاط السعدي، وطولو، وهما أيضاً من أمراء الطبلخانات، وأطلقوا مَنْ عداهم. وآستدعَوْا يلبغا المجنون الأستادار، فلمّا حضر قُبِضَ عليه أيضاً وقُيِّد وأُضِيف إلى الأمراء المقبوض عليهم. وأُنْزل الجميع من يومهم إلى الحرَّاقة، وتوجّهوا إلى سجن الإسكندرية، ما خلا يلبغا المجنون فإنه في يوم السبت ثالث عشرينه عُصِر يلبغا المجنون ليحضر بالمال، ثم أَسْلَمُوه

---

(١) ويعرف بفارس القطلوقجاوي الرومي الظاهري. وكان في الأصل من مماليك خليل بن عرّام نائب الإسكندرية اشتراه من بعض الخبازين في إسكندرية، وتقدم عند برقوق حتى ولي الحجوبية الكبرى. وكان مقتله بقلعة دمشق سنة ٨٠٢هـ. (نزهة النفوس والأبدان: ١٢/٢، حاشية: ٧).

لسعد الدين إبراهيم بن غراب ناظر الجيش والخاصِّ ليحاسِبَه، فنزل به إلى داره. وسألوا يَلْبغا السالِمِيَّ بوظيفة الأستادارية فآمتنع، فعرضوها على ناصر الدين محمد بن سُنْقُر وآبن قطينة فلم يُوافِقا، فخُلِع على الأمير مبارك شاه بآستقراره أستاداراً عوضاً عن يلبغا المجنون.

وفيه أُنْفِق على المماليك السلطانية نفقة سلطنة الملك الناصر [فرج]، وتولَّى الإنفاق عليهم يلبغا السالمي، وفُرِّقت بحضرة السلطان والأمراء، فأُعطِي كلُّ مملوك من أرباب الخدَم الجوَّانية والمشتروات ستين ديناراً، صَرْفُ كل دينار ثلاثون درهماً.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه، تأخّر سائرُ أمراء الألوف عن طلوع الخدمة السلطانية خوفاً من الخاصّكيّة، فإن الأمور صارت معذوقة[1] بهم. فبعث الخاصكية إلى الأمراء بالحضور فأَبَوْا ذلك فنزل الخاصكيّة إلى الإسطبل في خدمة الأمير الكبير أيتمش، وآستدعوا الأمراءَ من منازلهم فحضروا. وكَثُرَ الكلام بينهم حتى آتفقوا جميعاً، وتحالفوا على طاعة الأمير الكبير أيتمش، والملك الناصر، وحَلَف لهم أيضاً أَيْتَمُش، ثم حلف سائر المماليك والخاصكيّة، وتولَّى تحليفَهم يلبغا السالميّ. وخُلِع على سُودون المارِداني بآستقراره رأسَ نَوْبة النُّوب عوضاً عن أَرِسطاي المقبوض عليه قبل تاريخه، وعلى قطلوبغا الحسنيّ الكركي بآستقراره شادَّ الشراب خاناه، عوضاً عن سُودون المارداني، وأُنعِم على الأمير قَراكسُك بإمرة مائة وتقدمة ألف كانت مؤخّرة.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشرين شوّال خُلِع على الوزير تاج الدين عبد الرزاق ابن أبي الفرج بآستقراره في وظيفة الأستادارية مضافاً للوزَر عوضاً عن مبارك شاه بحكم أن آستعفى مبارك شاه.

وفيه كُتب مرسومٌ سلطانيٌّ بآستقرار قرا يوسف بن قرا محمد صاحب تِبريز

(١) يقال: اعتذقه بكذا أي اختصه به (معجم متن اللغة). وتعبير «معذوق به» كثير الاستعمال في كتابات العصر المملوكي بمصر، والمراد به: مختصّ به، أو منسوب إليه، أو موسوم به، أو منوط به. كما استعمله القلقشندي أحياناً بالدال المهملة.

في نيابة الرُّهاء[١] على عادته، وباستقرار دِمَشْق خَجَا في نيابة جَعْبَر[٢].

وفيه ورد الخبرُ بأن أبا يزيد بن عثمان ملك الروم تحرّك للمشي على البلاد الشامية.

وفي ثامن عشرين شوّال، ورد الخبر بأن الأمير تَنَم الحسني نائب الشام أخذ قلعة دمشق. وكان خبرُ أخذه لقلعة دمشق أنّ تنم كان بالمَرْج من غُوطة دمشق، فقَدِم عليه الخبر بموت الملك الظاهر برقوق، فركب وقصد دمشق، ولم يشعر به الناس، في ليلة الأربعاء العشرين من شوّال، حتى حضر إلى دار السعادة[٣] ثلث الليل؛ فلما أصبح آستدعى الأمير جمال الدين يوسف الهَيْدَبانيّ نائب قلعة دمشق، بحجة أن الملك الظاهر برقوقاً طلبه إلى الديار المصرية، فعندما نزل إليه أمسكه وبعث من تسلَّم قلعة دمشق. فلم يعلم أحد ما قصده تنم المذكور إلى أذان الظهر، فوصل فارس دوادار تنم من مصر، وأخبر بموت الملك الظاهر، وسلطنة ولده الملك الناصر فرج، وأخبر أيضاً بأن سودون الطيّار قدم بالخِلعة إلى الأمير تنم. فخرج الأمير تنم إلى لقائه، ولبس الخلعة، وباس الأرض خارج مدينة دمشق. ثم عاد إلى دار السعادة، وقد آجتمع بها القضاة والأعيان، وقرىء عليهم كتاب السلطان الملك الناصر فرج، فأجابوا بالسمع والطاعة ونُودِي بدمشق بالأمان والزينة، فَزُيِّنت البلد، ودُقَّت البشائر، وسُرَّ الناس بذلك. وأخذ الأمير تنم يقول بأنّ السلطان صغير، وكلُّ ما يصدُر ليس هو عنه، وإنما هو عن الأمراء، وأنا وصيُّ السلطان، لا يعمل أحدٌ شيئاً إلا بمراجعتي، ونحو هذا؛ فآضطرب الناس بدِمَشق،

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. (معجم البلدان) وهي اليوم في تركيا، وتعرف بأدسا. وقد سماها العرب الرهاء أو الرها، وهو تحريف للاسم اليوناني «كلرهو». وبعد انتقالها إلى أيدي الترك العثمانيين عرفت باسم «أورفا». (بلدان الخلافة الشرقية).

(٢) جعبر: قلعة على الفرات في سوريا: مقابل صفين. وتسمى دوسر. (مراصد الاطلاع) ـ وقد شاع في العصر المملوكي تعيين نواب لبعض القلاع خاصة تلك المتحكمة بالثغور. وكان الخلفاء والسلاطين يضمّنون كتاب التقليد الصادر لنائب القلعة وصايا محدّدة تتعلق بمهامه واختصاصه. انظر صبح الأعشى: ٩١/١١، والتعريف بالمصطلح الشريف: ١٣٢.

(٣) دار السعادة: تسمية كانت تطلق على دار الحكومة خارج الديار المصرية حيث يقيم الحاكم أو النائب.

وبَلَـغ ذلك نائبَ حِمْص، فأخذ قلعتها، وأخذ أيضاً نائبُ حماة قلعة حماة، كلُّ ذلك قبل تكملة خمسة عشر يوماً من سلطنة الملك الناصر فرج.

ثم في أوّل ذي القعدة رَكِب الأمير طُغاي تَمُر مقدّم البريدية(١) من مصر على البريد إلى البلاد الشامية، ومعه ملطّفات لأمراء الوَرْسَق(٢) والأمراء الأوْجِقيّة، ومُطْلَق(٣) لنواب الممالك والقلاع، ومثال لأحمد بن رمضان نائب أَذَنَة(٤)، ولأمراء التّركمان، ولنائب حلَب، ولنائب سِيسَ وصحبته أَقْبِيَة مطرّزة بفَرْو، خمس عشرة قطعة، وفوقانيات حرير بطَرْز زَرْكَش، أربـع وعشرون قطعة، وتشاريف عدّة كبيرة.

وفي ثالث ذي القعدة فرغ تحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج.

وفيه أنعم على الأمير إينال باي بن قَجْماس بإمرة مائة وتقدمة ألف، وهو خُبز أَرِسْطاي رأس نوبة النُّوَب، وعلى سودون من علي بك المعروف بطاز بتقدمة الأمير سودون أمير آخور المقبوض عليه، وعلى آقباي من حسين شاه بتقدمة ألف أيضاً عوضاً عن تَمُربُغا المَنْجَكِيّ، وأنعم على الأمير يعقوب شاه الخازندار بإمرة

(١) مقدم البريدية: البريدي هو الذي يحمل البريد، ويجمـع على بريدية. وكان يقال له أيضاً النجّاب، ويجمـع على نجّابة. وكان للبريدية مقدمون. ويفهم من عبارة للقلقشندي: «ويختص الملوك وأكابر النواب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التجارب منهم خصوصاً في المهمات العظيمة التي يحتاج فيها إلى تنميق الكلام وتحسين العبارة وسماع شبهة المرسل إليه ورد جوابه وإقامة الحجة عليه» يفهم من ذلك أن وظيفة كبار البريدية ومقدمهم لم تكن تقتصر على نقل الرسالة وإنما تتعدى ذلك إلى مهام ذات طبيعة دبلوماسية، كما نقول اليوم. ــ انظر صبح الأعشى: ١٥١/١. وعن ترتيب البريد وشؤونه ومتعلقاته انظر نفس المرجـع: ٤١١/١٤، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) ذكر القلقشندي الورسق من بين طوائف تركمان البلاد الشامية، وهم تحديداً تركمان طرسوس. ولم نعثر لديه على تعريف بطائفة الأوجقية. ولعلّه تحريف عن «البوزقية» أو «الأوشرية» من طوائف التركمان. (صبح الأعشى: ٣٠٥/٧، طبعة دار الكتب العلمية) ــ وفي حاشية ص ١٧٧، ج ١٢، طبعة دار الكتب المصرية أن الورسق والأوجقية من قبائل الغزّ التي تسكن شرق كيليكيا.

(٣) المطلقات: هي المكاتبات العامة إلى أهل المملكة. ــ انظر صبح الأعشى: ٢٣٨/٧ ــ ٢٤٨؛ والتعريف بالمصطلح الشريف: ١١٤ (طبعة دار الكتب العلمية).

(٤) أذنة: هي أطنة، في آسية الصغرى بالقرب من نهر سيحان. وقد احتلها المماليك سنة ١٣٥٩م/٧٦١هـ، وأصبحت قصبة نيابة. وكان واليها سنة ١٣٧٨م/٧٨٠هـ يوركر أوغلي رمضان التركماني الذي اعترف بسلطان المماليك. وقد وليها ابنه أحمد بن رمضان من سنة ٧٨٠هـ إلى سنة ٨١٠هـ. (دائرة المعارف الإسلامية: ٥٣٠/٣؛ ومعجم زامباور: ٢٣٤).

طبلخاناه زيادة على طبلخاناته، فصارت تقدمته بثمانين فارساً ـ أعني إمرة ثمانين ـ وأنعم على كل من قرابغا الأسنُبغاوي ويَنْتَمُر المحمدي وآقباي الإينالي بإمرة طبلخاناه، وعلى جَرباش الشيخي بإقطاع يلبغا المجنون، إمرة خمسين فارساً، وعلى آقبغا المحمودي بإمرة طبلخاناه أيضاً، وعلى كلٍّ من تَمُر الساقي وجَركس القاسميّ المصارع، وإينال حَطَب، وكَمَشْبُغا الجمالي، وأَلْطُنْبغا الخليليّ، وكُزل العجميّ البَجْمَقْدار، وقاني باي العلائي، وجَكَم من عَوَض، وصُوماي الحسني بإمرة عشرة.

وفي سابعه خلع على سُودون المارداني بآستقراره رأس نوبة النُّوَب ـ وكانت عُيِّنتْ له قبل ذلك، غيرَ أنه كان متوعِّكاً ـ وعلى يعقوب شاه الظاهري بآستقراره حاجباً ثانياً، عوضاً عن تمربغا المنجكي بإمرة ثمانين، وعل كلٍّ من سُودون من زاده، وتَنْكِزبُغا الحَطَطِيّ، وبَشْباي وجَكم من عوض، وآقْبُغا المحمودي الأشقر وآستقروا رؤوسَ نُوَب صِغاراً.

وفي تاسعه خلع على قرابغا الأسَنْبُغاوي ومُقْبِل الظاهري، وآستقروا حُجَّاباً، فصارت الحجَّاب ستة بالديار المصرية، ورؤوس نُوَب نحو العشرة، وهذا شيء لم يكن قبل ذلك.

ثم حضر الأمير دُقماق المحمّدي معزولاً عن نيابة مَلَطْية بتقادِم كثيرة.

وفي ثاني عشرة خَلَع على الأمير جَرباش الشيخي وتمان تَمُر بآستقرارهما رُؤوس نُوَب أيضاً، فزادت عِدّة رؤوس النُّوَب على العشرة. وخلع على كُزُل المحمدي العجمي البَجْمَقْدار بآستقراره أُستادار الصحبة[1]، عوضاً عن قرابغا

---

(١) أستادار الصحبة: هو الذي يتولى أمر طعام السلطان. وهو يقابل وظيفة «زم الرجال» الذي يتولى أمر طعام الخليفة في العصر الفاطمي. (صبح الأعشى: ٤٨١/٣). ويكون أستادار الصحبة من أمراء العشرات، ويرأس خدم المائدة ويشرف على المطبخ وشراء الأطعمة، ويمشي أمام الطعام إذا أخرج من المطبخ إلى غرفة الطعام. وهو لا يفارق السلطان في سفر أو حضر. ويعمل تحت إمرته «المشرف» وهو أمين المطبخ وكبير «السفرجية» ويسمى خوانسالار. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٥).

الأسنبغاوي، المنتقل إلى الحجوبية. وخلع على كل من الطواشيين: شاهين الحسني الأشرفي، وعبد اللطيف الأشرفي بآستقرارهما (لا لا) السلطان.

وفي سابع عشرة آسْتُدْعِيَ الأميرُ الكبير الشيخ سراج الدين عمر البُلْقِينيّ والقضاة وأعيان الفقهاء من كل مذهب، فحضر الجميع عند الأمير الكبير بالإسطبل، وقد حضر الأمراء والخاصكيّة بسبب الأموال التي خلّفها السلطان الملك الظاهر برقوق؛ هل تُقَسَّم في ورثته؟ أو يكون ذلك في بيت مال المسلمين؟ فوقع كلام كثير آخرُه أن تُفَرَّقَ في ورثته من السدس، وما بقي فلبيت المال.

وفيه آستقرّ الأمير أرغون شاه البَيْدَمُرِي أمير مجلس في نظر خانقاه شيخون عوضاً عن يلبغا السالمي.

وفي حادي عشرين ذي القعدة، آستقر الأمير سُودون الطيّار أمير آخوراً كبيراً، عوضاً عن سُودون قريب السلطان، بعد أن شَغَرت عِدَّة أيام.

وفي ثالث عشرينه خُلِع على أستادار الوالد، شهاب الدين أحمد بن عمر المعروف بابن قُطَيْنَة، بآستقراره وزيراً، عوضاً عن تاج الدين بن أبي الفرج.

[وخَلع أيضاً على يلبغا السالمي الظاهري بآستقراره أُستاداراً عِوضاً عن آبن أبي الفرج][١] المذكور، وقُبِض على تاج الدين بن أبي الفرج وصُودِر، فلم تُطل مدة آبن قطينة في الوزر، وعُزِل بفخر الدين ماجد بن غراب في رابع ذي الحجة، وعاد إلى أستادارية الوالد على عادته.

ثم قدِم الخبر [في ثامن عشر ذي الحجة][١] بأن آبن عثمان أخذ الأبُلُسْتَيْن ومَلَطية، وعزم على المسير إلى البلاد الشامية. فعَمِل الأمراء مشورة في أمره، وآتفق الحال على المسير إلى قتاله، وتفرّقوا. فأنكر المماليك السلطانية ذلك، وقالوا: هذه حِيلة علينا حتى نخرج من القاهرة، وعيّنوا سُودون الطيَّار الأمير آخور لكشف هذا الخبر. وحضر البريد من دمشق بأن علاء الدين بن الطبلاوي ترك

(١) ساقطة من طبعة كاليفورنيا. وهي مثبتة هنا عن طبعة دار الكتب المصرية.

لُبْس الأمراء، وتزيّا بزيّ الفقراء، وآمتنع من الحضور إلى مصر، وكان طُلِب إليها، وأن تنم نائب الشام قال: هذا رجل فقير قد قَنِع بالفقر، اتركوه.

وفي يوم ثامن عشر المذكور خرج سُودون الطيّار لكشف الأخبار، فدخل دِمَشق في العشرين منه، وهذا شيء من وراء العقل، كونه يصل من مصر إلى الشام في يومين.

وفي أواخر ذي الحجة قَدِم الخبر بأن تَنَم نائب الشام خرج عن الطاعة، وقَبَض [على] جانبك اليحياوي الظاهري، الذي كان وَلِي نيابة قلعة دمشق، ولم تُسَلَّم له قلعةُ دمشق، وأنه أرسل إلى نائب الصُّبَيبة، فأفرج عن آقبغا اللكّاش، وأُلْجِيبُغا الحاجب، وخِضْر الكريمي، وآستدعاهم إلى دمشق، فقَدِموا عليه، فلم يتحرّك بسبب ذلك ساكنٌ بمصر لاختلاف الكلمة.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشرين المحرم سنة آثنتين وثمانمائة، ركِب السلطان الملك الناصر من قلعة الجبل، ومعه الأمير أَيْتَمُش البَجَاسي، والوالد أمير سلاح، وسائر الأمراء، ونزل إلى تُربة[1] أبيه بالصحراء وزاره، ثم عاد بعد أن شقَّ القاهرة، وطلع إلى القلعة، وهذا أوّل ركوب الملك الناصر.

ثم في هذه الأيام تزايد الاختلاف بين أكابر الأمراء وبين الأمراء الخاصّكية، وآشتدّت الوحشةُ بين الطائفتين. وآتّفق سُودون طاز، وسودون من زاده، وجَرْكَس القاسمي المصارع، وآقباي من حُسين شاه، وبشباي وغيرهم، وآنضموا على الأمير يَشْبَك الشعباني الخازندار، وصاروا في عُصْبة قوية وشوكة شديدة، وآستمالوا جماعة كبيرة من خجداشِيَّتِهم الظاهرية، الذين بالأطباق من القلعة. وتأكّدت الفتنة، وشرعت كلٌّ من الطائفتين تدبِّر على الأخرى. فأخذ الأمراء الخاصّكيّة يتخوّفون من تَنَم نائب الشام، فأرسلوا بتفويض أمور البلاد الشامية إليه. فلما وصل ذلك إلى تَنَم على يد مملوكه سَونْجبُغا، في ثالث عشر المحرم،

(١) تعرف هذه التربة بالمدرسة الناصرية أو الخانقاه البرقوقية. وهي أكبر تربة في جبانات القاهرة. ـ انظر خطط المقريزي: ٢/٣٦٣.

وقُرِىء المرسوم الشريف الذي على يده بدار السعادة، وفيه أنه يَعْزِل مَنْ شاء، ويُوَلِّي مَنْ شاء، ويُطلِق من شاء من المسجونين، فأرسل أطلق الأمير جُلْبان الكَمشْبُغاوي الظاهري المعروف بقراسُقْل، المعزول عن نيابة حلب ثم عن أتابكيّة دمشق، من سجن قلعة دمشق في ليلة الجمعة رابع عشرين المحرم. وأطلق أيضاً الأمير أزْدَمُر أخا إينال اليُوسُفي، ومحمد بن إينال اليُوسُفي، من سجن طرابُلس وأحضرهما إلى دمشق. ثم بعث إلى نوّاب البلاد الشامية يدعوهم إلى طاعته، وإلى القيام معه، فأجابه الأمير آقبغا الجمالي الأطْرُوش نائب حلب، والأمير يونُس بَلْطَا نائب طرابلس، والأمير أَلْطَنْبُغا العثماني الظاهري نائب صفد، وآمتنع من إجابته الأميرُ دِمِرداش المحمدي الظاهري نائب حماة.

ثم بعث تَنَم إلى طرابلُس بتجهيزِ شيني[1] في البحر إلى ثغر دِمْياط، ليُحمل فيه الأمير نَوْرُوز الحافظي وغيره من الأمراء الذين بثغر دِمياط. فبادر ناصر الدين محمد بن بهادُر المؤمني، فتسلّم بُرْج الأمير أَيْتَمُش بطرابُلس، وركب البحر إلى دمياط، وقدم إلى القاهرة، وأعلم القوم بما قصده تَنَم؛ فكتَب على يده عـدّة مُلطّفات إلى الأمير قُرْمُش حاجب حُجّاب طرابلس وإلى عِدَّة من أمراء طرابلس وإلى القضاة والأعيان بأن قُرْمُش يركب على يونس بَلْطَا نائب طرابلس ويقتُله، ويَلِي نيابة طرابُلس عوضَه، فاتفق أنَّ يُونُس المذكور قَبَض على قُرْمش الحاجب وقَتله قبل وصول آبن بهادُر إلى طرابُلس.

ثم إن تَنَم آستدعَى الأميرَ علاء الدين عليّ بن الطبلاوي المقدَّم ذكرُه في ترجمة الملك الظاهر برقوق لمّا صُودِر وحُبِس بخزانة شمائل ثم نُفِي وخُلِع عليه، وأقامه متحدِّثاً في أمور الدولة كما كان في ديار مصر. فأخذ آبن الطبلاوي هذا في الإفحاش في أمر الشاميّين، وطَرَحَ عليهم السُّكّر الواصل من الغَوْر، بحيث إنه طرح ذلك على الناس، حتى على الفقهاء ونقباء القضاة، فتنكّرت القلوب عليه.

---

(١) الشيني أو الشينيّة: سفينة حربية كبيرة ذات أشرعة ومجاذيف. ويقابلها بالفرنسية (Galère). وكانت أكبر السفن الحربية بمصر وأكثرها استعمالاً ــ وكان أسطول الفاطميين في مصر يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات. وكان على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء. (صبح الأعشى: ٥١٩/٣).

وقَدِم الخبرُ بهذا كلِّه إلى الديار المصرية، فتحقَّقَ عند ذلك أعيانُ الدولة عِصيان تنم، وصَرَّح الأمراء الخاصكية بأن الأمير الكبير أيتمش والوالد وجماعة من أكابر الأمراء بالديار المصرية قد وافقوا تنم على ذلك، وكاتبوه بالخروج، ولم يكن لذلك صحّة. فأخذ الأمراءُ الخاصّكيةُ، وكبيرُهم يَشْبك الشعبانيّ الخازندار، في التدبير على أَيْتَمش ورُفقته، وآتفقوا على أمر يكون فيه زوالُ أيتمش وأصحابه، وعلَّموا السلطان الملك الناصر فرجاً بقولٍ يقوله إلى أيتمش.

فلمّا كان يومُ الخميس سادس شهر ربيع الأول من سنة آثنتين وثمانمائة، وجميعُ الأمراء بالخدمة السلطانية، آبتدأ السلطان الملك الناصر بالكلام مع الأمير الكبير أيتمش، وقال له: «يا عمّ، أنا قد أدركتُ وبلغتُ الحُلُمَ، وأُرِيد أن أتَرَشَّد»[١]، فقال له أيتمش: «السمع والطاعة»، وآتّفق مع الأمراء الخاصكيّة على ترشيد السلطان، وصوَّب ذلك جميعُ الأمراء، إلّا الوالدَ وفارسَ الحاجبَ، وخالفا الجميعَ. فأخذ الأتابك أيَتُمش يُحسِّن ذلك للوالد ولفارس، حتى أذعنا على رَغْمِها لترشيد السلطان، وأنهم يَمْتَثِلَون بعد ترشيده سائرَ ما يرسم به. وطَلب في الحال الخليفة والقضاةَ والسراجَ البُلْقِينِيّ ومفتي دار العدل فحضروا. وقام سعدَ الدين إبراهيم بن غُراب ناظر الجيش والخاصّ، وآدّعى على الأمير الكبير أيتمش بأن السلطان قد بلغ رُشْدَه. وشَهِد عدّةٌ من الأمراء الخاصكيّة بذلك، ولم يكن لذلك صحّة، فَحَكم القضاةُ بعد إقامة البيّنة برُشْد السلطان وخَلَع [السلطان] على الخليفة وقُضاة القضاة وعلى الأمير الكبير أيتَمش، وآنفضّ الموكب.

ونزل الأميرُ الكبير إلى داره التي كان يسكُن بها بالقُرْب من باب الوزير[٢]

---

(١) ترشيد السلطان: مباشرة السلطان لصلاحياته وسلطاته دون وصاية الأمير الكبير أو الأتابك الكبير، وذلك عندما يبلغ السلطان سنّ الرشد. ـ وبذلك يكون على الأمير الكبير أيتمش أن يترك الاسطبل السلطاني ويخليه للأمير آخور الكبير.

(٢) باب الوزير: هذا الباب فتحه الوزير نجم الدين محمد بن علي بن شروين المعروف بوزير بغداد وقت أن كان وزيراً للملك الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤٢هـ لمرور الناس فيه بين المدينة وبين الجبانة الواقعة خارج سور القاهرة.

ومعه جميعُ الأمراء. فلما سار أَيْتَمُش حتى صار تحت الطبلخاناه السلطانية، وطَلَب أن يُسَلِّم على الأمراء، وٱلتفتَ برأس فرسه، وقد وقف له جميعُ الأمراء لردِّ سلامِه، وقبل أن يُسلِّم عليهم، قال له الوالد: «إلى أين يتوجّهُ الأميرُ الكبير من هنا؟» قال الأميرُ أيتمش: «إلى بيتي! أَوَ ما علمتَ بما وقع عليه الاتفاقُ من ترشيد السلطان، وأنه يستبدّ بالأمور، وأَنْزِل أنا من باب السِّلسلة إلى داري؟» فقال الوالدُ: «نعم، وقع ذلك، غيرَ أنه بنزولك لا تسكن الفتنة! إطلع إلى باب السلسلة، وٱمكُث به اليوم، وخُذ في نقل قماشك شيئاً بعد شيء إلى [آخر] الليل حتى نُبْرِمَ أمراً نفعلُه في هذه الليلة؛ فإذا أصبحتَ فٱنزل إلى دارك». فقال أيتمش: «يا والدي! ليس ذلك مصلحةً، ويُقيم من له غَرضٌ في إثارة الفتنة الحجّةَ علينا». فألح عليه الوالد حتى سَمع كلامه كلُّ أحد، وأيتمش لا يُذعِن إليه، وأبى إلّا النزولَ إلى داره، ثم سلَّم عليهم، وٱلتفت برأس فرسه، فقال الوالد: «أخربتَ بيتك وبيوتَنا بسوء تدبيرك»، وعاد الوالد إلى جهة داره بخُط الصليبة عند حمام الفارقاني، ومعه سائر الأمراء، فكلّمهم في الطريق وقال: «هؤلاء الأجلابُ لا بُدّ لهم معنا من رأس[1]، فإن كان ولا بد يكون ذلك في الإسطبل السلطاني معنا» ونَدَب الأمراء إلى أن يتوجَّهوا إلى أيتمش في ذلك، فقالوا: «قد فات الأمر، ونزل إلى داره» ثم توجَّه كلُّ واحد إلى منزله. وفي الحال دُقَّت البشائر لترشيد السلطان، وزُيّنت القاهرة، وٱفترق العسكر فرقتين: فرقة مع الأمير الكبير أيتمش البجاسي، وهم جميع أكابر الأمراء والمماليك القرانيص[2]، وفرقة مع الأمير يَشْبَك الشعباني الخازندار، وهم الأمراء الخاصَّكية ومماليك الأطباق. وقَوِيت شوكةُ الأمير يشبك بعجز أيتمش وعدم أهليته في القيام بتدبير الأمور من يوم مات الملك الظاهر برقوق. وٱستمرّ ذلك إلى ليلة عاشر شهر ربيع الأول المذكور، وقد نَدِم

(١) في طبعة كاليفورنيا: «مراس». وما أثبتناه عن الأصول الأخرى.

(٢) المماليك القرانيص: فريق من الجيش المملوكي في مستوى أمراء الخمساوات. وهم من مماليك السلاطين القدامى. أما مماليك السلطان القائم فكانوا نوعين: الخاصكية، وهم المقربّون إلى السلطان والمختصّون به، ومن هنا تسميتهم، والأجلاب أو الجلبان أو المشتروات وهم الذين اشتراهم السلطان.

الأمير الكبير أيتمش على نزوله من باب السلسلة، حيث لا ينفعه الندم، ولم يجد بُدّاً من الركوب، وٱتَّفق مع الأمراء على الركوب.

= ويرى البعض أن القرانيص بقوا في إمرتهم دون ترقية، وهذا هو السبب في أن هذا الفريق ظل حاقداً كثير الثورات، حتى قيل إن من أسباب هزيمة الغوري في مرج دابق سنة ١٥١٦م عدم ولاء هذا الفريق للسلطان. وظل القرانيص مادة للفتن والخيانات حتى في العصر العثماني. (النجوم الزاهرة: ١٩/١٥، حاشية: ٧، طبعة الهيئة المصرية العامة).

هذا ويرى آخرون أن القرانيص كانوا يشكلون في بداية عهد أي سلطان جديد القوة الحقيقية له، ويستأثرون بالسلطة. وكانوا من أصحاب الإقطاعات، واشتهروا بمهارتهم القتالية، فالشخص الواحد منهم كان يضاهي عشرة من المماليك الأجلاب. وقد كانوا من أصحاب الحظ في الترقية، فالسلطان ططر كان منهم. (الدولة المملوكية لأنطوان ضومط: ص ٣٢ ــ ٣٣).

وعلى كل حال فالقرانيص ظلوا طوائف منفصلة، وفي كثير من الأحيان عدائية فيما بينها، وذلك لانتساب كل جماعة منهم إلى السلطان الذي اعتقهم، إنما كان يجمعهم قاسم مشترك واحد هو عداؤهم للمماليك الأجلاب وللخاصكية.

ذكر الواقعة بين الأتابك أيتمش وبين يشبك وغيره

ولما كان ليلة الاثنين عاشر شهر ربيع الأول، آتفق الأمراء الأكابر مع الأمير الكبير أيتمش، ولبسوا الجميع آلة الحرب، وآجتمعوا على الأتابك أيتمش بداره بخُط باب الوزير، بعد نزول أيتمش من باب السلسلة بثلاثة أيام. وأخذ بعض رُفْقته من أكابر الأمراء يلومه على نزوله من الإسطبل السلطاني، وعلى عدم ميله لكلام الأمير تغري بردي (أعني الوالد) في النزول، فقال: «هكذا قُدِّر». وكان سبب ركوب أيتمش بعد نزوله من الإسطبل أنه لمَّا وقع ترشيد السلطان، وآتفقوا معه على أن ينزل إلى داره، ظنَّ أيتمش أن بنزوله تسكن الفتنة، وتطمئن الخواطر، ويصير هو على عادته رأسَ مشورة، ولا يُعمل شيء إلَّا بعد مشاورته، فتمشي الأحوالُ بذلك على أحسن وجه. ولم يَدْرِ أن القصد كان بنزوله من باب السلسلة حتى يَضْعُفَ أمرُه، وتصير القلعة بأسرها في أيدي الجماعة، ويستبدّوا بالأمر من غير مشارك، ثم يقبضوا على واحد [بعد] واحد، حتى يصفو لهم الوقت. وفَطِن الوالد لذلك فعرّف أيتمش بالمقصود وقال له: «إنّه لا بدّ لهؤلاء الجماعة من إثارة فتنة. فإن كان ولا بُدَّ فيكون ذلك ونحن مُلَّاك باب السلسلة» وهي شطر القلعة؛ فأبى إلّا ما أراد الله تعالى، ونزل إلى داره وأقام يومه، ثم أصبح وقد تحقَّق ما قاله الوالد وغيره، وعلم أنه متى ظَفِروا به والأمراء رفقته قبضوا عليهم؛ فلم يجد بُدّاً من الركوب، ورَكِب إلى الوالد في ظهر نهاره وترضّاه، حتى وافقه. فعند ذلك وافقه الجميع، واتّفق رأيُهم على الركوب في ليلة الاثنين المذكورة؛ فركبوا بعد صلاة العشاء الأخيرة، وهم جماعة كثيرة من أمراء الألوف والطبلخانات والعشرات والمماليك السلطانية القرانيص. فالذي كان معه من مقدمي الألوف: الأمير تغري بردي من يشبغا أمير سلاح (أعني عن الوالد)، والأمير أرغون شاه

البيدمري أمير مجلس، وفارس حاجب الحجاب، ويعقوب شاه الحاجب الثاني، ومن أمراء الطبلخانات: ألطنبغاشادي، وشادي خجا العثماني، وتَغْري بَرْدِي الجُلْباني، وبَكْتَمُر الناصريّ المعروف بجلّق، وتنكزبغا الحَطَطِي، وآقبغا المحمودي الأشقر، وعيسى فلان والي القاهرة، ومن العشرينات: أَسندمر الإسعرديّ، ومَنْكَلِي العثماني، ويلبغا من خجا الظريف، ومن العشرات: خِضر بن عمر بن بكتمر الساقي، وخليل بن قَرَطاي شادّ العمائر، وعلي [بن] بلاط الفخري، وبِيرم العلائي، وأَسَنْبُغا المحمودي، ومحمد بن يُونس النَّورُوزي، وألِجيبغا السلطاني، وتمان تمر الإشقتمري، وتَغْرِي بَرْدِي البَيْدَمُري، وأرغون السَّيْفِيّ، ويلبغا المحمودي، وباي خجا الحَسنِيّ، وأحمد بن أرغون شاه الأشرفي، ومُقْبِل الحاجب، ومحمد بن علي بن كلبك نقيب الجيش، وخيربك من حسن شاه، وجُلُبَّان العثماني، وكُزُل العلائي، ويدي شاه العثماني، وكَمَشْبُغا الجمالي، وأَلْطُنبغا الخليلي، وألطنبغا الحسني، ونحو الألف مملوك من أعيان المماليك السلطانية. وخرج أيتمش إلى داره مُلبساً هو ومماليكه، وكانوا نحو الألف مملوك، وصحبته الأمراء المذكورون، وعَبَّى عساكَره، وأوقف طُلبه ومماليكه بمن آنضاف إليهم من أُمراء الطبلخانات والعشرات، والمماليك السلطانية بالصُّوّة، تُجاه باب المدرّج أحد أبواب قلعة الجبل، وأصعد جماعة أُخر من حواشيه إلى سطح المدرسة الأشرفية التي مكانها الآن بيمارستان الملك المؤيد شيخ، ليرموا على مَن بالطبلخاناة السلطانية ويحموا ظهور مماليكه؛ ولم يخرج هو من بيته. وكان [هو] الذي رتب العساكر ووقف الأمير فارس حاجب الحجّاب ومعه جماعة كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشرات في رأس الشارع الملاصق لمدرسة السلطان حسن، المتوصّل منه إلى سوق القَبْو، لُيقاتل مَنْ يخرج من باب السلسلة من السلطانية. ووقف الوالد، ومعه الأمير أرغون شاه أمير مجلس، برأس سويقة منعم من خط الصليبة، تجاه القصر السلطاني. وتفرقت الأمراء والمماليك ثلاث فرق، كل فرقة إلى جهة من الأمراء المذكورين، مع من آنضاف إليهم من المماليك البطالة والزُّعْر وغيرهم. وأخذ كلُّ واحد من هؤلاء الأمراء يُعبِّيء طُلْبَه وعساكره، على حسب ما يختار، كلّ ذلك في الليل.

وأمّا أهلُ القلعة فإن الأمير يَشْبَك الشعبانيّ الخازندار لَمّا سمِع بذلك ركب إلى القلعة هو وبيبرس الدَّوادار وطلعا إلى السلطان، وقد آجتمع غالبُ الأمراء والخاصكيّة من الظاهرية عند السلطان. وطلب يشبك في الحال مماليك الأطباق، وأمَرهم بلُبْس السلاح، ولَبِس هو وجميعُ الأمراء، وحرَّضهم على قتال أيتمش ورُفقته، وخوّفهم عاقبةَ الأمر، وقال لهم: «هؤلاء، وإن كانوا خُشداشيَّتنا، فقد صاروا الآن أجانب، وتركوا خبزَ الملك الظاهر برقوق، وخرجوا على ولده، وأرادوا يُسلطنون أَيْتَمش، ونحن نُقاتل مع آبن أستاذنا حتى نموت» فأجابه جميع المماليك الجُلبان، وظنوا أن مقالته حقيقية. وفي الحال دُقَّت الكوسات الحربية بالقلعة، ولَبِس سائر الأمراء الذين بالقلعة، وهم: بيبرس الدوادار آبن أخت الملك الظاهر برقوق، ويَشْبك الشعباني الخازندار المقدّم ذكرُه، وسُودون المارداني رأس نوبة النُّوَب، وسُودُون من علي بك طاز، وإينال باي بن قجماس، ويلبغا الناصري، وبكتمر الرُّكني، ودُقْماق المحمدي المعزول عن نيابة مَلَطْية، وشيخ المحمودي (أعني المؤيَّد)، وآقبغا الطُرنطائي، والجميع مقدَّمو ألوف، وجماعةٌ أُخر من الطبلخانات والعشرات. وأما المماليك السلطانية فمعظمهم.

ونزل السلطان الملك الناصر فرج من القصر إلى الإسطبل السلطاني؛ ووقع القتال بين الطائفتين من وقت عشاء الآخرة إلى باكر النهار، ومعظم قتال أهل القلعة مع الذين كانوا برأس سُوَيْقة مُنْعِم، وتصادموا غيرَ مرّة. وبينما القتال يشتدّ أَمَر الأتابك أَيْتَمُش البجاسي فنُودِيَ: «مَنْ قَبض مملوكاً جركسياً وأحضره إلى الأمير الكبير أيتمش فله كَيْت وكَيْت». فلمّا سمعت الجراكسة الذين كانوا من حزب أَيتمش ذلك حنَقوا منه، وتوجّه أكثرُهم إلى السلطان. على أنَّ أيتمش كان من أعظم الجراكسة، غيرَ أن زوال النعم شيء آخر؛ فعند ذلك كَثُر جمعُ السلطانية وقَوِي أمرُهم، وحَمَلوا على الوالد ومَن معه، وهو برأس سُوَيْقة مُنْعِم، فكسروه، فمرّ بمن معه من الأمراء ومماليكه حتى اجتاز بداره، وهي دار طاز بالشارع الأعظم تجاه حمَّام الفارقاني، والقوم في أثره، فحَمَى ظهرَه مماليكُه الجُلْبان الذين بالأطباق بالرمي على السلطانية، حتى تركوه وعادوا، ومرّ الوالد حتى لَحِق بالأمير أيتمش بالصُّوَّة.

وأما السلطانية فإنهم لمّا كسروا الوالد، وكان الأهمَّ، عادوا لقتال فارس الحاجب، وكان فارس من الفرسان المعدودة الأقشيَّة [(١)]، فثبت لهم فارس المذكور ثباتاً عظيماً، لولا ما كادوه من أخذ مدرسة السلطان حسن، والرمي عليه من أعلاها إلى أن هزموه أيضاً؛ وآنحاز بطائفته إلى أيتمش بالصوّة، فكرر أيتمش المناداة على المماليك الجراكسة ـ خذلان من الله ـ، فذهب من كان بقي عنده منهم وعند ذلك صدمته السلطانية صدمة هائلة كسروه فيها، وآنهزم من بقي معه من الأمراء المذكورين والمماليك وقت الظهر من يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأوّل من سنة آثنتين وثمانمائة، ومرّوا قاصدين إلى جهة الشام حتى نزلوا بسِرْياقوس، فأخذوا من الخيول السلطانية التي كانت بها من جيادها نحو المائة فرس، ثم ساروا إلى نحو البلاد الشامية.

وندب السلطان خلف أَيْتَمش ورُفقته من المنهزمين جماعة من أمراء الألوف وغيرهم فالذي كان منهم من أمراء الألوف: بَكْتَمُر الرُّكني المعروف ببكتمر باطيا، ويلبغا الناصري، وآقبغا الطرنطائي، ومن أمراء الطبلخانات: أسنبغا الدوادار، وبشباي من باكي، وصُوماي الحسني في جماعة كثيرة من أمراء العشرات والمماليك السلطانية، وهم نحو خمسمائة مملوك، فلم يقفوا لهم على خبر، وعادوا من قريب.

وآمتدّت الأيدي إلى بيوت الأمراء المنهزمين بالنهب، فنهبوا جميعَ ما كان فيها، حتى نَهبت الزُّعْرُ مدرسة[(٢)] أَيْتمش، وأخذوا جميع ما كان فيها، حتى حفروا قبر ولده الذي كان بها، وأحرقوا الرَّبْع المجاور لها من خارج باب الوزير، ونهبوا جامع[(٣)] آق سُنْقُر المجاور لدار أيتمش، وآستهانوا حُرْمة المصاحف بها، ثم نهبوا مدرسة السلطان حسن، وآنتهبوا بيوتاً كثيرة من بيوت المنهزمين، فكان الذي أُخِذ

---

(١) لعل هذه النسبة إلى أقوش أو آقوش.

(٢) هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبّانة. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤٠٠).

(٣) انظر خطط المقريزي: ٢/٣٠٩.

من بيت الوالد فقط من الخيل والقماش والسلاح وغير ذلك ما تزيد قيمته على عشرين ألف دينار.

ثم كسرت الزُّعْر حبس الديلم وحبس الرحبة، وأخرجوا من كان بهما من أرباب الجرائم وصارت القاهرة في ذلك اليوم غَوْغاء، مَنْ غلب على شيء صار له وقُتِل في هذه الواقعة من الطائفتين جماعةٌ كبيرة من المماليك وغيرهم؛ فكان الذي قُتِل من الأمراء: قجماس المحمدي شادّ السلاح خاناه، وقَرابُغا الأسنبغاوي، وينتمر المحمدي وآختفى بالقاهرة ممن كان مع الأتابك أيتمش: مقبل الرومي الطويل أمير جاندار وكمشبغا الخضري وجماعة أخر يأتي ذكرُهم وتوجّه بقية أصحابه الجميع صحبته إلى دمشق، وقصد أيتمش الأمير تَنَم الحسني نائب الشام.

وأما تنم نائب الشام فإنه لما عَظُم أمرُه بدمشق وتمّ له ما قصده، وجّه الأمير آقبغا الطولوتمري اللكَّاش في عدّة من الأمراء والعساكر إلى غَزّة، فساروا من دِمَشق في أوّل شهر ربيع الأوّل المذكور. ثم ندب جماعة أخر من كبار الأمراء إلى البلاد الحلبية، وخرجوا من دمشق في ثالث شهر ربيع الأوّل، وعليهم الأمير جُلْبان الكَمَشْبُغاوي الظاهري، المعروف بقَراسُقل، المعزول عن نيابة حلب قديماً، ومعه الأمير أحمد بن الشيخ على نائب صفد كان، والأمير بي[1] خجاه المعروف بطيفور نائب غَزّة كان، وهو يومئذ حاجب دمشق، والأمير يلبغا الإِشِقْتَمُري، والأمير صرق الظاهري، وساروا إلى حلب لتمهيد أمورها. ثم قَبَض الأميرُ تنم على الأمير بَتْخاص وعيسى التركماني وحبسهما بالبرج من قلعة دمشق ثم خرج تَنَم فيمن بقي معه من عساكره في سادسه يريد حلب، وجعل الأمير أزدمر أخا إينال اليوسفي نائب الغيبة بدمشق، وسار حتى قدم حِمص وآستولى عليها، وولّى عليها من يَثِق به من أصحابه، ثم توجّه إلى حَماة، فوافاه الأمير يونس بَلْطا نائب طرابلس ومعه عسكر طرابلس، ونزلوا على مدينة حماة، فآمتنع نائبها الأمير دمرداش المحمدي بها، وقاتل تنم قتالاً شديداً، وقَتَل من أصحاب تَنَم نحو الأربعة أنفس، ولم يقدر عليه تنم.

(١) في بعض الأصول: «بيخجا».

وبينما تَنَم في ذلك ورد عليه الخبر بقيام أهل طرابلس على من بها من أصحابه. وخبرُ ذلك أنه لما قَرُب محمد بن بهادر المؤمني من طرابلس، بعث ما كان معه من الملطفات من الديار المصرية لأهل طرابلُسُ، فوصلت إليهم قبل قدومه، ثم وصل هو بمن معه في البحر، فظنه نائب غَيْبة يُونُس [بَلْطا] من الفرنـج، فخرج إليه في نحو ثلاثمائة فارس من أجناد طرابلس، فتبيّن له أنه من المسلمين، فطلبه نائب الغيبة بمن معه فلم يأته، وقاتلهم على ساحل البحر، فانهزم إلى برج أيتمش، وكان تحت حكم آبن المؤمني المذكور. وأصبـحَ(١) الذين أتتهم الملطّفات من مصر، ونادوا في العامّة بجهاد نائب الغْيبة، وخطب خطيبُ البلد بذلك؛ فشرعَتَ العامّة في قتال نائب الغيبة حتى هزموه ونهبوا ما كان معه. وتوجه إلى حماة، فأرسل تَنَم الأمير الأمير صرق على عسكر كبير لقتال أهل طرابلس، فتوجه صرق إليهم، وقاتلهم قتالاً شديداً مدّة تسعة أيام.

وبينما تَنَم في ذلك ورد عليه الخبر بواقعة الأمير أيتمش مـع المصريين، وأنه نزل بمن معه في دار النيابة بغزَّة، وأنه سار بمن معه يريد دمشق، فسُرَّ تنم بذلك وأَذِن لنائب غيبته بدمشق وهو الأمير أزدمر بدخول أيتمش ومن معه إلى دمشق وبالقيام في خدمتهم حتى يحضر إليهم. ثم لما بلغه عجز صرق عن أهل طرابلس، جهَّز إليها نائبها الأمير يُونس بَلْطا في طائفة كبيرة من العساكر، فسار إليها يونس ودخلها بعد أن هزم آبنَ المؤمني، وركب البحر ومعه القاضي شرف الدين مسعود قاضي القضاة الشافعية بطرابُلس، يريدان القاهرة بمن معهما ونهب يُونس أموالَ الناس كافَّة بطرابلس، وفعل في طرابلس وأهلها ما لا تفعله الكفَرة، وقَتل نحو العشرين رجلاً من أعيان طرابلس وقضاتها وعلمائها منهم: الشيـخ العالم المفتي جمال الدين بن النابُلسي الشافعي، والخطيب شرف الدين محمود، والقاضي المحدّث شهاب الدين أحمـد الأذرعي المـالكيّ، وقـاضي القضـاة شهـاب الـدين الحنفيّ، والقـاضي موفَّق الدين الحنبلي، وقَتل من عامة طرابلس ما يُقارب الألف، وصـادر الناس مصادرات كثيرة، وأخذ أموالهم وسَبَى حريمهم، فكانت هذه الكائنة من أقبـح

(١) في الأصل: «فأصبح».

الحوادث، وكانت في الخامس عشر من شهر ربيـع الأوّل المذكور.

وأمَّا أمرُ الديار المصرية فإنه لَمَّا كان بعد الواقعة من الغد خلـع السلطان على الأمير قرابُغا مغرق الظاهري بآستقراره في ولاية القاهرة عوضاً عن عيسى فلان بحكم عِصيانه مـع أيتمش، فمات من الغد من جُرح كان أصابه في الواقعة، وآستقرّ في ولاية القاهرة عِوضه بَلبَان أحد المماليك الظاهريّة، فنزل بلبان المذكور بالخلعة إلى القاهرة، فمرّ من باب زَوِيلَة يريد باب الفتوح، وعبر راكباً من باب الجامـع الحاكمي وهو يُنادي بالأمان، وإذا بالأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن الزين قد جاء من جهة باب النصر، وهو أيضاً يُنادي بين يديه بآستقراره في ولاية القـاهرة، فتحيّـرت المقدّمون والجبلية[1] بينهما، وبينما هم في ذلك، وقد آلتقى بلَبَان مـع آبن الزين، فقال بلبان: أنا ولّاني فلان، وقال آبن الزَّين: أنا ولّاني فلان، وإذا بالطواشي شاهين الحسني قَدِم ومعه خِلْعةُ ابن الزين بولايته القاهرة، فبَطَل أمر بلبان. وتصرَّف آبن الزين في أمور الولاية، ونادى بالكف عن النهب، وهدّد من ظَفِر به من النهَّابة.

ثم في سادس عشره عرض السلطان المماليك السلطانية، ففُقِد منهم مائة وثلاثون نفراً قد آنهزموا مـع الأتابك أيتمش.

ثم قَبَض السلطان على الأمير بكتمر جِلّق أحد أمراء الطبلخانات، وتَنكزبُغَا الحَطَطِيّ أحد أمراء الطبلخانات أيضاً ورأس نوبة، وقرمان المنجكي، وكمشبغا الخضري، وخِضر بن عمر بن بكتمر الساقي، وعلي بن بلاط الفخري، ومحمد بن يُونس النوروزي، وألْجيبُغا السلطاني، وأرغون السيفي، وأحمد بن أرغون شاه، والجميـع من أصحاب أيتمش.

ثم رسم السلطان فكتب بإحضار الأمير سودون أمير آخور المعروف بسيدي سودون، والأمير تمراز الناصري من سجن الإسكندرية، والأمير نَوروز الحافظي الأمير آخور الكبير كان من ثغر دِمياط، وسارت القُصَّاد لإحضارهم، فوصلوا في العشرين منه وقَبَّلوا الأرض بين يدي السلطان ونزلوا إلى دورهم.

(١) الجبلية هم العربان.

وفي أوّل شهر ربيع الآخر آستقرّ الأمير آقباي من حُسين شاه الطُّرنطائيّ حاجب الحجّاب عوضاً عن الأمير فارس الأعرج، وآستقرّ الأمير دُقماق المحمدي المعزول عن نيابة مَلْطية بآستقراره حاجباً ثانياً عوضاً عن يعقوب شاه بحكم عصيانهما مع أيتمش.

ثم في ثالثه خَلَع السلطان على كلٍّ من الأمير أَسَنْبغا العلائي الدوادار والأمير قُمارِي الأسنبغاوي والي باب القُلَّة[١] ومَنْكلي بغا الصلاحي الدوادار وسُودون المأموري بآستقرارهم حجّاباً، وآستقرّ تمربغا المحمدي نائب القلعة.

وأما الأمير تَنَم فإنه لما جاءه خبر أيتمش ترك حصار حماة وعاد إلى دِمشق؛ ثم خرج إلى لقاء أيتمش وأصحابه في خامس شهر ربيع الآخر إلى ظاهر دمشق. فلمّا عاينَهم ترجّل عن فرسه وسلّم عليهم وبالغ في إكرامهم، وعاد بهم إلى دمشق وقدّم إليهم تقادِمَ جليلة، لا سيّما الوالد، فإن تَنَم قام بخدمته زيادة عن الجميع، حتى يزول ما كان عنده حسب ما تقدّم ذكُره: وسببه أنه كان وغَّرَ خاطِرَ أستاذه الملك الظاهر برقوق عليه حتى عزله عن نيابة حلب، فأخذ تَنَم يعتذر إليه، ويتلطّف به حتى زال ما كان عنده من الكمائن القديمة، وصار من أعظم أصحابه، وحلّفه على موافقته وحلَف له، ووعده بأمور كثيرة يُسْتَحْيا من ذكرها.

ثم كتب الوالد إلى الأمير دمرداش المحمدي نائب حماة بالدخول في طاعة تَنَم حسب ما يأتي ذكره.

ثم قَدِم على الأمير تَنَم كتابُ الملك الناصر فرج يأمره بمسك الأتابك أيتمش وبمسك الوالد ومن قدِم معهما، فأخذ تنم الكتاب وأتى به إلى أَيْتَمُش ورفقته، وقرأه عليهم بالقصر الأبلق[٢] من الميدان، فضحك الوالد وقال له: «اِمتثل مرسوم السلطان، وآفعل ما أمرك به» فتبّسم تنم وقال له: «بالله عليك زوّل ما عندك وطيّب قلبك»، وقام وعانقه ثم تكلّم تنم مع الأمراء فيما يفعله في أمر دمرداش نائب

---

(١) في بعض النسخ: «باب القلعة».
(٢) القصر الأبلق: بناه الملك الظاهر بيبرس في الميدان القبلي بدمشق سنة ٦٦٨هـ.

حماة، فأشار الوالد بأنه يتوجّه إليه صحبةَ الأمير الكبير أيتمش، ثم يتوجهّان أيضاً إلى نائب حلب يدعوانه إلى طاعة تنم وموافقته، فقال: «هذا الذي كان في خاطري؛ فإن دمرداش لا يسمع لأحد غيرك»، وخرجا بعد أيام إلى جهة حماة، فأجاب دمرداش بالسمع والطاعة، ودخل تحت طاعة تنم ووعد بالقيام بنُصْرته؛ ثم عاد الوالد وأيتمش إلى دمشق، فسُرَّ تنم بذلك غاية السرور.

ثم قَدم دمرداش بعد ذلك بأيام إلى دمشق، فخَلَع عليه تَنَم بٱستمراره على نيابة حماة، وأنعم عليه بأشياء كثيرة وتوجّه إلى حماة. ثم أخذ الجميع في التأهُّب إلى قتال المصريين.

وأمّا ما وقع بالديار المصرية من الولايات والعَزْل، فإنه لَمَّا كان العشرُ الأخير من شهر ربيع الآخر، خلَع السلطان على الأمير بيبرس الدوادار بٱستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأمير أيتمش البجاسيّ، وأنعم عليه بإقطاعه إلا النحريرية ومُنية بدران وطوخ الجبل[1]، فغضب بيبرس بسبب ذلك، فلم يلتفت إلى غضبه، وأنعم بإقطاع الوالد ووظيفته على نَوْرُوز الحافظي، وأنعم على تِمْراز الناصريّ بإقطاع أرغون شاه أمير مجلس، وأنعم على سُودون أمير آخور بإقطاع يعقوب شاه الحاجب، وأنعم بإقطاع بيبرس على بَكْتَمُر الرُكني، وبإقطاع بكتمر على دقماق المحمدي نائب ملطية كان، وبإقطاع دُقماق على جَركَس القاسِميّ المُصارع، وٱستقرّ أمير طبلخاناه وأنعم على كلٍّ من كُزُل الناصري، وقُماري الاَسَنْبُغاوي، وشاهين من شيخ الإسلام، وشيخ السُليمانيّ، وبَشْبَاي من باكي، وتَمرْبُغا الظاهري، وجَكَم من عوض، وصُوماي، وتمر الساقي، وإينال حَطَب، وقَاني باي العلائيّ، وسُودون المأموريّ، وأَلْطُنبغا الخْلَيليّ، ومُجْتَرك القاسميّ، وكُزُل المحمدي، وبَيغَان الإينالي بإمرة عشرين وأنعم على كلّ من أزبك الرمضَانيّ وأَسَنْدمر العُمريّ وقرقماس السيفيّ ومنكلي بغا الصلاحي وآقبغا الجِرْجَوي[2] وطيبغا الطولوتمري وقاني باي من باشاه ودمرداش الأحمدي وآقباي السلطاني وأرغون شاه

---

(١) ورد في هامش طبعة كاليفورنيا: «لعلها طوخ الخيل، كما وردت في خطط علي مبارك: ١٣/٦٣».
(٢) في بعض النسخ: «الجوجري».

الصلاحيّ ويُونُس العلائي وجُمَق ونكْباي الأزدمري وقاني بك الحسامي وبايزير[١] من بابا وآقبغا المحمدي وسُودون الشمسيّ وسُودون البجاسِيّ وتمراز من باكي وسُودون النوْرُوزيّ وأَسَنْبُغا المسافري وقُطلوبغا الحسني وقُطلُقْتَمر المحمديّ وسُودون الحمصيّ وسُودون القاسميّ وأرزمك وأسنباي بإمرة عشرة، وحَلَفُوا الجميع على طاعة السلطان، والسفر معه لقتال تَنَم.

ولَمّا بلغ المماليكَ السلطانيةَ سفرُ السلطان إلى الشام آمتنعوا وهدّدوا الأمراءَ وأكثروا من الوعيد، فخاف سُودون طاز وتأخر عن الخدمة السلطانية ثم آتفقت المماليك المذكورة، وتوجَّهوا إلى الأمير يشبك وهو متوعِّك وحدّثوه في أمر السفر، فآعتذر لهم بما هو فيه من الضعف ثم وقع الخُلْفُ بين الأمير سُودون قريب الملك الظاهر المعروف بسيِّدِي سودون وبين الأمير سُودون طاز، وتسابّا بسبب سُكْنَى الإسطبل السلطاني بالحَرَّاقة[٢]، وعلى وظيفة الأمير آخورية، وكادا يقتتلان، لولا فرق بينهما الأمير نوروز الحافظي.

ثم وقع أيضاً بين الأمير سُودون طاز المذكور وبين الأمير جَرْكس القاسمي المصارع تنافس، وتقابضا بالأطواق، ولم يبقَ إلّا أن تثورَ الفتنةُ، حتى فرّق الأمراء بينهما وصارت المملكة بأيدي هؤلاء الأمراء، وكلُّ من أراد شيئاً فعله؛ فصار الرجلُ يلي الوظيفةَ من سعي فلان، وينزل إلى داره فيُعزل في الحال بأمر غيره، وكلُّ أحد يتعصّب لواحد، وكل منهم يروم الرتب العلية. هذا ومثلُ تنم وأيتَمش ورُفقتهُما في طلبهم وفي القصد إلى الديار المصرية. ثم أخذَ نوروزُ يُسكِّنهم عن إثارة الفتنة، ويخُوِّفهم عاقبةَ تَنَم، حتى عملوا مشورةً بين يدي السلطان بسبب قتال تنم وغيره، فحضر جميعُ الأمراء ورتَّبوا أموراً، منها إقامةُ نائب بالديار المصرية، وعيَّنوا عِدّة تشاريف.

فلمّا كان يومُ الخميس ثاني عشر شهر ربيع الآخر خَلع السلطان على الأمير

---

(١) في هامش طبعة كاليفورنيا: «بابزبر». وفي طبعة دار الكتب المصرية: «بايزيد».

(٢) المراد أنهما تسابّا وهما في الحراقة.

سُودون طاز باستقراره أمير أخوراً كبيراً، عوضاً عن سُودون الطَّيار، لتأخُّره بدِمشق عند تَنَم، وخَلَع على الأمير مُبارك شاه بآستقراره حاجباً ثالثاً بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وهذا بخلاف العادة.

ثم خلع على بعض الأمراء وآستقرّ حاجباً ثامناً، وهذا أيضاً بخلاف العادة، لأن في القديم كان بمصر ثلاثة حُجَّاب ــ أَعْني بالقديم في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون ــ ثم لا زال الملكُ الظاهرُ برقوق يزِيدُ الحجّاب حتى صار عِدَّتُهم ستة، وذلك في أواخر دولته، والآن صارُوا ثمانية؛ وكان هذا أيضاً مما عابه الأميرُ تَنَم على أمراء مصر فيما فعلوه.

قلتُ: والسُّكات أجملُ، فإنّ تلك الحجّاب الثمانية كان فيهم ثلاثةُ أمراء ألوف وثلاثةُ طبلخاناه؛ وأمّا يومُنا هذا ففيه بمصر أزيدُ من عشرين حاجباً، ما فيهم أميرُ خمسة، بل الجميعُ أجناد، وفيهم مَنْ جُنْدِيَّتُه غيرُ كاملة، والحاجب الثاني أميرُ عشرة، فسبحانَ الحليم الستّار.

ثم بعد أيام خلع السلطان على الأمير نوروز الحافظي بآستقراره رأس نَوْبة الأمراء، وعلى الأمير تمراز باستقراره أمير مجلس، وعلى الأمير سيدي سودون بآستقراره دواداراً كبيراً عوضاً عن بيبرس، وكانت شاغرة منذ انتقل بيبرس عنها إلى الأتابَكية.

وهذا كله بعد أن ورد الخبر على الملك الناصر بخروج الأمير تَنَم من دمشق يريد القاهرة، فعندئذ أمر السلطان بأن يخرج ثمانية أمراء من مقدّمي الألوف بألف وخمسمائة مملوك من المشتروات، وخمسمائة مملوك من مماليك الخدمة، وأن يخرجوا في أول جُمَادى الآخرة؛ فمنهم من أجاب، ومنهم من قال: «لا بدّ من سفر السلطان». وآختلف الرأي وآنفضوا على غير شيء، ونفوسهم متغيِّرة من بعضهم على بعض كلُّ ذلك والأمراء تكذِّب خروج تَنَم من دمشق حتى عُلِّق جَاليش السفر على الطبلخاناه السلطانية، ووقع الشروع في النفقة للأمراء، فحُمل إلى كل من الأمراء الأكابر مائة ألف درهم، ولمن دونهم كل واحد على قدر رتبته، وأنفقَ على

ثلاثة آلاف مملوك وستمائة مملوك لكل واحد مائة دينار، فبلغت جميع النفقة نحو خمسمائة ألف دينار.

ثم خرجت مدوّرة[١] السلطان وخيامه، ونُصبوا خارج القاهرة تجاه مسجد التبن[٢].

ثم خلع السلطان على الأمير بكتمر الركني بآستقراره أمير سلاح عوضاً عن الوالد، وكانت شاغرة عنه منذ توجه مع أيتمش إلى الشام. وبينما السلطان في ذلك قَدِم علاء الدين علي بن المكلّلة والي مَنْفَلوط، وأخبر أن أَلْطنبُغا نائب الوجه القبلي خرج هو ومحمد بن عمر بن عبد العزيز الهوَّاري عن الطاعة، وكبسا عثمان بن الأحدب، ففرّ آبن الأحدب إلى جهة منفلوط وتبعاه إليها وأخرباها فرسم السلطان لكل من الأمير بيبرس، والأمير إينال باي من قجماس، وآقباي بن حسين شاه حاجب الحجّاب، وسودون من زادة، وإينال حطب رأس نوبة، وبَيْسَق الشيخيّ الأمير أخور الثاني، وبهادُر فُطَيْس الأمير أخور الثالث أن يتوجَّهوا إلى بلاد الصعيد لقتال ألطنبغا وآبن عمر الهوَّاري فلم يوافقوا على ذلك ولا سار أحد.

ثم قَدِم الخبر على السلطان بأن الأمير دِمِرداش المحمدي نائب حماة قَدِم على الأمير تَنَم بِدمشق بعساكر حماة، وأن الأمير آقبغا الجمالي الأَطْرُوش نائب حلب لَمّا برَز هو أيضاً من حلب يريد المسير إلى دمشق ثار عليه جماعة من أمراء حلب وقاتلوه فكَسَرهم، وقبض على جماعة منهم، ثم سار إلى دِمَشق فَسُرَّ بقدومه تَنَم وأكرمه غاية الإكرام، وإنه قد خرج من دمشق من أصحاب تنم الأمير أرغون شاه

---

(١) مدورة السلطان: هي خيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له في الأسفار. ووردت أيضاً بمعنى مقعد للسلطان مرتفع عن سطح الأرض، فقد جاء في ترجمة الظاهر جقمق (النجوم: حوادث سنة ٨٥٧هـ) أنه «كان يقوم لمن دخل عليه من الفقهاء والفقراء كائناً من كان، وإذا قرأ أحد فاتحة الكتاب نزل عن مدوَّرته وجلس على الأرض إجلالاً لكلام الله تعالى».

(٢) عرف هذا المسجد باسم مسجد البئر، ومسجد الجميزة، وفي زمن الدولة الإخشيدية عرف باسم مسجد تبر نسبة إلى الأمير تبر أحد الأمراء أيام كافور الإخشيدي. (انظر خطط المقريزي: ٤١٣/٢). ولاحظ الأستاذ محمد رمزي أنه ما زال قائماً إلى اليوم باسم زاوية الشيخ محمد التبري في وسط أرض زراعية تابعة لسراي القبة.

البَيْدَمُري أمير مجلس، والأمير يعقوب شاه، وفارس حاجب الحجّاب، وصرْق وفَرَج بن مَنْجك إلى غزّة؛ فعند ذلك خلع السلطان على الأمير عمر بن الطحّان حاجب غزّة بآستقراره في نيابة غَزّة، وعلى سودون حاجبها الصغير بآستقراره حاجب حُجّاب غزّة عوضاً عن آبن الطحان المذكور.

ثم قَدِم الخبر على السلطان بأن عساكر تنم خرجوا من دِمَشق في يوم خامس عشرين جُمادَى الآخرة، فأمر السلطان الأمير سودون المأموريّ الحاجب بالتوجّه إلى دِمْياط لينقل منها الأمير يلبغا الأحمدي المجنون الأستادار كان، والأمير تمربغا المَنْجَكي، وطُغُنْجِي وبلاط السعديّ، وقَرَاكُسُك إلى سجن الإسكندرية.

هذا وقد تجهَّزت العساكر المصرية للسفر صحبة السلطان لقتال تنم وتهيأ الجميع.

فلمّا كان يوم الاثنين رابع شهر رجب نزل السلطان الملك الناصر من القلعة إلى الرَّيْدانية خارج القاهرة وأصبح من الغد خلع على الأمير الكبير بيبرس بآستقراره في نظر البيمارسْتان المنصوريّ، وبنيابة الغَيبة بالديار المصرية، وخلع على الأمير نَوْرُوز الحافظيّ رأس نَوْبة الأمراء بآستقراره في نظر الخانقاه الشيخونية ثم أصبح من الغد سادس الشهر خلع السلطان على الأمير نوروز المذكور بتقدمة العساكر، ثم أنفق السلطان على جماعة من المماليك السلطانية بنحو خمسة وعشرين ألف دينار إنعاماً.

وفي اليوم المذكور رحل جَاليش السلطان من الرَّيْدَانيّة، وفيه من الأمراء نوروز الحافِظِيّ مقدَّم العساكر، وبَكْتَمُر الركني المعروف بباطيا أمير سلاح، وتمراز الناصري أمير مجلس، ويلبغا الناصري، وسُودون الدوادار المعروف بسيدي سودون، وشيخ المحمودي (هو المؤيَّد)، ودُقماق المحمدي الحاجب الثاني، والجميع مقدَّمو ألوف.

ثم رَحَل السلطان بعدهم في يوم الجمعة ثامنه ببقيَّة العساكر وعِدَّةُ ما سار أوّلاً وثانياً سبعة الآف فارس، وهذا سوى مَنْ أقام بالقاهرة، وهم أيضاً عِدَّة كبيرة من الأمراء والمماليك. فأمّا الأمراء فكان بالقاهرة الأتابك بيبرس، وآقباي حاجب

الحجّاب، وأقام بقلعة الجبل الأمير إينال بَايْ بن قَجْماس أحد مقدَّمي الألوف، وإينال حَطَب رأس نَوْبة، وأقام بالإسطبل السلطاني سُـودون من زادة، وبهادُر فُطيْس، وبيْسق الشيخي أمير أخور ثاني، وأقام عند هؤلاء جمـاعة كبيـرة من المماليك السلطانية.

وأما تَنَم فكان من خَبره أنه قَدِم جماعةٌ من أمرائه وعساكره إلى مدينة غَزَّة حسب ما ذكرناه، وهم: الأمير أرغون شاه البيدمري أمير مجلس، وفارس حاجب الحجاب، ويعقوب شاه وصرْق، والأمير فرج بن منجك فتوجّهوا أمامه بعساكر كثيرة. ثم قَدِم على تَنَم الأمير يُونس بَلْطا نائب طرابلُس بعساكرها وغيرهم، ومعه الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس. وكانَ قَدِم على تَنَم قبله نائب حلب الأمير آقبغا الجمالي الأطروش، ونائب حماة الأمير دِمِرْداش المحمدي، فخرج هؤلاء النوّاب أيضاً أمام تنم إلى جهة غزة، ثم تبعهم الأمير تنم ومعه الأتابك أيتمش والوالد وبقية عساكره، بعد أن جعل الأمير جَرْكَس المعروف بأبـي تنم نائب الغيبة بدمشق، وعنده جماعة أُخَر من أعيان الأمراء ثم خرج بعد الأمير تنم الأمير يونس بلطا نائب طرابلس وسار تنم في عساكر عظيمة إلى الغاية وكان قبل سفره بدمشق، منذ قَدِم عليه أمراء مصر، يعمل كلَّ يوم مَوْكِباً أعظم من الآخر، حتى قيل إن موكبه كان يُضاهي موكبَ أستاذه الملك الظاهر برقـوق بل أعـظم، وكان يـركب بالـدُّفّ والشبّابة[١] والشعراء الجاووشيَّة[٢]، ويركب في خدمته من الأتابك أَيْتَمُش إلى مَنْ دونه من أمراء الألوف، وهم نحو خمسة وعشرين أميراً من أمراء الألوف، سوى

(١) الشبّابة: آلة زمر متخذة من القصب المجوّف. وهي معروفة إلى اليوم. قال القلقشندي: ويقال لها أيضاً اليراع، تسمية لها باسم ما اتخذت منه وهو القصب، وربما عبر عنها بالمزمار العراقي. (صبح الأعشى: ١٤٤/٢).

(٢) الجاووشية والجاويشية: واحدهما جاووش وجاويش. ويقال أيضاً شاويش. وهم أربعة جنود من الحلقة وظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب في مواكبه للنداء وتنبيه المارة. (صبح الأعشى: ٤٧/٤، ٤٨، ٢٣٩). والجاويش والشاويش من الكلمة التركية «جاووش» بجيم مشربة وواو مضمومة، وهي مشتقة من المقطع التركي «جاو» الذي يدل على معنى الصياح والنداء. وتنص المعجمات التركية على أن هذه الكلمة مرادفة لكلمة «دورباش» الفارسية الأصل. و«دورباش» هي هتاف الجاويش بين يدي الحاكم في الموكب؛ فقد كان من عمله أن يسعى بين يدي الحاكم ليفسح له الطريق وذلك بهتافه بكلمة «دورباش». وهذه الكلمة مكونة من (دور) أي بعيد، و(باش) أي فعل الأمر: كُنْ. ومعناها: ابتعد =

أمراء الطبلخانات والعشرات، وذلك خارج عن التركمان والأعراب والعشِير، وكانوا أيضاً جَمْعاً كبيراً إلى الغاية؛ وآخر موكب عمله بدمشق كان فيه عساكر دمَشق بتمامها وكمالها، وعساكر حلب وطرابلس وحماة، وجماعة كبيرة من عظماء أمراء الديار المصرية (أعني أَيْتَمش ورفقته)، وكان الجميع قد أذعنوا لتنم بالطاعة، حتى إنه لم يشكّ أحد في سلطنته، حتى ولا أمراء مصر أخصامه، فإنهم كتبوا له في الصلح غير مرة، وفي المستقبل أيضاً حسب ما يأتي ذكرُه. وأنفق تنم في العساكر من الأموال ما لا يُحْصَى.

وأمّا أمراء الديار المصرية فإنه لما سافر السلطان إلى جهة تنم بعساكره في ثامن الشهر، قَدِم الخبرُ في صبيحته على الأمير بيبرس، وهو يوم السبت، من البُحَيْرة، بأن الأمير سُودون المأموريّ الحاجب أخذ الأمراء من ثغر دِمْياط، وسار بهم نحو الإسكندرية، فلمَا وصل بهم إلى دَيْرُوط[1] لقيه الشيخ المعتقد عبد الرحمن آبن نفِيس الدَيُروطِيّ وأضافه؛ فعندما قعد الأمير سُودون المأموريّ هو والأمراء للأكل قام يلبغا المجنون ووَثَب هو ورُفقتُه من الأمراء على سُودون المأموريّ، وقبضوا عليه وعلى مماليكه وقَيَّدُوهم بقيودهم، وبينما هم في ذلك قَدِمَت حَراقَةٌ من القاهرة فيها الأمير كَمَشْبُغا الحضريّ وإياس الكَمشْبُغاوي وجَقمَق البَجْمَقْدار، وأمير آخر، والأربعة في القيود، فدَخلت الحرّاقةُ بهم إلى شاطىء دَيْرُوط ليقضوا حاجة لهم، فأحاط بهم يلبغا المجنون، وخَلَّص منهم الأربعة المقيدين، وأخذهم إلى أصحابه.

ثم كتب يلبغا إلى نائب البُحَيْرة بالحضور إليه، وأخذ خيول الطواحين، وركب هو ورفقته من الأمراء وسار بهم إلى مدينة دَمَنْهُور، وطرقها بغتة، وقبض على متولّيها، وأتته العربان من كل فجّ حتى صار في عَدَد كبير.

ثم نادى بإقليم البُحَيْرة بحطّ الخراج عن أهلها عدّة سنين، وأخذ مال السلطان الذي آستخرج من تروجة وغيرها، وبعث يستدعي بالمال من النواحي، فراعاه

= وتنحٌ. وقد صار هذا الهتاف اسماً للجاويش من باب إطلاق المقول على القائل. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٥٩ ــ ٦٠).

(١) ديروط: إحدى بلاد مركز المحمودية بمديرية البحيرة.

الناس، فقد كان ولي وظيفة الأستادارية سنين كثيرة، فكتب بيبرس بذلك يعرّف السلطان والأمراء، فوردت كتبهم إلى نائب الإسكندرية بالاحتراز على مدينة إسكندرية وعلى من عنده من الأمراء المسجونين وكتب السلطان أيضاً إلى أكابر العربان بالبحيرة بالإنكار عليهم، وبإمساك يلبغا المجنون ورُفقتِه وكتب السلطان أيضاً للأمير بيبرس أن يتجرَّد هو وآقباي الحاجب وإينال باي بن قَجْماس وبَيْسَق أمير آخور، وإينال حطب رأس نوبة، وأربعمائة مملوك من المماليك السلطانية لقتال يلبغا المجنون وكتب السلطان مثالاً[1] إلى عربان البحيرة بحطّ الخراج عنهم مدّة ثلاث سنين.

وأما يلبغا المجنون فإنه عدّى من البحيرة إلى الغربيّة خوفاً من عرب البحيرة، ودخل المحلّة[2]، ونهب دار الكاشف، ودار إبراهيم بن بدوي كبيرها، وقبض عليه وأخذ منه ثلاثمائة قفّة فلوس. ثم عدّى بعد أيّام من سمنّود إلى برّ أُشموم طنَاح، وسار إلى الشرقيّة ونزل على مَشْتُول[3] الطواحين، وسار منها إلى العَبّاسة[4]، فارتجّت القاهرة وبعث الأميرُ بيبرس إلى برّ الجيزة حيث الخيول مربوطة به على الربيع، فأحضروها إلى القاهرة خوفاً من يلبغا، لئلا يطرقها على حين غفلة. وبينما بيبرس في ذلك ورد عليه الخبر بمخامرة كاشف الوجه القبلي مع العرب، فاضطرب بيبرس وخاف على القاهرة، وكان فيه لين جانب وآنعكاف على اللهو

---

(١) المثال في الأصل هو ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً بإعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات. وكان المثال يخرج من ديوان الجيش ويقدمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان النظر لتسجيله وحفظه، ويكتب بذلك مربعة (ورقة مربعة تسمى المربعة الجيشية) فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة. ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع. (صبح الأعشى: ١٣/١٥٣ ــ ١٥٥).

وبناءً على ما تقدم من كلام القلقشندي ــ وهو الخبير بأمور الدواوين في العصر المملوكي ــ فإن استعمال المؤلف لهذا الاصطلاح خطأ. والتسمية الصحيحة لهذا النوع من الكتابات السلطانية هي المراسيم التي تسمى المسامحات. (انظر صبح الأعشى: ١٣/٢٣).

(٢) أي المحلّة الكبرى.

(٣) مشتول الطواحين، أو مشتول السوق، إحدى قرى مركز بلبيس بمديرية الشرقية.

(٤) العباسة: إحدى قرى مركز الزقازيق بمديرية الشرقية.

والطرب، فشرع بيبرس في آستخدام الأجناد وأراد بيبرس الخروج إلى يلبغا المجنون، فمنِع، وخرج إليه الأمير آقباي الحاجب، ويلبغا السالمي، وبيسق أمير آخور، ومحمد بن سنقر في ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية كما سنذكره.

وأما السلطان الملك الناصر فإنه لما سار بعساكره من الريدانية، آستقل بالمسير من يومه حتى نزل على منزلة تل العجول خارج مدينة غزة في ثامن عشر رجب، وأقام به يومه، فلم يلبث إلا وجاليش الأمير تنم طرقه، ومقدّم العسكر المذكور الوالد، وصحبته من أكابر الأمراء والنوّاب: آقبغا الجمالي نائب حلب، ودمرداش المحمدي نائب حماة، وألطنبغا العثماني نائب صفد، وجقمق الصفوي نائب ملطية، وجماعة أخر. ومن أكابر الأمراء: أرغون شاه أمير مجلس، وفارس الحاجب، وآقبغا الطولوتمري اللّكّاش، ويعقوب شاه، وجماعة كبيرة من الأمراء والعساكر؛ فركبت العساكر المصرية في الحال، وقاتلوهم من بُكرة النهار إلى قريب الظهر، وكل من الفريقين يبذل جهده في القتال، والحرب تشتدّ بينهم، إلى أن خرج من جاليش عسكر تَنَم دِمِرداش المحمدي نائب حماة بمماليكه وطُلْبه، ثم تَبِعه أَلْطُنْبُغا العثماني نائب صفد بطلبه وعساكره، ثم صَرَاي تَمُر الناصري أتابك حلب بمماليكه، ثم جَقْمَق الصَّفوي نائب مَلَطْية بطلبه ومماليكه، ثم فَرج بن مَنْجك أحدُ أمراء الألوف بطُلبه ومماليكه، ثم تَبِعهم عِدّة أمراء أُخر فعند ذلك آنهزم الوالدُ بمَن بَقِي معه إلى نحو الأمير تنم، ومَلك السلطان الملك الناصر مدينةَ غَزَّة، ونزل على مصطبة السلطان.

وأما تَنَم فإنه نزل بعساكره على مدينة الرَّمْلة، وآجتمع عليه الوالد بها بمَن بقي معه من العساكر الشامية، وقَص عليه ما وقع من أمر القتال وهُروب الأمراء من عسكره، فتأثّر تَنَم قليلاً. ثم أراد القبض على الأمير بَتْخاص، فمنعه بعضُ أصحابه من ذلك، ثم أخذ يتهيأ لقتال المصريين، ولم يكترث بما وقع لجاليشه لكثرة عساكره، وقوّته بمن بقي معه من أكابر الأمراء وغيرهم.

وأمّا العسكر السلطاني المصريّ فإنهم لمّا دخلوا إلى غزّة بلغهم أنَّ تَنَم إلى الآن لم يصل إلى الرّملة بعساكره، وإنما الذي قاتلهم هو جاليشُ عسكره، فكثرُ عند

ذلك تَخوُّفهم منه، وداخلهم الرُّعب، وعَمِلوا بسبب ذلك مَشُورةً، فآتفق الرأي أن يتكلّموا معه في الصلـح، وأرسلوا إليه من غزّة قاضي القضاة صدر الدين المُناوِي الشافعيّ، ومعه المعَلِّم نصر الدين محمد الرّماح أمير آخور، وطغاي تمر مقدّم البريديّة، فخرجوا الجميعُ من غَزّة في يوم الثلاثاء تاسـع عشر شهر رجب، وكُتِبَ لتنم صحبتهم أَمانٌ من السلطان، وأنه باقٍ على كفالته بدِمَشق إن أراد ذلك، وإلّا فيكون أتابك العساكر بمصر، وإليه تدبيرُ مُلْك آبن أستاذه الملك الناصر فرج، لا يُشاركه في ذلك أحد.

ثم كَتَب إليه أعيانُ الأمراء يقولون: «أنت أبونا وأخونا وأستاذنا؛ فإن أردت الشام فهي لك، وإن أردتَ مصر كنّا مماليكك، وفي خدمتك؛ فصُن دماءَ المسلمين ودَعْ عساكر مصر في قُوّتها، فإنّ خَلْفنا مثل تَيْمورلنك»، وأشياء كثيرة من أنواع التضرُّع إليه فسار إليه قاضي القضاة المذكور برفيقيه حتى وافاه بمدينة الرملة وهو بمخيَّمه على هيئة السلطان، والأتابك أيتَمُش عن يمينه والوالد عن يساره، وبقيّة الأمراء على منازلهم مَيمنة وميسرةً فلمّا عاين تَنَم قاضي القضاة المذكور، قام له وآعتنقه، وأجلسه بجانبه؛ فحدّثه قاضي القضاة المذكور في الصلـح، وأدّى له الأمان ووعَظه، وحذَّره الشِّقاق والخروجَ عن الطاعة؛ ثم كلّمه ناصر الدين الرّماح وطغاي تَمُر بمثل ذلك، وترقّقا له عن لسان الأمراء، وأن السلطان هو آبن الملك الظاهر برقوق، «ليس له من يقوم بنُصرته غيُرك»، فقال تَنَم: «أنا مالي مـع السلطان كلامٌ، ولكن يُرسل إليَّ يَشْبك [الشعباني] وسُودون طاز وجَرْكس المُصارع»، وعدَّد جماعةً أُخر كثيرة، «ويعود الأمير الكبير أَيْتمش وجميـعُ رُفقته على ما كانوا عليه أولاً، فإن فعلوا ذلك وإلاَّ فما بيني وبينهم إلا السيفُ». وصَّمم على ذلك، فراجعه قاضي القضاة غير مرّة فيما يُريده غير ذلك، فأبـى إلّا ما قاله؛ فعند ذلك قام القاضي من عنده، فخرج معه تَنَم إلى ظاهـر مخيَّمه يُوادِعُه فلمّا قَدِم صدر الدين المُناوي على الملك الناصر وأعاد عليه الجواب قال السلطان: «أنا ما أُسَلِّم لَا لَاتي[1] لأحد» ـ يعني عن يشبك الشعباني. وآنفضّ الأمراء، وقد أجمعوا على قتاله.

(١) جمع لالا، وهو مربي السلطان.

ورَكِب تنم بعساكره من مدينة الرملة يريد جهة غزّة، وركب السلطان بعساكره من غزّة يريد الرملّة، إلى أن أشرف علـى الجِـيْتَـيْن قريب الظهر، فعاين تنم وقد عبّأ عساكرَه، وهم نحو الخمسة آلاف فارس، ونحو ستة آلاف راجل، وصَفَّ الأطلاب، فعبّى أيضاً الأمراءُ عسكرَ السلطان ميمنة وميسرة، وقلباً في قلب في قلب، ولكل جُملة رديفٌ؛ وكان ذلك تعبئة ناصر الدين المعلّم، أخذتُ أنا هذه التعبئة عن الأتابك آقبغا التمرازي عنه، انتهى.

ثم تقدّم العسكران وتصادما فلم يكن إلا أسرع وقت، وكانت الكسرة على تنم وآنهزم غالبُ عسكره من غير قتال، خِذلاناً من الله تعالى، لأنه تقنطر عن فرسه في أوائل الحرب، فانكسرت عساكره لتقنطره في الحال ولوقوعه في الأسر، وقُبِض عليه وعلى جماعة كبيرة من أعيان أصحابه من أكابر الأمراء والنوّاب. ولقد سألتُ جماعة من أعيان مماليك تَنَم ممن كان في الوقعة المذكورة عن سَبَب تقنطره، فإنه لم يطعنه أحدٌ من العسكر السلطانيّ، فقالوا: «كان في فرسه الذي ركبه شُؤْمٌ: إما شَعْرٌ رَسْلٌ أو تحجيل[1] ـ منتهى الوهم منّي[2] ـ قالوا: «فكلّمناه في ذلك ونَهَيْناه عن ركوبه، فأبـى إلا ركوبَه، وقال: ما خبأتُه إلا لهذا اليوم. فحال ما علا ظهره وحرّكه لينظر حال عسكره، ووَغَلَ في القوم، تَقَنْطر به؛ وقد كَرّت عساكرُه إلى نحوه، ولم يلحقه أحد من مماليكه، فظُفِر به» ولما قُبض على تنم قُبض معه بعد هزيمة عسكره على الأمير آقبغا الجمالي نائب حلب، ويونُسَ بلْطا نائب طرابُلس، وأحمد بن الشيـخ علي نائب صفد كان، وجُلْبان قَراسقل نائب حلب كان، وفارس حاجب الحجاب، وبَيْغوت وبِيرَم رأس نوبة أَيْتَمُش، وشادي خُجا، ومن الطبلخانات والعشرات من أمراء مصر والشام ما يُنيف على مائة أمير؛ وفرّ الأتابك أيتمش والوالد، وأحمد بن يلبغا أمير مجلس كان، وأرغون شاه أمير مجلس، ويعقوب شاه، وآقبغا اللّكّاش، وبِـي خُجا طيفور نائب غزّة كان، وجماعة أخر في نحو ثلاثة الآف مملوك، وتوجَّهوا إلى دِمَشق.

---

(١) التحجيل: بياض في قوائم الفرس يتجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين.

(٢) وفي حاشية طبعة بوبر: «منتهى الوهم عنه». ولعلها الأنسب في المقام.

ولمّا قُبِض على تَنَم أُنْزِل في خيمة وقُيِّد؛ ثم شكا العطش وطَلَب ماء ليشربه، فقام الأمير قَطلوبُغا الحسني الكَرِكي، وهو يوم ذلك أحدُ أمراء الطبلخانات وشادّ الشراب خاناه السلطانية، وتناول الكُوزَ وأخذ شِشْنَةً[١] على عادة الملوك، ثم سقاه لتنم. وكان لما أُمسِك آدّعى مملوك من الظاهرية أنه قنطر تَنَم عن فرسه، وطلب إمرة عشرة، فلمّا بلغ ذلك تنم قال: «اطلبوه إلى عندي»، فأحضروه، فنظر إليه طويلاً ثم قال له: «أنت تستأهل إمرة عشرة وغيرها بدون ذلك، إلا أنّ الكذب قبيح هذا قَرْقَلِي[٢] إلى الآن عليّ أين المكان الذي طَعنْتَنِي فيه برمحك؟ أنا ما رماني إلا الله تعالى، ثم فرسي الأشقر».

وعندما أمْسِك تَنَم كُتِبَتْ البشائرُ إلى الديار المصرية والبلاد الشاميّة بذلك، ودُقَّت البشائر وسار أيْتَمُش ورُفْقته إلى نحو دِمَشق حتى وصلوها، فأراد الوالد ويعقوب شاه وجماعةٌ أن يتوجّهوا إلى بلاد التُّركمان، حتى يأتيهم أمانٌ مِن السلطان، وأشاروا على أيتمش بذلك، فآمتنع أيتمش من ذلك، وأبى إلّا دخول دمشق؛ فحال دخولهم إليها، وهم في أشدّ ما يكون من التعَب، وقد كلَّت خيولهم، ثار عليهم أمراء دِمَشق، وقبضوا على أيْتَمُش والوالد، وآقبغا اللَّكَّاش وأحمد بن يَلبُغا النابُلسي، وحُبِسوا بدار السعادة؛ وفَرَّ من بَقي ثم أُمسك بعد يومين أرْغون شاه ويعقوب شاه وتَتَبَّع أمراءُ دِمشق بقيَّةَ أصحاب تَنَم من كلّ مكان حتى قبضوا على جماعة كبيرة منهم.

وأمّا يَلْبُغا المجنون فإنه لمّا خرج إليه العسكر من مصر مع آقْباي الحاجب، سار آقباي إلى العبّاسية فلم يقف ليلبُغا المجنون على خَبَر، فقيل له إنه سار إلى

---

(١) ششنة: أي جرعة من الشراب لتذوقها واختبارها مخافة أن يكون بها سم. ويقال للذي يتذوق طعام السلطان وشرابه: الشيشني. واللفظ منحوت ومحرّف عن «الجاشنيكير» وهو الذي يتحدث في أمر سماط السلطان ويتذوق الطعام والشراب قبله. والكلمة فارسية مركبة من لفظين: أحدهما (جاشنا) بجيم فارسية قريبة من الشين ومعناه: الذوق والثاني (كير) ومعناه: المتناول. (صبح الأعشى: ٤/٢١، ٤٦ و ٥/٤٦٠).

(٢) القرقل: ويجمع على قرقلات، وهو الدرع تصنع من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأصفر والأحمر. (صبح الأعشى: ٤/١١).

قَطْيا، فنزل آقْباي بالعساكر على الصالحية فلم يَرَوْا له أثراً، فعادوا إلى القاهرة من غير حرب وسار آبن سُنْقُر وبَيْسَق نحو بلاد السباخ فلم يجدا أحداً، فعادا إلى غَيْتا[١] في يوم الجمعة وأقاما بها، فلم يشعرا إلّا ويلبغا المجنون قد طرقهما وقبض عليهما، وأخذ خَطَّهما بجملة من المال، فآرْتجّت القاهرة لذلك ثم سار يلبغا بعد أيام، حتى نزل البئر البيضاء، فبعث له بيبرس أماناً، فقَبَض على من حضر من عند بيبرس وطوّقه بالحديد، فاستعدّ الناس تلك الليلة بالقاهرة لقتاله، وباتوا على أُهْبة اللقاء وركب الأمراء بأسرهم من الغد إلى قُبّة النصر خارج القاهرة، وصفُّوا عسكرهم من الغد. وبعد ساعة أقبل يلبغا المجنون بجموعه، فواقعهم عند بساتين المَطَريَّة، ومعه نحو ثلاثمائة فارس، فيهم واحد من مماليك الوالد يسمى كُزُل بُغَا، وصدمهم بمن معه، وقصد القَلْب، وكان فيه سُودون من زَادة، وإينال حَطَب، ونحو ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية، فأطْبق عليه الأميرُ بيبرس من الميمنة، ومعه يلبغا السَّالميّ الأستادار، وساعدهما إينال باي بن قَجْماس بمن معه من الميسرة، فتقنطر سُودون من زادة، وخرقَ يلبغا المجنون القلب في عشرين فارساً، وسار إلى جهة الجبل الأحمر، وآنكسر سائر من كان معه من الأمراء وغيرهم، فَتبعهم العسكر وفي ظنّهم أن يَلْبُغا المجنون فيهم، فأدركوا الأمير تَمربُغا المَنْجَكي بالزيّات، وقبضوا عليه وأخذ طُلْب يلبغا المجنون من عند خليج الزَّعْفران فوجدوا فيه آبن سُنْقُر وبَيْسق الشيخي أمير آخور اللذين كان قَبَضَ عليهما يلبغا المجنون بالبئر البيضاء، فأطلقوهما، وعاد العسكر إلى تحت قلعة الجبل وسار يلبغا المجنون في عشرين فارساً مع ذيل الجبل إلى تُجاه دار الضيافة؛ فلمّا رأى كثرةَ من آجتمع من العامّة خاف منهم أن يرجموه، فقال لهم: «أنتم ترجموني بالحجارة وأنا أَرْجُمكم بالذهب»، فدَعَوْا له وتركوه. فسار من خَلْف القلعة ومضى إلى جهة الصعيد من غير أن يُعرِّف الأمراء، وتوجّه في نحو المائة فارس، وأخذ خَيلَ والي الفَيُّوم، وآنضمّ عليه جماعةٌ من العُربان.

وأمّا السلطان الملك الناصر فإنه لَمّا كَسَرَ تَنَم وقبَض عليه وعلى جماعة من

---

(١) غيتا: إحدى قرى مديرية الشرقية، تتبع مركز بلبيس.

أصحابه وقَيّدهم، أرسل في الحال سعد الدين إبراهيم بن غراب إلى الشام لتحصيل الإقامات[١] ثم نَدبَ السلطان الأمير جَكَم من عوض رأس نوبة للتوجه إلى دِمَشق لتقييد الأمير أَيْتَمُش ورُفقته وإيداعهم بسجن قلعة دمشق ثم خَلَع السلطان على الأمير سُودون الدوادار المعروف بسيِّدي سُودون بآستقراره في نيابة دِمشق عوضاً عن الأمير تَنَم الحَسَنِي. وسار جَكَم وفَعلَ ما أُمِر به، ثم دخل بعده سودون نائب الشام إليها في ليلة الاثنين ثاني شعبان ومعه الأمير تَنَم نائب الشام وعشرة أمراء في القيود، فحُبِس الجميع بقلعة دمَشق. ثم دخل السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه إلى دِمَشق من الغد في يوم الاثنين ثاني شعبان المذكور، فكان لدخوله يومٌ مشهود وأوقع آبنُ غُراب الحَوْطة[٢] على حواشي تَنَم، وعلى الأمير علاء الدين ابن الطبلاوي.

ثم أصبح السلطان من الغد وخَلع على سيِّدي سودون بنيابة الشام ثانياً، وعلى الأمير دمرداش المحمّدي نائب حماة بآستقراره في نيابة حلب عوضاً عن آقبغا الجمالي الأطْرُوش، وعلى الأمير شيخ المحمودي المؤيَّد بآستقراره في نيابة طرابُلُس عوضاً عن سودون[٣] بلطا، وعلى الأمير دُقْماق المحمدي بآستقراره في نيابة حماة عوضاً عن دِمِرْداش المحمدي، وعلى الأمير ألطنبغا العثماني بآستمراره على نيابة صفد، وعلى الأمير جَنْتَمُر التركماني نائب حِمْص بنيابة بعلَبك، وعلى الأمير بَشباي من باكي بآستقراره حاجب حُجّاب دمشق عوضاً عن بِي خُجا المدعوّ طَيْفُور.

وآستمرّ السلطان بعساكره في دِمَشق إلى ليلة الأحد رابع عشر شعبان، فآتّفقت الأمراء المصريون على قتل جماعة من المقبوض عليهم، فذُبِحَ في الليلة المذكورة الأميرُ الكبيرُ أيْتَمُش البجاسيّ، وجُلبْان الكَمَشْبُغاوي المعروف بقراسُقْل

(١) الإقامات: ما يلزم العساكر من المؤونة والعلف.

(٢) الحوطة: الحجر. وإيقاع الحوطة هو إيقاع الحجز على مال أو عقار أو محصول. وفلان تحت الحوطة أي هو تحت المراقبة والحجز. وقد تفيد معنى التوقيف المؤقت.

(٣) في طبعة دار الكتب المصرية: «يونس بلطا».

نائب حلب كان في دولة أُستاذه الملك الظاهر برقوق، وأَرْغون شاه البَيْدَمُري الظاهريّ أمير مجلس كان، وأحمد بن يَلْبُغا العُمَرِي أمير مجلس كان وآبن أستاذ الملك الظاهر برقوق، وآقبغا الطولوتمري الظاهري اللَّكَّاش أحدُ أمراء الألوف بالديار المصرية وأميرُ مجلس، وفارس الأعرج حاجب الحجّاب بالديار المصرية، وكان من الشجعان، وفيه يقول الشيخ المقرىء الأديب شهاب الدين أحمد الأوحدي: [الرجز].

يا دهرُ كم تُفنِي الكرامَ عامداً[1] هل أنت سبعٌ للورى مُمَارس
أَيْتَمُشُ ربُّ العُلاَ صرعته ورحتَ للندب الهمام فَارِس

والأمير يعقوب شاه الظاهري الحاجب الثاني وأحدُ مُقَدِّمي الألوفُ بالديار المصرية، وبِـي خُجا المدعو طَيْفُور نائب غزّة كان ثم حاجب حُجَّاب دِمَشق، والأميرُ بَيْغُوت اليَحْيَاوِي الظاهري أحد أمراء الطبلخانات، والأميرُ مُبارك المجنون، والأمير بهادُر العثماني الظاهري نائب البِيرةَ وجميعُ من قُتِل من هؤلاء المذكورين [هم] من عظماء مماليك الملك الظاهر برقوق، قَتَلْتهم خُجْدَاشيَّتُهم بذنب واحد لأجل الرئاسة، ولم يكن فيهم غير ظاهريّ إلاّ الأتابك أَيْتَمُش، وهو أيضاً ممن أقامه الملك الظاهر برقوق وأنشأه، بل كان آشتراه أيضاً في سلطنته الأولى حسب ما ذكرناه وكان [أيتمش] عند الظاهر بمنزلة عظيمة لسلامة باطنه، ولين جانبه وشيخوخته؛ فإنه كان بمعزل عن إثارة الفِتن؛ ويَكْفِيك أن منطاشاً لَمَّا مَلك الديار المصريّةَ، بعد خَلْع الظاهر برقوق والقبض على الناصريّ، قَتَلَ غالبَ حواشي الملك الظاهر برقوق، وكان أيتمش في حبسه بقلعة دِمَشق وهو أتابك العساكر وعظيمُ دولة برقوق، فلم يَتعرَّض إليه بسوء، لكونه كان مكفوفاً عن الشرور والفِتَن، إلا هؤلاء القوم، فإنهم لَمّا ظَفِروا بتَنَم وأصحابه لم يرحموا كبيراً لكِبره ولا صغيراً لصِغره، ولهذا سَلَّط الله تعالى بعضَهم على بعض، إلى أن تَفَانَوْا جميعاً.

---

(١) في رواية بعض النسخ: «يا دهر كم تفني الأنام تعمُّداً» وبها يتحوّل وزن هذا الشطر من بحر الرجز إلى البحر الكامل.

ثم جهَّزوا رأسَ الأتابك أَيْتَمُش المذكور، ورأسَ فارس الحاجب لا غير إلى الديار المصرية، فعُلقتا بباب قلعة الجبل، ثم بباب زويلة أيّاماً، ثم سُلِّمتا إلى أهلهما.

ثم خَلع السلطان الملك الناصر على الأمير يَشْبَك الشعباني الخازندار بآستقراره دواداراً كبيراً عوضاً عن سيِّدي سودون المُنْتقل إلى نيابة الشام وآستمر السلطان بدِمَشق إلى ليلة الخميس رابع شهر رمضان، فَقُتِل فى الليلة المذكورة الأميرُ تَنَم الحَسنِي نائب الشام بمَحْبسه بقلعة دِمَشق، وقُتِل معه الأمير سودون بَلْطا نائب طرابلس أيضاً، خَنْقاً بعد أن آسْتُصْفِيت أموالُهما بالعقوبة، ثم سُلِّما إلى أهلهما، فدُفِن تَنَم بتربته التي أنشأها عند ميدان الحصى خارج دِمَشق. وكان تَنَم المذكور ــ رحمه الله ــ من محاسن الدنيا، وكانت مدة ولايته على دِمَشق سبع سنين وستة أشهر ونصفاً. ولقد أخبرني بعضُ مماليك الوالد ــ رحمه الله ــ قال: «لما حصر تيمورلنك العساكر المصرية بدمشق، كان الوالد يوم ذلك متولّي نيابة دمشق، وكان مقيماً على بعض أبواب دمشق لحفظها، وكان نَوْرُوز الحافظيّ على باب آخر؛ فركب نوروز الحافظي في بعض الأيام، وأتى الوالدَ ووقف يحُدثه، فكان من جملة كلامه للوالد: يا فلان، انظر عساكر هذا اللعين ما أكثَرها! والله لو عاش أستاذُنا لَما قدر عليه لكثرة عساكره فتبسّم الوالد وخاشَنه في اللفظ يُمازحه، وقال له: والله لو كان تنم حَياً للقيه من الفرات وهزمه أقبح هزيمة؛ وإنما عساكرنا الآن مفلولة، وآراؤهم مختلفة، وليس فيهم مَنْ يُرجع إلى كلامه، فلهذا كان ما ترى». اِنتهى.

ثم دُفِن سودون بلطا بصالحية[١] دمشق، وكان أيضاً ولي نيابة طرابلس نحو ست سنين. ثم قُتل جميعُ مَن كان من أصحاب أيتمش وتنم، ولم يبق منهم إلا آقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب، والوالد أُبْقِيَ لشفاعة أخته خَوَنْد شِيرِين أم السلطان

(١) هي المدرسة الصالحية المعروفة بتربة أم الصالح.
ونسبتها إلى واقفها الصالح إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ٢٣٩).

الملك الناصر فرج فيه، فإنها كانت ألزمت الأمير نوروز الحافظي والأمير يَشْبك الشعبانيّ بالوالد وحرّضتهما على بقائه، وكان لها يوم ذلك جاهٌ كبير لسلطنة ولدها الملك الناصر، ثم أوصت ولدَها الملك الناصر أيضاً به، فزاد ذلك فسحة الأجل فأُبقي وأما آقبغا الأطْرُوش فإنه بذل في إبقائه مالاً كبيراً للأمراء فأُبْقِي.

ثم خلع السلطان على الأمير بتخاص السُّودوني بآستقراره في نيابة الكرك عوضاً عن سودون الظريف.

ثم خَرَج السلطان بعساكره وأمرائه من مدينة دمشق في يوم رابع شهر رمضان صبيحة قَتْل تَنَم وسودون يريد الديار المصريّة. وسار حتى نزل غزّة في ثاني عشر شهر رمضان المذكور وقَتَل بغزّة علاء الدين على ابن الطبلاوي أحد أصحاب تَنَم ثم خرج من غَزّة وسار يريد القاهرة حتى وصلها في سادس عشرين رمضان من سنة آثنتين وثمانمائة، بعد أن زُيِّنت القاهرة، وفرِشت له الشِّقاق الحرير من تُرْبة الأمير يُونُس الدوادار بالصحراء إلى قلعة الجبل، وكان يوم دخوله إلى مصر من الأيام المشهودة، وطلع إلى القلعة وكَثُرت التهاني بها لمجيئه.

ثم في ثامن عشرينه أنعم السلطان على الأمير قُطْلُوبغا الكَرِكَي الحسني الظاهري بإقطاع سيِّدي سودون نائب الشام، وأنعم على الأمير آقباي الكركي الخازندار بإقطاع شيخ المحمودي المنتقل إلى نيابة طرابلس، وأنعم على الأمير جركس القاسمي المصارع بإقطاع مبارك شاه، وأنعم على الأمير جَكَم من عوض بإقطاع دقماق المحمدي نائب حماة، والجميع تَقادِم ألوف، وأنعم على الأمير الطواشي مُقْبِل الزمام بإقطاع الطواشي بهادر الشهباني[1] مقدّم المماليك بعد موته، وأنعم بإقطاع مقبل على الطواشي صواب السعدي المعروف بشنْكَل، وقد آستقرّ مقدّم المماليك بعد موت بهادر المذكور، وأنعم بإقطاع صواب المذكور على الطواشي شاهين الألجائي نائب مقدّم المماليك.

(١) في طبعة دار الكتب المصرية: «الشهابي».

ثم قَدِم على السلطان مملوك الأمير يلبغا المجنون من بلاد الصعيد بكتاب يلبغا المجنون يسأل في نيابة الوجه القبلي، فَرسمَ السلطان أن يخرج إليه تَجريدة من الأمراء وهم: الأمير نَوْرُوز الحافظيّ وهو مقدم العسكر المذكور، وبَكْتَمُر أمير سلاح، وآقباي الحاجب، وتِمْراز أمير مجلس، ويَلْبُغا الناصري، وإينال باي بن قجماس، وأَسَنْبُغا الدوادار، وتتّمة ثمانية عشر أميراً؛ وخرجوا من القاهرة في ثالث عشر شوّال، ومعهم نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية.

وفي صبيحة يوم خروج العسكر، ورد الخبر على السلطان بأن الأمير محمد بن عمر بن عبد العزيز الهوّاري حارب يلبغا المجنون، وأنه قبض على أمير علي دواداره، وعلى نائب الوجه البحري، وعلى الأمير إياس الكَمشْبغَاوي الخاصكي، وعلى جماعة من أصحابه، وأن يلبغا المجنون فرّ بعد أن آنهزم ونزل إلى البحر بفرسه فغرق، وأنه أُخرج من النيل ميتاً، فوجدوه قد أكل السمكُ لحم وجهه، فسر السلطان والأمراء بذلك، وخرج البريد في الوقت بعَوْد الأمراء المجرّدين إلى القاهرة.

ثم في ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بيسق الشّيخي أمير آخور الثاني بالمحمل، وكان تكلم الناس بعدم سفر الحاج في هذه السنة ولم يكن لذلك أصل.

ثم آبتدأت الفتنة بين الأمير يشبك الشعباني الدوادار وبين الأمير سودون من علي بك المعروف بطاز الأمير آخور الكبير؛ ووقع بينهما أمور.

فلما كان يوم ثامن عشرين شوّال المذكور منع جميع مباشري الدولة بديار مصر من النزول إلى بيت الأمير يشبك الدوادار؛ وذلك أن المباشرين بأجمعهم الكبير منهم والصغير كانوا ينزلون في خدمة يشبك منذ قدم السلطان من دمشق، فعظم ذلك على سودون طاز، وتفاوض معه في مجلس السلطان في كفّه عن ذلك، حتى أذعن يشبك، فمُنعوا؛ ثم نزلوا إليه على عادتهم، وصاروا جميعاً يجلسون عنده من غير أن يقفوا، وكانوا من قبل يقفون على أقدامهم.

ثم في ثاني ذي القعدة ورد الخبر على السلطان من حلب بواقعة الأمير

دمرداش المحمدي نائب حلب مع السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد والعراق. وخبره أن القان غياث الدين أحمد بن أويس المذكور لما ملك بغداد بعد حضوره إلى الديار المصرية حسب ما تقدّم ذكره في ترجمة الملك الظاهر برقوق الثانية، فأخذ السلطان أحمد المذكور يسير مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة، فركبوا عليه وقاتلوه، وكاتبوا صاحب شيراز في القدوم عليهم لأخذ بغداد. وخرج ابن أويس منهزماً إلى الأمير قرايوسف[1] يستنجده، فركب معه قرايوسف وسار إلى بغداد، فخرج إليهما أهل بغداد، وقاتلوهما وكسروهما بعد حروب طويلة فانهزما إلى شاطىء الفرات، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب في نزولهما ببلاد الشام؛ ففي الحال آستدعى دمرداش دقماق نائب حماة بعساكره إلى حلب فقدم عليه، وخرجا معا في عسكر كبير وكبسا آبن أويس وقرايوسف، وهما في نحو سبعة الآف فارس، فاقتتلا قتالاً شديداً في يوم الجمعة رابع عشرين شوّال، قتل فيه الأمير جانبك اليحيائي أتابك حلب، وأُسر دقماق المحمدي نائب حماة، وآنهزم دمرداش المحمدي نائب حلب، وفرّ فيمن بقي من عسكره إلى حلب، ثم لحقه دقماق بعد أن فدى نفسه بمائة ألف درهم وحضر الوقعة الأمير سودون من زاده المتوجه بالبشارة إلى البلاد الشامية بسلامة السلطان، وقدم مع ذلك كُتُبُ آبن أويس وقرايوسف على السلطان تتضمن: «إنا لم نجيء محاربين، وإنما جئنا مستجيرين مستنجيدين بسلطان مصر، على عوائد فضل أبيه الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ فحاربنا هؤلاء بغتة، فدافعنا عن أنفسنا وإلا كنا هلكنا» فلم يلتفت أهل الدولة إلى كتبهما، وكتبوا إلى نائب الشام بمسيره بعساكر الشام وقتال آبن أويس وقرايوسف والقبض عليهما وإرسالهما إلى مصر.

---

(١) هناك من يرجع خروج ابن أويس من بغداد إلى أن تيمور لنك كان قد بعث إليه رسولاً من قبله متظاهراً بالفرار منه إليه، ولكنه في الواقع كان جاسوساً حيث اتصل بأمرائه وأمدّهم بالأموال ليستميل قلوبهم ويتعصبوا على أحمد بن أويس ويسلموه إلى تيمور. ولم يدرك ابن أويس حقيقة هذا المبعوث المسمى بشروان لولا وقوع ورقة في يده بها أسماء من اتصل بهم من أمرائه وما دفعه من رشوة لكل منهم. فما كان منه إلا أن قتل كل من تضمنت الورقة اسمه، حتى لقد قتل منهم خلال أسبوعين زهاء ألفين. وبعد ستة أيام أسرج الخيل سراً وركب في نفر قليل من خدمه إلى قرايوسف داعياً إياه لنهب بغداد. (نزهة النفوس: ٢/٦٠، حاشية عن العراق بين احتلالين).

هذا وخوند شيرين والدة الملك الناصر فرج مستمرةُ السعي في الإفراج عن الوالد من سجنه بقلعة دمشق، إلى أن أجاب الأمراء إلى ذلك، وكُتب بالإفراج عنه وعن الأمير آقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب في يوم عرفة من محبسهما بقلعة دمشق، وحملا إلى القدس بطّالين بها.

وبينما القوم في آنتظار ما يرد عليهم من أمر السلطان أحمد بن أويس وقرايوسف، قدم عليهم الخبر من حلب بنزول تيمورلنك على مدينة سيواس[1] وأنه حارب سليمان بن أبي يزيد بن عثمان، فانهزم سليمان المذكور إلى أبيه بمدينة بُرصا[2]، ومعه قرايوسف، وأخذ تيمور سيواس وقتل من أهلها مقتلة عظيمة.

ثم وصلت بعد قليل رسل ابن عثمان إلى الديار المصرية وكتابهُ يتضمّن آجتماع الكلمة، وأن يكون مع السلطان عوناً على قتال هذا الطاغية تيمورلنك، ليستريح الإسلام والمسلمون منه، وأخذ يتخضّع ويلحّ في كتابه على آجتماع الكلمة، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، وقال أمراء مصر يوم ذاك: «الآن صار صاحبنا! وعندما مات أستاذنا الملك الظاهر برقوق مشى على بلادنا، وأخذ ملطية من عملنا، فليس هو لنا بصاحب: يقاتل هو عن بلاده، ونحن نقاتل عن بلادنا ورعيتنا» وكتب له عن السلطان بمعنى هذا اللفظ. وكان ما قاله أبو يزيد بن عثمان من أكبر المصالح، فإنه حدّثني فيما بعد الأمير أسنباي الظاهري الزردكاش[3]، وكان أسره تيمور وحظي عنده وجعله زردكاشه، قال: «قال لي تيمورلنك ما معناه أنه لقي في عمره عساكر كثيرة وحاربها، لم ينظر فيها مثل عسكرين: عسكر مصر وعسكر آبن عثمان المذكور». غير أن عسكر مصر كان عسكراً عظيماً ليس له من يقوم بتدبيره لصغر سن الملك الناصر فرج، وعدم معرفة من كان حوله من الأمراء بالحروب، وعسكر

(١) سيواس: هي مركز ولاية سيواس في تركيا اليوم، وتبعد حوالي ٢٢٥ ميلاً إلى الشرق من أنقرة.

(٢) ذكرها ابن الشحنة باسم «برسا» من بلاد الروم. قال: وبجانبها مدينة زبطرة ويمر فيها بينهما نهر جيحون. (الدرّ المنتخب: ١٨١).

(٣) الزردكاش: صانع الدروع. وعمله في السلاح خاناه. (صبح الأعشى: ١٢/٤).

ابن عثمان المذكور، غير أنه كان أبو يزيد صاحب رأي وتدبير وإقدام، لكنه لم يكن من العساكر من يقوم بنصرته.

قلت: ولهذا قلت إن المصلحة كانت تقتضي الصلح مع [سليمان بن] أبـي يزيد ابن عثمان المذكور فإنه كان يصيّر للعساكر المصرية من يدبرها، ويصيّر لابن عثمان المذكور عساكر مصر مع عساكره عوناً، فكان تيمور لا يقوى [على] مدافعتهم، فإن كلًّا من العسكرين كان يقوى [على] دفعه لولا ما ذكرناه، فما شاء الله كان.

وبعد أن كتب لابن عثمان بذلك لم يتأهب أحد من المصريين لقتال تيمور، ولا التفت إلى ذلك، بل كان جل قصد كل أحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها، ويدع الدنيا تنقلب ظهراً لبطن؛ فإنه مع ورود هذا الخبر المزعج بلغ السلطان والأمراء أن الأمير قاني باي العلائي الظاهري أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة يريد إثارة فتنة، فطلبه السلطان وأمره بلبس التشريف بنيابة غزة، فامتنع من لبسه، فأمر السلطان به فقبض عليه وسلم للأمير آقباي الحاجب، فأخذه ونزل إلى داره وأقام عنده إلى آخر النهار؛ فاجتمع عليه طائفة من المماليك السلطانية يريدون أخذه من آقباي الحاجب غصباً، فخاف آقباي وطلع به إلى القلعة، فطلب السلطان الأمراء وتشاوروا في أمره، فاتفقوا على إبقائه في إمرته ووظيفته.

ثم في خامس عشرين المحرّم من سنة ثلاث وثمانمائة ورد البريد على السلطان من حلب بأخذ تيمور ملطية، ثم وصل من الغد البريد أيضاً بوصول أوائل عسكر تيمورلنك إلى مدينة عينتاب، وفي الكتاب: «أدرِكوا المسلمين وإلا هلكوا!». فاستدعى السلطان بعد يومين الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة، وأعلموا أن تيمورلنك وصلت مقدّمته إلى مرعش وعينتاب وكان القصد بهذا الجمع أخذ مال التجار إعانة على النفقة في العساكر، فقال القضاة: «أنتم أصحاب الأمر والنهي، وليس لكم فيه معارض وإن كان القصد الفتوى في ذلك فلا يجوز أخذ مال أحد يخاف على العساكر من الدعاء[1]» فقيل لهم «نأخذ نصف الأوقاف من البلاد،

(١) رواية السلوك أوضح، وهي: «وإن كان القصد الفتوى فلا يجوز أخذ مال أحد، ويُخاف من الدعاء على العساكر إن أُخذ مال التجار».

نقطعها للأجناد البّطالين، فإن الأجناد قلّت لكثرة الأوقاف»، فقال القضاة: «وما قدر ذلك؟ ومتى اعتمدتم على البّطالين في الحرب خيف أن يؤخذ[1] الإسلام». وطال الكلام في ذلك حتى استقر الرأي على إرسال الأمير أسنبغا الدوادار لكشف الأخبار، وتجهيز عساكر الشام إلى جهةتيمورلنك. وسار أسنبغافي خامس صفر من سنة ثلاث المذكورة على البريد، ووقع التخذيل والتقاعد لاختلاف الكلمة وكثرة الآراء.

هذا وأهل البلاد الشامية في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، مما داخلهم من الرعب والخوف وقصد كل واحد أن يرحل من بلده، فمنعه من ذلك حاكم بلده، ووعده بحضور العساكر المصرية والدفع عنهم.

ثم بعد أيام قدم البريد بكتاب نائب حلب الأمير دمرداش المحمدي، وصحبته أيضاً كتاب أسنبغا الدوادار بأن تيمور نزل على قلعة بهَسْنا، بعد ما ملك مدينتها، وأنه مستمر على حصارها، وقد وصلت عساكره إلى عينتاب ووصل هذا الخبر إلى مصر في يوم رابع عشرين صفر المذكور، فوقع الشروع عند ذلك في حركة سفر السلطان ثم علق جاليش السفر في يوم ثالث شهر ربيع الأول.

وكان من خبر أسنبغا الدوادار أنه وصل إلى دمشق في سابع صفر، فقرأ كتاب السلطان في الجامع الأموي، وهويتضمن تجهيز العساكر الشامية وخروجهم لقتال تيمور وقدم في تاسعه رسول تيمور إلى الشام وعلى يده مطالعات تيمور للمشايخ والقضاة والأمراء، بأنه قدم في عام أول إلى العراق، يريد أخذ القصاص ممن قتل رسله بالرحبة، ثم عاد إلى الهند، فبلغه موت الملك الظاهر، فعاد وأوقع بالكُرْج، ثم قصد الروم لمّا بلغه قلّة أدب هذا الصبيّ سليمان بن أبي يزيد بن عثمان أن يعرك أذنه، فتوجه إليه وفعل بسيواس وغيرها من بلاد الروم ما بلغكم، ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة، ويذكر اسمه في الخطبة، ثم يرجع، وطلب في الكتاب أن يرسل إليه أطلمش المقبوض عليه من أمرائه قبل تاريخه، في دولة الملك الظاهر

(١) رواية السلوك: «ومتى اعتمد في الحرب على البطالين من الأجناد خيف أن يأخذوا المال ويميلوا عند اللقاء مع من غلب».

برقوق، «وإن لم ترسلوه يصير دماء المسلمين في ذمتكم»، فلم يلتفت سودون نائب الشام إلى كلامه، وأمر بالرسول فوُسِّط.

وتوجه أسنبغا إلى حلب فوجد الأخبار صحيحة؛ فكتب بما رآه وعلمه إلى الديار المصرية صُحبة كتاب نائب حلب، فوصلت الكتب المذكورة إلى مصر في ثالث شهر ربيع الأول. وكان ما تَضَمنته الكتب أن تيمور نزل على بُزاعة ظاهر حلَب، وقد اجتمع بحلب سائر نوّاب البلاد الشامية، وآستحثّ في خروج السلطان بالعساكر من مصر إلى البلاد الشامية، وأن تيمور لما نزل على بزاعة خرج الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس (هو الملك المؤيد) وبرز إلى جَاليش تيمورلنك في سبعمائة فارس، والتتار في نحو ثلاثة الآف فارس، وترامى الجمعان بالنشاب، ثم آقتتلوا ساعة، وأخذ شيخ من التتار أربعة، وعاد كل من الفريقين إلى موضعه، فوسّط الأربعة على أبواب مدينة حلب بحضرة من آجتمع بحلب من النوّاب، وكان الذي آجتمع بها: الأمير سودون نائب الشام بعساكر دمشق وأجنادها وعشيرها، ونائب طرابلس شيخ المحمودي المذكور بعساكر طرابلس وأجْنَادها ورجّالتها، ونائب حماة دقماق المحمدي بعساكر حماة وعربانها، ونائب صفد ألطنبغا العثماني بعساكر صفد وعشيرها، ونائب غزة عمر بن الطحان بعساكرها، فآجتمع منهم بحلب عساكر عظيمة، غير أن الكلمة متفرّقة، والعزائم محلولة لعدم وجود السلطان انتهى.

وكان تيمور لما نزل على عينتاب أرسل رسوله إلى الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب يعده باستمراره على نيابة حلب، ويأمره بمسك سودون نائب الشام، فإنه كان قتل رسوله الذي وجهه إلى دمشق قبل تاريخه فأخذ دمرداش الرسول وأحضره إلى النواب، فأنكر الرسول مسك سودون نائب الشام، وقال لدمرداش: «إن الأمير ـــ يعني تيمور ـــ لم يأت البلاد بمكاتباتك إليه، وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب، وأعلمتَه أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها» فحَنِق منه دمرداش لمّا سمع منه هذا الكلام، وقام إليه وضربه، ثم أمر به، فضُربت رقبتُه. ويقال إن كلام هذا الرسول كان من تنميق تيمورلنك ودهائه ومكره ليفرّق بذلك بين العساكر، فعلم الأمراء ذلك،

ولم يقع ما قصده. ومن الحلبيّين جماعة يقولون إلى الآن إنه كاتَبَ تيمور وتَقاعدَ عن القتال. والله أعلم بصحّة ذلك.

ثم آجتمع الأمراء والنواب على قتال تيمور، وتهيّأ كل منهم للقائه بعد أن يئسوا من مجيء السلطان وعساكره، لعلمهم بعدم رأي مدّبري مملكة مصر من الأمراء، ولصغر سن السلطان، وقد فات الأمر، وهم في قلة إلى الغاية بالنسبة إلى عساكر تيمور وجنوده وجموعه؛ وكان الأليق خروج السلطان من مصر بعساكره ووصوله إلى حلب قبل رحيل تيمور من سيواس، كما فعل الملك الظاهر برقوق ـ رحمه الله ـ فيما تقدّم ذكره.

وبينما النوابْ في إصلاح شأنهم للقتال، نزل تيمور بعساكره على قرية حَيْلان[١]، خارج حلب في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأوّل وأحاط بمدينة حلب وأصبح من الغد في يوم الجمعة، زَحَف على مدينة حلب وأحاط بسُورها، فكانت بين أهل حلب وبينه في هذين اليومين حروبٌ كثيرة، ومُناوشات بالنشّاب والنّفوط والمَكاحل. وركب أهل حلب أسوارَ المدينة وقاتلوه أشدّ قتال فلما أشرقت الشمس يوم السبت حادي عشره خرج نوّابُ الشام بجميع عساكرها وعامة أهل حلب إلى ظاهر مدينة حلب، وعبَّأوا الأطلاب والعساكر لقتال تيمور، ووقف سيّدي سودون نائب دمشق بمماليكه، وعساكر دمشق في الميمنة، ووقف دمرداش نائب حلب بمماليكه، وعساكر حلب في الميسرة، ووقف بقية النواب في القلب، وقدّموا أمامهم أهل حلب المشاة، فكانت هذه التعبية من أَيْشم[٢] التعابي، هذا مع آدعاء دمرداش بالمعرفة لتعبية العساكر. وحال وقوف الجميع في منازلهم، زحف تيمور بجيوش قد سدّت الفضاء، وصدم عساكر حلب صدمةً هائلة؛ فالتقاه النوّاب وثبتوا لصدمته أوّلاً، ثم آنكسرت الميسرة، وثَبتَ سُودون نائب الشام في الميمنة، وأرْدَفه شيخ نائب طرابلس وقاتَلاه قتالاً عظيماً وبرز الأمير عزّ الدين أزدمر أخو الأتابك إينال

---

(١) حيلان: بالحاء المهملة المفتوحة بعدها ياء ساكنة. وهي قرية شمالي حلب، وفيها عيون ماء جُمع ماؤها وسيق بقناة إلى داخل مدينة حلب. (الدرّ المنتخب: ١٤٠). وقد وردت في بعض النسخ «جيلان» خطأ.

(٢) أي من أشأم التّعابي. مشتقة من الشؤم. واللفظ هنا عامي. (لسان العرب).

اليوسفي وولده يشبك بن أزدمر في عِدَة من الفرسان، وقد بذلوا نفوسَهم في سبيل الله، وقاتلوا قتالاً شديداً، وأبلَوْا بلاءً عظيماً، وظهر عن أزدمر وولده يَشْبك من الشجاعة والإقدام ما لعلّه يُذْكر إلى يوم القيامة. ولم يزل أَزْدَمر يقتَحم القوم يكرُّ فيهم إلى أن قُتِل وفُقد خبره، فإنه لم يُقتل إلاّ وهو في قلب العدُوّ، وسقط ولده يشبك بين القَتلَى وقَد أُثخنتْ جراحاتُه، وصار في رأسه فقط زيادة على ثلاثين ضربةً بالسيف وغيره، سوى ما في بدنه. ثم أُخِذَ [يشبك] وحُمِل إلى بين يدي تيمور، فلمّا رأى تيمور ما به من الجراح تعجّب من إقدامه وثباته غاية العَجَب، وأمر بمداواته، فيما قيل ولم تمضِ غيرُ ساعة حتى ولَّت العساكر الشامية منهزمةً يريدون مدينة حلب، وركب أصحابُ تيمور أقْفيتَهم، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر ومن أهل حلب وغيرها من المشاة ما لا يدخل تحت حصر، فإن أهل حلب خرجوا منها لقتال تيمور، حتى النساء والصبيان، وآزدحم الناس مع ذلك في دخولهم إلى أبواب المدينة، وداس بعضُهم بعضاً، حتى صارت الرِّمَمُ طولَ قامة، والناس تمشي من فوقها. وقصد نوّاب المماليك الشامية قلعة حلب وطلعوا إليها، فدخلها معهم خلائق من الحلبيين وكانوا قبل ذلك قد نَقَلوا إليها سائر أموال الناس بحلب.

هذا وقد آقتحم عساكر تيمور مدينة حلب في الحال، وأشعلوا فيها النيران وأخذوا في الأسر والنهب والقتل، فهرب سائر نساء البلد والأطفال إلى جامع حلب وبقية المساجد، فمال أصحاب تيمور عليهن، وربطوهن بالحبال أسرى ثم وضعوا السيف في الأطفال، فقتلوهم بأسرهم وشرعوا في تلك الأفعال القبيحة على عادتهم، وصارت الأبكار تفتض من غير تستُّر، والمخدّرات يُفسق فيهنّ من غير آحتشام، بل يأخذ التّتري الواحدةَ ويعلوها في المسجد والجامع بحضرة الجَمّ الغفير من أصحابه ومن أهل حلب، فيراها أبوها وأخوها وزوجها وولدها ولا يقدر أن يدفع عنها لقلّة مقدرته، ولشغله بنفسه بما هو فيه من العقوبة والعذاب، ثم ينزل عنها الواحد فيقوم لها آخر وهي مكشوفة العورة.

ثم بذلوا السيف في عامة حلب وأجنادها حتى آمتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى، وجافت حلب، واستمر هذا من ضحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء

رابـع عشر ربيـع الأول. هذا والقلعة في أشدّ ما يكون من الحصار والقتال، وقد نقبها عسكر تيمور من عدّة أماكن، وردم خندقها ولم يبق إلا أن تؤخذ.

فتشاور النوّاب والأعيان الذين بالقلعة، فأجمعوا على طلب الأمان؛ فأرسلوا لتيمور بذلك، فطلب تيمور نزول بعض النوّاب إليه فنزل إليه دمرداش نائب حلب، فخلـع عليه، ودفـع إليه أماناً وخِلَعاً إلى النوّاب، وأرسل معه عِدّة وافرة من أصحابه إلى قلعة حلب، فطلعوا إليها وأخرجوا النوّاب منها بمن معهم من الأمراء والأعيان، وجعلوا كلّ آثنين في قيد، وأحضروا الجميـع إلى تيمور وأوقفوا بين يديه فنظر إليهم طويلاً وهم وقوف بين يديه ورئيسهم سودون نائب الشام. ثم أخذ يقرّعهم ويوبّخهم ويلوم سودون نائب الشام في قتله لرسوله، ويكثر له من الوعيد. ثم دفـع كلّ واحد منهم إلى من يحتفظ به.

ثم سيقت إليه نساء حلب سبايا وأحضرت إليه الأموال والجواهر والآلات الفاخرة، ففرّقها على أمرائه وأخصّائه. وآستمر النهب والسبي والقتل بحلب في كل يوم، مـع قطـع الأشجار وهَدْم البيوت وإحراق المساجد وجافت حلب وظواهرُها من القَتْلَى، بحيث صارت الأرض منهم فراشاً، لا يجد الشخص مكاناً يمشي عليه إلّا وتحت رجليه رِمّةُ قَتيل. وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منابر عدّةً مرتفعةً من الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعاً، حُسِب ما فيها من رؤوس بني آدم فكان زيادةً على عشرين ألف رأس، ولمّا بُنيتْ جعلت الوجوه بارزةً يراها من يمرّ بها.

ثم رحل تيمور من حلب بعد أن أقام بها شهراً، وتركها خاويةً على عروشها، خاليةً من سّكانها وأنيسها، قد خربت وتعطّلت من الأذان والصلوات، وأصبحتْ خراباً يباباً مظلِمة بالحريق موِحشةً قَفْراً، لا يأويها إلّا البُوم والرخَم. وسار تيمور قاصداً جهة دمشق، فمرّ بمدينة حماة، وكان أخذها آبنه ميران[1] شاه.

(١) كذا أيضاً في دائرة المعارف الإسلامية والضوء اللامـع. ويرسم على «ميرانشاه» كما في معجم زامباور. وفي شذرات الذهب: «أميران شاه» وفي السلوك: «مرزه شاه». والرسمان الأخيران فيهما تحريف. وقد حكم ميرانشاه سنة ٨٠٧هـ على كل من بغداد وبلاد الجبل: الري وأصبهان وهمذان.

وكان من خبرها أن ميران شاه بن تيمور نزل عليها بكرةَ يومِ الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور، وأحاط بها بعساكره، بعد أن نهب خارجَ مدينة حماة، وسَبى النساء والأطفال، وأسرَ الرجال، وآستمرت أيدي أصحابه يفعلون في النساء والأبكار تلك الأفعالَ القبيحة، وخرّبوا جميعَ ما [هو] خارج عن سور المدينة. هذا وقد آستعدّ أهلُ حماة للقتال، وركب الناسُ سورَ المدينة، وآمتنعوا من تسليم المدينة، وباتوا على ذلك فلما أصبحوا خادَعَهم آبن تيمور، ففتحوا له باباً من أبواب المدينة، ودخل آبن تيمور المذكور مدينةَ حماة ونادى بالأمان؛ فقَدِم الناس عليه، وقدّموا له أنواع المَطاعِم، فقبِلها منهم، وعزم أن يقيم رجلًا من أصحابه عليها، فقيل له: إن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيَّمه وبات به.

ثم رحل يوم الخميس عنها ووعد الناس بخير؛ ومع ذلك فإن قلعة حماة لم يتسلّمها، بل كانت آمتنعتْ عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهلُ القلعة وقتلوا من أصحاب آبن تيمور رجلين كان أقرّهما بالمدينة، فلما بلغ ذلك آبن تيمور رجع إليها وآقتحم البلد، وأشعل النارَ بها، وأخذ أصحابه يقتُلون ويأسِرون وينهبَون حتى صارت كمدينة حلب غير أنّه كان رَفَق بأهل حلب، فإنه كان سأل قضاة حلب لمّا صاروا في أسره عن قتاله، ومن الشهيدُ؟[1] فأجاب محبّ الدين محمد بن محمد بن الشِّحْنة الحنفيّ بأن قال: سئل رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ عن هذا، فقال: «مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا فهو الشهيد»، فأعجبه ذلك، وحادثهم، فطلبوا منه أن يعفوَ عن أهل حلب، ولا يقتلَ أحداً؛ فأمّنهم جميعاً وحلف لهم، فحصل بذلك بعض رِفْق بالنسبة إلى غيرهم.

وأمّا أهل دِمَشق، فإنه لمّا قدم عليهم الخبر بأخْذ حلب، نوديَ في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة، والاستعداد لقتال العدوّ المخذول، فأخذوا في ذلك؛ فقدم عليهم المنهزمون من حَمَاة، فعَظُم خوفُ أهلها، وهمُّوا بالجَلاء،

(١) في بعض النسخ: «ومن الشهيد من العسكرين؟».

فمُنعوا من ذلك، ونُودِي: «مَن سافر نُهِب»، فعاد إليها من كان خرج منها وحُصِّنت دمشق، ونُصِبت المَجانيق على قلعة دمشق، ونُصِبت المَكاحِل[١] على أسوار المدينة، وآستعدّوا للقتال آستعداداً جيّداً إلى الغاية.

ثم وصلتْ رُسُل تيمور إلى نائب الغَيبة بدمشق ليتسلّموا منه دمشق، فَهَمَّ نائب الغَيبة بالفِرار، فردّه العامّة ردّاً قبيحاً وصاح الناس وأجمعوا على الرحيل عنها، وآستغاث النساءُ والصِّبْيان، وخرجت النساءُ حاسراتٍ لا يعرفن أين يَذْهَبْن، حتى نادى نائب الغَيبة بالاستعداد.

وقدِم الخبرُ في أثناء ذلك بمجيء السلطان إلى البلاد الشاميّة، ففَتَر عزمُ الناس عن الخروج من دمشق ما لم يحضر السلطان.

وأمّا أمراء الديار المصريّة فإنه لمّا كان ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، وهو بعد أَخْذ تيمور لمدينة حلب بسبعة أيّام، فُرِّقت الجمَاكِي[٢] على المماليك السلطانيّة بسبب السفر.

ثم في عشرينه نودي على أجناد الحَلْقة بالقاهرة أن يكونوا في يوم الأربعاء ثاني عشرينه في بيت الأمير يَشْبك الشّعباني الدَّوادار للعَرْض عليه.

ثم في خامس عشرينه ورد عليهم الخبرُ بأخذ تيمور مدينةَ حلب، وأنه يحاصر قلعتَها، فكذَّبوا ذلك؛ وأُمسك المُخْبِر وحُبس حتى يُعاقَب بعد ذلك على آفترائه ووقع الشروعُ في النفقة، فأخذ كلّ مملوك ثلاثة آلاف وأربعمائة درهم.

---

(١) أي مكاحل البارود. ويقال أيضاً مكاحل النفط. واحدتها: مكحلة. وهي المدافع التي يُرمى عنها بالنفط، وبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد تزن الواحدة من عشرة أرطال إلى مائة رطل. وقد كان بالإسكندرية في دولة الأشرف شعبان بن حسين مدفع صنع من نحاس ورصاص يرمي من الميدان ببندقة من الحديد محماة إلى مسافة بعيدة تصل إلى خارج باب البحر. (صبح الأعشى: ٢/١٤٤، ١٤٥).

(٢) الجماكي والجوامك والجامكيات: جمع جامكية، وهي مرتبات الجند.

ثم خرج الأمير سُودون من زادة والأمير إينال حطب على الهُجن في ليلة الأربعاء تاسع عشرينه لكشف هذا الخبر[١].

ثم ركب الشيخُ سراج الدين عمر البُلْقيني وقُضاة القضاة والأمير آقباي الحاجب، ونُودي بين أيديهم: «الجهاد في سبيل الله تعالى لعدوّكم الأكبر تيمورلنك، فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب، وقتّل الأطفال على صدور الأمّهات، وأخرب الدُّور والجوامعَ والمساجدَ، وجعلها إسطَبْلات للدوابّ؛ وإنّه قاصدكم، يُخَرّب بلادكم، ويقتّل رجالَكم»؛ فاضطربت القاهرة لذلك، وآشتدّ جزع الناس، وكثر بكاؤهم وصُراخُهم، وآنطلقت الألسنة بالوقيعة في أعيان الدولة.

وأهلَّ شهر ربيع الآخر، فلما كان ثالثه قدم الأمير أَسَنبُغا الدوادار وأخبر بأخذ تيمور مدينة حلب وقلعتها بآتفاق دَمُرداش، وحَكَى ما نزل بأهل حلب من البلاء، وأنه قال لنائب الغيبة بدمشق يخلِّي بين الناس وبين الخروج من دمشق، فإن الأمر صعب، [وأن النائب لم يمكّن أحداً من السير][٢]. فخرج السلطان الملك الناصر من يومه من القاهرة ونزل بالرَّيْدانيّة بأمرائه وعساكره [والخليفة][٢] والقضاة، وتعيّن الأمير تِمراز الناصريّ أميرَ مجلس في نيابة الغَيبة بالديار المصريّة وأقام بمصر من الأمراء

---

(١) الواضح أن خبر استيلاء تيمورلنك على مدينة حلب قد وصل متأخراً إلى القاهرة، وهذا دليل على اختلال أمر البريد، وخاصة البريد الحربي الذي كان من أهم وسائله الحمام الرسائلي. وقد أشار القلقشندي إلى اختلال أمر البريد في تلك الفترة وإلى خراب أحواله بعيد استيلاء تيمورلنك على البلاد الشامية بقوله: «ولم يزل البريد بعد ذلك ـ أي بعد ترتيب أوضاعه أيام الظاهر بيبرس ـ مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن غشي البلاد الشامية تيمورلنك صاحب ما وراء النهر وفتح دمشق وخرّبها وحرقها في سنة أربع وثمانمائة فكان ذلك سبباً لحصّ جناح البريد وبطلانه من سائر الممالك الشامية. ثم سرى هذا السمّ إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل ورماها بعد الحلي بالعطل، فذهبت معالم البريد من مصر والشام، وعفت آثاره، وصار إذا عرض أمرٌ من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ركب البريديّ على فرس له يسير بها الهوينا سير المسافر إلى المكان الذي يريده، ثم يعود على هذه الصورة، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب. (صبح الأعشى: ١٤/٤١٥ ـ ٤١٦، طبعة دار الكتب العلمية) ـ هذا وفي زمن انتظام أمر البريد في أيام الفاطميين كان الحمام يوصل الرسالة من دمشق إلى القاهرة في أقلّ من نهار. (انظر نفس المرجع والجزء، ص ٤٣٦).

(٢) زيادة عن السلوك.

الأمير جَكَم من عوض في عدّةٍ أُخر، وأقام الأمير تمراز يَعرِض أجناد الحَلْقة، وفي تحصيل ألف فرس وألف جمل، وإرسال ذلك مع من يقع عليه الاختيار من أجناد الحَلْقة للسَّفر.

ثم رسم بآستقرار الأمير أَرِسْطاي من خُجَا على رأس نْوبة النُّوبَ كان في نيابة الإسكندريّة بعد موت نائبها فرج الحلبي. وكان أَرِسْطاي منذ أُفرِج عنه بطّالاً بالإسكندريّة، فوردت عليه الولاية وهو بها. وأخذ الأمير تِمراز في عَرض أجناد الحَلْقة، وتحصيل الخيول والجمال وطلب العربان من الوجه القبليّ والبحريّ لقتال تيمور، كلّ ذلك والسلطان بالرَّيْدانيّة.

ثم خرج الجاليش في بكرة يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر، وفيه من أكابر الأمراء مقدَّمي الألوف: الأتابك بِيبرس، والأمير نَوْرُوز الحافظي رأس نوبة الأمراء، والأمير بَكْتَمُر الركني أمير سلاح، وآقباي حاجب الحجّاب، ويلبغا الناصري، وإينال باي بن قجماس، وعدّة أخر من أمراء الطبلخانات والعشرات.

ثم رحل السلطان ببقيّة الأمراء والعساكر من الرّيْدانيّة يريد جهة الشام لقتال تيمور لنك، وسار حتى نزل بغزّة في يوم عشرين من الشهر، واستدعى بالوالد وآقبغا الجماليّ الأطْروش نائب حلب كان من القدس، وأخلع على الوالد بآستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن سودون قريب الملك الظاهر برقوق بحكم أسره مع تيمور، وهذه ولاية الوالد على دمشق الأولى.

وخلع على الأمير آقبغا الجمالي الأطْروش بآستقراره في نيابة طرابلس عوضاً عن شيخ المحموديّ بحكم أسره مع تيمور أيضاً، وعلى الأمير تَمُرْبُغا المنجكي باستقراره في نيابة صَفَد عوضاً عن أَلْطُنْبغا العثماني بحكم أسره، وعلى طولو من علي باشاه باستقراره في نيابة غزّة عوضاً عن عمر بن الطحّان، وعلى صدقة بن الطويل باستقراره في نيابة القدس، وبعث الجميعَ إلى ممالكهم.

وأما الوالد فإنه قال للسلطان وللأمراء: «عندي رأيٌ أقوله، وفيه مصلحة للمسلمين وللسلطان»، فقيل له: «وما هو؟» فقال: «الرأي أن السلطان لا يتحرّك

هو ولا عساكره من مدينة غزّة، وأنا أتوجّه إلى دمشق وأحرّض أهلها على القتال، وأحصّنها ـ وهي بلدة عظيمة لم تُنْكَب من قديم الزمان، وبها ما يكفي أهلَها من المؤونة سنين، وقد داخلَ أهلَهَا أيضاً من الخوف ما لا مزيد عليه، فهم يقاتلون قتالَ الموت، وتيمور لا يقدر على أخذها منّي بسرعة، وهو في عسكر كبير إلى الغاية لا يُطيق المكثَ بهم بمكان واحد مدّة طويلة، فإما أنه يدع دمشقَ ويتوجّه نحو السلطان إلى غزّة، فيتوغّل في البلاد ويصير بين عسكرين، وأظنه لا يفعل ذلك، وإمّا أنه يعود إلى جهة بلاده كالمنهزم من عدم معرفة عساكره بالبلاد الشامية، وقلّة ما في طريقه من المِيرة لخراب البلاد، فيركب السلطان بعساكره المصرية والشامية أفقيَة التَمُرية إلى الفرات، فيظفر منهم بالغرض وزيادة» فاستصوب ذلك جميع الناس ـ حتى تيمور عندما بلغه ذلك بعد أخذه دمشق ـ وما بقي إلا أن يُرْسَم بذلك، تكلّم بعضُ جهّال الأمراء مع بعض في السرّ ممّن عنده كَمينٌ من الوالد من واقعة أيْتَمُش وتَنَم، وقال: «تقتلون رُفقتَه وتسلّمونه الشام! والله ما قَصْدُه إلاّ أن يتوجّه إلى دمشق، ويتّفق مع تيمور ويعودَ يقاتلنا، حتى يأخذ منّا ثأرَ رفقته»[1]. وكان نوروز الحافظي بإزاء الوالد، فلمّا سمع ذلك آستحيا أن يبديَه للوالد، فأشار إليه بالسُّكَات والكفّ عن ذلك. وانفضّ المجلس، وخرج الوالد من الخدمة وأصلح شأنَه، وتوجّه إلى دمشق، فوجد الأمير دمرداش نائب حلب قد هرب من تيمور وقدم إلى دمشق، وقد جَفَل أهلُ دمشق لمّا بلغهم قربُ تيمور إلى دمشق، فأخذ الوالد في إصلاح أهل دمشق، فوجد أهلَها في غاية الاستعداد، وعزمُهم قتالُ تيمور إلى أن يفنوا جميعاً، فتأسّف عند ذلك على عدم قبول السلطان لرأيه، ولم يَسَعْه إلاّ السّكات.

ثم رحل جاليش السلطان من غزّة في رابع عشرين شهر ربيع الآخر، ثم رحل السلطان ببقيّة عسكره من غزّة في سادس عشرينه، وسار الجميع حتى وافَوا دمشق.

---

(١) رواية نزهة النفوس: ٨١/٢ «هذا نظيره نظير ثعبان قطع ذنبه وبقي رأسه، لا نأمن له أن يروح إلى الشام ويعصي علينا ونعجز عنه، أو يتفق مع تيمور لنك، فإنه كان في السجن مع تنم نائب الشام وأيتمش البجاسي وغيرهم».

وكان دخول السلطان دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى؛ وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته. وطلع السلطان إلى قلعة دَمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره إلى مخُيَّمه عند قبة يَلْبُغا ظاهر دمشق، وتهيّأ للقاء تيمور هو بعساكره، وقد قَصّرت المماليكُ الظاهريّة أرماحَهم حتى يتمكّنوا من طعن التَّمرية أولاً بأوّل لازدرائهم عساكر تيمور.

فلما كان وقت الظهر من اليوم المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثّلْج[١] في نحو الألف فارس، فبرز إليهم مائة فارس من عسكر السلطان وصدموهم صدمةً واحدة، بدّدوا شملَهم وكسروهم أقبحَ كسْرة، وقتلوا منهم جماعةً كبيرة وعادوا.

ثم حضر إلى طاعة السلطان جماعةٌ من التمريّة وأخبروا بنزول تيمور على البقاع[٢] العزيزي «فلتكونوا على حذر، فإن تيمور كثيرُ الحِيَل والمَكْر» فاحترز القومُ منه غايةَ الاحتراز.

ثم قدم على السلطان خمسة أمراء من أمراءِ طرابلس بكتاب أَسَنْدَمُر نائب الغَيبة بطرابلس يتضمّن أن الأمير أحمد بن رمضان أمير التركمان هو وابن صاحب الباز[٣] وأولاد شُهري اتّفقوا وساروا إلى حلب وأخذوها من التمريّة، وقتلوا من أصحاب تيمور زيادةً على ثلاثة آلاف فارس، وأن تيمور بعث عسكراً إلى طرابلس، فثار بهم أهلُ القرى وقتلوهم عن آخرهم بالحجارة لدخولهم بين جبلين، وأنه قد

---

(١) جبل الثلج: هو سلسلة جبال لبنان الشرقية المؤلفة أساساً من جبل سنّير وهو «الجبل الشرقي» وجبل الشيخ أو جبل حرمون. وهو يطل من جهة الغرب على وادي البقاع اللبناني، ومن جهة الشرق على دمشق. ومن بين جبلي سنّير وحرمون مدخل الشام من جهة البقاع.

(٢) البقاع العزيزي: جزء من البقاع اللبناني، وكانت قاعدته مدينة كرك نوح، وتعرف اليوم بالكرك. وهو جنوبي البقاع البعلبكي الذي كانت قاعدته مدينة بعلبك.

(٣) أي بازازجيق بالقرب من قلعة الروم. وكانت من الأعمال الحلبية. وصاحب الباز المشار إليه كان في ذلك الوقت ناصر الدين محمد بن خليل بن قراجا من بني ذولقادر. ــ انظر معجم زامباور: ٢٣٤ ــ ٢٣٦.

حضر من عسكر تيمور خمسةُ نفر، وأخبروا بأن نصف عسكر تيمور على نيّة المسير إلى طاعة السلطان ـ وكان ذلك من مكايد تيمور ـ ثم قال: وإن صاحب قُبْرُص وصاحبَ الماغوصة(١) وغيرهم وردتْ كتبهم بأنتظار الإذن لهم في تجهيز المراكب في البحر لقتال تيمور معاونةً للسلطان، فلم يلتفت أحدٌ لهذا الكتاب، وداموا على ما هم فيه من آختلاف الكلمة.

ثم في يوم السبت نزل تيمور بعساكره على قَطَنَا(٢)، فملأتْ عساكرُه الأرضَ كثرةً وركب طائفةٌ منهم لكشف الخبر، فوجدوا السلطانَ والأمراءَ قد تهيَّأوا للقتال. وصُفّت العساكر السلطانيّة، فبرز إليهم التمريّة وصدموهم صدمة هائلة، وثبت كلّ من العسكرين ساعة، فكانت بينهم وقعةٌ آنكسر فيها ميسرةُ السلطان، وآنهزم العسكر الغَزّاويّ وغيرُهم إلى ناحية حَوْران، وجُرِح جماعة. وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة ليأخذ فيها دمشق، فدفعتْه ميمنةُ السلطان بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه.

ونزل كلّ من العسكرين بمعسكره وبعث تيمور إلى السلطان في طلب الصلح وإرسال أطْلَمش(٣) أحد أصحابه إليه، وأنه هو أيضاً يبعث مَن عنده من الأمراء المقبوض عليهم في وقعة حلب فأشار الوالد ودمرداش وقُطْلُوبغا الكَرَكي في قبول ذلك لما يعرفوا من آختلاف كلمتهم، لا لضعف عسكرهم، فلم يقبلوا وأبَوا إلّا القتال.

ثم أرسل تيمور رسولاً آخَر في طلب الصّلح، وكرَر القولَ ثانياً، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صدقُ(٤) مقالته، وأن ذلك على حقيقته، فأبى الأمراءُ ذلك [هذا] والقتال مستمرّ بين الفريقين في كلّ يوم.

---

(١) الماغوصة: هي فماغوسطة Famagusta، ميناء على شاطىء جزيرة قبرص.

(٢) قطنا: من قرى دمشق.

(٣) أطلمش: كان من قادة تيمور لنك ومن المقربين إليه. وكان هذا الأمير معتقلاً في القاهرة منذ سنة ٧٩٨هـ. وكان تيمور لنك يلحّ بطلبه، وقد تكرر ذلك منه عدة مرات. (انظر السلوك: ٨٥١/٣، ٨٦٩، ١٠٣١، ١٠٤٤، ١٠٥٤، ١٠٩٨، ١٠٩٩).

(٤) يؤكد الجوهري في نزهة النفوس: ٨٢/٢ أن ذلك كان مكراً وخديعة وكذباً من قبل تيمور لنك.

فلما كان ثاني عشر جمادى الآخرة آختفى من أمراء مصر والمماليك السلطانيّة جماعة، منهم الأمير سُودون الطيّار، وقاني باي العلائي رأس نوبة، وجُمَق، ومن الخاصكيّة يَشْبك العثماني وقمش[1] الحافظي وبَرَسْبُغا الدوادار وطرباي في جماعة أُخر، فوقع الاختلاف عند ذلك بين الأمراء، وعادوا إلى ما كانوا عليه من التشاحن في الوظائف والإقطاعات والتحكّم في الدولة، وتركوا أمر تيمور كأنه لم يكن، وأخذوا في الكلام فيما بينهم بسبب من آختفى من الأمراء وغيرهم.

هذا وتيمور في غاية الاجتهاد في أخذ دمشق وفي عمل الحِيلة في ذلك. ثم أُعلِم بما الأمراء فيه، فَقَوِي أمرُه وآجتهاده، بعد أن كان عزم على الرحيل، وآستعدّ لذلك.

ثم أشيع بدمشق أن الأمراء الذين آختفَوا توجّهوا جميعاً إلى مصر ليسلِطنوا الشيخ لاجين الجركسي أحد الأجناد البّرانيّة[2]، فعظم ذلك على مدبِّري المملكة لعدم رأيهم، وكان ذلك عندهم أهم من أمر تيمور، وآتّفقوا فيما بينهم على أخذ السلطان الملك الناصر جَريدة،[3] وعَوده إلى الديار المصرية في الليل، ولم يُعْلموا بذلك إلاّ جماعة يسيرة ولم يكن أمر لاجين يستحق ذلك، بل كان تِمْراز نائب الغيبة بمصر يكفي السلطان أمرهم، ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعولاً﴾[4].

فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى ركب الأمراءُ وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين غفلة، وساروا به من غير أن يعلم العسكر به من على عَقَبة دُمَّر[5] يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعيّة من المسلمين غَنَماً بلا راع وجدُّوا في السير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى مدينة صَفَد، فآستدعوا

---

(١) في السلوك: «قمج». وكلاهما صحيح لأن الجيم هنا هي الجيم التركية أو الفارسية المشربة بالشين.

(٢) لفظ «البرانية» و«البّراني» يعني أن الجندي أو المملوك ليس من مماليك السلطان: خاصكيته أو مشترواته. ويقابله: «الجوانية».

(٣) تعبير «أخذه جريدةً» أو «سافر جريدةً» يعني مخفاً مسرعاً دون حمل أثقال أو ما شابه ذلك.

(٤) سورة الأنفال ــ الآية: ٤٤.

(٥) عقبة دمَّر: مشرفة على غوطة دمشق. وهي من جهة الشمال في طريق بعلبك. (معجم البلدان).

نائبَها الأمير تَمُرْبُغا المَنْجكي وأخذوه معهم، وتلاحق بهمْ كثير من أرباب الدولة وأمرائها، وسار الجميع حتى أدركوا الأمراء الذين ساروا إلى مصر ــ عليهم من الله ما يستحقّوه ــ بمدينة غزّة؛ فكلّموهم فيما فعلوه، فاعتذروا بعذر غير مقبول في الدنيا والآخرة؛ فندم عند ذلك الأمراء على الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم، وقد تركوا دمشق أُكْلة لتيمور، وكانت يوم ذاك أحسن مُدُن الدنيا وأعمرها.

وأما بقيّة أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم لمّا علموا بخروج السلطان من دمشق خرجوا في الحال في إثره طوائف يريدون اللَّحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم العشير، وسلبوهم، وقتلوا منهم خَلْقاً كثيراً.

أخبرني غير واحد من أعيان المماليك الظاهرية قالوا: لما بلغنا خروج السلطان ركبْنا في الحال، غير أننا لم يعوّقنا عن اللَّحاق به إلا كثرة السلاح المُلْقى على الأرض بالطريق مما رمتْها المماليك السلطانيّة ليخفّ ذلك عن خيولهم، فمن كان فرسُه ناهضاً خرج، وإلّا لحِقه أصحابُ تيمور وأسروه؛ فممّن أسروه قاضي القضاة صدر الدين المناويّ، ومات في الأسْر حسبما يأتي ذكره في الوَفَيات(1). وتتابعَ دخول المنقطعين من المماليك السلطانيّة وغيرهم إلى القاهرة في أسوأ حال من المشي والعُرْي والجوع، فرسم السلطان لكلٍّ من المماليك السلطانية ألفَ درهم وجامكيّة شهرين.

وأمّا الأمراء فإنهم أيضاً دخلوا إلى مصر وليس مع كلّ أمير سوى مملوك أو مملوكيْن، وقد تركوا أموالهَم وخيولهم وأطلابَهم وسائرَ ما معهم بدمشق، فإنهم خرجوا من دمشق بغتةً بغير مُواعَدة لمّا بلغهم توجّه السلطان من دمشق، وأخذ كلّ واحد ينجو بنفسه.

وأما العساكر الذين خلّفوا بدمشق من أهل دمشق وغيرها، فإنه كان آجتمع بها

---

(1) وذكر المقريزي أن «قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المالكي كان بداخل مدينة دمشق. فلما علم بتوجه السلطان تدلّىَ من سور المدينة، وسار إلى تيمور لنك، فأكرمه وأجلّه وأنزله عنده، ثم أذن له في المسير إلى مصر، فسار إليها». (السلوك: ١٠٥٢/٣).

خلائق كثيرة من الحلبيّين والحمويين والحمصيّين وأهل القرى ممّن خرج جافلاً من تيمور.

ولمّا أصبحوا يوم الجمعة، وقد فقدوا السلطانَ والأمراءَ والنائبَ، غلّقوا أبواب دِمَشق، وركبوا أسوارَ البلد، ونادَوْا بالجهاد، فتهيأ أهلُ دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله الدمشقيّون من أعلى السور أشدّ قتال، وردُّوهم عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعةً ممن كان آقتحم بابَ دمشق، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة، وصار أمرهم في زيادة فأعيا تيمور أمرَهم، وعلم أن الأمر يطول عليه، فأخذ في مخادعتهم، وعَمِل الحيلة في أخذ دمشقَ منهم.

وبينما أهل دمشق في أشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحَا من بُعد: «الأمير يريد الصلح، فآبعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدّثه الأمير في ذلك».

قلت: هذا الذي كان أشار إليه الوالد عند آستقراره بغزّة في نيابة دمشق، وقوله: إن أهل دمشق عندهم قوّة لدفع تيمور عن دمشق، وأن دمشق بلد كثيرة المِيرة والرزق، وهي في الغاية من التحصين، وأنه يتوجّه إليها ويقاتِل بها تيمور، فلم يسمع له أحد في ذلك؛ فلعمري لو رأى من لا أعجبه كلام الوالد قتال أهل دمشق الآن وشدّة بأسهم، وهم بغير نائب ولا مدبِّر لأمرهم، فكيف ذاك لو كان عندهم متولّي أمرهم بمماليكه وأمراء دمشق وعساكرها بمن آنضاف إليهم، لكَان يحق له الندم والاعتراف بالتقصير. آنتهى.

ولما سمع أهلُ دمشق كلامَ أصحاب تيمور في الصلح وقع آختيارُهم في إرسال قاضي القضاة تقيّ الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي، فأُرخي من سور دمشق إلى الأرض، وتوجّه إلى تيمور وآجتمع به وعاد إلى دمشق وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطّف معه في القول، وترفق له في الكلام، وقال له: «هذه بلدة الأنبياء والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقةً عنّي وعن أولادي، ولولا حَنَقي من سُودُون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتُها وقد صار سودون

المذكور في قبضتي وفي أسْري؛ وقد كان الغرضَ في مجيئي إلى هنا، ولم يبق لي الآن غرض إلا العود، ولكن لا بدّ من أخذ عادتي من التَّقدمة من الطُّقُزات».

وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صُلحاً يُخرِج إليه أهلُها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدوابّ والملابس والتُّحف تسعة؛ يسمّون ذلك طُقزات؛ والطُّقُز باللغة التركيّة: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا.

فلما صار آبن مفلح بدمشق شرع يخذِّل الناس عن القتال ويُثني على تيمور ودينه وحسن آعتقاده ثناءً عظيماً، ويكفّ أهل دمشق عن قتاله فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأَبوْا إلاّ قتاله، وباتوا ليلةَ السبت على ذلك وأصبحوا نهارَ السّبت وقد غلب رأيُ ابن مفلح على مَن خالَفه، وعزم على إتمامِ الصلح، ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قُتِل وهُدِر دمُه؛ فكفّ الناس عن القتال.

وفي الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطُّقُزات المذكورة، فبادر آبن مفلح، وآستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار حَمْلَ ذلك كلٌّ أحد بحسب حاله؛ فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به إلى باب النصر[1] ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهدّدهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقالوا له: «أنت آحكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا»، وتركوا باب النصر وتوجهوا، وأخرجوا الطُقزات المذكورة من السور، وتدلّى آبنُ مفلح من السور أيضاً ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيَّم تيمور، وباتوا به ليلةَ الأحد وعادوا بكرة الأحد، وقد آستقرّ تيمور بجماعة منهم في عدّة وظائف ما بين قضاة القضاة، والوزير، ومستخرِج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعةُ أسطر يتضمّن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصّة؛ فقرىء الفرمان المذكور على منبر جامع بني

---

(١) باب النصر، أو باب السرايا، في الجهة الغربية لسور دمشق. وكان مكانه سوق الأروام اليوم. وقد أزاله شرواني باشا أحد ولاة الأتراك سنة ١٨٦٣م عند فتح سوق الحميدية. (النجوم: ١٢/٢٤٠، حاشية ـ طبعة دار الكتب المصرية).

أمية بدمشق وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أمير من أمراء تيمور، جلس فيه ليَحفظ البلَد ممّن يعبُر إليها من عساكر تيمور فَمَشى ذلك على الشاميّين وفرحوا به، وأكثر آبن مفلح ومن كان توجّه معه من أعيان دِمشقَ الثّناء على تيمور، وبثَّ محاسنه وفضائله، ودعا العامّة لطاعته ومُوالاتِه، وحثّهم بأسْرِهم على جمع المال الذي تقرّر لتيمور عليهم، وهو ألف ألف دينار، وفَرض ذلك على الناس كلّهم، فقاموا به من غير مشقّة لكثرة أموالهم. فلما كمل المال حمله آبن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه فلمّا عاينه غضب غضباً شديداً، ولم يرضَ به، وأمر آبن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فأخرِجوا من وجهه ووكل بهم جماعة حتى آلتزموا بحمل ألف تومان ـ والتومان عبارة عن عشرة الآف دينارٍ من الذّهب إلاّ أنّ سعر الذهب عندهم يختلف وعلى كلّ حال فيكون جملة ذلك عشرةُ الآف ألف دينار ـ فآلتزموا بها وعادوا إلى البلد، وفَرضُوها ثانياً على الناس كلّها عن أجرة أملاكهم ثلاثةَ أشهر وألزموا كلَّ إنسان من ذكر وأنثى حرّ وعبدٍ بعشرة دراهم وألزم مباشر كلّ وقف بحمل مالٍ له جِرْم(١)، فنزل بالناس بآستخراج هذا منهم ثانياً بلاءٌ عظيم وعوقب كثير منهم بالضّرب، فغلت الأسعار، وعزّ وجودُ الأقوات، وبلغ المُدُّ القمح ـ وهو أربعة أقداح ـ إلى أربعين درهماً فضّة، وتعطّلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جُمعةٌ إلاّ مرتين حتى دُعِي بها على منابر دمشق للسلطان محمود(٢) ولوليِّ عهده آبن الأمير تيمورلنك وكان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلاّ من يكون من ذرّية الملوك. انتهى.

ثم قدم شاه ملك أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور.

---

(١) الجرم (بالكسر): الجسم، والكبير العظيم. ولعل المراد: بحمل مال كثير. ـ واللفظ لم يرد في السلوك. وعبارة المقريزي: «وألزم مباشر كل وقف من سائر الأوقاف بمال، فأخذ من أوقاف جامع بني أمية مائة ألف درهم، ومن بقية أوقاف الجوامع والمساجد والمدارس والمشاهد والربط والزوايا شيء معلوم بحسب ما اتفق، فنزل بالناس في استخراج هذا بلاء عظيم». (السلوك: ١٠٤٨/٣).

(٢) هو السلطان محمود بن سيورغتمش جغتاي، حاكم بلاد ما وراء النهر. وكانت حاضرة حكمه سمرقند. (معجم زامباور: ٤٠١).

ثمّ بعد جمعتين مُنعوا من إقامة الجمعة بدمشقَ لكثرة غَلَبة أصحاب تيمور بدمشق كلّ ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشدَّ حصار، حتى سلّمها بعد تسعة وعشرين يوماً وقد رُمي عليها بمدافع ومَكاحلَ لا تدخل تحت حَصْر. يكفيك أن التِمُريّة من عظم ما أعياهم أمرُ قلعة دمشق بنَوْا تجاه القلعة قلعةً من خشب؛ فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها مَنْ هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نِفْطاً فأحرقوها عن آخرها، فأنشأوا قلعة ثانية أعظمَ من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهلَ القلعة.

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المُقاتِلة إلّا نفر قليل دون الأربعين نفراً، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النَّجْدة، وطلبوا الأمان، وسلّموها بالأمان.

قلت: لا شُلّت يدهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم الله تعالى.

ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان، أخذه ٱبن مفلح وحمله إلى تيمور؛ فقال تيمور لابن مفلح وأصحابه: «هذا المال بحسابنا إنما هو ثلاثة الآف ألف دينار وقد بقي عليكم سبعة الآف ألف دينار، وظهر لي أنكم عجزتم».

وكان تيمور لما ٱتفق أوّلاً مع ٱبن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذي تركتْه العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور فخرج إليه ٱبن مفلح بأموال أهل مصر جميعها[1] فلما صارت كلها إليه وعلم أنه ٱستولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فرّوا من دمشق، فسارعوا أيضاً إلى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده[2] حتى خلص المال جميعه فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرِجوا إليه جميعَ ما في البلد من السلاح جليلِها وحقيرها، فتتبّعوا ذلك وأخرجوه له حتى لم يَبقَ بها من السلاح شيء[3] فلمّا فرغ ذلك كلّه قبَضَ على

---

(١) في الأصل: «جميعه».

(٢) عبارة السلوك: «فتسارعوا إلى حمل ذلك إليه، وجروا على عادتهم في النميمة بمن عنده من ذلك شيء، حتى أتوا على الجميع».

(٣) وزاد المقريزي في السلوك أنه «ألزمهم أن يخرجوا إليه سائر ما في المدينة من الخيل والبغال والحمير والجمال، فأخرج إليه جميع ما كان في المدينة من الدواب، حتى لم يبق بها شيء من ذلك.

آبن مفلح ورفقتِه، وألزمهم أن يكتبوا له جميعَ خُطط دمشق وحاراتها وسِكَكَها، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرّقه على أمرائه، وقسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ونزل كلُّ أمير في قسمه، وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فحينئذ حلَّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصَف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضَّرْب والعَصْر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغَمِّ الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلّما تنفّس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تَزهَق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يُخلَّى عنه حتى يستريح، ثم تعادُ عليه العقوبَة أنواعاً، فكان المُعاقَب يحسد رفيقَه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: «ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه» ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتُقْسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذَّب آمرأته أو بنتَه وهي توطأ، وولدَه وهو يُلاطُ به، فيصرخُ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البَكارة واللِّواط، وكل ذلك من غير تستّر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأَى أهلُ دمشق أنواعاً من العذاب لم يُسمَع بمِثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتُشَدّ رأسُه بحبل ويلوونه حتى يغَوصَ في رأسه ومنهم من كان يضع الحبلَ بكتِفَي الرجل ويَلوِيه بعصاه حتى تنخلع الكَتِفَان ومنهم من كان يربط إبهامَ يدَي المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويَذُرّ في منَخريه الرّماد مسحوقاً، فيقرّ [على] ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدِّقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرّر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقَب ميّتاً مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلِّق المعذَّب بإبهام يديه في سقف الدار ويُشعِل النار تحته، ويطول تعليقه، فربّما يسقط فيها، فيُسحب من النار ويُلْقُوه على الأرض حتى يُفيق، ثم يعلّقه ثانياً.

وآستمرّ هذا البلاءُ والعذابُ بأهل دمشقَ تسعة عشر يوماً، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدّة بدمشق بالعقوبة والجوع خلقٌ لا يَعلم عددهم إلاّ آلله تعالى.

فلما علمتْ أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا إلى تيمور، فسألهم: «هل بقي لكم تعلُّق في دِمشقَ؟» فقالوا: «لا»؛ فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على

أتباع الأمراء، فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب، ومعهم سيوفٌ مسلولة مشهورة وهم مُشاة، فنَهَبوا ما قَدَروا عليه من الآت الدُّور وغيـرها، وسَبَوْا نساءَ دمشق بأجمعهنّ، وساقوا الأولادَ والرجال، وتركوا من الصغار مَن عمرُه خمسُ سنين فما دونَها، وساقوا الجميـعَ مربوطين في الحبال.

ثم طرحوا النارَ في المنازل والدُّور والمساجد، وكان يوم عاصف الريـح، فعمّ الحريق جميـعَ البلد حتى صار لهيبُ النار يكاد أن يرتفـعَ إلى السحاب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيّام بلياليها آخرها يوم آلجمعة.

وكان تيمور ــ لعنه الله ــ سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً، وقد آحترقتْ كلُّها وسقطتْ سُقوفُ جامـع بني أميّة من الحريق، وزالت أبوابه وتَفَّطرَ رُخامُه، ولم يَبق غيرُ جُدُرِه قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودُورُها وقَياسِرُها[1] وحمّاماتُها وصارت أطلالاً باليةً ورسوماً خالية، ولم يبق بها [دابة تدبّ][2] إلّا أطفال يتجاوز عددهم [آلاف][2] فيهم من مات، وفيهم من سيموت من الجوع.

وأمّا السلطان الملك الناصر فرج فإنّه أقام بغَزّةَ ثلاثة أيام، وتوجّه إلى الدّيار المصريّة بعد ما قَدِم بين يديه آقبغا الفقيه أحد الدوادارية فقدم [آقبغا] إلى القاهرة في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة، وأعلم الأمير تِمْراز نائب الغَيبة بوصول السلطان إلى غَزّة، فآرتجّت القاهرة، وكادت عقولُ الناس تَزهَق، وظنّ كلّ أحد أن السلطان قد آنكسر من تيمور، وأنّ تيمور في أَثَره وأخذ كلُّ أحد يبيـع ما عنده ويستعدّ للهروب من مصر، وغَلاَ أثمان ذوات الأَرْبَـع حتى جاوز المِثْلُ أمثالاً.

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة المذكور قدم السلطان إلى قلعة الجبل ومعه الخليفة وأمراء الدولة ونوّاب البلاد الشامية، ونحو ألف مملوك من المماليك السلطانية، وقيل نحو الخمسمائة.

---

(١) القياسر: جمع قيسارية، وهي السوق المسقوفة التي تجمع مختلف الصناعات والتجارات.
(٢) زيادة عن السلوك.

ثم في يوم السبت سابع جمادى الآخرة المذكور أنعم السلطان على الوالد بإمرة مائة وتَقْدِمة ألف بالدّيار المصريّة كانت موفرَّة في الديوان السلطانيّ، بعد آستعفائه من نيابة دمشق، وعيّن السلطان لنيابة دمشق آقبغا الجمالي الأطْروش، ورسم للوالد أن يجلس رأسَ ميسرة[١].

ثم أذن السلطان للأمير يَلْبُغا السالميّ الأسْتادار أن يتحدّث في جميع ما يتعلّق بالمملكة[٢]، وأن يجهّز العسكرَ إلى دمشق لقتال تيمور؛ فشرع يَلبُغا السالمِي المذكور في تحصيل الأموال، وفَرضَ على سائر أراضي مصرَ فرائضَ من إقطاعات الأمراء، وبلاد السلطان، وأخباز الأجناد، وبلاد الأوقاف عن عبرة كلّ ألف دينار خمسمائة درهم فضّة وفرس.

ثم جبى من سائر أملاك القاهرة ومصر وظواهرهما أجرة شهر، حتى إنه كان يقوّم على الإنسان داره التي يسكنها، ويؤخذ منه أجرتها، وأخذ من الرِّزَق، وهي الأراضي التي يأخذ مُغَلَّها قوم على سبيل البرّ والصدقة، عن كل فدّان عشرة دراهم، وكان يوم ذاك أجرة الفدّان من ثلاثين درهماً إلى ما دونها. قلت: أخذ نصفَ خراجِها بدَوْرَةٍ دارَها وأخذ من الفدّان القَصَب أو القلقاس أو النِّيلَة من القنطار مائة درهم، وهي نحو أربعة دنانير، وجبى من البساتين عن كلّ فدان مائة درهم.

ثم استَدعى أمناءَ[٣] الحُكم والتجّار وطلبَ منهم المالَ على سبيل القَرْض،

---

(١) رأس الميسرة ورأس الميمنة هي أماكن جلوس كبار أمراء المشورة مثل الأمير الكبير والأتابك وأمير سلاح وغيرهم. وكذلك جرت العادة منذ أيام الظاهر برقوق أن يجلس ابن السلطان رأس ميسرة فوق أمير سلاح. وهكذا فقد كان يلتف حول السلطان كبار أمرائه فيجلسون ميمنة وميسرة، وتحت رأسي الميمنة والميسرة.

(٢) وظيفة الأستادار في الأصل هي الإشراف على الواردات الخاصة بالسلطان، والإشراف على كل من بالقصر من خدم المطبخ والشراب خاناه والغلمان. وقد زادت أهمية الأستادار منذ حكم الظاهر برقوق، خاصة عندما عيّن الأمير جمال الدين محمود بن علي أستاداراً وفوّض إليه النظر في أمور الدولة المالية، فكان اختصاصه كاختصاص الوزير وناظر الخاص معاً. والناصر فرج هنا يوسّع أيضاً من صلاحيات الأستادار فيفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة من مالية وعسكرية، وهو بذلك يضم إليه صلاحيات النائب والوزير والأتابك، بالإضافة إلى تحدّثه في الأمور المالية الخاصة بالسلطان.

(٣) أمناء الحكم: هم القضاة. وكان يعبّر عن قضاء القضاء بالحكم العزيز.

وصار يكبِس الفنادقَ والحواصلَ في الليل، فمن وجده حاضراً فتح مخزنه وأخذ نصف ما يجده فيه من النقد، وهي الذهب والفضّة والفلوس، وإذا لم يجد صاحب المال أخذ جميع ما يجده من النقود وهي الذهب والفضة والفلوس، وأخذ جميع ما وجد من حواصل الأوقاف ومع ذلك فإن الصَّيْرفيّ يأخذ عن كل مائة درهم [تستخرج مما تقدّم ذكره](1) ثلاثة دراهم، ويأخذ الرسول الذي يحضر المطلوب ستة دراهم، وإن كان نقيباً أخذ عشرة دراهم ـ قاله الشيخ تقيّ الدين المقريزي رحمه الله ـ قال: فاشتدّ ما بالناس، وكثر دعاءُ الناس على السالِميّ.

قلت: وبالجملة فهم أحسن حالاً من أهل دمشق، وإن أخذ منهم نصف مالهم، وأَيْش يَعمَل السالميّ؟ مسكين! وقد نَدَبه السلطان لإخراج عسكر ثانٍ من الديار المصرية لقتال تيمور. اِنتهى.

ثمّ خلع السلطان على الأمير نَوروز الحافظي وعلى الأمير يَشْبَك الشعباني، واستقرّا مُشِيري الدّولة ومدبِّرَيْ أمورها.

ثمّ في ثالث عشره خلع على القاضي أمين الدين عبد الوهاب بن قاضي القضاة شمس الدين محمد الطرابلسي قاضي العسكر بآستقراره قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد موت قاضي القضاة جمال الدين يوسف الملطي، وعلى القاضي جمال الدين عبد الله الأَقْفَهْسي بآستقراره قاضي قضاة المالكيّة بالديار المصرية عِوَضاً عن القاضي نور الدين عليّ بن الجَلال بحكم وفاته.

وفيه قدِم من الشام من المماليك المنقطعين ثلاثمائة مملوك بأسوأ حال: من المشْي والعُرْي والجوع.

ثم في حادي عشرينه حضر إلى القاهرة قاضي القضاة موفّق الدين أحمد بن نصر الله الحنبليّ من دِمَشق بأسوأ حال، وقَدِم أيضاً قاضي قضاة دمشق علاء الدين علي بن البقاء الشافعيّ وحضر كِتاب تيمورلنك للسلطان على يد بعض المماليك

(١) زيادة عن السلوك.

السلطانيّة يتضمّن طلب أَطْلَمَش [أَطْلَندي][١] وأنه إذا قدم عليه أَرسَل مَن عندَه من الأمراء والنوّاب وغيرهم، وقاضي القضاة صدر الدين المُناوي الشافعي، ويرحل عن دمشق، فطُلب أَطْلَمَش من البرج بالقلعة، وأطلق، وأنعم عليه بخمسة الآف درهم، وأنزل عند الأمير سودون طاز الأمير آخور الكبير، وعيّن للسفر معه قطلوبغا[٢] العلائي، والأمير محمد بن سنقر.

ثم خرج إلى تيمور الأمير بَيْسَق الشيخي الأمير آخور رسولاً من السلطان بالإفراج عن أطلمش وأشياء أخر. هذا ويلبغا السالمي يجدّ في تحصيل الأموال وأخذ في عَرْض أجناد الحَلْقة، وأَلزَم من كان منهم قادراً على السفر بالخروج إلى الشام لقتال تيمور، وأَلزم العاجزَ عن السفر بحضورِ بدَيل، أو تحصيل نصف مُغَلّه في السّنة، وأَلزم أربابَ الغلال المحضَّرة للبيع في المراكب بسواحل القاهرة أن يؤخذ منهم عن كلّ إردب درهم [وأن يؤخذ من كلّ مَركَب من المراكب التي تتنزّه فيها الناس مائة درهم][٢].

ثم في يوم الثلاثاء أوّل شهر رجب أمر السالميُّ أن تُضرَب دنانير فيها ما زِنَةُ الدينار مائة مثقال ومثقال، وفيها ما زنته تسعون مثقالاً ومثقال، ثم ما دون ذلك، إلى أن وصل منها دينار زنته عشرة مثاقيل، فضرب من ذلك جملة دنانير.

ثم [في ثالثه][٣] خلع السلطان على عَلَم الدين يحيى بن أسعد المعروف بأبي كُمّ بآستقراره وزيراً بديار مصر عوضاً عن فخر الدين ماجد بن غراب.

ثم ورد الخبر أن دمرداش المحمدّي نائب حلب تَخلّص من تيمور، وجمع جموعاً من التركمان، وأخذ حلب وقلعتها من التمريّة، وقَتل منهم جماعةً كبيرة.

ثم خلع السلطان على شاهين الحلبي نائب مقدّم المماليك بآستقراره في

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك والضوء اللامع: «قطلوبك».

(٣) زيادة عن السلوك.

تقدمة المماليك السلطانية عوضاً عن صواب المعروف بجنكل[١]، واستقرّ الطواشي فيروز من جُرْجِي مقدَّم الرَّفْرف[٢] نائب المقدّم.

ثم حضر في سابع شهر رجب من عربان البحيرة إلى خارج القاهرة ستّة الآف فارس، وحضر من عُربان الشرقيّة من عَرَب آبن بقر ألفان وخمسمائة فارس، ومن العِيساويّة وبني وائل ألف وخمسمائة فارس، فأنفق فيهم يلبغا السالمي الأموال ليتجهّزوا لحرب تيمور.

ثم حضر في ثامنه قاصدُ الأمير نُعير، وذكر أنه جمع عرباناً كثيرة ونزل بهم على تَدْمُر[٣]، وأنّ تَمُرْلَنْك رحل من ظاهر دمشق إلى القُطَيِّفة[٤].

هذا وقد التفت أهل الدولة إلى يَلبُغا السالمي والعمل في زواله حتى تمّ لهم ذلك.

فلما كان رابع عشر شهر رجب المذكور قُبض على يلبغا السالمي وعلى شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة أُستادار الوالد الذي كان وَلي الوَزَر قبل تاريخه، وسُلِّما لسعد الدين إبراهيم بن غراب ليحاسبهَما على الأموال المأخوذة من الناس في الجِبايات.

قلت: فصار حاله كالمثَل السائر «أفقَرني فيما أَحَبَّ ولا آستغنى».

ثم في ثامن عشره آستقرّ سعد الدين إبراهيم بن غراب المذكور أُستاداراً عِوَضاً عن السالمي مضافاً لما بيده من وظيفتَيْ نظر الجيش والخاصّ.

---

(١) ورد سابقاً برسم «شكل».

(٢) الرفرف في الأصل كان من جملة دور القلعة، عمّره الأشرف خليل بن قلاوون وجعله عالياً حتى إنه كان يشرف على الجيزة كلها. وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها. وكان الرفرف مجلساً يجلس فيه السلطان حتى هدمه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠هـ، وعمل بجواره برجاً بجوار الإسطبل نقل إليه المماليك. (خطط المقريزي: ٢/٢١٣ ــ ٢١٤) والمراد بمقدم الرفرف هنا مقدم المماليك السلطانية المقيمين في هذا البرج.

(٣) تدمر: مدينة قديمة بوسط سورية. كانت واحة تقع بين سورية وبابل شمالي الصحراء السورية وشمالي شرقي دمشق. (الموسوعة العربية الميسرة: ٥٠٠).

(٤) القطيفة: قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص. (معجم البلدان).

ثم في خامس شعبان برزَ الأمراء المعيَّنون للسفر لقتال تيمور بمن عُيِّن معهم من المماليك السلطانيّة وأجنادِ الحَلْقة إلى ظاهر القاهرة، وهم الّذين كانوا بالقاهرة في غيبة السلطان بدمشق، وتقدّم الجميع الأمير تِمراز الناصريّ الظاهريّ أمير مجلس، والأمير آقباي من حسن شاه الظاهري حاجب الحجّاب، ومن أمراء الطبلخانات: الأمير جرِباش الشيخي، والأمير تَمان تَمُر والأمير صوماي الحَسَني، وآمتنع الأمير جكم من السّفر.

وفي اليوم[١] قدم الأمير شيخ المحموديّ نائب طَرابلس فارّاً من أَسْر تيمور إلى الديار المصرية، وأَخبر برحيل تيمور إلى بلاده، فرسم السلطانُ بإبطال السفر، ورجع كل أمير إلى داره من خارج القاهرة.

ثم في الغد[٢] قدم دُقْماق المحمّدي نائب حَمَاة فارّاً أيضاً من تيمور.

وفيه طُلب الوالد وخلع عليه بآستقراره في نيابة دمشق ثانياً على كره منه، وكانت شاغرةً في يوم قدوم تيمور دمشق.

ثم أخلع على الأمير شيخ المحمودي بآستقراره في نيابة طرابلس على عادته، وعلى الأمير دُقْماق المحمَّدي بآستقراره في نيابة حَمَاة على عادته.

ثم أخلع السلطان على الأمير تَمُربُغا المَنْجَكي بآستقراره في نيابة صَفَد، وعلى الأمير تَنْكِز بُغا الحَطَطي بنيابة بَعْلَبَكّ.

ثم نودي بالقاهرة ألّا يقيم بها أحد من الأعاجم، وأُمهِلوا ثلاثةَ أيّام، وهُدِّد من تخلّف منهم بالقاهرة، فلم يَخرج أحد؛ وأكثر الناسُ من الكتابة في الحيطان: «مِنْ نُصرة الإسلام، قَتْل الأعجام»، كل ذلك وأحوال مصر غيرُ مستقيمة.

وأما البلاد الشاميّة فحصل بها جَراد عظيم بعد خروج تمرلنك منها، فزادت خراباً على خراب.

---

(١) في السلوك: «في سابع شعبان».

(٢) في السلوك: «في تاسع عشره».

قلت: ولنذكر هنا نُبذةً يسيرة من أخبار تيمورلنك ونسبه وكثرة عساكره وعظم دهائه ومكره، ليكون ناظر هذا الكتاب على عِلم من أخباره وأحواله، وإن كان في ذلك نوع تطويل وخروجٍ عن المقصود، فهو لا يخلو من فائدة.

فنقول: هو تمرْلَنك وقيل تيمور ـ كلاهما بمعنى واحد، والثاني أفصح، وهو باللغة التركية الحديد ـ بن أيتمش قَتلغ بن زَنْكِي بن سَنْبا بن طارم بن طغريل بن قليج بن سنقور بن كنجك بن طَغَر سَبوقا بن التَاخان، المغليّ الأصل، من طائفة جغتاي[١]، الطاغية تيمور كوركان، أعني باللغة العجمية صهر الملوك[٢].

مولده سنة ثمان[٣] وعشرين وسبعمائة بقرية تسمَّى خواجا أبغار[٤] من عمل كشّ أحد مدائن ما وراء النهر، وبُعد هذه البلدة عن مدينة سمرقند يوم واحد، ويقال: إنه رئي ليلة وُلد كأن شيئاً يشبه الخوذة تراءى طائراً في جوّ السماء، ثم وقع إلى الأرض في فضاء كبير، فتطاير منه جمر وشَرَر حتى ملأ الأرض. وقيل: إنه لما خرج من بطن أمّه وُجدتْ كَفّاه مملوءتين دماً، فوجدوا أنه تُسفَك على يديه الدماء. قلت: وكذا وقع.

وقيل: إن والده كان إسكافاً. وقيل: بل كان أميراً عند السلطان حسين صاحب مدينة بَلْخ[٥]، وكان أحد أركان دولته، وإن أمه من ذريّة جنكزخان. وقيل:

---

(١) طائفة الجغتاي: من السكان البدو فيما وراء النهر. وكانوا طائفة مقاتلة نعمت بالامتيازات منذ أيام جغتاي خان ثاني أبناء جنكيز خان ومؤسس خانية الجغتاي في آسيا الوسطى. وخانات الجغتاي وهذه الطائفة من البدو أخذوا تسميتهم من المؤسس الأول هذا. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١٢/٧١ ـ ٨١).

(٢) في دائرة المعارف الإسلامية: «كوركان أي زوج ابنة الخاقان». ووالد تيمور هو تورغاي أو تاراغاي. وقد جاء نسب تيمور لنك على قبره في سمرقند على النحو التالي: تيمور بن تاراغاي بن بُرْكِل بن إيلانكير بن نويان بن قاراجار بن برولا بن إيرزَجي بن كاجولاي بن تومناي. (دائرة المعارف الإسلامية: ١٠/٢٩٨).

(٣) في دائرة المعارف الإسلامية: سنة ٧٣٦هـ.

(٤) في معجم البلدان: «أبغر». وفي طبعة دار الكتب المصرية عن عجائب المقدور: «أيلغار». قال: وهو الصحيح.

(٥) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.

كان للسلطان حسين المذكور أربعة وزراء، فكان أبو تيمور أحدهم، وولي تيمور بعد موته مكانه عند السلطان حسين. وأصل تيمور من قبيلة بَرْلاص.

وقيل: إن أوّل ما عُرف من حال تيمور أنه كان يتحرّم[١]، فسَرق في بعض الليالي غَنمةً[٢] وحملَها ليَهْرب بها، فآنتبه الراعي وضربه بسَهْم فأصاب كَتِفَه، ثم رَدِفه بآخَر فلم يصبْه، ثم بآخرَ فأصاب فَخِذَه وعمل فيه الجرح الثاني الذي في فخذه حتى عرج منه؛ ولهذا سمي تمرلنك، لأن «لنك» باللغة العجميّة أعرج؛ وأما آسمه الحقيقيّ فَـ(تمر) بلا «لنك»، فلما أعرج أضيف إليه «لنك».

ولما تعافَى أخذ في التحرّم على عادته وقطع الطريق، وصَحِبَه في تحرّمه جماعة عدّتهم أربعون رجلاً. وكان تيمور لنك يقول لهم في تلك الأيام: «لا بد أنْ أملك الأرض وأقتلَ ملوكَ الدنيا» فَيسخَر منه بعضُهم، ويصدّقه البعض، لما يرونه من شدّة حزمه وشجاعته. وقيل إنه تاهَ في بعض تحرّماته مدّة أيام إلى أن وقع على خيل السلطان حسين المقدّم ذكره، فأنزله الجُشاريّ[٣] الخيل عندَه، وعطف عليه وآواه، وأَتى إليه بما يحتاجه من طعام وشراب. وكان لتيمور معرفة تامّة في جياد الخيل، فأعجب الجُشاريَّ منه ذلك، فاستمرّ به عنده إلى أن أَرسل معه بخيول إلى السلطان حسين وعرّفه به، فأنعم عليه وأعاده إلى الجُشاري، فلم يزل عنده حتّى مات، فولّاه السلطان حسين عِوَضه على جُشاره[٤]. ولا زال يترقّى بعد ذلك من وظيفة إلى أخرى حتى عظُم وصار من جملة الأمراء. وتزوّج بأخت السلطان حسين، وأقام معها مدّة إلى أن وقع بينهما في بعض الأيّام كلام، فعايرته بما كان عليه من سوء الحال، فقتَلَها وخرج هارباً وأظهرَ العصيانَ على السلطان حسين، وآستفحل

(١) كذا. والمراد أنه كان يتعاطى السرقة واللصوصية. ومن هذا القبيل يقول العامة للسارق: الحرامي. — وفي طبعة دار الكتب المصرية: «يتجرّم» بالجيم المعجمة. والسياق يرجح اللفظ الأول.

(٢) لفظ عامي. فالغنم هو الشاء، لا واحد لها من لفظها. والواحد شاة.

(٣) صوابه: «الجشّار»، وهو صاحب الجَشْر من الماشية. والجشر (بفتح الشين وتسكينها): هي الماشية ترعى في مكانها لا تأوب إلى أهلها. والقوم يبيتون مكانهم في مرعى الإبل لا يرجعون إلى بيوتهم.

(٤) أي على خيله وماشيته.

أمرُه، وآستولى على ما وراء النهر[١]، وتزوّج ببنات ملوكِها، فعند ذلك لقَّب بـ«كور كان»، وقد تقدم الكلام على آسم كور كان. ولا زال أمره ينمو وأعماله تتسع إلى أن خافه السلطان حسين، وعزم على قتاله، وبلغه ذلك فخرج هارباً.

ثم قوي أمرُه بعد سنة ستّين وسبعمائة. فلمّا كثر عسكره بعث إلى ولاة بَلَخْشان، وكانا أخوين قد ملكا بعد موت أبيهما، يدعوهما إلى طاعته، فأجاباه. وكانت المُغل قد نهضت من جهة الشرق على السلطان حسين، وكان كبيرهم الخان قمر الدين، فتوجّه السلطان حسين إليهم وقاتلهم، فأرسل تيمور يدعوهم إليه، فأجابوه ودخلوا تحت طاعته، فقويتْ بهم شوكتُه.

ثم قصده السلطان حسين ثانياً في عسكر عظيم حتى وصل إلى ضاغْلُغَا[٢]، وهو موضع ضيّق يسير الراكب فيه ساعة، وفي وسطه باب إذا أغلق وأُحمي لا يقدر عليه أحد، وحوله جبال عالية، فملك العسكر فم هذا الدّرْبَند[٣] من جهة سَمَرْقند، ووقف تيمور بمن معه على الطريق الآخر، وفي ظن العسكر أنهم حصروه وضيقوا عليه، فتركهم ومضى في طريق مجهولة. فسار ليلة في أوعار مشقة حتى أدركهم في السحر، وقد شرعوا في تحميل أثقالهم [بناءً][٤] على أن تيمور قد انهزم وهرب خوفاً منهم. فأخذ تيمور يكيدهم بأن نزل هو ومن معه عن خيولهم [وتركوها ترعى في تلك المروج، وناموا كأنهم من جملة العسكر، فمرت بهم خيولهم][٥] وهم يظنون أنهم منهم وقد قصدوا الراحة. فلما تكامل مرور العسكر ركب تيمور بمن معه

---

(١) بلاد ما وراء النهر: لما فتح العرب بقيادة قتيبة بن مسلم سنة ٧٠٥م بلاد بقطريان (باكتريانا) واستولوا على قاعدتها بقطر (باكترا) أسموها بلخ، وعبروا نهر أكسوس وأسموه جيحون (أموداريا الآن)، وأسموا البلاد التي افتتحوها «ما وراء النهر»، وهي بلاد الصُّغد إلى نهر يكزرث (سيرداريا الآن). وأشهر مدن بلاد ما وراء النهر: كاشان، وفاراب، وفرغانة، والشاش، وسمرقند، وبخارى، وكَشّس. (الموسوعة العربية الميسّرة: ٣٩٢).

(٢) في بلدان الخلافة الشرقية: «قوهلُوغا».

(٣) الدربند: ممر ضيّق بين جبلين.

(٤) زيادة لتوضيح السياق.

(٥) زيادة عن المنهل الصافي.

أقفيتهم، وهم يصيحون وأيديهم تدقهم دقاً بالسيوف، فاختبط الناس وانهزم السلطان حسين بمن معه لا يلوي أحد على أحد، حتى وصل إلى بلـخ فاحتاط تمرلنك على ما كان معه، ولمّ[1] من بقي من العسكر عليه، فعظم جمعه، وكثر ماله، واستولى على الممالك، ولا زال حتى قبض على السلطان حسين بعد أن أمّنه وقتله، فهذا أوّل عظمته.

والثانية واقعته مـع تُقُتمِش[2] خان ملك التتار، فإنه لما واقعه بأطراف تركستان قريباً من نهر خُجَند، واشتد الحرب بينهما وكثرت القتلى في عسكر تيمور حتى كادت تَفْنى، وعزم تيمور على الهزيمة، فإذا هو بالمعتقَد السيد الشريف بَركة قد أقبل على تيمور، فقال له تيمور وقد جَهَده البلاء: «يا سيّدي جيشي انكسر»، فقال له السيد الشريف بركة المذكور: «لا تخف»؛ ثم نزل عن فرسه وتناول كفّاً من الحصى، ثم ركب فرسه ورمى بها في وجوه جيش تقتمش وصرخ قائلاً بأعلى صوته «ياغي قجتي» ـ يعني باللّغة التركية: العدوّ هرب ـ فصرخ بها أيضاً تيمور كمقالة الشريف بركة، فامتلأت آذان التمرية بصرختهما وأتوه بأجمعهم بعدما كانوا ولّوا هاربين. فَكرّبهم تيمور ثانياً في عسكر تقتمش، وما منهم أحد إلا وهو يصرخ «ياغي قجتي»، فانهزم عند ذلك عسكر تقتمش خـان، وركبت التمرية أقفيتهم، وغنموا منهم من الأموال ما لا يدخل تحت حصر، فاستولى على غالب بلاد تقتمش خان.

والثالثة واقعته مـع شيرة[3] علي صاحب مَازَنْدَران وكيلان وبلاد الريّ والعراق وكسره وقبض عليه وقتله وملك جميـع بلاده. ثم قصته مـع شاه شجاع صاحب

---

(١) أي: جمع.

(٢) هو خان القبيلة الذهبية من التتار. هرب بعد مقتل أبيه تولي جوجه والتجأ إلى تيمور لنك، فاستقبله في سمرقند وساعده على محاربة أوروس أمير القبيلة البيضاء. وفي عام ٧٨٢هـ أنفذه تيمور لنك لغزو الروس فاستولى على موسكو ونهبها. ولكن تقتمش انتفض على ولي نعمته في سنة ٧٨٦هـ ووقعت بينهما مواجهة انتصر في بدايتها تقتمش، ثم حلّت به الهزيمة. (دائرة المعارف الإسلامية: ٤٦٩/٩ و ٢٩٨/١٠).

(٣) في معجم لين بول: «شيرعلي». ويمكن أن يقرأ هناك: بير علي. (النجوم: ٧٧/٦، حاشية، طبعة كاليفورنيا). وفي دائرة المعارف الإسلامية: ٣٠٠/١٠ أن تيمور لنك خلـع «ولي» صاحب مازندران عن إمارته في سنة ٧٨٦هـ.

شيراز وتزوَّج بنت شاه شجاع لابن تيمور، ومهادنة شاه شجاع له إلى أن مات شاه شجاع، واختلفت أولاده وقوي شاه منصور على اخوته فمشى عليه تيمور هذا، فلقيه شاه منصور في ألفي فارس لا غير. وشاه منصور هذا هو أفرس من قاتل تيمور من الملوك بلا مدافعة، فإنه برز إليه في ألفي فارس وعساكر تيمور نحو المائة ألف. وعندما برز له شاه منصور فر من عسكره أمير يقال له محمد بن أمين الدين إلى تيمور بأكثر العساكر، فبقي شاه منصور في أقل من ألف فارس، فقاتل بهم تيمور يومه إلى الليل. ثم مضى كل من الفريقين إلى معسكره، فركب شاه منصور في الليل وبيّت التمرية، فقتل منهم نحو العشرة آلاف فارس. ثم انتخب شاه منصور من فرسانه خمسمائة فارس، فأصبح وقاتل بهم من الغد، وقصد بهم تيمور حتى أزاله عن موقفه، وهرب تيمور واختفى بين حرمه، فأحاط بهم التمرية مع كثرة عددهم وهو يقاتلهم حتى كلّت يداه وقتلت أبطاله، فانفرد عن أصحابه وألقى نفسه بين القتلى، فضربه بعض التمرية فقتله، وأتى برأسه إلى تيمور، فقتل تيمور قاتله أسفاً عليه. واستولى تيمور أيضاً على جميع ممالك العَجَم بأسرها بعد شاه منصور.

هذا وقد آستوعبنا واقعة شاه منصور بأوسع من ذلك في تاريخنا (المنهل الصافي) إذ هو كتاب تراجم.

ثم أخذ تيمور في الاستيلاء على مملكة بعد مملكة حتى مَلَك العراقَين[١]، وهرب منه السلطان أحمد بن أويس، وأخرب غالبَ العراق: مثل بغداد والبصرة والكوفة وأعمالهم، ثم ملك غالب أقاليم ديار بكر[٢]، وأخرب بها أيضاً عدّة بلاد.

ثم قصد البلاد الشاميّة في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، ثم رجع خائفاً من الملك الظاهر برقوق إلى بلاده، فبلغه موت فيروز شاه ملك الهند عن غير ولد، وأن

---

(١) أي عراق العرب، وعاصمته بغداد، وعراق العجم، وهو بلاد الجبل ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان ومن الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن جهة الشمال بلاد الديلم وقزوين. (تقويم البلدان).

(٢) ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة. وحدّها ما غرب من دجلة، إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين، وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت وحيزان وحيني وما تخلل ذلك من البلاد، ولا يتجاوز السهل. (معجم البلدان). وديار بكر هي «آمد». وهي اليوم مدينة في تركية غربي دجلة.

أمر الناس بمدينة دَلّي[١] في آختلاف، وأنه جلس على تخت المُلْك بدَلّي وزير يقال له مَلّو، فخالف عليه أخو فيروز شاه، واسمه سارنك خان متولّي مدينة مُولْتان[٢]، فلمّا سمع تيمور هذا الخبر آغتنم الفرصة وسار من سَمَرْقند في ذي الحّجة سنة ثمانمائة إلى مُولْتان وحاصرَ مَلِكَها سارنك خان ستّة أشهر، وكان في عسكر سارنك خان ثمانمائة فيل حتى مَلَكها.

ثم سار تيمور إلى مدينة دِلّي وهي تخت الملك، فخرج لقتاله صاحبها مَلّو المذكور وبين يديه عساكره ومعهم الفِيَلة، وقد جعل على كلّ فيل برجاً فيه عدّة من المقاتِلة، وقد أُلبستْ تلك الفيلةُ العُدَد والبركُستُوانات[٣]، وعُلّق عليها من الأجراس والقلاقل ما يهول صوتُه ليجفل بذلك خيول الجغتاي، وشدّوا في خراطيمها عدّةً من السيوف المرهَفة، وسارت عساكر الهند من وراء الفيلة لتُنَفّر هذه الفيلة خيول التمرية بما عليها، فكادهم تيمور وحسب حسابهم بأن عمل آلافاً من الشوكات الحديد مثلثة الأطراف، ونثرها في مجالات الفيلة، وجعل على خمسمائة جمل أحمال قصب محشوّة بالفتائل المغموسة بالدُّهن، وقدّمها أمامَ عسكره، فلمّا تراءى الجَمْعان وزحف الفريقان للحرب، أَضرم تيمور في تلك الأحمال النارَ وساقها على الفيَلة. فركضتْ تلك الأباعر من شدّة حرارة النار، ثم نخسها سوّاقُوها من خَلْف. هذا وقد أكمن تيمور كميناً من عسكره.

ثم زحف بعسكره قليلاً وقت السحر. فعندما تناوش القوم القتال لوى تيمور رأسَ فرسه راجعاً، يوهم القوم أنه قد آنهزم منهم ويكّف عن طريق الفِيَلة كأنّ خيوله قد جَفَلت منها، وقصد المواضع التي نثر فيها تلك الشوكات الحديد التي صنعها، فمشت حيلتُه على الهنود، ومشَوا بالفيلة وهم يسوقونها خلفه أشدّ السَّوْق حتى

---

(١) دَلّيّ: هي قاعدة بلاد الهند. ووردت في تقويم البلدان باسم «دهلي». وذكرها المقريزي في السلوك باسم «دلّة». وهي المعروفة اليوم باسم دلهي.

(٢) مولتان: في إقليم البنجاب. وهي اليوم في الباكستان.

(٣) البركستوانات: غاشية الحصان المزركشة، وتكون لغير الخيول كالفيلة. وقال الدكتور مصطفى جواد: «وتجوز فيه ثلاث لغات: بركستوان، وبركصطوان، وبركشتوان. وأحسب أن أصله بالفارسية «بركشتبان» أي حافظ لحم الصدر» (في التراث العربي: ١/٣٤٥).

داست على تلك الشوكات الحديد، فلما وطئْتها نَكَصتْ على أعقابها.

ثم التف تيمور بعساكره عليها بتلك الجمال، وقد عظم لهيبها على ظهورها، وتطاير شررها في تلك الآفاق، وشَنُـع زُعاقُها من شدّة النخس في أدبارها.

فلما رأت الفِيَلة ذلك جفلتْ وكرّت راجعة على العسكر الهندي، فأحست بخشونة الشوكات التي طرحها تيمور في طريقها، فبركت وصارت في الطريق كالجبال مطروحة على الأرض لا تستطيـع الحركة، وسالت أنهار من دمائها؛ فخرج عند ذلك الكمينُ من عسكر تيمور من جنبـي عسكر الهنود، ثم حَطَمَ تيمور بمن معه، فتراجعت الهنود وتراموا بالسهام. ثم إنهم تضايقوا وتقاتلوا بالرماح ثم بالسيوف والأطبار[١]. وصبر كلٌّ من الفريقين زماناً طويلاً، إلى أن كانت الكسرة على الهنود، بعد ما قتل أعيانهم وأبطالهم، وآنهزم باقيهم بعد أن ملّوا من القتال. فركب تيمور أقفيتهم حتى نزل مدينة دلّي وحصرها وأخذها بعد مدّة عنوة. وآستولى على تخت ملكها وآستصفى ذخائرها، وفعلت عساكره فيها على عادتهم القبيحة من الأَسْر والسَّبْـي والقتل والنَّهْب والتخريب.

وبينما هم في ذلك بلـغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق صاحب مصر، وموت القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس من بلاد الروم، فرأى تيمور أنه بعد موتهما ظفر بمملكتيهما، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً، فنجز أمره وولّى مسرعاً بعد أن استناب بالهند من يثق به من أمرائه، وسار حتى وصل سَمَرْقَنْد، ثم خرج منها عجِلاً في أوائل سنة آثنتين وثمانمائة، فنزل خراسان.

ثم مضى منها إلى تبريز فاستخلف بها آبنه ميران شاه. ثم سار حتى نزل قراباغ[٢] في شهر ربيـع الأوّل، فقَتَل وسَبَـى. ثم رحل منها ونزل تَفْلِيس[٣] في

---

(١) الطبر: الفأس. واللفظ فارسي. ومنه الطبردار وهو الذي يحمل الطبر حول السلطان عند ركوبه في المواكب. ومنه أيضاً الطبرزد، وهو قطع السكر الصلب الذي لا يكسر إلا بالفأس. ومنه أيضاً الطبرزينات وهي الأطبار التي تحمل حول السلطان في بلاد المغرب. (صبح الأعشى: ٢٠٧/٥، ٤٥٨).

(٢) قراباغ: مصيف ما بين السلطانية وتبريز. (رحلة ابن بطوطة: ٧٧، ٢٠٥).

(٣) تفليس: هي اليوم مدينة في جمهورية جورجية في الاتحاد السوفياتي. وفي معجم البلدان: «هي بأرمينية، وبعضهم يقول بأران. وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب».

جمادى الآخرة وعبر بلاد الكرج، وأسرف فيها أيضاً في القتل والسبي. ثم قصد بغداد ففرّ منه السلطان أحمد بن أويس إلى قرا يوسف، فعاد تيمور من بغداد وصيّف ببلاد التركمان. ثم سار إلى سِيوَاس وقد أخذها الأمير سليمان بن أبـي يزيد بن عثمان، فحصرها تيمور ثمانية عشر يوماً حتى أخذها في خامس المحرّم من سنة ثلاث وثمانمائة، وقبض على مقاتلتِها وهم ثلاثة آلاف نفر، فحفر لهم سَرْداباً وألقاهم فيه وطمّهم بالتراب بعد ما كان حلف لهم ألاّ يريق لهم دماً وقال: «أنا على يميني، ما أرقتُ لهم دماً». ثم وضع السيفَ في أهل البلد وأخرَبَها حتى محا رسومها.

ثم سار إلى بَهَسْنَا[١] فنهَب ضواحيها وحَصَر قلعتَها ثلاثة وعشرين يوماً حتى أخذها. ومضى إلى مَلَطْيَة فدكّها دكّاً. وسار حتى نزل قلعة الروم[٢] فلم يقدر عليها، فتركها وقصد عين تاب[٣]، ففرّ منه نائبُها الأمير أَرْكَماس الظاهري، وهو غير أَرْكَماس الدَّوادار في الدولة الأشرفية.

ثم قصد حلب ووقع له بها وبدمشق ما تقدّم ذكرُه إلى أن خرج من البلاد الشاميّة.

وكان رحيلُه عن دمشق في يوم السبت ثالث شعبان من سنة ثلاث وثمانمائة المذكورة، وآجتاز على حلب وفعل بها ما قدر عليه ثانياً، ثم سار منها حتى نزل على ماردين يوم الاثنين عاشر شهر رمضان من السنة، ووقع له بها أمور، ثم رحل عنها.

وأوهم أنه يريد سمرقند، يُوَرِّي بذلك عن بغداد، وكان السلطان أحمد بن

---

(١) بهسنا (بهسنى): مدينة وقلعة حصينة من أعمال حلب متاخمة لبلاد الروم. (الدرّ المنتخب: ١٧١).

(٢) قلعة الروم: قلعة حصينة غربـي الفرات بين البيرة وسميساط. وكانت مقرّ خليفة الأرمن. افتتحها الأشرف خليل بن قلاوون وسماها قلعة المسلمين. (الدرّ المنتخب: ٢٣٨ ــ ٢٣٩؛ والتعريف بالمصطلح الشريف: ٢٣٢).

(٣) عين تاب (عينتاب): قلعة حصينة على جبل، بين حلب وأنطاكية. ونهر الساجور بها ويخرج من ناحيتها. (الدرّ المنتخب: ١٧٠؛ ومعجم البلدان: ٤/١٧٦).

أويس قد آستناب ببغداد أميراً يقال له فرج، وتوجّه هو وقرا يوسف نحو بلاد الروم، فندب تيمور على حين غفلة أمير زاده رستم ومعه عشرون ألفاً لأخذ بغداد. ثم تبعه بمن بقي معه ونزل على بغداد، وحصرها حتى أخذها عنوةً في يوم عيد النحر من السنة، ووضع السيفَ في أهل بغداد.

حدّثني الأمير أَسَنْباي الزَّرَدْكاش الظاهري برقوق ـ وكان أسر عند تيمور وحَظي عنده، وجعله زَرَدْكاشه عند أخذ بغداد وحصارها ـ بأشياء مهولة، منها أنه لمّا آستولى على بغداد أَلزم جميع من معه أن يأتيه كلّ واحد منهم برأسين من رؤوس أهل بغداد؛ فوقع القتلُ في أهل بغداد وأعمالها، حتى سالت الدماءُ أنهاراً، حتى أتوه بما أراد، فَبنى من هذه الرؤوس مائة وعشرين مئذنة. فكانت عدّة من قتل في هذا اليوم من أهل بغداد تقريباً مائة ألف إنسان ـ وقال المقريزي: تسعين ألف إنسان ـ وهذا سوى من قتل في أيّام الحصار، وسوى من قتل في يوم دخول تيمور إلى بغداد، وسوى من أَلَقى نفسَه في الدِّجْلة فغرِق، وهو أكثر من ذلك.

قال: وكان الرجل المرسوم له بإحضار رأسين إذا عجز عن رأس رجلٍ قَطعَ رأسَ آمرأة من النساء وأزال شعرها وأحضرها، قال: وكان بعضهم يقف بالطرقات ويصطاد من مرّ به ويقطع رأسه.

ثم رحل تيمور عن بغداد وسار حتى نزل قراباغ بعد أن جعلها دَكّاً خراباً، ثم كتب إلى أبـي يزيد بن عثمان صاحب الروم أن يُخرِج السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف من ممالِك الروم وإلاّ قصده وأنزل به ما نزل بغيره. فردّ أبو يزيد جوابَه بلفظ خَشِن إلى الغاية؛ فسار تيمور إلى نحوه. فجمع أبو يزيد بن عثمان عساكرَه من المسلمين والنصارى وطوائف التَّتَر.

فلمّا تكامل جيشُه سار لحربه، فأرسل تيمور قبل وصوله إلى التتار الذين مع أبـي يزيد بن عثمان يقول لهم: «نحن جنس واحد، وهؤلاء تَرْكُمان ندفعهم من بيننا، ويكون لكم الروم عِوَضَهم». فآنخدعوا له وواعدوه أنهم عند اللقاء يكونون معه.

وسار أبو يزيد بن عثمان بعساكره على أنه يلقى تيمور خارج سِيواس، ويردّه عن عبور أرض الروم. فسلك تيمور غيرَ الطريق، ومشى في أرض غير مسلوكة، ودخل بلاد آبن عثمان، ونزل بأرض مخصِبة وسيعة. فلم يشعر آبن عثمان إلّا وقد نُهبت بلاده، فقامت قيامته وكرّ راجعاً، وقد بلـغ منه ومن عسكره التعب مبلغاً أَوهَن قواهم، وكلّت خيولهم، ونزل على غير ماء، فكادت عساكره أن تَهلِك، فلمّا تدانَوا للحرب كان أوّل بلاء نزل بابن عثمان مخامرة التتار بأسرها عليه، فضعُف بذلك عسكرهُ، لأنّهم كانوا معظم عسكره، ثم تلاهم ولده سليمان ورجـع عن أبيه عائداً إلى مدينة بُرْصا بباقي عسكره، فلم يبق مـع أبـي يزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس، فثبت بهم حتى أحاطت به عساكر تيمور، وصدمهم صدمة هائلةً بالسيوف والأطبار حتى أفنَوا من التمرية أضعافَهم. وآستمرّ القتال بينهم من ضحى يوم الأربعاء إلى العصر، فكلّت عساكر آبن عثمان، وتكاثروا التمرية عليهم يضربونهم بالسيوف لقلّتهم وكثرة التَّمُرية، فكان الواحد من العثمانية يقاتله العشرة من التمرية، إلى أن صُرِع منهم أكثرُ أبطالهم، وأُخذ أبو يزيد بن عثمان أسيراً قبضاً باليد على نحو ميل من مدينة أَنقَرة، في يوم الأربعاء سابـع عشرين ذي الحجّة سنة أربـع وثمانمائة بعد أن قتل غالبُ عسكره بالعطش، فإن الوقت كان ثامن عشرين أبيب بالقبطيّ وهو تموز بالروميّ. وصار تيمور يوقِف بين يديه في كل يوم ابنَ عثمان طلباً ويَسخَر منه ويُنْكيه بالكلام. وجلس تيمور مرّة لمعاقَرة الخمر مـع أصحابه وطلب آبن عثمان طلباً مزعِجاً، فحضر وهو يَرسُف في قيوده وهو يرجف، فأجلسه بين يديه وأخذ يحادثه، ثم وقف تيمور وسقاه من يد جواريه اللّاتي أسرهنّ تيمور، ثم أعاده إلى محبسه.

ثم قدم على تيمور إسْبَنْدار[1] أحد ملوك الروم بتَقادِمَ جليلة، فقَبِلها وأكرمه وردّه إلى مملكته. هذا وعساكر تيمور تفعل في بلاد الروم وأهلِها تلك الأفعالَ المقدّم ذكرها.

وأما أمر سليمان بن أبـي يزيد بن عثمان، فإنه جمـع المال الذي كان بمدينة

---

(١) كذا. وهو إسفنديار بن بايزيد، حاكم قسطموني وسينوب وبرغلو. توفي عام ٨٤٣هـ بعد أن حكم منذ سنة ٨٠٥. وهو من الأسرة الإسفنديارية من سلاجقة الروم بآسيا الصغرى. (معجم زامباور: ٢٢٤).

بُرصا، وجميع ما كان فيها ورحل إلى أَدرْنة وتلاحقَ به الناس، وصالح أهلَ إستانبول. فبعث تيمور فرقةً كبيرة من عساكره صحبةَ الأمير شيخ نور الدين إلى برصا فأخذوا ما وجدوا بها، ثم تبعهم هو أيضاً بعساكره.

ثم أفرج تيمور عن محمد وعليّ أولاد ابن قرمان من حبس أبي يزيد بن عثمان، وخلع عليهما وولّاهما بلادهما، وألزم كلَّ واحد منهما بإقامة الخطبة، وضرب السِّكّة بآسمه وآسم السلطان محمود خان المدعو صرغتمش[١].

ثم شتا في معاملة منتشا وعَمِل الحيلةَ في قتل التتار الّذين أتَوه من عسكر ابن عثمان حتى أفناهم عن آخرهم.

وأما أبو يزيد بن عثمان، فإنه آستمرّ في أسر تيمور من ذي الحجّة سنة أربع، إلى أن مات بكربته وقيوده، في أيام من ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة، بعد أن حكم ممالك الروم نحو تسع سنين.

وكان من أجلّ الملوك حَزماً وعزماً وشجاعة، رحمه الله تعالى. وهو المعروف بِيلدِرِم بايزيد[٢].

ثم رجع تيمور من بلاد الروم وقد تعلّقت آمالُه بأخذ بلاد الصين، فأخذه الله قبل أن يصل، ولولا خشية الإطالة لذكرنا أمرَه وما وقع له بطريق الصين، إلى أن توفّي لعنه الله، ولكن أضربنا عن ذلك خشية الإطالة، وأيضاً قد ذكرناه في تاريخنا (المنهل الصافي) مستوفاة، فلينظر هناك.

وكانت وفاة تيمور في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانمائة وهو نازل بالقرب من أُترار[٣]، وأُترار بالقرب من آهنكران، ومعنى آهنكران باللغة العربية الحدّادون.

(١) كذا. وصوابه: محمود خان بن سيورغتمش المدعو جغتاي. ـــ راجع ص ١٩٢ من هذا الجزء، حاشية(٢).

(٢) هو اسمه الصحيح. راجع ص ٥٠ من هذا الجزء، حاشية(٢).

(٣) أترار أو أطرار: مدينة عظيمة وولاية واسعة في أول حدود الترك بما وراء النهر على نهر سيحون قرب فاراب. (معجم البلدان).

ولما مات لبسوا عليه المُسوح، ولم يكن معه أحد من أولاده سوى حفيده سلطان خليل بن ميران شاه بن تيمور، فتسلطن موضع جدّه تيمور في حياة والده ميران شاه المذكور. فاستولى خليل المذكور على خزائن جدّه وبذل الأموال، وتم أمره. انتهى ما أوردناه من قصة تيمورلنك على سبيل الاختصار.

ولنعد إلى ما نحن بصدده من ترجمة السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق [رحمه الله].

ولما كان يوم الأحد أوّل شوّال(١) أفرج السلطان عن الأمير يَلْبُغا السالمي وهو متضعّف بعد ما عُصِر وأهين إهانةً بالغة.

وفي هذه الأيّام كثر آحتراز الأمراء بعضهم من بعض، وتحدّث الناس بإثارة فتنة.

ثم في سابع شوّال المذكور آستقرّ الأمير طُولُو من علي باشاه الظاهري في نيابة إسكندرية عوضاً عن الأمير أرِسطاي، واستقر الأمير بَشْباي من باكي الظاهري حاجباً ثانياً على خبز سُودون الطيّار، إمرة طبلخاناه، واستقر كلٌّ من سودون الطيار وأَلْطُنْبُغا من سيدي حجّاباً بحلب لأمر آقتضى ذلك.

ثم آستدعى السلطان الأمراءَ بقلعة الجبل، وقال لهم: «قد كتبنا مناشير جماعة من الخاصكية بأمريّات ببلاد الشام من أوّل شهر رمضان، فلِمَ لا يسافرون؟» وكلّ ذلك بتعليم يشبك الدوادار. فقال الأمير نوروز الحافظي: «ما في هذا مصلحة! إذا أرسل السلطان هؤلاء من يبقى عنده من مماليك أبيه الأعيان؟» ووافق نوروزاً سودونُ الماردانى. فقال السلطان: «من ردَّ مرسومي فهو عدوّي»، فسكت الأمراء. وأمر السلطان بالمناشير أن تبعث إلى أربابها. فلما نزلت إليهم امتنعوا من السفر، ومنهم من ردّ منشوره، فغضب السلطان. وأصبح الجماعة يوم الأحد، وقد اتفقوا مع الأمراء وساروا للأمير نوروز الحافظي وتحدّثوا معه في عدم سفرهم، فاعتذر إليهم،

(١) يلاحظ أن المؤلف أهمل أكثر حوادث شهر شعبان وكامل حوادث شهر رمضان لسنة ٨٠٣هـ. ــ قارن بالسلوك: ٣/١٠٥٦ ــ ١٠٥٩.

وبعثهم لسودون المارداني رأس نوبة النوب فحدّثوه في ذلك، وما زالوا به حتى ركب للأمير يشبك الشعباني الدوادار وحدّثه في ألّا يسافروا، فأغلظ يَشبك في ردّ الجواب عليه، وهدّدهم بالتوسيط إن آمتنعوا من السفر.

ثم أمره أن يطلع إلى السلطان ويسأله في ذلك، فطلع سُودون الماردانيّ إلى السلطان، وسأله في إعفائهم من السفر، وأَعلَمه أنه قد آتفق منهم نحو الألف تحت القلعة، وهم مجتمعون، فبعث السلطان إليهم بعض الخاصكيّة يقول لهم: «نحن ما خلّيناكم بلا رزق، بل عَملناكم أمراء». فما هو إلّا أن نزل إليهم وكلّمهم في ذلك، ثاروا عليه وسبّوه ثم ضربوه حتى كاد يَهلِك. وبينما هم في ضربه، وإذا بالأمير قطلوبغا الحسني الكَرَكي والأمير آقباي الكَرَكي الخازندار نزلا من القلعة، فمال عليهم المماليك يضربونهم بالدَّبابيس إلى أن سقط قَطْلُوبُغا الكَرَكي، وتكاثر عليه مماليكُه وحملوه إلى بيته، ونجا آقباي الكَرَكي الخازندار وآلتجأ إلى بيت الأمير يَشْبك الدوادار. وماجت البلد وغلِّقت الأسواق، فنودي بعد العصر من اليوم المذكور بطلوع الأمراء والمماليك السلطانيّة في الغد إلى القلعة، ومن لم يطلع حلّ مالُه ودمُه للسلطان.

ثم طلع الأمير يشبك، ونوروز الحافظي، وآقباي الكَرَكي الخازندار، وقطلوبغا الكَرَكي إلى القلعة بعد عشاء الآخرة، وباتوا بالقلعة، إلّا نُوروزاً فإنّه أقام معهم ساعةً عند السلطان، ثم نزل إلى داره. وطلع أيضاً في الليل غالب المماليك السلطانية.

وأصبحوا يوم الاثنين تاسع شوال، فطلع جميع الأمراء والمماليك إلا الأمير جَكَم من عوض، وسُودون الطيّار، وقاني باي العلائي، وقَرْقَماس الأينالي، وجُمَق وتَمُربغا المشطوب، في عدّة من المماليك السلطانية الأعيان، منهم يشبك العثماني، وقمج وبرسْبُغا وطرباي وبقية خمسمائة مملوك، والجميع لبسوا السلاح وآلة الحرب ووقفوا تحت القلعة حتى تَضحَّى النهار. ثم مضوا إلى بِركة الحَبَش ونزلوا عليها.

وأما أهل القلعة، فإن يشبك بعث في الحال نقيب[١] الجيش إلى الشيخ لاجين الجركسي أحد الأجناد، فقبض عليه وحمله إلى بيت آقباي حاجب الحجّاب، فوكّل به آقباي من أخرجه من القاهرة إلى بُلْبَيْس ليسافر إلى الشام.

ثم قبض على سودون الفقيه، أحد دعاة الشيخ لاجين، وأخرج إلى الإسكندرية فسجن بها.

وآستمرّ الأمير جَكَم ورفقته ببِركة الحَبَش إلى ليلة الأربعاء، فاستدعى الأمير يشبك سائر الأمراء، فلما صاروا بالقلعة وكلّ بهم من يحفظهم، فآستمرّوا على ذلك حتى مضى جانب من الليل.

ثم نزل الطلب إلى الأمير سودون طاز الأمير آخور الكبير من السلطان ليطلع إلى عند الأمراء، وفي عزمهم أنه إذا طلع قبضوا عليه، فنمّ لسودون طاز بعض الخاصكية يسمّى قاني باي، وقال له: «فُزْ بنفسك» فلم يكذّب سودون طاز الخبر، وأخذ الخيول السلطانية التي بالإسطبل السلطاني، وركب بمماليكه، وسار حتى لحق بالأمير جَكَم ببِركة الحَبَش. وبلغ السلطان ذلك، فآرتجّ القصر السلطانيّ، وقام كلّ أمير ونزل إلى داره ولبس آلة الحرب بمماليكه، ودقّت الكُوسات وطلعوا إلى القلعة.

فلما أصبح نهار الأربعاء نزل السلطان من القصر إلى الإسطبل، وبعث إلى الأمير جكم من عوض بأن يتوجّه إلى صَفَد نائباً بها، فردّ جكم الجواب: «نحن مماليك السلطان، وهو أستاذنا وآبن أستاذنا، ولو أراد قتلنا ما خالفناه، غير أننا لنا غرماء يدعنا نحن وإيّاهم، ثم بعد ذلك مهما أراد السلطان يفعل فينا، فنحن بين يديه». فلمّا عاد الرسول بذلك بكى الأمير يشبك الدوادار، وتكلم هو والأمير آقباي الكَرَكي الخازندار وقطلوبغا الكَرَكي مع السلطان، ودار بينهم الكلام الكثير، حتى

---

(١) نقيب الجيش: هو الذي يتكفّل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم. ومعه يمشي النقباء. وهو كأحد الحجاب الصغار، ومنه تطلب الحراسة في المواكب وفي السفر (صبح الأعشى: ٤/٢١ ـ ٢٢، و ٥/٤٥٦).

بعث السلطان بالأمير نوروز الحافظي والقاضي الشافعي وناصر الدين المعلّم الرمّاح أمير آخور إلى الأمير جكم في طلب الصلح. فنزلوا إليه وكلّموه في ذلك، فآمتنع جكم من الصلح هو ومن معه وقالوا: «لا بدّ لنا من غرمائنا» وأخذوا عندهم الأمير نوروز الحافظي، وعاد القاضي الشافعي وناصر الدين الرمّاح بالجواب، فعند ذلك قال السلطان لِيَشْبك: «دُونَك وغرماءَك» فطلب يشبك المساعدة من السلطان عليهم، فلم يفعل، فنزل يشبك إلى داره وقد آختلّ أمره.

ثم عاد إلى القلعة ليطلع إلى السلطان فلم يمكّن منها، وتخلّى عنه المماليك السلطانية؛ فلم تكن إلاّ ساعة حتى أقبل جَكَم وسودون طاز ونوروز في عُدَدهم وأصحابهم، وصاحب الموكب نوروز وجكم عن يساره، وسودون طاز عن يمينه، وساروا نحو يشبك، فنادى يشبك: «من قاتل معي من المماليك السلطانية فله عشرة آلاف درهم» فأتاه طائفة. وخرج من بيته وصفّ عساكره. فحمل عليه نوروز بمن معه، وصدمه صدمة واحدة كسره فيها؛ فآنهزم إلى داره وقاتل بها ساعة، ثم هرب منها، فنهبت داره ودار قطلوبغا الكركيّ. وكان بيت يشبك دار منجك اليوسفي الملاصقة[1] لمدرسة السلطان حسن، وهي الآن على مُلك تمربغا الظاهري الدوادار، ودار قطلوبغا الكركي البيت الذي تجاهه، وقبض عل آقباي الكركي الخازندار، فشفع فيه السلطان، فترك في داره إلى يوم الخميس ثاني عشره، فركب الأمير جكم إليه، وأخذه وطلع به إلى الإسطبل السلطانيّ وقيّده.

ثم قبض على الأمير قطلوبغا الكركي الحسني من بيت الأمير يَلْبُغا الناصري وقيّده.

ثم قبض على جركس القاسمي المصارع من عند سودون الجلب، وقيّده وبعث الثلاثة إلى الإسكندرية، والثلاثة أمراء ألوف من أصحاب يشبك. وسافروا إلى الإسكندرية في ليلة السبت رابع عشر شوّال المذكور من سنة ثلاث وثمانمائة،

(١) استدرك محمد رمزي على المؤلف هنا بقوله إن دار منجك اليوسفي لم تكن ملاصقة لمدرسة السلطان حسن وإنما كانت قريبة منها.

وكتب جَكَم بإحضار سودون الفقيه من الإسكندرية ـ وسودون الفقيه هذا حَمو الملك الظاهر ططر، وجدّ الملك الصالح محمد بن ططر الآتي ذكرهما. وطلب جَكَم الأمير يَشْبك الشعباني الدوادار فلم يقدر عليه إلى ليلة الاثنين سادس عشره، دُلَّ عليه أنه في تربة بالقرافة، فنزل إليه جكم؛ فلمّا أحيط بيشبك، وهو في التربة المذكورة، ألقى نفسه من مكان مرتفع، فشجّ جبينه، وقبض عليه الأمير جكم، وأحضره إلى بيت الأمير نوروز الحافظي، فقيّد وسيّر من ليلته إلى الإسكندرية فسجن بها.

وفي يوم الاثنين خلع على سعد الدين إبراهيم بن غراب باستمراره [في وظائفه][1]، وهو أحد أصحاب يشبك، بعد أن اجتهد غاية الاجتهاد في رضا جكم عليه فلم يقدر.

ثم في ثامن عشره أخلع السلطان على الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس باستمراره على نيابته، وهي خلعة السفر، وكان له من يوم قدم من أسر تيمور بالقاهرة في عمل مصالحه، وكذلك الأمير دقماق نائب صفد خلع عليه خلعة السفر ـ وكان دقماق أولاً نائب حَماة، ثم صار الآن في نيابة صَفَد ـ وأذن لهما بالسفر إلى محلّ كفالتهما.

وفي تاسع عشره خلع السلطان الملك الناصر على الأمير جَكَم بآستقراره دواداراً كبيراً عوضاً عن يَشْبك الشعباني، بحكم حبسه بالإسكندرية، وعلى سُودون من زاده بآستقراره خازنداراً، عوضاً عن آقباي الكَرَكي، وعلى أرغون من يشبغا باستقراره شادّ الشراب خاناه، عوضاً عن قُطْلُوبُغا الكَرَكي، وأخلع على بَيْسَق الشيخي خلعة إمرة الحاج على العادة، ورسم له أن يقيم بعد انقضاء الحجّ بمكّة لعمارة ما بقي من المسجد الحرام.

---

(١) زيادة عن السلوك.

ثم في سادس عشرين شوّال أخلع السلطان على الأمير يونس الحافظي باستقراره في نيابة حماة بعد عزل الأمير عمر بن الهَيْدَباني. وفي هذا اليوم أنعم على الأمير جَكم من عوض الدوادار بإقطاع يَشْبك الشعباني الدوادار، وعلى سُودون الطيّار بإقطاع الأمير جكم، وأنعم بإقطاع آقباي الكَرَكيّ على قاني باي العَلائي، وبإقطاع قطْلوبُغا الكَرَكي على تمربُغا من باشاه المعروف بالمشطوب، وبإقطاع جركس القاسمي المصارع على سودون من زاده بستّين[1] فارساً.

ثم في أوّل ذي القعدة ألزم سعد الدين بن غراب بتجهيز نفقة المماليك السلطانية، فالتزم أن يحمل منها مائة ألف دينار، وألزم الوزير ناصر الدين محمد بن سنقر، وتاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج، ويلبغا السالمي بمائة ألف دينار، فشرع الجميع في تجهيزها.

ثم قبض على السالمي وصُودر، وعُذِّب بأنواع العذاب، ثم أَفرج عنه بعد مدّة، وآستمرّ الحال على أنَّ جَكَم صار متحّدثاً في المملكة.

ثم في رابع ذي الحجة آختفى سعد الدين بن غراب، وأخوه فخر الدين ماجد، ولم يُعرف خبرُهما. فآستقرّ ناصر الدين محمد بن سُنْقُر في الأستداريّة، عوضاً عن سعد الدين بن غراب، مضافاً لما معه من الذخيرة والأملاك.

ثم آستعفى سودون من زاده من وظيفة الخازندارية[2]، وخلع على الوزير علم الدين أبي كمّ بآستقراره في نظر الخاصّ مضافاً على الوَزَر عوضاً عن سعد الدين بن غراب، وخلع على سعد الدين بن أبي الفرج ابن بنت الملكي،

---

(١) أي إقطاع طبلخاناه. وأمير طبلخاناه يحكم على أجناد يتراوح عددهم ما بين أربعين وثمانين.

(٢) الخازندارية: هي وظيفة الخازندار، وهو المتحدث في شأن خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك. وهو من مقدمي الألوف، ويتحاسب في هذه الأمور مع ناظر الخاص. (صبح الأعشى: ٢١/٤).

صاحب ديوان[٣] الجيش، وآستقرّ في نظر الجيش[٢] عوضاً عن آبن غراب.

ثم في تاسع ذي الحجة ورد كتاب مشايخ تَرُوجة[٢] يتضمن قدوم سعد الدين بن غراب إليهم، ومعه مِثال سلطانيّ بآستخراج الأموال، ومسيرهم معه إلى الإسكندريّة لإخراج يَشْبك والأمراء من سجن الإسكندرية، وإحضارهم إلى القاهرة. فخلع السلطان على رسولهم، وكتب عل يده مثالاً سلطانياً بالقبض على آبن غراب ومن معه، وإرسالِهم إلى القاهرة. ثم قدم كتاب نائب الإسكندرية بأن سعد الدين بن غراب طلب زُعْران الإسكندرية، فخرج إليه أبو بكر المعروف بعلّام[٣] الخدّام بالزُّعْر إلى تَرُوجة، فأعطى لكل واحد منهم مبلغ خمسمائة درهم، وقرّر معهم قتل النائب، فبلغ ذلك النائب، فلما قدموا إلى الإسكندرية قبضَ على جماعة منهم وقتل بعضهم وقطع أيدي بعضهم، وضرب علّام الخدّام بالمقارع، وأنه أيضاً ظفر بكتاب آبن غراب لبعض تجار الإسكندرية، وفيه أن يجتمع بالنائب ويؤكّد عليه ألّا يقبل ما يرد عليه من أمراء مصر في أمر يشبك الدوادار ومن معه من الأمراء، وأن يجعل باله لا يجري عليه مثل ما جرى على آبن عرّام في قتله الأمير بَرَكة.

ثم وردتْ كتب مشايخ تروجة بسؤال الأمان لابن غراب، فكتب له السلطان

---

(٣) ديوان الجيش: من الدواوين الهامة. أنشىء في عهد الفاطميين، وتركزت فيه كل شؤون الجيش وأصناف الجند وأعدادهم وأعداد خيولهم وأنواعها وحفظت به جرائد بأنسابها. وكان تغيير مراتب الأجناد وتوزيع الإقطاعات بمقتضى مرسوم خاص يصدر عن الخليفة عن طريق رئيس هذا الديوان. وكان لا يتولى هذا الديوان إلا من كان مسلماً. وكان ديوان الجيش يقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ يختص بالأجناد وإحصاء أعدادهم. وكان هؤلاء يدرجون في لوائح تحت أسماء أمرائهم، ولذلك سمي هذا القسم باسم ديوان الأمراء. وقسم آخر يختص بضبط الإقطاعات الخاصة بالأجناد، وهو ديوان الإقطاع. وقسم ثالث خاص بالرواتب والجوامك، وهو ديوان الرواتب. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦).

(١) ناظر الجيش: هو المشرف على شؤون ديوان الجيش. وهذه الوظيفة من الوظائف الديوانية، وصاحبها يكون من أرباب الأقلام، ويكون غالباً من العلماء. (المرجع السابق: ٣٤٢).

(٢) محلها اليوم كوم تروجة بحوض تروجة بأراضي ناحية زاوية صقر مركز أبـي المطامير. بمديرية البحيرة. (محمد رمزي).

(٣) في بعض النسخ: «غلام» بالغين المعجمة.

أماناً، وكتب [له](١) الأمراء ما خلا الأمير جَكَم، فإنه كتب إليه كتاباً ولم يكتب إليه أماناً، فقدم إلى القاهرة في حادي عشرينه في الليل، ونزل عند صديقه جمال الدين يوسف أستادار بجاس، وهو يومئذ أستادار الأمير سودون طاز أمير آخور، فتحدّث له مع سودون طاز وأوصله إليه، فأكرمه وأنزله عنده يومي الثلاثاء والأربعاء، حتى آسترضى له الأمراء. وأحضره في يوم الخميس ثالث عشرينه إلى مجلس السلطان، وخلع عليه بآستقراره في وظائفه القديمة: الأستادارية، ونظر الجيش، والخاص. ونزل إلى بيت الأمير جَكَم الدوادار، فمنعه جَكَم من الدخول إليه وردّه. وما زال يسعى آبن غراب حتى دخل إليه مع الأمير سُودون من زادة، وقبّل يدَه فلم يكلّمه كلمة، وأعرض عنه. فلم يزل حتى أرضاه بعد ذلك.

ثم وفي يوم الخميس سلخ ذي الْحجة أنفق آبن غراب تتمّة النفقة على المماليك السلطانية، فأعطى كل واحد ألف درهم. وعندما نزل من القلعة أدركه عدّةٌ من المماليك السلطانية ورجموه بالحجارة يريدون قتلَه، فبادر إلى بيت الأمير نوروز وآستجار به حتى أجارَه.

ثم في محرم سنة أربع وثمانمائة، كتب الأمراء بمصر لأمراء دمشق بالقبض على الأمير تغري بردي ــ أعني الوالد ــ، فكتب للوالد بذلك بعض أعيان أمراء مصر، فسبق ذلك المثالَ السلطاني. فركب الوالد من دار السعادة بدمشق في نفر من مماليكه في ليلة الجمعة ثاني عشرين المحرم وخرج إلى حلب، فتعين لنيابة دمشق، عوضاً عن الوالد، الأمير آقبغا الجمالي الأطروش أتابك دمشق، وكتب بانتقال دقماق نائب صفد إلى نيابة حلب، عوضاً عن دمرداش المحمّدي بحكم عصيانه وآنضمامه على الوالد لمّا قدم عليه من دمشق، وآستقر الأمير تَمُرْبغا المَنْجَكي في نيابة صفد عوضاً عن دُقْماق.

وأما الوالد رحمه الله فإنه لمّا سار إلى حلب وجد الأمير دمرداش نائب حلب قد قبض على الأمير خليل بن قراجا بن دلغادر أمير التركمان، فأمره الوالد بإطلاقه، فأطلقه، واتفق الجميع على الخروج عن طاعة السلطان بسبب من حوله من

(١) زيادة عن السلوك.

الأمراء. واجتمع عليهم خلائق من التركمان وغيرهم على ما سيأتي ذكره.

ثم وقع بين أمراء مصر؛ وهو أن سودون الحمزاوي وقع بينه وبين أكابر الأمراء، مثل نوروز، وجَكَم، وسُودون طاز، وتَمُرْبُغا المشطوب، وقاني باي العلائي، فانقطعوا الجميع عن الخدمة السلطانية من أول صفر، وعزموا على إثارة فتنة؛ فلبس سودون الحمزاوي آلة الحرب في داره، واجتمع عليه من يلوذ به.

وكان الأمراء المذكورون، قد عَيّنوا قبل ذلك للخروج من ديار مصر ثمانية أنفُس، وهم سودون الحمزاوي المذكور، وسودون بقجة وهما من أمراء الطبلخانات ورؤوس نُوَب، وأزبك الدوادار، وسودون بشتو وهما من أمراء العَشَرات، وقاني باي الخازندار، وبردبك وهما من الخاصكية، وآخران. ولما لبس الحمزاوي مشت الرسل بينهم في الصلح على[1] أن وقع الاتفاق على خروج سودون الحمزاوي إلى نيابة صفَدَ، وإقامة الباقين بمصر من غير حضورهم إلى الخدمة السلطانية.

ثم في سابع عشرين صفر المذكور، خلع على سودون الحمزاوي بنيابة صفد وبطل ولاية تَمَرْبغا المَنْجَكي من صَفَد.

وفي هذا الشهر، حضر الأمير أَلْطُنْبُغا العثماني نائب صَفَد كان، والأمير عمر ابن الطحّان نائب غزّة كان من أسر تيمورلنك، وذكرا أنّهما فارقاه من أطراف بغداد.

ثم في يوم الاثنين نصف شهر ربيع الأوّل من سنة أربع وثمانمائة، طلع الأمير نوروز الخدمة السلطانية، بعد ما انقطع عنها زيادة على شهر، فخلُع عليه خلعة الرضا.

ثم في ثامن عشره، طلع الأمير جَكَم من عوض الدوادار الخدمة بعد ما انقطع عنها مدّة شهرين وخلُع عليه أيضاً. هذا ودقماق نائب حلب، وأقبغا الأطروش نائب الشام في الاستعداد وجَمْع التركمان والعشير لقتال الوالد ودمرداش.

ثم خرج الوالد ودمرداش من حلب إلى ظاهرها لانتظار دُقماق وقتاله.

ثم إن السلطان في شهر ربيع الآخر أخلع علي جُمَق رأس نوبة بآستقراره

(١) كذا بالأصل: وصوابه: «إلى أن».

دواداراً ثانياً عوضاً عن جركس المصارع، وكانت شاغرةً من يوم مسك جركس المذكور، وآستقرّ مبارك شاه الحاجب وزيراً عوضاً عن علم الدين يحيى المعروف بأبي كمّ، وقُبض على أبي كمّ وسلّم لشادّ الدواوين[1] للمصادرة.

وفي العشر الأخير من هذا الشهر آستقر جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البُلْقيني قاضي قضاة الديار المصرية بعد عَزْل القاضي ناصر الدين الصالحي؛ وهذه أول ولاية جلال الدين البُلْقيني.

ثم في ثامن جمادى الأولى آستقر الأمير أَلْطُنْبُغا العثماني نائب صَفَد كان، في نيابة غزّة عوضاً عن الأمير صُرُق بعد عزله.

ثم آبتدأت الفتنة بين الأمراء، وطال الأمر، وآنقطع جكم ونوروز عن الخدمة السلطانية أياماً كثيرة. ودخل شهر رمضان وانقضى، ولم يحضروا الهناء بالعيد، ولا صلّوا صلاة العيد مع السلطان.

وآستهلّ شوّال فقويت فيه القالة بين الأمراء، وأرجف بوقوع الحرب غير مرّة.

فلما كان يوم الجمعة ثاني شوّال ركب الأمراء للحرب بالسلاح، ونزل الملك الناصر إلى الإسطبل السلطانيّ عند سودون طاز الأمير آخور، وركب الأمير نوروز وجَكَم وخصمهما سودون طاز، ووقع الحرب بينهم من بُكرة النهار إلى العصر.

فلما كان آخر النّهار بعث السلطان بالخليفة المتوكل على آلله والقضاة الأربعة إلى الأمير نوروز في طلب الصُّلح فلم يجد نوروز بُدّاً من الصلح وترك القتال، وخلع عنه آلة الحرب، فكف الأمير جَكَم أيضاً عن القتال. وكان ذلك مكيدةً من سودون طاز، فإنه خاف أن يُغْلَب ويسلمه السلطان إلى أخصامه، فتمّت مكيدتُه بعد ما كاد أن يؤخذ، لقوّة نوروز وجَكَم بمن معهما من الأمراء والخاصكيّة. وسكنت الفتنةُ، وبات الناس في أَمْن وسكون.

(١) شاد الدواوين: كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. وعادته إمرة عشرة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩١).

فلما كان يوم السبت ركب الخليفة والقضاة، وحلّفوا الأمراء بالسمع والطاعة للسلطان، فطلع الأمير نوروز إلى الخدمة في يوم الاثنين خامس شوّال، وخلع عليه السلطان، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنْبوش زركشَ.

ثم طلع الأمير جكم في ثامنه وهو خائف، ولم يطلع قاني باي ولا قرقماس؛ وطُلبا فلم يوجدا. فجهز إليهما خلعتان، على أن يكون قاني باي نائباً بحماة، وقرقماس حاجباً بدمشق. ونزل بغير خلعة، فكاد أن يهلك لكونه لم يخلع عليه. وعندما جلس بداره نزل إليه جرباش الشيخي رأس نوبة، وبشْباي الحاجب الثاني ملفّق. ثم ركب من ليلته بمن معه من الأمراء والمماليك، وأعيانُهم: قمش الخاصكي الخازندار، ويشبك الساقي ـ وهو الذي صار أتابكاً في دولة الأشرف برسباي ـ ويشبك العثماني، وألطنبغا جاموس، وجانيباي الطيبي، وبرسبغا الدوادار، وطربَاي الدوادار، وساروا الجميع إلى بركة الحَبَش خارج القاهرة، ولحق بهم في الحال قاني باي، وقرقماس الرماح، وأرغز، وقبجق، ونحو الخمسمائة مملوك من المماليك السلطانية، وغيرهم، وأقاموا جميعاً ببركة الحبش إلى ليلة السبت عاشر شوال، فأتاهم الأمير نوروز، وسودون من زاده رأس نوبة، وتمربغا المشطوب، في نحو الألفين من المماليك السلطانية وغيرهم، وأقاموا جميعاً ببركة الحبش إلى ليلة الأربعاء رابع عشر شوال، وأمْرُهم في زيادة وقوّة، بمن يأتيهم أوّلاً بأوّل من الأمراء والمماليك السلطانية.

وفي الليلة المذكورة، دبّر سودون طاز أمرَه وطلع إلى السلطان، وأنزله إلى الإسطبل السلطانيّ وبات به.

فلمّا أصبح بكُرة يوم الأربعاء المذكور، ركب السلطان فيمن معه من الأمراء والخاصكية ونزل من القلعة، وسار نحو بركة الحبش من باب القرافة، بعد ما نادى في أمسه بالعرض. واجتمع إليه جميعُ عساكره، وقد صف سودون طاز عساكر السلطان، فلما قارب بركة الحبش، ركب نوروز وجَكَم بمن معهما أيضاً من الأمراء والمماليك السلطانية، فصدمهم سودون طاز بالعسكر السلطانيّ صدمة كسرهم فيها،

وأسر الأمير تَمُرْبُغَا المشطوب، وسودون من زاده، وعلي بن إينال، وأرغز، وهرب نَوْرُوز وجكم في عدّة كثيرة من الأمراء والمماليك يريدون بلاد الصعيد، وعاد السلطان ومعه الأمراء وسودون طاز مظفّراً منصوراً. وقيّد سودون طاز الأمراء المأسورين، وبعثهم إلى الإسكندرية في ليلة السبت سابع عشره. وسار نوروز وجكم إلى أن وصلا إلى مُنية[1] القائد، ثم عادوا إلى طَمْوَه[2] ونزلوا على ناحية منبابة[3]، من برّ الجيزة تجاه بولاق. وطلب الأمير يَشبك الشعباني الدوادار من سجن الإسكندرية، فقدم يوم الاثنين تاسع عشره إلى قلعة الجبل، ومعه خلائق ممن خرج إلى لقائه، فقبّل الأرض ونزل إلى داره، كل ذلك والأمراء بالجيزة.

فلما كان ليلة الثلاثاء عشرين شوّال ركب الأمير نوروز نصف الليل وعدّى النيل، وحضر إلى بيت الأمير الكبير بيبرس. وكان [بيبرس] قد تحدّث هو وإينال باي من قجماس مع السلطان في أمر نوروز حتى أمّنه ووعده بنيابة دمشق، وكان ذلك أيضاً من مكر سودون طاز، فمشى ذلك على نوروز وحضر. فاختلّ عند ذلك أمرُ جَكَم، وتفرّق منه من كان معه، وصار فريداً، فكتب إلى الأمير بيبرس الأتابك يستأذنه في الحضور، فبعث إليه الأمير أزبك الأشقر رأس نوبة، والأمير بشباي الحاجب، وقدما به ليلة الأربعاء حادي عشرين شوّال إلى باب السلسلة من الإسطبل السلطاني، فتسلمه عدوّه الأمير سودون طاز. وأصبح وقد حضر الأمير يشبك وسائر الأمراء للسلام عليه. فلما كانت ليلة الخميس ثاني عشرينه، قُيّد وحُمِل إلى الإسكندرية، فسجن بها في البرج الذي كان سجن يشبك الدوادار فيه، وسكن يشبك مكانه وعلى إقطاعه بعدما حبس بالإسكندرية نحواً من سنة، وآستقرّ دواداراً على عادته عوضاً عن جَكَم المذكور، على ما سيأتي ذكرُه.

وأما أمر البلاد الشاميّة فإن دقماق جمع جموعه من العساكر والتركمان لقتال الوالد ودمرداش نائب حلب، وسار إلى جهة حلب، فخرج إليه الوالد وعلى مقدّمته

---

(١) منية القائد: هي ميت القائد اليوم، إحدى قرى مركز العياط.

(٢) قرية بمركز الجيزة.

(٣) هي قاعدة مركز امبابة بمديرية الجيزة.

دمرداش، وصدموه صدمة واحدة آنكسر فيها بجموعه وولّوا الأدبار، ونهب ما معهم. وعاد دقماق منهزماً إلى دمشق، وآستنجد بنائبها الأمير آقبغا الجمالي الأطروش. وكتب أيضاً دقماق لجميع نوّاب البلاد الشامية بالحضور والقيام بنصرة السلطان، وجمع من التركمان والعربان جمعاً كبيراً، وخرج معه غالب العساكر الشامية، وعاد إلى جهة حلب بعساكر عظيمة، والوالد ودمرداش في مماليكهم لا غير، مع جدب البلاد الحلبية، وخراب قراها، فإنه [كان] عقيب توجه تيمور بسنة واحدة وأشهر.

فلما قارب دقماق بعساكره حلب أشار دمرداش على الوالد بالتوجه إلى بلاد التركمان من غير قتال، فقال الوالد: «لا بدّ من قتالنا معه، فإن آنتصرنا وإلا توجهنا إلى بلاد التركمان بحق»، فبرزا لدقماق بمماليكهما، وقد صف دقماق عساكره، وآقتتلا قتالاً شديداً، وثبت كل من الفريقين، وقد أشرف دقماق على الهزيمة. وبينما هو في ذلك خرج من عسكر الوالد ودمرداش جماعة إلى دقماق، فانكسرت عند ذلك الميمنة. ثم آنهزم الجميع إلى نحو بلاد التركمان، فلم يتبعهم أحد من عساكر دقماق. وملك دقماق حلب، وآستمرّ الوالد ودمرداش ببلاد التركمان، على ما سيأتي ذكره.

وأما ما وقع بمصر فإنه لما حُبس جَكَم من عوض بالإسكندرية، خُلع على نوروز الحافظي في بيت بيبرس في يوم الأربعاء بنيابة دمشق، وتوجه إلى داره.

فلما كان من الغد في يوم الخميس قُبض عليه وحمل إلى باب السلسلة فقيد به وحمل من ليلته، وهي ليلة الجمعة ثالث عشرين شوال، إلى الإسكندرية، فسجن بها. وغضب لذلك الأميران بيبرس الأتابك، وإينال باي بن قجماس، وتركا طلوع الخدمة السلطانية أياماً. ثم أُرضيا وطلعا إلى الخدمة. وراحت[1] على نوروز. واختفى الأمير قاني باي العلائي وقَرْقَماس الرمّاح، فلم يُعرف خبرهما.

فلما كان يوم الاثنين ثالث ذي القعدة، أنعم السلطان بإقطاع الأمير نَوروز على الأمير إينال العلائي المعروف بحطب رأس نوبة بعد أن أخرجوا منه النحريرية. وأنعم السلطان بإقطاع قاني باي العلائي على الأمير علّان جلّق، وبإقطاع تَمرُبغا

(١) تعبير عاميّ يقال لمن أصابته الخيبة أو الخسران أو التلف.

المشطوب على الأمير بَشْبَاي الحاجب الثاني، فلم يرض به، فاستقر باسم قُطْلُوبغا الكَرَكي، وكان إقطاعه قبل حبسه بالإسكندرية، وهو إلى الآن لم يحضر من سجن الإسكندرية. وبقي بَشْباي على طبلخانته.

وأُنعم بإقطاع جَكَم من عوض على الأمير يشبك الشعباني الدوادار، وهو إقطاعه أيضاً قبل حبسه بالإسكندرية.

وأنعم على الأمير بيغوت بإمرة طبلخاناة، وعلى أَسَنْبُغا المصارع بإمرة طبلخاناة وعلى سُودون بشتا بإمرة طبلخاناه.

ثم في سادس ذي القعدة، قدم الأمراء من سجن الإسكندرية من أصحاب يشبك، وهم الأمير آقْباي طاز الكَرَكي الخازندار، وقَطْلُوبُغا الحَسَني الكَرَكي، وجركس القاسمي المصارع، وصعدوا إلى القلعة، وقبّلوا الأرض بين يدي السلطان ثم نزلوا إلى بيوتهم. ثم رسم السلطان بانتقال الأمير شيخ المحمودي الساقي من نيابة طرابلس إلى نيابة دمشق بعد عزل الأمير آقبغا الجمَالي الأطروش، وتوجُّهِه إلى القدس بطّالاً.

ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة لعب الأمراء الكُرة في بيت الأتابك بيبرس، فاجتمع على باب بيبرس من المماليك السلطانية نحو الألف مملوك يريدون الفتك بسُودون طاز. وعندما خرج سودون طاز من بيت بيبرس هموا به، فتحاوطتْه أصحابه ومماليكه. وساق سودون حتى لحق بباب السلسلة، وامتنع بالإسطبل السلطاني حيث هو سكنه. ووقع كلام كثير، ثم خَمَدت الفتنة.

فلما كان رابع عشرينه، خلع السلطان على الأمير يَشبك الشعباني باستقراره دواداراً على عادته، عوضاً عن الأمير جكم من عوض بحكم حبسه.

ثم في يوم السبت رابع عشر ذي الحجة خلع السلطان على الأمير آقباي الكَرَكي باستقراره خازنداراً على عادته.

ثم في سلخ ذي الحجة آستقر الأمير جُمَق الدوادار الثاني في نيابة الكرك، واستقر الأمير علّان جلّق أحد مقدّمي الألوف بديار مصر في نيابة حَماة، بعد عزل يونس الحافظي، فشقّ ذلك على سودون طاز.

ثم كتب [السلطان] للأمير دمرداش أماناً، وأنه يستقر في نيابة طرابلس عوضاً عن الأمير شيخ المحمودي المنتقِل إلى نيابة دمشق، وكتب للأمير علي بك بن دلغادر بنيابة عين تاب، وللأمير عمر بن الطحان بنيابة مَلَطْيَة.

وكانت الأخبار وردتْ بجمع التركمان ونزولهم مع دمرداش إلى حلب، وأن دقماق نائب حلب آجتمع معه نائب حماة والأمير نُعَير، وأن تيمورلنك نازل على مدينة سيواس. ولم يحجّ أحد في هذه السنة من الشام ولا من العراق.

وفي ثالث المحرم من سنة خمس وثمانمائة أنعم السلطان بإقطاع علّان جلّق المستقر في نيابة حماة على الأمير جركس القاسمي المصارع، وبإقطاع جُمَق المستقر في نيابة الكرك على آقباي الكركيّ الخازندار، وزيد عليه قرية سُمُسْطا[1].

هذا والكلام يكثر بين الأمراء والمماليك، والناس في تخوّف من وقوع فتنة. فلما كان سابع المحرم نزل الأمير سودون طاز الأمير آخور الكبير من الإسطبل السلطاني بأهله ومماليكهِ إلى داره، وعزل نفسه عن الأمير آخوريّة، وصار من جملة الأمراء.

ثم في هذا الشهر قدم الوالد إلى دمشق بأمانٍ كان كُتب له من قِبل السلطان مع كتب جميع الأمراء. فلما وصل إلى دمشق خرج الأمير شيخ المحمودي إلى تلقيّه، حتى عاد معه إلى دمشق وأنزله بالقرمانية، وأكرمه غاية الإكرام بحيث إنه جاءه في يوم واحد ثلاث مرات.

ثم خرج الوالد بعد أيام من دمشق يريد الديار المصرية، فخرج الأمير شيخ أيضاً لوداعه، وسار حتى وصل إلى مصر في سلخ المحرم، بعد ما خرج الأمراء إلى لقائه. وطلع إلى القلعة، وقبّل الأرض بين يدي السلطان، فخلع السلطان عليه كاملّية بمقلب سَمّور، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكُنْبوش زركش. ثم نزل إلى داره ومعه سائر الأمراء. وظهر الأمير قرقماس الرّماح، فشفع فيه الوالد، فإنه كان

(١) سمسطا أو سمسطة: قرية من عمل البهنسا. (معجم البلدان).

إنيَهُ(١)، فقبل السلطان شفاعته.

وأما أمر سودون طاز، فإنه أقام بداره إلى ليلة الاثنين ثالث عشر صفر من سنة خمس وثمانمائة المذكورة، فخرج من القاهرة بمماليكه وحواشيه إلى المرج(٢) والزيات بالقرب من خانقاه سرياقوس ليقيم هناك حتى يأتيه من وافقه ويركب على أخصامه ويقهرهم ويعود إلى وظيفته.

وكان [من] خبر سودون طاز أنه لما وقع بينه وبين يشبك أولاً، وصار من حزب نوروز وجكم، وقبضوا على يشبك وأصحابه من الأمراء وسجنوا بثغر الاسكندرية حسبما تقدم ذكره، صار تحكُّم مصر له، ويشاركه في ذلك نوروز وجكم، فثقلا عليه. وأراد أن يستبدّ بالأمر والنهي وحده، فدبّر في إخراجهما حتى تم له ذلك، ظناً منه أنه ينفرد بالأمر بعدهما. فانتدب إليه يشبك الشعباني الدوادار وأصحابه لما كان في نفوسهم منه قديماً بعد مجيئهم من حبس الإسكندرية، لأنه كان انحصر لخروجهم من الحبس.

وكان الملك الناصر يميل إلى يشبك وقطلوبغا الكركي، لأنّ كل واحد منهما كان لالته(٣).

وكان الأمير آقباي طاز الكركي الخازندار يعادي سودون طاز قديماً ويقول «طاز واحد يكفي بمصر، فأنا طاز وهو طاز ما تحملنا مصر». واتفقوا الجميع عليه، وظاهرهم السلطان في الباطن، فتلاشى أمر سودون طاز لذلك. وما زالوا في التدبير عليه حتى نزل من الإسطبل السلطاني، خوفاً على نفسه من كثرة جموع يشبك الدوادار، وجُرأة آقباي الخازندار الكركي؛ فعندما نزل ظن أن السلطان يقوم

---

(١) في طبعة دار الكتب المصريّة: «أنَبَهُ». وفي بعض الأصول: «أنيسه» وكلها تحريف. والصواب ما أثبتناه عن طبعة كاليفورنيا. والإنْي هو الرفيق (الخشداش) الصغير في الخدمة المملوكية، ينشأ تحت رعاية مملوك كبير السنّ قديم الخدمة (ويقال أحياناً: قديم الهجرة) فيكون الصغير إنياً للكبير. ويُجمع على إنْيات. ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) هي اليوم من قرى شبين الكوم بمديرية القليوبية.

(٣) أي مربّيه.

بناصره، فلم يلتفت السلطان إليه، وأقام هذه المدّة من جملة الأمراء، فشق عليه عدم تحكمه في الدولة، وكفه عن الأمر والنهي، وكان آعتاد ذلك، فخرج لتأتيه المماليك السلطانية وغيرهم، فإنه كان له عليهم أياد وإحسان زائد عن الوصف ـ ليحارب بهم يشبك وطائفته، ويخرجهم من الديار المصرية أو يقبض عليهم كما فعل أوّلاً ويستبدّ بعدهم بالأمر، فجاء حساب الدهر غير حسابه، ولم يخرج إليه أحد غير أصحابه الذين خرجوا معه. وأخلع السلطان على الأمير إينال باي من قجماس بآستقراره عوضه أمير آخوراً كبيراً في يوم الاثنين عشرين صفر، وبعث السلطان إلى سودون طاز بالأمير قطلوبغا الكركي يأمره بالعود على إقطاعه وإمرته من غير إقامة فتنة، وإن أراد البلاد الشامية فله ما يختاره من النيابات بها، فآمتنع من ذلك وقال: «لا بدّ من إخراج آقباي طاز الكَرَكي الخازندار أوّلاً إلى بلاد الشام»، فلم يوافق السلطان على إخراج آقباي، وبعث إليه ثانياً بالأمير بشباي الحاجب الثاني فلم يوافق، فبعث إليه مرة ثالثة فلم يرض، وأبى إلا ما قاله أوّلاً من إخراج آقباي. فلما يئس السلطان منه ركب بالعساكر من قلعة الجبل، ونزل جميع عساكره بالسلاح وآلة الحرب في يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأوّل، فلم يثبت سودون طاز، ورحل بمن معه وهم نحو الخمسمائة من المماليك السلطانية ومماليكه، وقد ظهر الأمير قاني باي العلائي ولحق به من نحو عشرة أيام، وصار من حزبه، فتبعه السلطان بعساكره وهو يظن أنه توجه إلى بُلْبَيْس.

وكان سودون عندما وصل إلى سرياقوس نزل من الخليج ومضى إلى جهة القاهرة وعبر من باب[1] البحر بالمَقْس، وتوجّه إلى المَيْدان. وهجم قاني باي العلائي في عدّة كبيرة على الرُّمَيْلة[2] تحت القلعة ليأخذ باب السلسلة، فلم يقدر على ذلك. ومر السلطان الملك الناصر وهو سائق على طريق بلبيس، وتفرّقت عنه العساكر وتاهوا في عدّة طرق.

وبينما السلطان في ذلك بلغه أن سودون طاز توجه إلى نحو القاهرة وهو يحاصر قلعة الجبل، فرجع بأمرائه مسرعاً يريد القلعة حتى وصل إليها بعد

(١) باب البحر أو باب المقس. ويعرف اليوم بباب الحديد.

(٢) هي ميدان صلاح الدين، أو المنشيّة اليوم.

العصر، وقد بلغ منه ومن عساكره التعب مبلغاً عظيماً. ونزل السلطان بالمقعد المطلّ على الرُّمَيْلة من الإسطبل بباب السلسلة، وندب الأمراء والمماليك لقتال سودون طاز، فقاتلوه في الأزقّة طعناً بالرمّاح ساعة فلم يثبت، وآنهزم بمن معه، وقد جرح من الفريقين جماعة كثيرة، وحال الليل بينهم. وتفرّق أصحاب سودون طاز عنه، وتوجّه كلّ واحد إلى داره، وبات السلطان ومن معه على تخوّف. وأصبح من الغد فلم يظهر لسودون طاز ولا قاني باي خبر، ودام ذلك إلى الليل. فلم يشعر الأمير يشبك وهو جالس بداره بعد عشاء الآخرة إلا وسودون طاز دخل عليه في ثلاثة أنفس، وترامى عليه، فقبله وبالغ في إكرامه وأنزله عنده. وأصبح يوم الجمعة كتب سودون طاز وصيّته وأقام بدار يَشْبُك إلى ليلة الأحد عاشره، فأنزل في حَرّاقة وتوجه إلى ثغر دِمياط بطّالاً بغير قيد، ورُتّب له بها ما يكفيه، بعد أن أنعم عليه الأمير يشبك بألف دينار مكافأة له على ما كان سعى في أمره حتّى أخرجه من حبس الإسكندرية وعوده إلى وظيفته وإبقائه في قيد الحياة، فإن جكم الدوادار كان أراد قتلَه عند ما ظفِر به، وحبسه بالإسكندرية لولا سودون طاز هذا.

وأمّا قاني باي العلائي فإنه آختفى ثانياً فلم يُعرَف له خبر، وسكنت الفتنة.

فلمّا كان خامسَ عشرين شهر ربيع الأوّل قدم الأمير سودون الحمزاوي نائب صَفَد إلى القاهرة بآستدعاء من السلطان صحبة الطواشي عبد اللطيف اللالا بسعي الأمير آقباي طاز الكَرَكي الخازندار في ذلك لصداقة كانت بينهما. وخلع السلطان على الأمير شيخ السليماني شاد الشراب خاناه، وآستقرّ في نيابة صفد عوضاً عن سودون الحمزاوي، وأنعم السلطان على سودون الحمزاوي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالقاهرة.

ثم أنعم السلطان على الوالد بإمرة مائة وتقدمة ألف، وأُزيد مدينة أبيار[١] من الديوان المفرد[٢]، ورسم له أن يجلس رأس ميسرة.

---

(١) أبيار: بلدة قديمة من مديرية الغربية شرقي كفر الزيّات.

(٢) أي أعطي هذه البلدة بعد أن كانت جارية في ديوان المفرد، وهو الديوان الذي أنشأه الظاهر برقوق وأفرد له بلاداً ورتّب عليه نفقة مماليكه من جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك. كما أنشأ السلطان برقوق ديواناً =

ثم أخرج الأمير قَرقَماس الرّماح إلى دمشق على إقطاع الأمير صُرُق. وخلع السلطان على سودون الحمزاوي المعزول عن نيابة صفد بآستقراره شادّ الشراب خاناه عوضاً عن شيخ السليماني المسرطَن المنتقل إلى نيابة صفد، فلم يقم سودون الحمزاوي في المُشدية[١] إلا أياماً؛ ومرض صديقه الأمير آقباي الكركي الخازندار ومات، فولّي الخازندارية عوضه في يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة.

ثم في ليلة الأربعاء ثالث عشرين جمادى الآخرة غُمز على قاني باي العلائي في دار فكُبس عليه بها، وأُخذ منها، وقُيّد وحُمل إلى الإسكندرية.

وفي هذه الأيام ورد الخبر أن سودون طاز خرج من ثغر دمياط يوم الخميس رابع عشرين جمادى الآخرة في طائفة، وأنه اجتمع عليه جماعة كبيرة من العربان والمماليك، فندب السلطان لقتاله الوالد والأمير تمراز الناصري أمير مجلس وسودون الحمزاوي في عدة أمراء أُخر. وخرجوا من القاهرة، فبلغهم أنه عند الأمير [علم الدين سليمان بن][٢] بقر بالشرقية جاءه ليساعده على غرضه، فعندما أتاه أرسل [ابن] بقر إلى الأمراء يعلمهم بأن سودون طاز عنده، فطرقه الأمراء وقبضوا عليه وأحضروه إلى القلعة في يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة.

ثم أصبح السلطان في يوم الخميس أول شهر رجب، سمّر خمسة من المماليك السلطانية ممن كان مع الأمير سودون طاز، أحدهم سودون الجلب الآتي ذكره في عدة أماكن، ثم جانبك القَرَماني حاجب حجّاب زماننا هذا، فاجتمع المماليك السلطانية لإقامة الفتنة بسببهم. وتكلّم الأمراء مع السلطان في ذلك، فخلّى عنهم، وقيّدوا وسجنوا بخزانة شمائل، ونفي سودون الجلب إلى قبرس بلاد الفرنج من الإسكندرية.

= آخر أفرد له بلاداً، وهذا الديوان خاص بالسلطان ليس عليه مرتب نفقة ولا كلفة، وسماه ديوان الأملاك. (صبح الأعشى: ٣/٥٢٤، طبعة دار الكتب العلمية).

(١) المشدّية هي وظيفة المشدّ أو الشادّ. وهي وظيفة مراقبة وتفتيش ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) زيادة عن السلوك.

ثم في ثالث شهر رجب حمل سودون طاز مقيّداً إلى الإسكندرية، وسجن بها عند غريمه الأمير جَكَم من عوض الدوادار.

وفي هذا الشهر ورد الخبر من دمشق أنه أقيمت الجمعة بالجامع الأموي وهو خراب، وكان بطل منه صلاة الجمعة من بعد كائنة تيمور، وأن الأمير شيخاً المحمودي نائب دمشق سكن بدار السعادة بعد أن عمرت، وكانت حرقت أيضاً في نوبة تيمور، وأن سعر الذهب زاد عن الحدّ، فأجيب بأن الذهب قد زاد سعره بمصر أيضاً، حتى صار سعر المثقال الهرجة[١] بخمسة وستين درهماً، والدينار المشخّص[٢] بستّين درهماً.

ثم عقد السلطان عقدَ الأمير سودون الحمزاوي على أخته خوند زينب بنت الملك الظاهر برقوق، وعُمرها نحو الثمان سنين، فصارت أخوات السلطان الثلاث كل واحدة منها مع أمير من أمرائه؛ فخوند سارّة زوجة الأمير نوروز الحافظي، وخوند بيرم زوجة الأمير إينال باي بن قجماس، وخوند زينب وهي أصغرهن مع سودون الحمزاوي هذا.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب خلع السلطان على قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العَديم بآستقراره في قضاء الحنفية بالديار المصرية بعد

---

(١) يطلق اسم المثقال على الدينار. ويرجع ذلك إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان إذ جعل المثقال وحدة الذهب وقرر أن يكون وزن الدينار مثقالاً واحداً، أي ٦٥,٥ حبة أو ٤,٢٥ غراماً. (النظم الإسلامية: ٤٢٧). والذهب الهرجة هو الذهب الذي يستوفي شروط عيار مخصوص لا بد أن يجوزه وإلا لا يعتمد، فإذا جازه ضرب دنانير ذهبية. (دار الضرب المصرية: ٦٧ ـ ٧١).

(٢) الدينار المشخّص هو الدينار الإفرنجي أو الإفرنتي، نسبة إلى «إفرنسة» أو «إفرنجة» وهي فرنسا. والدنانير الإفرنتية هي دنانير ذهبية معلومة الأوزان كان يؤتى بها من بلاد الفرنج، وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا القديسين بطرس وبولس، ومن هنا تسميتها بالدنانير المشخّصة. وكان يتمّ التعامل بهذه الدنانير بعد إعادة سكّها. فمثلاً أعاد الناصر فرج ضرب الدنانير الإفرنتية فجعل في أحد الوجهين عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفي الآخر اسم السلطان، وفي وسطه سفط مستطيل بين خطين، وعرفت هذه الدنانير بالناصرية، وصار بها أكثر المعاملات. وكان هناك نوع آخر من الدنانير يعرف بإسم «الدوكات» وهي الدنانير المضروبة في البندقية. (انظر صبح الأعشى: ٥٠٧/٣ ـ ٥٠٩، طبعة دار الكتب العلمية).

أن عزل القاضي أمين الدين عبد الوهاب الطرابلسي بسَفارة الوالد لصحبةٍ كانت بينهما من حلب.

ثم في ليلة الثلاثاء سابع عشرين شهر رجب المذكور أَرسل السلطانُ إلى الإسكندرية الأميرَ آقبردي والأمير تَنْبَك من الأمراء العشرات في ثلاثين مملوكاً من المماليك السلطانية، فوصلوها في تاسع شعبان، وأخرجوا الأمير نوروز الحافظي، وجَكَم من عوض، وسُودون طاز، وقاني باي العلائي من سجن الإسكندرية وأنزلوهم في البحر المالح، وساروا بهم إلى البلاد الشامية، فحُبِس نوروز وقاني باي في قلعة الصُّبَيْبَة[1] من عمل دمشق، وحُبِس جَكَم في حِصن الأكراد[2] من عمل طرابلس، وحُبس سودون طاز في قلعة المَرْقَب[3]، ولم يبق بسجن الإسكندرية من الأمراء غير سودون من زاده، وتَمُرْبُغا المشطوب.

ثم حُوّل جَكَم بعد مدّة إلى قلعة المَرْقَب عند غريمه سودون طاز.

ثم في ثامن عشر شوّال خلع السلطان على الأمير بَكْتَمُر الرُّكْني أمير سلاح بآستقراره رأس نوبة الأمراء عوضاً عن نوروز الحافظي، واستقر الأمير تمراز الناصري أمير مجلس عوضه أمير سلاح، واستقرّ سُودون المارداني رأسُ نوبة النُّوب أميرَ مجلس عوضاً عن تِمراز، وآستقرّ سودون الحمزاوي رأس نوبة النوب عوضاً عن سُودون المارداني، وأخلع السلطان على الأمير طُوخ بآستقراره خازِنْداراً عوضاً عن سودون الحمزاوي.

ثم في خامس عشرين ذي القعدة أُفرج عن سعد الدين إبراهيم بن غراب وأخيه فخر الدين ماجد، وكان السلطان قبض عليهما من شهر رمضان، وولّى وظائفهما جماعةً، واستمرّا في المصادرة إلى يومنا هذا. وكان الإفراج عنهما بعد ما التزم سعد الدين بن غراب بحَمل ألف ألف درهم فضة، وفخر الدين بثلاثمائة ألف درهم، ونُقلا إلى السالميّ ليستخرج الأموالَ منهما ثم يقتلهما.

---

(١) هي قلعة بانياس، جنوبي غربي دمشق.

(٢) حصن الأكراد: قلعة حصينة مقابل حمص من غربيها، على الجبل المتصل بجبل لبنان بين بعلبك وحمص. (صبح الأعشى: ٤/١٤٩، والمشترك: ١٣٦).

(٣) قلعة المرقب: وكانت من ضمن قلاع الدعوة التابعة لطرابلس. (التعريف بالمصطلح الشريف: ٢٣٦).

وكان ابن قايماز أهانهما وضرب فخر الدين وأهانه، فلم يعاملهما السالميّ بمكروه ولم ينتقم منهما، وخاف سوءَ العاقبة، فعاملهما من الإحسان والإكرام بما لم يكن ببالِ أحد. وما زال يسعى في أمرهما حتى نُقِلا من عنده لبيت شادّ الدّواوين ناصر الدين محمد بن جلبان الحاجب، وهذا بخلاف ما كانا فَعَلا مع السالميّ، فكان هو المحسِن وهم المسيئون.

ثم خلع السلطان على يَلْبُغا السالميّ بآستقراره أسْتاداراً، وعَزَل آبن قايماز؛ وهذه ولاية يَلْبُغا السالميّ الثانية.

ثم في سابع ذي الحجّة من سنة خمس وثمانمائة أخرج السلطان الأمير أَسَنْبُغا المصارع، والأمير نُكْباي الأَزْدَمُري، وهما من أمراء الطبلخاناه بمصر، إلى دمشق، وإينال المظفَّري وآخر، وهما من الأمراء العشرات، ورسم للأربعة بإقطاعاتٍ هناك، لأمر آقتضى ذلك، فساروا من القاهرة.

فلما كان يوم تاسع عشرين الحجّة أغلق المماليك السلطانيّة بابَ القصر من قلعة الجبل على مَن حضر من الأمراء، وعوّقوهم بسبب تأخُّر جوامِكهم، فنزل الأمراء من باب السرّ[1]، ولم يقع كبيرُ أمر. وأمر السلطان ليَلْبُغا السالميّ أن ينفق عليهم فنفق عليهم.

ثم في يوم الثلاثاء رابع المحرّم من سنة ستٍّ وثمانمائة عُزل يَلْبُغا السالمي عن الأستادارية، وأعيد إليها ركن الدين عمر بن قايماز، وقبض على السالمي وسلّم إليه.

ثم في ثامنه خلع السلطان على الصاحب علم الدين يحيى أبي كُمّ وآستقرّ في الوزارة ونظر الخاص معاً عوضاً عن تاج الدين بن البقري، واستقر ابن البقري على ما بيده من وظيفتَيْ نظر الجيش ونظر ديوان المفرد، فلم يباشر أبو كمّ الوَزَر غير

(١) باب السرّ: أحد أبواب قلعة الجبل، وكان مخصصاً لدخول أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السرّ ونحوهما.

ثمانية أيام وهرب وآختفى، فأعيد تاج الدين بن البقري إليها. هذا والسالْميّ في المصادَرة.

وفي هذه السنة كان الشراقي[١] العظيم بمصر، وعقبه الغَلاء المفرط ثم الوباء، وهذه السنة هي أوّل سنين الحوادث والمِحَن التي خرّب فيها معظم الديار المصرية وأعمالها، من الشراقي، واختلاف الكلمة، وتغيير الوُلاة بالأعمال وغيرها.

ثم في شهر ربيع الأول كتب بإحضار دقماق نائب حلب. وفيه اختفى الوزير تاج الدين بن البقري، فخلع على سعد الدين بن غراب وآستقر في وظيفتي الأستادارية ونظر الجيش. وصرف آبن قايماز، وخلع على تاج الدين رزق الله وأعيد إلى الوزارة.

وفي خامس صفر كتب بآستقرار الأمير آقبغا الجمالي الأطروش في نيابة حلب عوضاً عن دُقْماق، فلما بلغ دقماق أنه طُلب إلى مصر هرب من حلب.

ثم قدم الخبر على السلطان بأنّ قرايوسف بن قرامحمد قدم إلى دمشق، فأنزله الأمير شيخ المحمودي بدار السعادة وأكرمه.

وكان من خبر قرايوسف أنه حارب السلطان غياث الدين أحمد بن أويس وأخذ منه بغداد. فلما بلغ تيمور ذلك بعث إليه عسكراً، فكسرهم قرايوسف. فجهّز إليه تيمور جيشاً ثانياً فهزموه، ففرّ بأهله وخاصّته إلى الرّحبة، فلم يمكّن منها ونهبتْه العرب، فسار إلى دمشق، فوافَى بها السلطانَ أحمد بن أويس وقد قدمها أيضاً قبل تاريخه. وأخبر الرسول أيضاً أن قاني باي العلائي هرب من سجن الصُّبَيْبَة، فتأخر نوروز بالسجن ولم يعرف أين ذهب.

ثم في يوم الثلاثاء خلع السلطان على بدر الدين حسن بن نصر الله الفُوّي وآستقرّ في نظر الخاص عوضاً عن آبن البقري، وهذه أوّل ولاية الصاحب بدر الدين آبن نصر الله للوظائف الجليلة.

(١) أي الجفاف بسبب قصور مدّ النيل. وكتب المقريزي تفصيلات وافية عن ذلك في إغاثة الأمة: ٧٩ وبعدها، والسلوك: ٣/١١١١ وما بعدها.

ثم في عاشره آختفى الوزير تاج الدين، وفي ثالث عشره أعيد آبن البقري للوزر على عادته ونظر الخاص، وصرف آبن نصر الله، هذا والموت فاش بين الناس وأكثر من كان يموت الفقراء من الجوع.

ثم في آخر جمادى الآخرة رسم بالقبض على السلطان أحمد بن أويس، وقرايوسف بدمشق، فقبض عليهما الأمير شيخ وسجنهما.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشر شهر رجب قدم إلى القاهرة سيف الأمير آقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب بعد موته، فرسم السلطان بانتقال الأمير دمرداش المحمدي نائب طرابلس إلى نيابة حلب، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير سودون المحمدي المعروف بتلِي.

وفي أثناء ذلك ورد الخبر بأن الأمير دقماق نزل على حلب ومعه جماعة من التركمان، فيهم الأمير علي بك بن دلغادر، وفرّ منه أمراء حلب، فملك دقماق حلب. ورسم السلطان بانتقال الأمير شيخ السليماني المسرطن نائب صفد إلى نيابة طرابلس، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير آقبردي، ورسم باستقرار الأمير بَكْتَمُر جلّق أحد أمراء دمشق في نيابة صَفَد[1] عوضاً عن شيخ السليماني المسرطَن. وخرج الأمير إينال المأمور بقتل الأمراء المسجونين بالبلاد الشامية، وقبل وصول إينال المذكور أفرج الأمير دمرداش نائب طرابلس عن الأمير جكم وعن سودون طاز، وكانا ببعض حصون طرابلس وسار بهما إلى حلب؛ وهذا أوّل أمر جكم وظهوره بالبلاد الشامية على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار الثاني، وعلى الأمير جانم من حسن شاه، وعلى الأمير سودون المحمدي تلي، وحملوا إلى سجن الإسكندرية، واستقر الأمير قرقماس أحد أمراء الطبلخانات دواداراً ثانياً عوضاً عن بيبرس المذكور.

---

(١) في الأصل: «نيابة طرابلس» وهو خطأ.

ثم في صفر من سنة سبع وثمانمائة، وقع بين الأمير يشبك الشعباني وبين الأمير إينال باي بن قجماس الأمير آخور كبير. وسبب ذلك أن الأمير يشبك الشعباني الدوادار صار هو مدبّر الدولة وبيده جميع أمورها من الولاية والعزل، فصار له بذلك عصبة كبيرة؛ فأحبوا عصبته عزل إينال باي من الأميراخورية، لاختصاصه بالسلطان الملك الناصر لقرابته منه ثم لمصاهرته، فإنه كان تزوج بخوند بيرم بنت الملك الظاهر برقوق، وسكن بالإسطبل السلطاني على عادة الأميراخورية، فصار السلطان ينزل عنده ويقيم ببيت أخته ويعاقره الشراب، فعظم أمر إينال باي لذلك، فخافه حواشي يشبك وأحبوا أن يكون جركس القاسمي المصارع عوضه أميراخوراً واتفقوا مع يشبك على ذلك، فانقطعوا عن حضور الخدمة السلطانية من جمادى الأولى، فآستوحش السلطان منهم. وتمادى الحال إلى يوم الجمعة، فأمر السلطان لإينال باي أن ينزل للأمراء المذكورين ويصالحهم، فمنع جماعة من المماليك السلطانية إينال باي أن ينزل. واشتد ما بينهم من الشر حتى خاف السلطان عاقبة ذلك؛ وباتوا مترقبين وقوع الحرب بينهما. وكان السلطان رسم للأمير يشبك أن يتحول من داره قبل تاريخه، فإنها مجاورة لمدرسة السلطان حسن، فامتنع يشبك من ذلك، فساء ظن السلطان به. ثم استدعى السلطان القضاة في يوم السبت ثاني صفر إلى بيت الأمير الكبير بيبرس ليصلحوا بين إينال باي وبين يَشْبَك ورفقتِه، فلم يقع صلح بين الطائفتين. وتسوّر بعضُ أصحاب يَشبَك على مدرسة السلطان حسن، فتحقّق السلطان عند ذلك ما كان يظنّه بيَشبَك، ويحذّره منه إينال باي وغيره. وأخذ كلّ أحد من الطائفتين في أهبة الحرب، والسلطان من جهة إينال باي. وأصبحوا جميعاً يوم الأحد لابسين السلاح. وطلع أعيان الأمراء إلى السلطان، وهم الأتَابك بيبرس، والوالد، ويَكْتَمُر رأس نوبة الأمراء، وسُودون الماردانى أمير مجلس، وآقباي حاجب الحجّاب، وطُوخ الخازندار، في آخرين من مقدّمي الألوف والطبلخانات والعشرات والمماليك السلطانيّة.

وكان مع يَشْبَك من أمراء الألوف سبعة، وهم الأمير تِمْراز الناصري أمير سلاح، ويَلْبُغا الناصري، وإينال حطب العلائي، وقُطْلُوبُغا الكَرَكي، وسودون الحمزاوي رأس نوبة النوب، وطُولو، وجركس المصارع. وانضم معهم سعد الدين

إبراهيم بن غراب الأستادار، ومحمد بن سنقر البكجري، وناصر الدين محمد بن علي بن كلبك، في جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية.

وتجهّز يَشْبك للحرب، وأعدّ بأعلى مدرسة السلطان حسن مدافع النفط والمكاحل والأسهم للرمي على الإسطبل السلطانيّ وعلى من يقف تحته من الرميلة. واجتمع عليه خلائق. ونزل السلطان أيضاً من القصر إلى الإسطبل السلطاني، وجلس بالمقعد، واجتمع عليه أكابر أمرائه وخاصّكيته. ووقع القتال بين الطائفتين والحصار والرمي بالمدافع من بكرة يوم الأحد إلى ليلة الخميس سابعه. وقد ظهر أصحاب السلطان على اليشبكّية، وحصروهم، والقتال مستمرّ بينهم، وأمْرُ يشبك في إدبار، وحالُ السلطان في آستظهار، إلى أن كانت ليلة الخميس المذكورة، فاتفق الأمير يَشْبك مع أصحابه، وركب نصفَ الليل، وخرج بمن معه من الأمراء من الرميلة على حَميّة، ومرّوا من تحت الطبلخاناه إلى جهة الشام، فلم يتبعهم أحد من السلطانيّة. ونودي بالقاهرة في آخر الليلة المذكورة بالأمان، ومُنع أهل الفساد والزُّعْر من النَّهْب. ومرّ يشبك بمن معه من الأمراء والمماليك إلى قَطْيَا، فتلقّاه مشايخ عربان العائذ[1] بالتقادم. وسار إلى العريش، وقد بلغ خبره إلى غزّة، فتلقّاه نائب غزّة الأمير خير بك بعساكر غزّة، فدخلها يوم الأربعاء ثالث عشر صفر[2] ونزل بها.

ثم بعث الأمير طُولُو إلى الأمير شيخ المحمودي نائب الشام يُعلمه الخبر. وسار طُولُو يريد دمشق حتى قدم دمشق يوم الأحد ثامنَ عشرِه، فخرج الأمير شيخ إليه، وتلقّاه، وأعلمه طولو الخبرَ، فشقّ ذلك عليه، ووعَدَه بالقيام بنصرة يشبك.

وكان في ثامن عشر الشهر الخارج قدم الأمير دقماق المحمّدي دمشق فأكرمه الأمير شيخ.

وخبرُ دقماق وسببُ قدومه إلى دمشق، أنه لمّا فرّ من حَلَب، وجمع التركمان

(١) في السلوك: «العايذ». وبنو العائذ: بطن من جذام من القحطانية، ومساكنهم فيما بين بلبيس من الديار المصرية إلى عقبة أيلة إلى الكرك من نواحي فلسطين. (مسالك الأبصار: ١/١٧٥، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ٣٠٤).

(٢) في السلوك: «ثالث عشر جمادى الأولى».

وأخذ حلب، وقدم الأمير دمرداش المحمّدي نائب طرابلس عليه وقد ولي نيابة حلب بعد أن أطلق دمرداش وسُودون طاز وجَكَم، وسار بهما من طرابلس إلى حلب لقتال التركمان، وواقع التركمان بعد أن قتل سودون طاز، فانكسر دمرداش، وملَكَ جَكَم حلب منه بعد أمور صدرتْ يطول شرحها، فكتب السلطان إلى دقماق يخيّره في أيّ بلد يقيم، فآختار الشام، فقدمها.

ولما بلغ الأمير شيخ ما وقع ليَشْبك بعث بالأمير أَلْطُنْبُغا حاجب الحجاب بدمشق والأمير شهاب الدين أحمد بن اليغموريّ، وجماعة أُخر من الأعيان إلى الأمير يَشبَك، ومعهم أربعة أحمال قماش ومال، وكتب شيخ على أيديهم مطالعَات للأمير يَشْبَك يرغّبه في القدوم عليه، وأنه يقوم بنُصرته ويوافقه على غرضه.

فلمّا بلغ يَشْبَك ذلك رحل من غزّة في ليلة الاثنين خامس عشرينه، بعد ما أقام بها ثلاثة عشر يوماً، وأخذ ما كان بها من حواصل الأمراء وعدّة خيول، وبعث إليه أهل الكَرَك والشَّوْبَك بعدّة تقَادِم، بعد ما كان عرض من معه من المقاتلة فكانوا ألفاً وثلاثمائة وخمسة وعشرين فارساً، وتلقّاه بعد مسيره من غزّة مشايخ بلاد الساحل [والجبل][1] وحمل إليه الأمير بَكْتَمُر جلق[2] نائب صَفَد عدّة تقادم، وقدم عليه آبن بشارة في عدّة من مشايخ العشير.

ثم جهز إليه الأمير شيخ نائب الشام جماعةً لملاقاته طائفةً بعد أخرى.

ثم خرج إليه شيخ المذكور من دمشق حتى وافاه، فلمّا تقاربا ترجّل الأمير شيخ عن فرسه، فلمّا عاينه يشبك ترجّل هو وأصحابه وسلّم عليه، ثم سلّم على الأمراء وجلسا قليلاً. ثم ركبا، وسار يَشْبَك المذكور، وقد ألبسه شيخ هو وجميع من معه من الأمراء الخلَع بالطُّرز العريضة، وعدّتهم أحد وثلاثون أميراً من الطبلخانات والعشرات سوى من تقدّم ذكرُهم من أمراء الألوف، ودخلوا دمشق يوم الثلاثاء رابع شهر رجب.

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «شلق».

ولمّا طال جلوسُهم بدمشق سألهم الأمير شيخ عن خبرهم، فأعلموه بما كان، وذكروا له أنهم مماليك السلطان وفي طاعته، لا يخرجون عنها أبداً، غير أنّ إينال باي نقل عنهم للسلطان ما لا يقع منهم، فتغيّر خاطر السلطان عليهم حتى وقع ما وقع، وأنهم ما لم يُنْصِفُوا منه ويعودوا لما كانوا عليه وإلّا فأرض الله واسعة. فوعَدَهم بخير، وقام لهم بما يليق بهم، حتى قيل إنه بلغتْ نفقته عليهم نحو مائتي ألف دينار مصريّة. ثم كتب شيخ إلى السلطان يسأله في أمرهم.

وأمّا أمر السلطان الملك الناصر، فإنّه لما أصبح، وقد آنهزم يَشْبَك بمن معه إلى جهة الشام، كتب بالإفراج عن الأمير سُودون من زاده، وتَمُرْبُغا المشطوب، وصُرُق، وكتب إلى الأمير نَوْرُوز بالحضور إلى الديار المصرية ليستقرّ على عادته، وكتب للأمير جَكَم أماناً توجّه به طغاي تمر مقدّم البريديّة.

ثم في ثامن[1] عشرِه خلع على عدّة من الأمراء بعدّة وظائف، فخلع على سودون المارداني[2] أمير مجلس بآستقراره دواداراً عوضاً عن يَشْبَك الشعباني المقدَّم ذكره، وعلى الأمير سُودون الطّيار الأمير آخور الثاني، وآستقرّ أمير مجلس عوضاً عن سودون المارداني، وعلى آقباي حاجب الحجّاب بآستقراره أميرَ سلاح عوضاً عن تِمْراز الناصري، وخلع على أبي كمّ، وآستقرّ في وظيفة نظر الجيش عوضاً عن آبن غراب، وعلى[3] ركن الدين عمر بن قايماز بآستقراره أستاداراً عوضاً عن آبن غراب أيضاً.

ثم في تاسع[4] عشره، قدم سودون من زاده وتمربغا المشطوب وصُرُق من سجن الإسكندرية وقبّلوا الأرض بين يدي السلطان ونزلوا إلى دُورهم.

وفي حادي عشرينه خلع السلطانُ على الأمير يَشْبَك بن أَزْدَمُر باستقراره رأس نوبة النَّوَب[5] عوضاً عن سُودون الحمزاوي.

---

(١) في السلوك: «ثاني عشره».

(٢) في السلوك: «المارديني».

(٣) في السلوك أنه خلع عليه في خامس عشره.

(٤) السلوك: «سابع عشره».

(٥) السلوك: «رأس نوبة».

ثم ألزم السلطانُ مباشري الأمراء المتوجّهين إلى الشام بمال، فقرّر على موجود الأمير يَشْبَك مائةَ ألف دينار، وعلى موجود تمراز مائة ألف دينار، وعلى موجود سودون الحمزاوي ثلاثين ألف دينار، وعلى موجود قُطْلُوبُغا الكَرَكيّ عشرين ألف دينار، ورسم السلطان أن يكون الدينار بمائة درهم، ثم افتقد السلطان المماليك السلطانية ممن توجه مع الأمير يَشْبَك فكانوا مائتي مملوك.

ثم قدم الخبرُ على السلطان أنّ الأمير نَوْروز قدم إلى دمشق من قلعة الصُّبَيْبة، فتلقّاه الأمير شيخ وأكرمه، وضربت البشائر لقدومه بدمشق، فعظُم ذلك على السلطان.

ثم في يوم الثلاثاء رابع شهر رجب طلب السلطان جمال الدين يوسف البِيري أستادار بجاس وخلع عليه بآستقراره أُستاداراً عوضاً عن آبن قايماز، بعد ما رسم[١] على جمال الدين المذكور في بيت شادّ الدواوين محمد بن الطبلاوي يوماً وليلة. وآستمرّ يتحدّث في استادارية الأتابك بيبرس، فإنه كان خدم عنده، ليحميه من الوزَر والأستادارية، فلم ينهض بيبرس بذلك[٢].

ثم قدم الخبر بأن الأمير شيخاً أفرج عن قرايوسف[٣].

وأما خبر جكم مع دمرداش وكيف ملك منه حلب، وقد قدّمنا ذكر ذلك مجملاً من غير تفصيل، فإن جكم لما أطلقه دمرداش وأخذه صحبته إلى حلب، وقاتل معه التركمان، ووقع لهما أمور حاصلها أن جكم تخوّف من دمرداش وفرّ منه إلى جهة التركمان، وانضم عليه سودون الجلب بعد مجيئه من بلاد الإفرنج، والأمير جمق نائب الكرك كان، وغيره من المخامرين. ثم وافقه ابن صاحب الباز أمير التركمان بتركمانه، فعاد جكم وقاتل دمرداش، ووقع بينهما أمور وحروب إلى أن ملك جكم طرابلس. وأرسل إليه الأمير شيخ نائب الشام والأمير يشبك ورفقته

(١) أي حجز عليه.

(٢) عبارة السلوك: «واستمر يتحدث في أستادارية الأمير بيبرس ابن أخت السلطان كما كان يتحدث فيها قبل استقراره في أستادارية السلطان».

(٣) رواية السلوك: «وأفرج الأمير شيخ عن قرا يوسف بن قرا محمد التركماني في يوم الاثنين سابع عشره وخلع عليه وحلّفه على موافقته والقيام معه».

يستميلونه ليقدم عليهم دمشق ويوافقهم على قتال المصريين، فأجابهم إلى ذلك، وخرج من طرابلس كأنه يريد التوجه إلى دمشق.

فلما وصل حماة أخذ نائبها الأمير علان بمن انضم عليه وتوجه بهم إلى دمرداش وقاتله حتى هزمه وأخذ منه مدينة حلب. وفرّ دمرداش بجماعة من أمراء حلب إلى بلاد التركمان.

ولما ملك جكم حلب أنعم بموجود دمرداش على علّان نائب حماة، وأقرّه على نيابة حماة على عادته، فصار مع جكم حلب وطرابلس وحماة. وأخذ يسير مع الرعية أحسن سيرة، فأحبه الناس وجرى على ألسنتهم: «جكم حكم، وما ظلم». واستمرّ جكم بحلب إلى أن أرسل إليه الأمير شيخ نائب الشام الأمير سودون الحمزاوي، والأمير سودون الظريف، فتوجها إلى جكم على أنه بطرابلس.

ثم أرسل الأمير شيخ الأمير شرف الدين موسى الهيدباني حاجب دمشق إلى حلب رسولاً إلى دمرداش يستدعيه إلى موافقته هو ومن عنده من الأمراء. وكان قد ورد كتاب دمرداش على شيخ ويشبك أنه معهما، ومتى دعواه حضر إليهما. فهذا ما كان من أمر جكم، وبقية خبر قدومه يأتي إن شاء الله تعالى فيما بعد.

ثم إن الأمير شيخاً نائب الشام عين جماعة من الأمراء ليتوجهوا لأخذ صفد، فخرج الأمير تمراز الناصريّ أمير سلاح، والأمير جاركس القاسمي المصارع، والأمير سودون الظريف بعد عوده من طرابلس، وساروا بعساكرهم لأخذ صفد من بكتمر جلّق، بحيلة أنهم يسيرون إلى جِشار[1] الأمير بكتمر جلّق كأنهم يأخذوه، فإذا أقبل إليهم بكتمر ليدفعهم عن جشاره، قاطعوا عليه وأخذوا مدينة صفد منه، فتيقظ بكتمر لذلك وترك لهم الجشار، فساقوه من غير أن يتحرك بكتمر من المدينة، وعادوا إلى دمشق وأخبروا الأمراء بذلك. فاستعد شيخ لأخذ صفد، وعمل ثلاثين مدفعاً وعدّة مكاحل ومنجنيقين، وجمع الحجّارين والنقّابين وآلات الحصار. وخرج من دمشق يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ومعه جمع كبير من عسكر مصر والشام من جملتهم

(١) الجشار هنا بمعنى الخيل والدواب والأبقار التي تساق مع الجيش.

قرايوسف بجماعته، وجماعة السلطان أحمد بن أويس [متملك بغداد][١]، وجماعة من التركمان الجشارية، وأحمد بن بشارة بعُشْرانة[٢] وعيسى بن الكابوليّ بعشرانه. ونادى شيخ بدمشق قبل خروجه منها: «من أراد النهب والكسب فعليه بمصر»[٣] فاجتمع عليه خلائق، وسار معه مائة جمل تحمل مكاحل ومدافع وآلات الحصار. وولي الأمير ألطنبغا العثماني نيابة صفد كما كان أولاً، وسار شيخ بمن معه من العساكر حتى وافى مدينة صفد، فأرسل شيخ بالأمير علّان إلى بكتمر جلّق يكلّمه في تسليم مدينة صفد، فلم يذعن إليه بكتمر وأبى إلا قتاله، وقال: «ما له عندي إلا السيف»؛ فحينئذ ركب شيخ ويشبك بمن معهما وأحاطا بقلعة صفد، وحصراها من جميع جهاتها، وقد حصنها بكتمر وشحنها بالرجال، وقام يقاتل شيخاً أتم قتال. فاستمر الحرب بينهم أياماً كثيرة جرح فيها من أصحاب شيخ نحو ثلاثمائة رجل، وقتل أزيَد من خمسين نفساً.

وبينما هم في قتال صفد إذ ورد عليهم الخبر بقدوم جكم إلى دمشق، ففرحوا بذلك، ولم يمكنهم العود إلى دمشق إلا عن فَيْصَل[٤] من أمر صفد.

وكان خروج جكم من حلب في حادي عشر شهر رمضان، وسار حتى قدم دمشق، وقد حضر إليه شاهين دوادار الأمير شيخ يستدعيه، فإن شيخاً كان أرسله إليه قبل خروجه إلى صفد بعد عود سودون الحمزاوي وسودون الظريف من طرابلس. وقبل خروج جكم من حلب سلّم قلعتها إلى الأمير شرف الدين موسى بن يلدق، وعمل حجّاباً وأرباب وظائف، وعزم على أنه يتسلطن ويتلقب بالملك العادل. ثم بدا له تأخير ذلك، وقدم دمشق لمرافقة شيخ ويشبك ومن معهما. ووصل إلى دمشق ومعه الأمير قاني باي وتغري بردي القُجْقاري وجماعة كبيرة، فخرج مَن بدمشق من أمراء مصر والشام جميعهم إلى لقائه، وأُنزل بالميدان، فسلم

---

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) أي العشائر. وهي جماعات البدو والعربان التي تنتمي إلى جد واحد.
(٣) رواية السلوك: «بصفد». وهو الصواب.
(٤) أي إلا بعد أن ينجلي أمر صفد وتتضح نتيجة القتال.

جكم على الأمراء سلام السلاطين على الأمراء، وأخذ يترفع عليهم ترفعاً زائداً أوجب تنكرهم عليه في الباطن، إلا أن الضرورة قادتهم إلى الانقياد إليه، فأكرموه على رغمهم، وأنزلوه وكلّموه في القيام معهم، فأجاب. وأمرهم أن يكتبوا ليشبك وشيخ بقدومه إلى دمشق، فكتبوا إلى يشبك وشيخ بذلك. وأخذ جكم في إظهار شعار السلطنة مع خدمه وأصحابه، فشق على الأمراء ذلك، وما زالوا به بالملاطفة حتى ترك ذلك إلى وقته. وأقام معهم بدمشق إلى ليلة الأحد سابع عشرين شهر رمضان من سنة سبع وثمانمائة المذكورة، فخرج من دمشق وتوجه مخفّاً إلى طرابلس ليجمع عساكر طرابلس، وترك ثقله[١] بدمشق. وورد عليه الخبر أن دمرداش لما فر منه ركب البحر وتوجه إلى دمياط.

ثم قدم إلى مصر في رابع عشرين شهر رمضان المذكور فهدأ سرُّ جكم بذلك عن أمر حلب.

وأما يشبك وشيخ بمن معهما من الأمراء والعساكر لما طال عليهم القتال على مدينة صفد، وعجزوا عن أخذها، تكلموا في الصلح مع بكتمر حتى تم لهم ذلك. واصطلحوا وتحالفوا، ونزل إليهم بكتمر جلّق في يوم الاثنين حادي عشرين شهر رمضان، بعد أن كانت مدة القتال بينهم على صفد اثنين وعشرين يوماً.

وعاد شيخ إلى دمشق وهو مجروح، ويشبك الشعباني وهو مجروح أيضاً، وجاركس المصارع وهو مجروح. وأما عساكرهم فغالبهم أثخنته الجراح. فعندما أقاموا بدمشق قدم عليهم الأمير جكم من طرابلس، بعد أن أرسلوا يستحثونه على سرعة المجيء إليهم غير مرة، فخرجوا لتلقّيه، وسلّموا عليه، وعادوا به إلى دمشق وهما في غاية الحنق من جكم؛ وهو أنه لما وافاهما جكم ترجّل إليه الأمير يشبك عن فرسه إلى الأرض، وسلّم عليه، فلم يعبأ به جكم، ولا التفت إليه، لأنه كان غريمه فيما تقدّم ذكره، فشق ذلك على الأمير شيخ، ولامَ يشبك على ترجّله.

ثم عتب شيخ جكم على ما وقع منه في عدم إنصاف يشبك. ثم نزل جكم

---

(١) أي أثقاله، كما في السلوك.

بالميدان، وجلس في صدر المجلس، وجلس يشبك عن يمينه، وشيخ عن يساره، فكاد شيخ ويشبك أن يهلكا في الباطن، ولم يسعهما إلا الإذعان لتمام أمرهما.

ثم أمرهم جكم ألّا يفعلوا شيئاً إلا بمشاورته، فاتفقوا على منع الدعاء للسلطان الملك الناصر فرج بمنابر دمشق، فوقع ذلك، وذكر الخطباء اسم الخليفة في الخطبة فقط.

وكان الأمير شيخ قبل قدوم جكم إلى دمشق أفرج عن السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد من سجن دمشق، وأنعم عليه بمائة ألف درهم فضة وثلاثمائة فرس. وأنعم أيضاً على قرايوسف بمائة ألف درهم وثلاثمائة فرس، وأخرج عدة كبيرة من أمراء مصر إلى جهة غزة [بعد أن حمل إلى كل منهم مائة ألف درهم فضة][1] وهم: الأمير تمراز الناصريّ، وابنه الأمير سودون بقجة، وسودون الحمزاوي، ويلبغا الناصري، وإينال حطب، وجاركس المصارع، بعد أن حمل شيخ أيضاً إلى كل منهم مائة ألف درهم فضة. ولم يتأخر بدمشق من أعيان الأمراء إلّا الأمير يشبك الدوادار والأمير شيخ نائب الشام، وأقاما في انتظار الأمير جكم حتى قدم عليهما جكم حسبما تقدّم ذكره. وبعد قدوم جكم أجمعوا على المسير إلى جهة مصر، وبرزوا بالخيام إلى قبة يلبغا في يوم رابع عشر ذي القعدة.

ثم خرج الأمير شيخ والأميرَ يشبك وقرايوسف من دمشق في يوم عشرين ذي القعدة وساروا إلى الخربة[2] فافترقوا منها. فتوجه يشبك وقرايوسف إلى صفد لقتال نائبها بكتمر جلق ثانياً، فإنه بلغهم أنه مستمر على طاعة السلطان. وتوجه شيخ إلى قلعة الصُّبَيْبة وبها ذخائره وحريمه.

فلما بلغ بكتمر جلق مجيء العسكر لقتاله استعد هو أيضاً لقتالهم، وقد قوي قلبه، فإنه بلغه أن علّان نائب حماة دخل في طاعة السلطان وخالف الأمراء، وكذلك

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) لعلها «الخريبة»، وهي خريبة الغار، حصن بساحل بحر الشام. (معجم البلدان).

شيخ السليماني المسرطن نائب طرابلس، فإنه دخل في طاعة السلطان، واستولى على طرابلس واستفحل أمره، وأن الأمير شيخاً السليماني نائب طرابلس بعد أخذ طرابلس قدم عليه البريد بنيابة قاني باي على طرابلس، فخرج منها شيخ السليماني إلى حماة، فأشار عليه علّان نائب حماة أنه لا يسلّم طرابلس لقاني باي حتى يراجع السلطان ويعلمه بما يترتب على عزله من الفساد، فعاد شيخ إلى طرابلس. فبهذه الأخبار ثبت بكتمر جلق على طاعة السلطان وقتال الأمراء.

ولما قارب يشبك وقرايوسف صفد أخرج بكتمر كشّافته[١] بين يديه، ونزل جسر يعقوب، فالتقى كشافته بأصحاب يشبك وقرايوسف، فاقتتلوا قتالاً شديداً ظهر فيه كشّافة صفد، وأخذوا من الشاميين عشرة أفراس، فعاد يشبك وقرايوسف إلى طبرية، ونزلوا بها حتى قدم عليهم الأمير شيخ نائب الشام.

ثم ساروا جميعاً إلى غزة، وقد تقدّمهم الأمير جكم ونزل على الرملة.

وأما أمراء الديار المصرية فإن السلطان الملك الناصر لما تحقق اتفاق الأمير شيخ المحمودي نائب الشام مع يشبك ورفقته، وبلغه أخبارهم مفصّلاً، استشار الأمراء في أمرهم، فأجمعوا على خروج السلطان لقتالهم. فتجهّز السلطان، وعلّق جاليش السفر في ثاني ذي القعدة بالطبلخاناه[٢] السلطانية على العادة.

---

(١) الكشافة: فئة من العسكر كان عملها الخروج لكشف أخبار العدو. وهو نوع من الرصد والاستطلاع بالمصطلح الحديث.

(٢) الطبلخاناه: كثيراً ما يستعمل هذا اللفظ بتاء مربوطة في الآخر. وصوابه أن يقال: «طبلخاناه» أو «طبلخانه» بهاء ساكنة في آخره.

والطبلخاناه في الأصل معناه بيت الطبل، من الفارسية «خاناه» أو «خانه» أي البيت، أضيف إليها لفظ الطبل، على عادة العجم في تأخير المضاف عن المضاف إليه. والمعنى أنه البيت أو الدار التي تشتمل على الطبول والأبواق والصنوج وما شابه ذلك. وهذا المعنى الأصلي هو المراد هنا. وكان يحكم على الطبلخاناه السلطانية واحد من أمراء العشرات يسمى «أمير علم» يتولى أمرها ويقف عليها عند ضربها في كل ليلة، إذ كانت العادة أن تدق الطبلخاناه نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب. كما أن فرقة الطبلخاناه كانت ترافق السلطان في الأسفار والحروب. كما كانت العادة أيضاً أن يرفع جاليش السلطان (شعاره) على مبنى الطبلخاناه إذا أراد السلطان الخروج في سفر أو حرب.

وأهم أفراد فرقة الطبلخاناه ثلاثة وهم: الديندار وهو الذي يضرب على الطبل، والمنفّر وهو الذي ينفخ =

ثم أنفق في رابعه على المماليك السلطانية، على كل مملوك خمسة آلاف درهم. وكان صرف الذهب يوم ذاك مائة درهم المثقال، فصرف لكل واحد منهم خمسة[1] وأربعين مثقالاً. واحتاج السلطان في النفقة المذكورة حتى اقترض من مال أيتام الأمير قلمطاي الدوادار عشرة آلاف مثقال، ورهن عندهم جوهراً، وجعل كسب ذلك ألف دينار ومائتي دينار وأخذ منهم أيضاً نحو ستة عشر ألف مثقال، وباعهم بها بلدة من أعمال الجيزة تسمى البراجيل، وأخذ من [تركة][2] التاجر برهان الدين المحلّي وغيره مالاً كثيراً، ووزّع له قاضي القضاة شمس الدين الأخنائي الشافعي خمسمائة ألف درهم على تركات خارجة عن المودع. وكانت نفقة السلطان على [نحو][3] خمسة آلاف مملوك، [بلغت مائتي ألف دينار وخمسين ألف دينار][3].

ثم عزل السلطان الأخنائي عن قضاء الشافعية بقاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني، وعزل ابن خلدون بقاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطيّ المالكي.

ثم قدم الخبر على السلطان بنزول الأمراء على مدينة غزة، وأخذهم الإقامات المجهّزة للعساكر السلطانية.

وكانت غزة قد غلا بها الأسعار لقلّة الأمطار، وبلغت الويبة[4] القمح مائة وعشرين درهماً. فعند ذلك جد السلطان الملك الناصر في حركة السفر، والاستعداد للحرب.

وأما أمر الأمراء فإنه خرج جاليشهم من مدينة غزة إلى جهة الديار المصرية في يوم الأحد ثاني ذي الحجة.

= في البوق، والكوسيّ وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس التي تسمى الكوسات.
وكذلك استعمل لفظ «طبلخاناه» للدلالة على رتبة عسكرية. وأمير طبلخاناه هو الذي يكون تحت إمرته عدد من الأجناد يتراوح ما بين أربعين وثمانين.

(١) في السلوك وبعض النسخ: «تسعة وأربعين».
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) الويبة: مكيال للحبوب، سعته سدس الإردبّ. والإردب مكيال في مصر يعدل ١٩٧,٧ ليتراً.

ثم سار من الغد الأمير شيخ ويشبك وجكم ببقية عساكرهم، واستنابوا بغزة الأمير ألطنبغا العثماني.

ثم [في سادسه][١] قدم الخبر على جناح الطير من بُلْبَيس بنزول الأمراء على قَطْيا، فكثرت حركات العسكر بالقاهرة، وخرجت مدوّرة السلطان إلى الرَّيْدانيّة خارج القاهرة، واختبط العسكر واضطرب لسرعة السفر.

ثم ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه وعساكره في يوم السبت ثامن ذي الحجة من سنة سبع وثمانمائة، وسار حتى نزل بالريدانية خارج القاهرة، وبات بها، وقد أقام من الأمراء بباب السلسلة بكتمر الركني رأس نوبة الأمراء وجماعةً أُخَر بالقاهرة.

وبينما السلطان بالريدانية ورد عليه الخبر بنزول الأمراء بالصالحية في يوم التَّروية[٢]، وأخذوا ما كان بها من الإقامات السلطانية، فرحل السلطان من الريدانية في يوم الأحد تاسعه، ونزل العِكْرِشة[٣]، ثم سار منها ليلاً، وأصبح ببلبيس وضحّى بها، وأقام عليها يومي الاثنين والثلاثاء. ورحل من مدينة بلبيس بكرة نهار الأربعاء، ونزل على منزلة السعيدية[٤]، فأتاه كتب الأمراء الثلاثة، وهم: جكم، وشيخ، ويشبك بأن سبب حركتهم ما جرى بين الأمير يشبك وبين إينال باي بن قجماس، وطلبوا منه أن يُخرج إينال باي المذكور ودمرداش المحمدي نائب حلب من مصر، وأن يعطي لكلٍّ من يشبك وجكم وشيخ ومن معهم بمصر والشام ما يليق بهم من النيابات والإقطاعات لتخمد هذه الفتنة باستمرارهم على الطاعة، وتُحقن الدماء،

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) يوم التروية: هو اليوم الثامن من ذي الحجة؛ وسمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد ذلك.

(٣) العكرشة: من أعمال ضواحي القاهرة. وكانت قرب أبي زعبل بمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية (محمد رمزي).

(٤) السعيدية: قرية قديمة اندثرت. كانت تقع بأراضي ناحية العباسة بين بلبيس والخطارة بالشرقية. وقد أسماها الظاهر بيبرس السعيدية نسبة إلى ولده السعيد محمد بركة خان. (صبح الأعشى: ١٤/٣٧٧، وخطط المقريزي: ٢/٣٠٠، والقاموس الجغرافي لمحمد رمزي: ١/١/٧٠).

ويَعمر بذلك مُلْك السلطان، وإن لم يكن ذلك تلفتْ أرواح كثيرة، وخرّبتْ بيوت عديدة.

وكانوا أرادوا هذه المكاتبة من الشام، ولكن خشوا أن يُظَنّ بهم العجز، فإنه ما منهم إلا من جعل الموت نصب عينيه، فلم يلتفت السلطان إلى ذلك، ولم يأمر بكتابة جواب لهم. وكان ذلك مكيدة من الأمراء حتى كبسوا على السلطان في ليلة الخميس وهم في نحو ثلاثة آلاف فارس وأربعمائة تركماني من أصحاب قرايوسف.

وبينما السلطان على منزلة السعيدية ورد الخبر على الوالد من بعض أصحابه ممن هو صحبة الأمراء، أن الأمراء اتفقوا على تبييت[١] السلطان والكبس عليه في هذه الليلة؛ فأعلم الوالد السلطان، وحرّضه على الركوب بعساكره من وقته، فمال إليه السلطان. فأخذ الأمير بيغوت وغيره يستبعد ذلك؛ ولا زالوا بالسلطان حتى فتر عزمه عن الركوب، فعاد الوالد إلى وِطاقه[٢]، وأمر جميع مماليكه بالركوب بآلة الحرب.

وبينما هو في ذلك إذ ثارت غبرة عظيمة وهجّة في الناس. وقبل أن يسأل السلطان عن الخبر طرقه الأمراء على حين غفلة، فركب السلطان في الليل بمن معه، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً من بعد عشاء الآخرة إلى بعد نصف الليل، جُرح فيه جماعة كثيرة من الطائفتين، وقُتل الأمير صُرُق الظاهري صَبْراً بين يدي الأمير شيخ المحمودي نائب الشام، لأن السلطان كان ولاه عوضه نائب الشام، وانهزم السلطان وركب وساق عائداً على الهُجْن إلى جهة الديار المصرية، ومعه سودون الطيار وسودون الأشقر، وساقوا إلى أن وصلوا إلى القلعة. وتفرقت العساكر السلطانية، وانهزموا، وتركوا أثقالهم وخيامهم، وسائر أموالهم غنمها الشاميون. ووقع في قبضة الأمراء من المصريين الخليفةُ والقضاة، والأمير شاهين الأفرم،

(١) بيّت الأمر: دبّره أو عمله ليلاً. والمقصود أن يهاجموا السلطان ليلاً.

(٢) الوطاق: الخيمة الكبيرة المزخرفة تعدّ للعظماء وكبار الأمراء. وهي كلمة تركية أصلها أوتاق، وأوتاغ، وأوطاق. وقد دخلت في اللغة الفارسية في صيغ: أطاق وأتاق وأتاغ بمعنى الغرفة. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٩٨).

والأمير خير بك نائب غزة، ونحو ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية وغيرهم.

وقدم المنهزمون من السلطانية إلى القاهرة في يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة. ولم يحضر السلطان ولا الأمراء الكبار. فكثر الإرجاف وماج الناس، وانتهبت عدة حوانيت، حتى قدم السلطان قريب العصر ومعه الأمراء، وقد قاسى من العطش والتعب ما لا يوصف. فسر الناس بقدومه، وطلع إليه الأمراء والعساكر وباتوا تلك الليلة. وأصبح السلطان يتهيأ للقاء الأمراء، وقبض على يلبغا السالميّ وسلّمه لجمال الدين البيريّ الأستادار، فعاقبه وصادره. وشرع أمر السلطان كل يوم في زيادة لعدم قدوم العسكر الشامي إلى القاهرة.

فلما كان آخر نهار الأحد نزلت الأمراء[1] بالريدانية خارج القاهرة.

ثم أصبحوا في بكرة نهار الاثنين ركبوا وزحفوا على القاهرة، فأغلقت أبواب المدينة وتعطلت الأسواق عن المعايش. ومشوا حتى وصلوا قريباً من دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل، فقاتلهم [المماليك] السلطانية من بكرة نهار الاثنين المذكور إلى بعد الظهر. فلما أذّن الظهر أقبل جماعة كثيرة من الأمراء إلى جهة السلطان طائعين: منهم الأمير يَلْبُغا الناصري، وآسنباي أمير ميسرة الشام المعروف بالتركماني، وسودون اليوسفي، وإينال حطب، وجمق، فلما وقع ذلك اختل أمر الأمراء، وعزم جماعة منهم على العود إلى البلاد الشامية فحمل ما خف من أثقاله وعاد وفعل ذلك جماعة كبيرة بعد أن أفرج شيخ عن الخليفة والقضاة وغيرهم. فتسلّل عند ذلك الأمير يشبك الشعباني الدوادار، والأمير تمراز الناصري أمير سلاح، والأمير جاركس القاسمي المصارع، والأمير قَطلوبغا الكَركي في جماعة أخَر، واختفوا بالقاهرة وظواهرها.

فلما وقع ذلك ولّى الأمير جكم والأمير شيخ والأمير طولو وقرايوسف في طائفة يسيرة، وقصدوا البلاد الشامية، فلم يتبعهم أحد من عسكر السلطان.

ثم نادى السلطان بالأمان لكل أحد، فطلع إليه جماعة، فقبض عليهم

(١) أي جكم وشيخ ويشبك.

وقيّدهم وبعث بهم إلى سجن الإسكندرية، وخمدت الفتنة. وأجلت هذه الواقعة عن إتلاف مال كثير من العسكرين، ذهب فيها من الخيل والبغال والجمال والسلاح والثياب ما لا يدخل تحت حصر من غير فائدة.

ثم أخذ الملك الناصر في تمهيد أمور دولته وإصلاح الدولة والمفرَد[1]. وقبض على الصاحب تاج الدين بن البقري، وسلّمه لجمال الدين الأستادار، واستقرّ عوضه في الوزارة فخر الدين ماجد بن غراب. وكان أخوه سعد الدين إبراهيم بن غراب مع العسكر الشامي، فلما قدم معهم اختفى بالقاهرة، ثم ترامى على الأمير إينال باي بن قجماس، فجمع بينه وبين السلطان ليلاً، ووعده بستين ألف دينار.

وأصبح يوم الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة طلع سعد الدين بن غراب إلى القلعة فخلع عليه السلطان وجعله مشيراً.

ثم في ثالث عشرينه خلع السلطان على الأمير نوروز الحافظي، وكان ممن قدم مع العسكر، باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن الأمير شيخ المحمودي، وعلى بكتمر جلّق بآستقراره على نيابة صفد، وعلى سلامش حاجب غزّة بنيابة غزّة.

وأما جكم وشيخ فإنهما قدما غزّة في نحو خمسمائة فارس أكثرهم من التركمان أصحاب قرايوسف، وقد غنموا شيئاً كثيراً، وتفرّقت عساكر شيخ، وتلفت أمواله وخيوله. ومضى إلى دمشق، فخرج إليه الأمير بكتمر جلق والأمير شيخ السليماني المسرطن نائب طرابلس، فهرب منهما، فتتبعّاه إلى عَقَبة فِيق[2]، فنجا بنفسه فلم يدركاه. ودخل دمشق وهو في أسوأ حال، فوجد السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد فرّ من دمشق إلى جهة بلاده في ليلة الأحد سادس عشر ذي الحجة، وكان قد تأخر بدمشق ولم يتوجه إلى نحو الديار المصرية صحبة الأمراء. ثم إن شيخاً أوقع الحوطة على بيوت الأمراء الذين خامروا عليه وتوجهوا إلى مصر، وأخذ في إصلاح أمره ولمّ شَعَثِه.

---

(١) أي الديوان المفرد. ـ راجع ص٢٢٩ من هذا الجزء، حاشية(٢).

(٢) عقبة فيق: ينحدر منها إلى غور الأردن، ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها. وفيق: مدينة بالشام بين دمشق وطبرية. (معجم البلدان).

وأما جكم فإنه لما فارق حلب ثار بها عدّة من أمرائها، ورفعوا سنجق السلطان بقلعة حلب، فاجتمع إليهم العسكر، فحلفوا بعضهم لبعض على طاعة السلطان. وقدم ابنا شهري الحاجب ونائب القلعة من عند التركمان البياضية إلى حلب، وقام بتدبير أمور حلب الأمير يونس الحافظي. وامتدت أيدي عرب العجل ابن نعير وتراكمين ابن صاحب الباز إلى معاملة حلب، فقسموها، ولم يدعوا لأحد من الأمراء والأجناد شيئاً، كل ذلك قبل قدوم جكم إليها من مصر.

وأما السلطان فإنه رسم في أواخر ذي الحجة بانتقال الأمير علّان اليحياوي نائب حماة إلى نيابة حلب عوضاً عن جكم، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير إينال الخازندار، واستقرّ الأمير دقماق المحمدي في نيابة حماة عوضاً عن علّان المذكور، واستقرّ الأمير بكتمر جلق نائب صفد في نيابة طرابلس عوضاً عن شيخ السليماني المسرطن وتوجه بتقليده الأمير جرباش العمري، واستقر عوضه في نيابة صفد الأمير بكتمر الركني رأس نوبة الأمراء درجة إلى أسفل.

ثم في ثالث المحرم سنة ثمان وثمانمائة قدم مبشر الحاج وأخبر بأنه كان أُشيع بمكة المشرفة قدوم تيمورلنك إليها، فاستعد صاحب مكة لذلك، فلم يصحّ ما أشيع[1].

ثم قدم رسل الأمير شيخ نائب الشام إلى السلطان بديار مصر، وهم شهاب الدين أحمد بن حجّي أحد خلفاء[2] الحكم بدمشق، والشريف ناصر الدين محمد بن علي نقيب الأشراف، والشيخ المعتقد محمد بن قَديدار، والأمير يلبغا المنجكي، ومعهم كتبه تتضمن الترقق والاعتذار عما وقع منه، وتسأل استقراره على عادته في نيابة دمشق. فلم يلتفت السلطان إلى قوله، ومنع رسله من الاجتماع بأحد.

ثم في رابع عشرين المحرم سار الأمير نوروز الحافظي إلى نيابة دمشق، وخرج الأمراء لوداعه، ونزل بالريدانية ومعه مسفِّره الأمير برد بك الخازندار.

(١) انظر تفصيل ذلك في السلوك: ٣/١١٦٦.
(٢) خلفاء الحكم هم القضاة.

ثم وقعت الوحشة بين السلطان وبين الأمير إينال باي بن قجماس الأمير آخور، فقبض السلطان في يوم الاثنين سادس صفر على الأمير يشبك بن أزدمر رأس نوبة النوب، وعلى الأمير تمر، وعلى الأمير سودون، وهما من إخوة سودون طاز، فاختفى الأمير إينال باي أمير آخور ومعه الأمير سودون الجلب، وأحاط السلطان بدورهم، ثم قيّد الأمراء وأرسلهم إلى سجن الإسكندرية.

وأما إينال باي فإنه دار على جماعة من الأمراء ليركبوا معه، فلم يؤهّله[1] أحد لذلك، فآختفى إلى يوم الجمعة عاشره، فظهر، وطلع به الأتابك بيبرس إلى القلعة، فكثر الكلام بين الأمراء حتى آلَ الأمر إلى مسك إينال باي وإرساله إلى ثغر دمياط بطّالاً.

ثم في خامس عشرين صفر فرّق السلطان إقطاعات الأمراء الممسوكين، فأنعم بإقطاع إينال باي على الوالد، وزاده إمرة طبلخاناه، وأنعم بإقطاع الوالد على الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب كان، وبإقطاع دمرداش على الأمير أزبك الإبراهيمي؛ وجميع هذه الإقطاعات تقادم ألوف، لكن شيئاً أحسن من شيء في كثرة المغلّ.

وأنعم [السلطان] على الأمير بيبرس الصغير الدوادار بتقدمة ألف قبل أن تكمل لحيته، وعلى الأمير بشباي الحاجب بتقدمة ألف، وعلى الأمير علّان بتقدمة ألف، وعلى الأمير قراجا بإمرة عشرين، وأنعم بطبلخانات سودون الجلب على الأمير إيتمش الشعباني. ثم خلع على الأمير جرباش الشيخي رأس نوبة ثاني بآستقراره أمير آخوراً كبيراً عوضاً عن إينال باي.

وأما الأمير شيخ فإنه توجه صحبة الأمير جكم وقرايوسف لحرب نعير. ثم اختلفوا، فمضى جكم إلى طرابلس، وتوجه قرايوسف إلى جهة الشرق عائداً إلى بلاده. وعاد الأمير شيخ من البقاع ونزل سطح المِزّة[2] ومعه خواصّه فقط. ثم

---

(١) في السلوك: «فلم يوافقوه».

(٢) المِزّة: من قرى غوطة دمشق.

توجه إلى الصُّبَيْبة[1] هارباً من نوروز الحافظي، فدخل نوروز إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشرين صفر من غير مدافع لضعف الأمير شيخ عن مقاومته وقتاله.

وأما السلطان، فإنه خلع على الأمير بشباي الحاجب بآستقراره رأس نوبة النوب عوضاً عن يشبك بن أزدمر، وخلع على الأمير أرسطاي باستقراره حاجب الحجّاب بعد بشباي.

ثم في يوم الثلاثاء وقع بالديار المصرية فتنة، وكثر الكلام بين الأمراء إلى أن آتفق جماعة من المماليك الجركسية وسألوا السلطان القبض على الوالد وعلى الأمير دمرداش المحمدي، وعلى الأمير أرغون من بشبغا وجماعة أخر من كون السلطان اختص بهم[2]، وتزوّج بكريمتي[3] على كره من الوالد، وكونه أيضاً أعرض عن الجراكسة وأمسك إينال باي، فخافوا أن تقوى شوكة هؤلاء عليهم، واتفقوا واجتمعوا على الأتابك بيبرس، وتأخروا عن الخدمة السلطانية. وكثر كلام القوم في ذلك، إلى أن طلب السلطان الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فقال له دمرداش: «المصلحة قتالهم، وأنا كفء هؤلاء الجراكسة، والسلطان لا يتحرك من مجلسه» فنهره الوالد وقال له ما معناه: «تُقاتل خشداشيّتك! كلّنا مماليك السلطان ومماليك أبيه مهما شاء السلطان يفعل فينا وفيهم».

هذا وقد ظهر الملل على السلطان من كثرة الفتن، ولحظ الوالد منه ذلك، فإنه قال فيما بعد: «سمعته يقول في ذلك اليوم: وددت لو كنت ما كنت ولا أكون سلطاناً».

---

(١) أي قلعة الصُّبيبة، وهي قلعة مدينة بانياس السورية في الجولان. وفيها يمر نهر بانياس أحد روافد نهر الأردن. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١٥١/٦، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ١٤٠، والموسوعة الفلسطينية: ١٦٦/١).

(٢) وزاد المقريزي هنا: «من أجل أنهم من جنس الروم، وذلك أن السلطان اختص بهم وأعرض عن الجراكسة.. فخاف الجراكسة من تقدّم الروم عليهم وأرادوا من السلطان إبعادهم، فأبى عليهم، فتحزّبوا عليه، واجتمعوا على الأمير الكبير بيبرس».

(٣) كريمة الرجل في الأصل هي شقيقته. وشاع اللفظ لدى المتأخرين في ابنته. والمراد بها هنا خوند فاطمة شقيقة المؤرخ أبي المحاسن وكبرى أولاد الأمير تغري بردي. وقد توفيت سنة ٨٤٦هـ.

ثم أمر السلطان الوالد أن يختفي حتى ينظر السلطان في مصلحته، وأمر دمرداش أيضاً بذلك، وانفض المجلس من غير إبرام أمر.

ثم أصبح الناس يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الأول من سنة ثمان المذكورة، وقد ظهر الأمير يشبك الشعباني الدوادار، والأمير تمراز الناصري أمير سلاح، والأمير جاركس القاسمي المصارع، والأمير قاني باي العلائي، وكانوا مختفين بالقاهرة من يوم واقعة السعيدية.

وخبر ظهورهم أن الأتابك بيبرس ركب إلى السلطان، وأخبره بمواضع الأمراء المذكورين، ووافقه على مصالحة الجراكسة وإحضار الأمراء من آختفائهم، والإفراج عن إينال باي وغيره، فرضي السلطان بذلك، وتقرر الحال على ذلك. وطلع الأمراء المذكورون من الغد في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأول المذكور، فخلع السلطان على الأمير سودون تَلِي[1] المحمّدي بآستقراره أمير آخوراً كبيراً بعد عزل الأمير جرباش الشيخي، وعوده إلى إقطاعه إمرة طبلخاناه، ووظيفته ثاني رأس نوبة.

ثم في عاشره طلع الأمير يشبك الدوادار والأمير تمراز الناصري أمير سلاح والأمير جاركس القاسمي المصارع وجماعة أخر إلى القلعة، وقبّلوا الأرض بين يدي السلطان، فخلع عليهم خلع الرضا، ونزل كل واحد إلى داره.

ثم في خامس عشرة قدم الأمير قُطْلوبُغا الكَرَكي، وإينال حطب، وسودون الحمزاوي، ويَلْبُغا الناصري، وأسندمر الناصري، وتمر من سجن الإسكندرية، وهؤلاء الذين كان السلطان نادى لهم بالأمان بعد وقعة السعيدية، فلما طلعوا له قبض عليهم وسجنهم بالإسكندرية وهم رفقة يشبك وشيخ وجكم.

ثم قدم الأمير إينال باي بن قجماس من ثغر دمياط ومعه تمان تمر الناصري. ثم قدم الأمير يشبك بن أزدمر أيضاً من سجن الإسكندرية.

---

(١) في السلوك: «المعروف بتلي يعني المجنون».

ثم أمسك السلطان القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السرّ، وولّى عوضه سعد الدين إبراهيم بن غراب، وألزم فتح الدين بحمل ألف ألف درهم.

ثم ظهر الأمير دمرداش [نائب حلب] من آختفائه، فخلع السلطان عليه بنيابة غزّة، فسار في يوم السبت رابع عشرينه. وخلع السلطان أيضاً على يشبك بن أزدمر بنيابة مَلَطيّة، فامتنع من ذلك، فأكره حتى لبس الخلع، ووكّل به الأمير أرسطاي الحاجب والأمير محمد بن جلبان الحاجب حتى أخرجاه من فوره إلى ظاهر القاهرة.

ثم بعث السلطان إلى الأمير أزبك الإبراهيمي الظاهري المعروف بخاص خَرْجي ــ وكان تأخّر عن طلوع الخدمة ــ بأن يستقرّ في نيابة طَرَسُوس، فأبى أن يقبل والتجأ إلى بيت الأمير إينال باي، فاجتمع طائفة من المماليك ومضوا إلى يشبك بن أزدمر، وردّوه في ليلة الجمعة ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، وقد وصل قريباً من سرياقوس، وضربوا الحاجب المرسّم عليه، وصار العسكر فرقتين. وأظهر المماليك الجراكسة الخلاف، ووقفوا تحت القلعة يمنعون من يقصد الطلوع إلى السلطان، وجلس الأتابك بيبرس بجماعة من الأمراء في بيته. وصار السلطان بالقلعة وعنده عدّة أمراء، وتمادى الحال على ذلك يوم الخميس والجمعة والسبت [والناس في قلق][1] والقالة بينهم.

فلما كان يوم السبت نزل السلطان من القلعة إلى باب السلسلة، وآجتمع عنده بعض الأمراء لإصلاح الأمر، فلم يفد ذلك، وباتوا على ما هم عليه، وأصبحوا يوم الأحد خامس عشرينه وقد كثروا وطلبوا من السلطان الوالد وأرغون من بشبغا. وكان الوالد قد ظهر من يوم أخرج دمرداش إلى نيابة غزة، فلم يستجرىء أحد يتكلم في خروجه من القاهرة، واستمر على إمرته، فأبى الملك الناصر أن يرسله إليهم، فقال الوالد: «هذا أمر يطول، ولا بدّ من النزول»، فنزل إليهم ومعه أرغون، وكلّم الأمراء في سبب طلبهم إياه، وخشّن للأتابك بيبرس في القول، فإنه كان مسفّر الوالد لما ولي نيابة حلب في أيام الملك الظاهر برقوق، فلم يتكلّم بيبرس ولا غيره بكلمة واحدة، وسكت الجميع. فلما طال المجلس قال الوالد:

(١) زيادة عن السلوك.

«ما تتكلمون!» فعند ذلك تكلّم شخص من الخاصكية الظاهرية يقال له قرمش الأعور ــ وهو الذي قُطع رأسه في دولة الملك الأشرف برسباي من أجل جاني بك الصوفي حسبما يأتي ذكره ــ وقال قرمش: «يا خوند، المقصود أنك تخرج من الديار المصرية حتى تسكن هذه الفتنة، ثم تعود بعد أيام، أو يعطيك السلطان ما تختار من البلاد». فقال الوالد: «بسم الله حتى أشاور السلطان ثم أسافر» وخرج فلم يجرؤ أحد أن يقبضه ولا يرسم عليه، وعاد إلى بيته ولم يطلع إلى السلطان.

وكان سكنه بالبيت الذي بباب الزُّمَيْلة تجاه مصلّاة المؤمنيّ، وأقام به يومه. وتجهّز وخرج في الليل في نحو مائة مملوك من خواصّه، فلم يقف له أحد على خبر، وسار من البرّية إلى القدس الشريف في دون الخمسة أيام، ولم يجتز بقَطيًا خوفاً من تسليط العربان عليه[١].

وكان لما خرج من بيت بيبرس أرسل إليه السلطان يعلمه أنه أيضاً يريد يختفي ويترك السلطنة، فلهذا جدّ الوالد في السير لئلا يخرج القوم في أثره ويقبضون عليه.

فلما كان وقت الظهر من يوم خروج الوالد من مصر وهو يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأوّل فُقد السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق من قلعة الجبل ولم يُعرف له خبر.

وسبب تركه السلطنة أنه كان في يوم النوروز[٢] جلس السلطان مع جماعة من

---

(١) في السلوك أن السلطان «سلَّم الأمير تغري بردي والأمير أرغون، فلما بعثهما قبضوا عليهما، وأخرجوا تغري بردي منفياً في الترسيم إلى القدس». (السلوك: ١١٧٦/٣).

(٢) يوم النوروز أو النيروز: هو عيد رأس السنة القبطية، ويقع في مستهلّ شهر توت، أي العاشر أو الحادي عشر من شهر سبتمبر. وكان من عادتهم فيه إشعال النيران والتراشق بالماء وتبادل الهدايا. وقد لقي هذا العيد عناية كبيرة من خلفاء الفاطميين خاصة في زمن خلافة الأمر. وأصل هذا العيد فارسي، وهو أكبر الأعياد الشعبية في إيران قديماً وحديثاً. وعن طريق الفرس دخل إلى المجتمعات الإسلامية واهتمت به الطبقات الحاكمة والأمراء، خاصة من غير العرب. كما أن مظاهره في مصر كانت لا تخلو في بعض الأحيان من كثير من الإسراف والمجون في المنتزهات والأماكن العامة. (انظر صبح الأعشى: ٤٢٨/٢؛ وخطط المقريزي: ٢٦٧/١، ٤٩٣؛ وأخبار مصر للمسبحي: ٩؛ وأخبار مصر لابن ميسّر: ٩٢، ١٦٦؛ والموسوعة العربية الميسّرة: ١٨٥٩).

الأمراء والخاصكية من مماليك أبيه، وشرب معهم حتى سكر، ثم ألقى بنفسه إلى فسقيّة هناك، فألقى الجماعة أنفسهم معه، وقد غلب على السلطان السكر، وصار يسبح معهم في الماء ويمازحهم، وترك الوقار، فجاء من خلفه الأمير أزبك الإبراهيمي المعروف بخاصّ خرجي، وقيل غيره، وأزبك الأشهر[1]، وأغمّه في الماء مراراً وهو يمرق من تحته كأنه يمازحه حتى قبض عليه وغرّقه في الماء حتى كادت نفسه تزهق، ففطن به بعض مماليك أبيه من الأروام ممن كان معهم أيضاً في الفسقية، وخلّصه منه، وأفحش في سبّ أزبك المذكور، وأراد قتله، فمنعه السلطان من ذلك، وقال: «كان يلعب معي» وأسرّها في نفسه.

ثم طلع السلطان من الفسقيّة، وذهب كل واحد إلى حال سبيله. فذكر السلطان بعد ذلك للوالد ما وقع له مع أزبك المذكور، وأمره أن يكتم ذلك لوقته، فأخذ الوالد يزوّل عنه ويهوّنه عليه.

ثم عرّف السلطان جماعة من أكابر أمراء الجراكسة بذلك، فلم يلتفتوا لقوله وقالوا: «لم يُرد بذلك إلّا مباسطة السلطان»، فعند ذلك تحقّق السلطان أنهم يريدون قتله، وكان ذلك بعد خروج الأمراء من السجن وظهور يشبك ورفقته، وقد كثروا وعظم جمعهم، فلم يجد الملك الناصر بدّاً من أن يفوز بنفسه ويترك لهم ملك مصر.

ولما أراد النزول من القلعة ليختفي بالقاهرة قام ومعه بكتمر مملوك القاضي سعد الدين بن غراب، ويوسف بن قطلوبك صهر ابن غراب، ونزلوا من باب السرّ الذي يلي القرافة، وساروا على بركة الحَبش، ونزلوا منها في مركب، وتركوا الخيل، وتغيّبوا نهارهم كلّه في البحر حتى دخل الليل، فساروا بالمركب إلى بيت سعد الدين بن غراب، وهو فيما بين الخليج وبركة الفيل بالقرب من قنطرة طقزدمر، فلم يجدوه في داره، فمروا على أقدامهم حتى باتوا في بيت بالقاهرة لبعض معارف بكتمر.

---

(١) وفي حاشية طبعة كاليفورنيا: «الأشقر».

ثم بعثوا لابن غراب بمجيء السلطان إلى عنده، فهيأ له سعد الدين مكاناً من داره، وأنزله فيه من غير أن يعلم أحد به.

وأما الأمراء، فإنه لمّا بلغهم ذهاب السلطان الملك الناصر في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان وثمانمائة، بادروا بالطلوع إلى القلعة، وهم طائفتان: الطائفة التي كانت خالفت السلطان الملك الناصر، وركبوا عليه وقاتلوه أياماً، ثم توجهوا إلى الشام وعادوا إلى الديار المصرية وصحبتهم جكم وشيخ وقرايوسف وواقعوه بالسعيدية، وكسروه، ثم اختفوا، ورأسهم يشبك الشعباني الدوادار بمن كان معه من الأمراء، وقد مر ذكرهم في عدّة مواضع. والطائفة الأخرى كبيرهم بيبرس الأتابك، وسودون الماردانى الدوادار الكبير، وإينال باي وغيرهم.

فلما طلع الجميع إلى القلعة، منعهم الأمير سودون تلي المحمدي الأمير آخور الكبير من الطلوع إلى القلعة، فصاروا يتضرّعون إليه من نصف النهار إلى بعد غروب الشمس، حتى مكّنهم من العبور من باب السلسلة، فطلعوا ومعهم الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة، وتكلموا فيمن ينصبّوه سلطاناً، حتى ٱتّفقوا على سلطنة الأمير عبد العزيز بن الملك الظاهر برقوق، فإنه وليّ عهد أخيه في السلطنة حسبما قرّره والده الملك الظاهر برقوق قبل وفاته. فطلبوه من الدُّور السلطانية، فمنعته أمه خوند قُنُق باي أوّلاً، ثم دفعتْه لهم فأحضروه، وتم أمره، وتسلطن حسبما نذكره في محلّه من ترجمته. وخُلع الملك الناصر فرج من السلطنة وسنّه نحو سبع عشرة سنة تخميناً، فكانت مدّة تحكم الملك الناصر على مصر من يوم مات أبوه الملك الظاهر بوقوق إلى يوم خلع ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوماً، والله أعلم.

انتهت ترجمة الملك الناصر الأولى.

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر
فرج ابن الظاهر برقوق ـ الأولى على مصر

وهي سنة إحدى وثمانمائة على أن وَالِدَهُ الملكَ الظاهرَ بَرْقُوق حَكَمَ منها إلى نِصْفِ شوال، ثُمَّ حَكَمَ في باقيها الملكُ النّاصرُ هذا.

فيها تُوُفِّيَ قاضي القضاة عمادُ الدين أحمدُ بن عيسى بن سليم بن جميل الأزْرقيّ العامِريّ الكَرَكيّ الشافعيّ، قاضي قضاة الكَرَك ثم الدِّيار المصرية، بالقُدْس في سادس شهر ربيع الأوّل وكان فاضِلاً رئيساً نبيلاً وهو أحدُ من قَامَ مع الملك الظَّاهر بَرْقُوق عند خرُوجِهِ من سِجن الكَرَك، وخَدَمَه في أيّام حَبْسه بها ـ وقد تقدَّمَ ذكرُ ذلك كلّه في ترجمة الملكِ الظَّاهر بَرْقُوق ولَمَّا عَادَ الملكُ الظَّاهِرُ إلى مُلْكِه عَرَفَ له ذلك، وطلَبَه إلى الدِّيار المصريّة، وولاّه قضاء الشّافعيّة بالدِّيار المصريّة، وَوَلّى أخاه علاء الدين كاتب[1] سِرِّ الكَرَك كتابَةَ سِرِّ مصر ثم صُرِفَ القاضي عمادُ الدين هذا عن القضاء برَغْبَةٍ مِنْه، وَوَلِيَ مشيخةَ الصلاحية[2] بالقُدْس الشّريف إلى أن مَاتَ به.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين أرْغُون شاه بن عبد الله الإبراهيميّ الظَّاهِرِيّ ـ بَرْقُوق ـ نائبُ حَلَب بها، في ليلة خامس عشرين صفر، وكانَ من أخصّاء مماليك الملك الظَّاهر بَرقُوق؛ رَقَّاه إلى أن ولاّه نيابة صَفَد، ثم طَرَابُلُس، ثم نَقَلَه إلى نيابة حَلَب بعد عَزْل الوالد عنها في سنة ثمانمائة، فَدَامَ بها إلى أنْ مَاتَ. وكانَ أميراً عاقلاً ساكتاً، مَشْكُورَ السيرة وتَوَلّى بعدَه نيابةَ حَلَب الأميرُ آقْبُغا الجَمَالي الأطْرُوش.

---

(١) هذه الوظيفة وغيرها من الوظائف أو الألقاب التي ستأتي ـ ولا تكون معرّفة في الهامش ـ قد سبق التعريف بها؛ لذا تُنظر فهارس الألفاظ الاصطلاحية.

(٢) في الأصل «الصالحية». والتصحيح عن الضوء اللامع وإنباء الغمر.

وتُوُفِّيَ الأميرُ زينُ الدين أميرُ حاج بن مُغلْطَاي، أحدُ الأمراء بالديَّار المصريّة، في شهر ربيـع الأول وكان له رياسة وَوَجَاهة.

وتوفّيَ الشيـخُ الإمامُ العَلَّامة قُنْبُر بن محمد العجميّ السَّيْرامِيّ الشافعي، العالمُ المشهورُ، بالقاهرة، في شعبان؛ وكانَ قُدُومهُ إليها مِنْ بلاد العَجَم في حدود سنة سبـع وثمانين وسبعمائة، ونَزَل بجامـع الأزهر. وكان مُتَفَنِّناً في عِدَّة فُنُون من العلوم درَّسَ، واشتغل، وانتفَـعَ به الطَّلَبَةُ، وكان تاركاً للدُّنيا، متقشِّفاً في مَلْبَسِه، قَدْ قَنَـع بجبَّة من لِبْد[1]، وطاقيَّة من لِبْد، صيفاً وشتاءً وقال العيْنيّ، بعدما أثْنَى على عِلمِه: وكان يميلُ إلى سماع المَغَانْي[2] والّلهو والرقص، وكان يُتَّهم بالمَسْـح على رِجْلَيه من غير خُفّ[3] ــ انتهى.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين بَكْلَمُش بن عبد الله العلائيّ، أميرُ سلاح كانَ، بَطَّالاً بالقُدْس في صفر وأصْلُه من مماليك الأمير طَيْبُغَا الحسنيّ الناصريّ، المعْرُوف بالطويل، وتَرَقّى بعده حتى صار من جُملة الأمراء، ثمَّ أنْعَمَ عليه الملكُ الظاهرُ بَرْقُوق بإمْرَة طَبْلَخَاناَة قبل خَلْعِه من المُلْك، ثمَّ جعله في سلطنَتِه الثانية أمير آخوراً كبيراً مدَّة سنين، ثمَّ نقلَه ــ بعد أن أمسكه وحَبَسه ــ إلى إمْرَة سِلاح، فدَامَ على ذلك سنين إلى أنْ قَبَضَ عليه في تاسـع عشرين المحرم مِنْ سنة ثمانمائة، وقَبَضَ معه أيضاً على الأمير الكبير كَمَشْبُغا الحَمَويّ، وحُمِلاَ إلى سجن الإسكندرية وتَولّى الأمير آخورية بعده الأميرُ تنَبك الظاهري، فَدَامَ بَكْلَمُش هذا في السجن إلى أنْ أفْرَجَ عنه، وبَعَثَهُ إلى القُدْس بَطَّالاً، فَدام به إلى أنْ مات وكان أميراً شُجاعاً مِقْدَاماً، ذا كلمة نافِذة في الدولة، إلا أنه كانَ فيه كبْرٌ وجَبَرُوت، وخُلُقٌ سيـىء مـع كرمٍ وإنْعام. وكانَ سببُ القَبْض عليه أنَّه ضَرَب مُوَقِّعَهُ القاضي صفيَّ الدين الدَّميري

(١) اللِّبد: كل شعر أو صوف متلبِّد، أي تداخلت أجزاؤه ولزق بعضها ببعض.

(٢) أي المغنيات.

(٣) أي على مذهب الشيعة الإمامية. وهم يرون أن المسح على القدمين واجب، لقول الإمام علي: «ما أُبالي أَمْسح على الخفَّين أو على ظهر عير بالفلاة». في حين أجازت المذاهب الأربعة المسح على الخفين والجوارب بدلاً عن غسل الرجلين. (الفقه على المذاهب الأربعة: ص ٢٧).

وصادَره، فَشَكَا صفيُّ الدين حالَهُ إلى السلطان في أبياتٍ مَدَح السلطانَ فيها، وذَمَّ بَكْلَمُش المذكور، من جُمْلَتِها قَوْلُه:

يَـأكُـلُنِـي ذئـبٌ وأنـتَ لَـيْـثٌ(١)

فَسَمِـع بذلك بَكْلَمُش، فطَلَبَهُ وضربه ثانياً بالمَقَارع، وكلما ضربه رَشَّ عليه الملح؛ فكان كلَّما صاح يقول له بَكْلَمُش: «قُلْ للَّيث يُخَلِّصك من الذئب». فأقامَ بعد ذلك مدة، ومات من تلك العقوبة. وبلغَ السلطانَ ذلك فأمهلهُ مدة ثم قبضَ عليه.

وفيها تُوُفِّيَ الأمير حسامُ الدين حسن الكُجْكُنيّ نائب الكَرَك، ثم أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية. وهو الذي أخرجَ الملكَ الظاهرَ بَرْقُوق من سجن الكَرَك، ولما أرسل إليه مِنْطَاشُ الشهابَ البريديّ بقتلِهِ فقامَ حسامُ الدين هذا بِنُصْرَتِهِ، فلما عاد الملكُ الظاهرُ إلى ملكه كافأَهُ وأنعمَ عليه بإمْرَة مائة وتقدمة ألف بديار مصر، وصار من أعظم أمرائه إلى أن مات، رحمه الله. وكان عارِفاً، عاقلاً، سَيُوساً، وعنده فضيلةٌ وفَهْمٌ جيد ومُذَاكَرَة.

وتُوُفِّيَ الشيخُ المُعتقَد خَلَفُ بن حسن بن حُسَين الطُّوخي، في ثاني عشرين شهر ربيـع الأول وكان للناس فيه اعتقادٌ ومحبَّة.

وتُوفِّيَ الشيخُ المعتقدُ الصالحُ خليلُ بن عثمان بن عبد الـرحمن بن عبد الجليل المغربيُ، ويعرف بابن المُشَيِّب، في سادس عشرين شهر ربيـع الأول.

وتُوُفِّي الشيخ الإمامُ العاملُ شِهابُ الدين أبـو العباس أحمـد بن أبـي بكر ابن محمد العَبّاديّ الحنفيّ الفقيه المشهور، في ليلة الأحد تاسـع عشر شهر ربيـع الآخر وكان من فُضَلاء الحنفيّة أفتى ودَرّسَ في عدة فنون.

وتُوُفِّي الشيخُ الإمامُ الأديبُ البَليـغُ علاء الدين أبو الحسن عليّ بن أَيْبَك الدِّمشقيّ، الشاعر المشهور، في ثالث عشر ربيـع الأول بدمشق. وكان بارعاً في النَّظْم، وله شِعرٌ رائِقٌ، ذكرنا منه قطعة جيدة في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي

---

(١) رواية المنهل الصافي (ترجمة بكلمش العلائي):
«أتأكلني الذئاب وأنت ليثٌ».

والمستوفي بعد الوافي». ومولده في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بدمشق. ومن شعره ـ رحمه الله ـ قوله: [الكامل]

قُمْ زُفَّ بِنتَ الكَرْم ثمَّ اسْتَجْلِها ... بِكْراً لها في الكَأْسِ رأسٌ أشمَطُ
فـالـطَّيْـرُ شـادٍ والنَّسيمُ مشبِّبٌ ... والغُصنُ يـرقُصُ والغَمـامُ يُنَقِّطُ

وله أيضاً: [الوافر]

كـأنَّ الـرَّاحَ لـمَّـا رَاحَ يَسعى ... بهـا فِي الـرَّاح ميَّـاسَ القَـوَامِ
سنـا المِرِّيـخ في كَفِّ الثُّـرَيَّـا ... يحـايِـدُنـا بِـهِ بَـدْرُ التَّـمَـامِ

وله الموشح المشهور الذي أوله:

يـا مَـن حَكـى خـدُّه شقـائقْ ... ومـالـهُ فـي البـهـاءِ شقـيـق
تـركـتـنـي بـالـدمـوع شـارِقْ ... لـمَّـا بـدا خـدُّك الـشَّـريـق
سَـلَلْتَ من نـاظِـرَيْـكَ صـارِمْ ... لـلفَتْـكِ يـا شـادن الـصَّـريـم
وسِـرْت يـوم الـفـراق سـالـمْ ... وقـد تـركت الحشـا سليم[1]
مَـتـى أراكَ الـغـداةَ قَـادِمْ ... يـا مَـنْ حَـدِيثي بِـهِ قَـدِيم
شـيَّـبْـتَ مـن أجـلك الـمـفـارقْ ... وسِـرْتَ مع جملة الـفـريـق
مـا بـيـن حـادٍ حـدا وسـائـقْ ... حـمْـلي بـمـن سـاقـه وسـيـق

وهو أطول من ذلك.

وتُوفِّيَ العارف بالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عليّ، المعروف بابن نجم الصوفيّ، بمكة المشرّفة، في صفر بعد أن جاور بها عدة سنين.

وتُوفِّيَ الخليفةُ أمير المؤمنين المعتصمُ[2] بالله زكرياء بن إبراهيم بن محمد بن

(١) السّليم: الملدوغ ـ على التفاؤل.

(٢) كذا أيضاً في الأعلام عن تاريخ الخميس. وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي وإنباء الغمر لابن حجر العسقلاني: «المستعصم». ـ قال ابن حجر: «وكان عامياً صرفاً بحيث يبدل الكاف همزة» ـ قلت: ولعل الصواب أنه كان يبدل القاف همزة، على طريقة العامة.

أحمد ــ وهو مخلوعٌ من الخلافة ــ في رابع عشرين جمادى الأولى وقد ذكر ولايته للخلافة في أيام أَيْنَبك البَدْرِي، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حُسين في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة. ثم خُلِعَ حتى ولاه الملك الظاهرُ بَرقُوق ثانياً بعد موت أَخيه الواثق، فلم تَطُل مدته أيضاً، وخلعه الملكُ الظاهر من الخلافة في أول جمادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وأعادَ المتوكلَ على الله، فاستمرَّ المعتصمُ هذا معزولاً طول عمره إلى أن مات في هذه السنة وخلافته الأولى والثانية لم تَطُل مدته فيهما ــ انتهى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين شيخُ بن عبد الله الصَّفَوِيّ الخاصّكيّ، أمير مَجْلس، وهو مسجون بسجن المَرْقَب وكان ممن رقاهُ الملكُ الظّاهر بَرْقُوق إلى أن جعله أميرَ مائة ومُقدّم ألف في سلطنته الثانية، وجعله أمير مجلس ثمّ قبضَ عليه في سنة ثمانمائة، وأنعمَ بإقطاعه على الوالد بعد عزله عن نيابة حَلَب وأخرجه الملكُ الظاهرُ إلى القدس بطّالاً، فساءت سيرَتُه بها وكان مُسْرفاً على نفسه، مُنْغَمِساً في اللذات، فأمرَ الملك الظاهرُ به فَنُقِل من القدس إلى حَبْس المَرْقَب إلى أن مات به. قلتُ: وشيخُ هذا هو أولُ أمير عظيم في دولة الملك الظاهر بَرْقُوق ممن سُمِّيَ بهذا الاسم، ثم بعده شيخُ المحموديّ الساقيّ، أعْني الملك المؤيد، ثم بعده شيخُ السُّلَيْمَانيّ المُسَرْطَن نائب طرابلس، فهؤلاء الثلاثة هم أعظَمُ من سُمِّيَ بهذا الاسم، ثم جاء بعدهم في الدولة الأشْرفيّة ــ بَرْسبَاي ــ اثنان: شيخُ الأمير آخُور الثاني مملوكُ بِيبَرس الأتَابَك، وشيخُ الحسنيّ الظاهريّ أمير عشرة ورأس نَوْبة، وهما كَلَا شيء بالنسبة إلى هؤلاء الثلاثة ــ انتهى.

وتُوُفِّيَ العبدُ الصالحُ الأميرُ الطواشِيّ الرُّوميّ صَنْدَلُ بن عبد الله المَنْجَكِيّ، خازندارُ[١] الملك الظاهر برقوق، وعظيمُ دولته، وصاحبُ الطّبقة[٢] ــ بالقلعة ــ

(١) سبق التعريف به ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) الطبقة: وتجمع على طِباق وأطباق. وهي الأماكن التي يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان. وكانت بمثابة مدارس عسكرية يتلقى فيها المماليك الصغار (المشتروات) دروساً عسكرية ودينية تؤهلهم لحياة الجندية ووظائف أرباب السيوف في الدولة. ومن هؤلاء يكون فيا بعد المماليك الخاصّكية، خاصة السلطان والمقرّبون إليه. ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

المعروفة بالصنّدليّة، في ثالث شهر رمضان، وَوَجِدَ الملكُ الظاهرُ عليه وَجْداً عظيماً ومات ولم يُخلّف من المال إلا النّزر اليسير إلى الغاية، هذا مع تمكّنِهِ في الدولة، وطول مدته في وظيفة الخازنداريّة في تلك الأيام، وإنْياتُه[1] جماعة كبيرة من المماليك الظاهريّة، ومنهم جماعة في قَيْد الحياة يحكون عن زهدهِ وصلاحهِ وعبادتِه أشياء عظيمةً إلى الغاية. وكان الشيخُ تقيّ الدين المقريزيّ إذا حدَّث عنه يقول: حدَّثني من لا أتّهمه العبدُ الصالحُ المَنْجَكيّ ـ انتهى.

وتُوُفِّيَ الأميرَ الكبيرُ ـ أتَابَك العساكر بالديّار المصريّة، وعظيمُ المماليك اليَلْبُغَاويّة، كَمَشْبُغَا بن عبد الله الحمويّ اليَلْبُغَاويّ، بسجن الإسكندرية، في العشرين من شهر رمضان؛ وهو أحدُ من قام بِنُصرة الملك الظّاهر بَرْقُوق عند خروجه من سجن الكَرَك، وكانَ كَمَشْبُغَا يوم ذلك يلي نيابة حلب، وقد تقدم ذكرُ كَمَشْبُغَا هذا في مواطن كثيرة من أواخر دولة الملك الأشرفِ شعبان بن حُسَين إلى أن أُمسِك وحُبس، ومات وكان من أجَلّ الملوك وأعظمها قدراً. قيل للوالد لما وَلِيَ الأتابكيّة بالديار المصرية: «يا خَوَنْدُ اِمْشِ على قاعدة الأمير كَمَشْبُغَا»، فقال الوالدُ: «أيْشْ أنا حتى أمشي على طريق كَمَشْبُغَا! كَمَشْبُغَا في مقام أستاذي». وكان بخدمةِ الوالد يومئذ أزيدُ من ثلاثمائة مملوك ورأيت سِمَاطه ومرتّباته تسعمائة رطل من اللحم في كل يوم، وفي هذا كفاية في التعريف بحال كَمَشْبُغَا ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة ناصرُ الدين أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عطاء الله بن عوَض بن نجا بن أبي الثّناء محمود بن نهار بن مُؤنس بن حاتم بن نيلي

(١) الإنيّ، والجمع إنْيات: هو الرفيق الصغير في الخدمة المملوكية، الذي يربّيه مملوك كبير ويتعهّده في المدارس المعروفة بالأطباق (انظر الحاشية السابقة) فيكون إنياً له أو ربيباً. وقد ورد هذا اللفظ بصيغة المفرد والجمع في مواضع كثيرة من هذا الكتاب. ولعلّ أوضحها بهذا المعنى المشار إليه أن «برسباي عندما كان مملوكاً صغيراً زمن برقوق، سكن الطباق، وصار إنياً للأمير جركس القاسمي المصارع» (النجوم الزاهرة: ٦/٥٥٥، طبعة كاليفورنيا). أو ما سيأتي في هذا الجزء من قول شيخ المحمودي للأمير تغري بردي: «فإننا إنْياتُك وخشداشيتك». ونستطيع القول إن «الإنْيَة» هي صفة علاقة الصغير بمربّيه الكبير، والخشداشية هي الزمالة بين المماليك الكبار في السن، أو الأتراب. ولعلّ أصل اللفظ عربي، من قولهم: أنّاه على مئنّة ذاك أي ربّاه. (معجم متن اللغة).

ابن جابر بن هشام بن عُرْوَة بن الزُّبَير بن العَوَّام ــ رضي الله عنه ــ المعروفُ بابن التَّنَسِيّ المالكيّ، قاضي قضاة الإسكندرية، ثم الديار المصرية ــ بها[1] ــ وهو قاض، في أول شهر رمضان وكانَ مشكورَ السيرة، رحمه الله؛ وهو والدُ القاضي بدر الدين محمد بن التَّنَسيّ الآتي ذكرُه.

وتُوُفي الأمير سَيْف الدين قديد بن عبد الله القَلَمْطَاوِيّ، أحد أمراء الطَّبْلَخَانَات ــ بَطَّالاً ــ بالقدس، في شهر ربيع الأول. وكان من قُدمَاء الأمراء، وَوَلِيَ نيابة الكَرَك في بعض الأحيان.

وتُوُفي الشيخ المعتقد المجذوب العجمي، المعروف بالزهوريّ في أول صفر وكان شيخاً عجمياً، وللناس فيه اعتقادٌ كبيرٌ لا سيما الملك الظاهر برقوق؛ فإنه كان له فيه اعتقاد كبيرٌ إلى الغاية.

أخبرني بعض حواشي الملك الظاهر أن الزهوريّ هذا كان إذا جلس عند الملك الظاهر برقوق وكلّمَهُ يأخذ الملكُ الظاهرُ كلامه على سبيل المُكَاشَفَة وكان يقيم عنده غالباً في الدور السّلطانيّة عند الخَوَنْدَات[2]. ووقع له مع الظاهر خوارق ومُكَاشفَاتٌ، منها أنه قالَ له يوماً ــ وقد حان أجلهما: «يا برقوق أنا آكل فَرَارِيج وأنت تأكلُ بعدي دجاجاً ثم تَرُوحُ» ففطن برقوقُ أنه يُقيم بعد موت الزّهوريّ بمقدار ما يَكْبَرُ فيه الفَرّوج. ومرض الزهوريّ وماتَ، وضاقَ صدر برقوق حتى كلّمهُ جماعةٌ في عدم ما ظنه، فلم يقم بعده الظاهر إلا ثمانية أشهر ومات.

وتُوُفي العلامةُ القاضي بدرُ الدين محمود بن عبد الله الكُلُسْتَانيّ السَّرَّائيّ[3]

---

(١) أي توفي بالإسكندرية.

(٢) الخوند، بفتح الخاء والواو وسكون النون؛ وهي من الفارسية السيّد العظيم والأمير. وقد استعملت في العربية لقباً بمعنى السيّد والسيّدة. وربما أدخلت عليها التاء في التأنيث فيقولون: خوندة. والخوندات السلطانية هنّ زوجات السلطان وأقاربه وبناته. وأصل اللفظ: خُداوند. ودخل في اللغة التركية. (صبح الأعشى: ٧٨/٦، والألقاب الإسلامية: ٢٨٠، وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٩١ ــ ٩٢).

(٣) يقال: السرّائي والصرّائي. (الضوء اللامع).

الحنفيّ، كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية، وأحد العلماء الأعيان، في عاشر جمادى الأولى بالقاهرة وولي بعده كتابة السرّ فتح الدين فتح الله رئيس الأطباء، وقد تقدم ذكر ولاية الكُلستانيّ هذا لوظيفة كتابة السرّ بعد موت بدر الدين بن فضل الله بدمشق في ترجمةِ الملكِ الظاهربرقوق الثانية. وكان إماماً بارعاً مُفْتَناً في علوم كثيرة، عارفاً باللغة العربية والعجمية والتركية وسُمّي بالكُلُسْتَانيّ لكثرة قراءته كتاب السعديّ العجميّ الشاعر، وكان الكتاب المذكور يسمى كُلُسْتان[1].

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وأربعة عشر أصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وخمسة أصابع ـ والله أعلم.

السنة الثانية من سلطنة الملك الناصر
فرج ابن الظاهر برقوق ـ الأولى على مصر

وهي سنة اثنتين وثمانمائة:

فيها كانت وقعةُ أَيْتَمُش مع الملك الناصر، ثم وقعَةُ تَنَم نائب الشام؛ وقد تقدم ذكرهما في أول ترجمة الملك الناصر.

وفيها تُوُفِّيَ خلائقُ من أعيان الأمراء بالسيف في واقعة تَنَم: منهم الأمير الكبير أَيْتَمُش بن عبد الله الأَسْنْدمُري البَجَاسي الجرجاوي ثم الظاهري، أتابَك العساكر بالديار المصرية ذُبح في سجنه بقلعة دمشق، في ليلة رابع عشر شعبان وكان أصلُه من مماليك أَسَنْدَمُر البجاسي الجرجاوي، وترقّى إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بديار مصر، بسفارة الأتابَك برقوق في دولة الملك الصالح حاجي، وأمير آخوراً؛ ولما تسلْطن الملك الظاهر برقوق جعلَه رأس نوبة كبيراً، ثم اشتراه من ورثة الأمير جرجي لما بلغه أنه إلى الآن في الرِّقّ ـ وقد مر ذلك كله ـ ثم

---

(١) هو كتاب «كلستان» للشيخ سعدي بن عبد الله الشيرازي المتوفى سنة ٦٩١هـ. وهو مجموعة من الأشعار الفارسية والعربية والأمثال واللطائف، مرتّب على ثمانية أبواب. (كشف الظنون: ١٥٠٤). وذكر السخاوي أن كلستان تعني في التركية أو العجمية: حديقة الورد (الضوء اللامع).

جعله أتابَك العساكر بالديار المصرية ثم ندبه فيمن نَدَب من الأمراء لقتال الناصري ومِنْطَاش، فقُبض عليه هناك، وحُبس بقلعة دِمَشْق مدة طويلة إلى أن أُطلق بعد عود الملك الظاهر للمُلك، وقَدِم القاهرة، وكان الأمير إينال اليُوسُفي يوم ذاك أتابَك العساكر بالديار المصرية فأنعم الملك الظاهر على أيْتَمُش بإقطاع يضاهي إقطاع الأتابكية، وولّاه رأس نوبة الأمراء وجعله أتابَكاً؛ فدام على ذلك سنين إلى أن قَبض الملكُ الظاهر على الأتابَك كَمَشْبُغا الحموي، وأعاده إلى الأتابَكيّة من بعده على عادته أولاً ثم جعله في مرض مَوته وَصِيّـه المتحدّثَ في تدبير مملكة ولَدِهِ الملك الناصر فرج؛ فأخذ أيْتَمُش يدبر مُلكَ الناصر بعد موت برقُوق أحسن تدبير فثار عليه الأمراء الأجلاب من مماليك برقوق، وقاتَلُوه وكسروه، وأخرجوه من مصر إلى الشام فسار إلى دمَشْق .ووافق تَنَم نائبُها على قتالهم هو ورفقته، مثل: الوالد، وأرْغُون شن، أمير مجلس، وغيرهم، فواقعوا الأمراء المذكورين بغزَّة، وانكسروا ثانياً، وقُبِضَ على الجميع، وحُبسوا بقلعة دِمَشْق، ثم قُتلوا عن آخرهم. وكانَ كَسْر تَنْم وأيْتَمُش هذا وقتلهما وتحكُّم الأمراء الأجلاب أولَ وهَنٍ وقـع بالديار المصرية. وكان أيْتَمُش معظَّماً في الدول، قليل الشَّرَّ، كثير الخير، متجمِّلاً في ملبسه ومركبه ومماليكه هو وكمشبُغا الحموي، كانا من عظماء الأتابَكية في الدولة التركية بعد يلْبُغا العُمري الخاصّكي، وشيخون العمري.

وتُوُفِّيَ أيضاً ــ قتيلاً بقلعة دمشق في التاريخ المذكور مـع الأتابَك أيتمش ــ الأميرُ سيفُ الدين أرَغُون شاه البَيْدَمُري الظاهري، أمير مجلس. وكان من خواص مماليك الملك الظاهر برقوق، وأكابر مماليكه وخيارهم.

وتُوُفِّي قتيلاً ــ أيضاً ــ الأمير سيف الدين فارس بن عبد الله القُطْلُقْجاوي، ثم الظاهري، حاجب الحجّاب بالديار المصريّة، ذبحاً بقلعة دمشق، في رابـع عشر شعبان. وكان أصله من مماليك الأمير خليل بن عرام نائب الإسكندرية؛ اشتراه من شخص خباز بالإسكندريّة، وكان فارس هذا يبيـعُ الخُبْز على حانوت أستاذه، فرآه ابن عرَّام فأعجبه وابْتَاعه منه. ثم ملَكَهُ الملكُ الظاهر برقوق بعد ابن عرام. وما أعلمُ

نسبته بالقُطْلُقْجاوي لأي قُطلُقْجَا، ولعله تاجره الذي جَلَبَه من بلاده أولاً ــ والله أعلم. وكان فارس يُعرف أيضاً بالأعرج، وكان من الشُّجْعان الفرسان الأقْشِيَّة[١] المعدودة، الذين يُضْرب برميهم المثل. وقد تقدم من ذكره في واقعة أيْتَمُش مايُكْتَفى بذكره.

وتُوفي ــ قتيلاً أيضاً في رابع عشر شعبان بقلعة دمشق ــ الأميرُ شهابُ الدين أحمد ــ أمير مجلس ــ ابنُ الأتابك يَلبُغا العُمَري الخاصّكي صاحب الكبش[٢]، وأستاذ برقوق وغيره من اليَلْبُغاوية. وُلد بالكبش، في حياة والده الأتابك يَلْبُغا، ثم نشأ بمصر، وصار من جملة الأمراء،فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق ولّاه أمير مجلس، ثم ندبه لقتال الناصري ومِنْطاش فيمن ندب من الأمراء فلما وصل إلى دمشق عصى على برقوق، وانضم على الناصري، وهو أيضاً مملوك أبيه، فأقرّه الناصري على إمرته ووظيفته، إلى أن قَبضَ عليه منطاش وحَبَسه مع الناصري، إلى أن أخرجهما الملك الظاهر برقُوق في سلطنته الثانية، وخلع عليه على عادته أمير مجلس، فدام على ذلك سنين عديدة إلى أن تنكّر عليه برقوق وحبسه، ثم أطلقه ــ بطّالاً ــ بالبلاد الشامية إلى أن ثار الأمير تَنَم الحَسَني نائب الشام، فَقَدِم عليه أحمدُ هذا ووافقه، فقبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء، وقُتل وكان مشهوراً بالشّجاعة والإقدام.

وتُوُفِّي ــ قتيلاً أيضاً بقلعة دِمَشْقَ في رابع عشر شعبان ــ الأمير سيفُ الدين جُلْبَان الكَمَشْبُغَاوِيّ الظاهريّ، المعروف بقَرَا سقل نائب حلب، ثم أتَابَك دمشق. كان من أكابر مماليك الملك الظاهر برقُوق، وأول من نَالَ منهم الرُّتب السنية صارَ أميرَ مائة ومقدّم ألف في أوائل سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية، ثم رأس نَوْبَة النُّوب، ثم وَلِي نيابة حلب بعد الأتَابَك قَرَا دَمُرْدَاش الأحمديّ؛ وهو الذي قام في أمر مِنطَاش حتى أخذه وتسلّمه من نُعَيْر، ثم أمسكهُ الظاهرُ وحبسه، وولّى الوالدَ عِوَضه نيابة حلب، فحُبس مدةً ثم أطلق. واستقرَّ أتابك دمشق، فدام على ذلك مدة، ثم قبض عليه برقُوق ثانياً، وحبسه بقلعة دمشق إلى أن أطلقه الأمير تَنَم بعد

---

(١) لعلّ هذه النسبة إلى أقوش.

(٢) أي كان يسكن بالكبش ــ انظر فهرس الأماكن.

موت الظاهر برقوق، فدَامَ من حِزْبِه إلى أن أُمْسِك وقتل مع من قتل. وكان جليل المقدار، عاقلاً شجاعاً، معدوداً من رؤساء المماليك الظاهريّة.

وتُوُفِّي ــ قتيلاً أيضاً بقلعة دمشق في التاريخ المذكور ــ سيفُ الدين يعقوبُ شاه الظاهريّ الخازِنْدَار، ثم الحاجِب الثاني، وأحدُ مُقَدَّمي الألوف بالديار المصرية وكان أيضاً من خواصّ الملك الظّاهر برقُوق، وأجَلّ مماليكه، وهو أيضاً ممن انضم على أيْتَمُش وتَنم.

وتُوُفِّي ــ قتيلاً أيضاً بقلعة دمشق ــ الأميرُ سيف الدين آقْبُغا الطُولُـوتَمُرِيّ الظّاهري، المعروف باللّكّاش، أمير مجلس؛ وكان من جملة أمراء الألوف في دولة أستاذه الملك الظاهر برقوق، ثم صار أمير مجلس، فلما ركب علي بَاي[1] على الملك الظاهر أتُّهم آقْبُغَا هذا بممالأة علي باي في الباطن، فأخرج إلى الشّام، ودامَ به حتى وافقَ تَنم، وقُتل مع من قُتل من الأمراء. وكان شجاعاً مِقْدَاماً، من وُجُوهِ المماليك الظاهريّة.

وتوفِّيَ ــ قتيلاً أيضاً بقلعة دمشق ــ الأمير بَـيْ خُجَا الشَّرفيّ، المدعوّ طَيْفُور، نائب غزّة، ثم حاجب حجَّاب دمشق. وهو أيضاً من مماليك الظاهر برقوق، وممّن صار في أيامه أميرَ طَبْلَخَانَاه، وأميرَ آخور ثانياً.

فهؤلاء قُتلوا جميعاً في ليلة واحدة، ومعهم جماعة أُخر مثل الأمير بَيْغُوت اليَحْياوِيّ الظاهري، والأمير مُبَارك المجنون، والأمير بَهَادُر العُثماني نائب البِيرة[2] ولم يبقَ من أعيان من قُتل في هذه الواقعة ــ صبراً ــ إلّا تَنم [الحسني] ويُونُس بَلْطَا، أخَّرُوهما حتى استصفوا أموالهما، ثم قتلوهما حسبما يأتي ذكره الآن.

---

(١) هذا الاسم وغيره من الأسماء أو الحوادث التي يذكّر بها المؤلف في سياق هذه التراجم إنما وردت في سياق الحوادث المتعلقة بها في أصل ترجمتي برقوق وفرج، فلتنظر هناك.

(٢) البيرة: بلدة في تركيا، في الجنوب منها، تقع على الفرات، قرب سميساط. وهي قلعة عامرة ولها رستاق. ويطلق عليها في الحاضر اسم «بيرة جك» أي البيرة الصغيرة. (دائرة المعارف الإسلامية: ٦٧/٨، والمشترك: ٧٥).

وتُوُفِّي ــ أيضاً قتيلاً ــ الأمير تَنبَك الحَسَنيّ الظاهريّ، المدعو تَنَم، نائب الشام؛ وقد مر من ذكره في واقعته مع الملك الناصر فرج ما فيه غُنية من التكرار غير أننا نذكر مبادىء أمره وترقِّيه إلى انتهائه على سبيل الاختصار، فنقول: هو من أعيان خاصّكية أستاذه الظاهر برقوق، ثم أمّره إمرة عشرة في سلطنته الثانية، ثم أخرجه إلى دمشق، وجعله أتابكاً بها بعد إياس الجرجاوي ثم نقله بعد مدة يسيرة إلى نيابة دمشق، بعد موت الأمير كمشبغا الأشر في الخاصكي، فدام على نيابة دمشق نحو سبع سنين، إلى أن مات الظاهر. وخرج عن الطاعة، وانضم عليه سائر نواب البلاد الشامية. ثم جاءه أَيْتَمُش والوالدُ، وغيرهما من أمراء مصر، وواقَعَ الملك الناصر على غزة، وانكسر مع كثرة عساكره ــ خذلاناً من الله ــ وأمسك، وحُبس بقلعة دمشق، وعوقب على المال، ثم خُنق في ليلة الخميس رابع شهر رمضان، وخُنِق معه الأمير يونُس الظاهري المعروف بِبَلْطا نائب طرابلس. وكان يونس أيضاً من كبار المماليك الظاهرية وأمرائها. وقد ولي نيابة صفد وحماة وطرابلس. إلا أنه كان ظالماً جباراً متكبراً، سفاكاً للدماء؛ قَتلَ بطرابلس من القضاة والعلماء والأعيان خلائق لا تدخل تحت حصر؛ وقد مر ذكر هذه الوقائع كلّها في أوائل ترجمة الملك الناصر فرج الأولى، فلينظر هناك.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة مجدُ الدين إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن عليّ قاضي قضاة الحنفيّة بالديار المصريّة ــ وهو معزول ــ في خامس جمادى الأولى. وكان فقيهاً مُفْتناً فاضلاً أفتى ودرّس سنين بحَلَب وغيرها، إلى أن طُلب إلى مصر، ووُلِّيَ القضاء بها، إلى أن عُزل لثقل بدنه من السِّمَن، وقِلَّة حركته؛ فإنّه كان إذا طلع للسلام على السلطان وجلس عنده لا يستطيع القيام إلاّ بعد جهد من السِّمَن.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة برهانُ الدين إبراهيم ابن قاضي القضاة ناصر الدين نصر الله بن أحمد بن محمّد بن أبي الفتح الحنبليّ، قاضي قضاة الديار المصريّة بها ــ وهو قاضٍ ــ في ثامن شهر ربيع الأوّل، وتولّى القضاء بعدهَ أخوه موفّقُ الدين أحمد.

وتُوُفِّيَ المعلّمُ شهابُ الدين أحمد بن محمّد الطولونيّ المهندس، بطريق مكّة في صفر، وقد توجّه لعمارة المناهل(١) بطريق الحجاز.

وتُوُفِّيَ شيخُ شيوخ خانقاة(٢) سِرْيَاقُوس جلالُ الدين أبو العبَّاس أحمد ابن شيخ الشيوخ نظام الدين إسحاق بن عامر الأصبهانيّ الحنفيّ، بخانْقاة سرياقوس، في خامس عشر شهر ربيع الآخر.

وتُوُفِّيَ الأمير الطَّوَاشِي زين الدين بَهَادُر الشهابيّ، مقدّم المماليك السلطانيّة، في سابع عشر شهر رجب. وكان من عظماء الخّدام، وغالب أعيان مماليك الظاهر برقوق من إنْياته(٣).

وتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقدُ المجذوبُ سليم السَّوّاق القَرافيّ بالقرافة، في تاسع عشر شهر ربيع الأوّل. وكان للناس فيه اعتقادٌ، ويُقْصَدُ للزّيارة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قَجْمَاس بن عبد الله المحمّديّ الظاهريّ، شادّ السّلاح خاناه ـ قتيلاً ـ في الواقعة التي كانت بين الأتَابك أَيْتَمُش وبين الأمراء الذين كانوا بالقلعة.

وتُوُفِّيَ أيضاً الأميرُ سيفُ الدين قَشْتَمُر بن قَجْمَاس أخو إينال باي، الأمير آخور، في ثامن شهر ربيع الأوّل ـ قتيلاً ـ في الواقعة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله الحساميّ المنجكيّ باليَنْبُع بطريق الحجاز.

---

(١) المناهل: هي الآبار والعيون التي بطريق الحاج المصري في البرّ انطلاقاً من القاهرة إلى مكة والمدينة. وقد ذكرها القلقشندي جميعاً في أثناء كلامه على مراكز البريد. (صبح الأعشى: ١٤/٤٣١ ـ ٤٣٣، طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) خانقاه سرياقوس: قرب بلدة سرياقوس من الأعمال الشرقية. أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ما بين ٧٢٣ و٧٢٥هـ. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٢).

(٣) راجع ص ٢٦٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين قَرَابُغا بن عبد الله الأَسَنْبُغَاوِيّ أحد أمراء الطبلخانات. كان من قدماءِ الأمراء بديار مصر.

وتُوُفِّيَ الأمير جمال الدين عبد الله ابن الأمير بَكْتَمُر الحاجب، في خامس عشرين شهر ربيع الآخر، بداره خارج باب النصر من القاهرة.

وتُوُفِّيت خَوَنْد شِيرِين والدة الملك الناصر فرج بن برقوق، بعد مرض طويل، في ليلة السبت أوّل ذي الحجّة، ودُفنت بالمدرسة الظاهريّة البرقوقية بين القصرين وحضر وَلَدُها الملك الناصر الصَّلَاة عليها، بباب القُلة من القلعة، ومشى سائرُ أمراء الدولة وأعيانها أمام نعشها من القلعة إلى بين القصرين. وكانت أمّ ولد للملك الظّاهر بَرْقُوق، روميّة الجنس، وهي بنت عمّ الوالد وكانت من خيار نِساء عصرها حشمة ورياسة وعقلاً[1].

أمرُ النّيل في هذه السنة: الماء القديمُ ثلاثة أذرع سواء. مبلغُ الزّيادة ثمانية عشر ذراعاً وأربعة عشر إصبعاً.

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر
فرج ابن الظاهر برقوق ـ الأولى على مصر

وهي سنة ثلاث وثمانمائة:

فيها كانَ وُرُودُ تَيْمُورلَنْك إلى البلاد الشّاميّة، وماتَ بسيفه ولقدُومِهِ خلائقُ لا يعلمها إلا الله تعالى كثرةً، حسبما ذكرناه مُفَصَّلاً.

وفيها تجّرد السّلطانُ الملكُ النّاصر فرج إلى البلاد الشّامية بسبب تَيْمُورلَنْك ـ وقد مرّ ذلك أيضاً ـ وهي تَجْرِيَدتُه الثانية إلى الْبِلَادِ الشّامية.

وفيها قُتِلَ الأميرُ سيف الدين سُودُون بن عبد الله الظاهريّ، قريبُ الملك الظّاهر بَرْقُوق، المعروفُ بسيِّدِي سُودُون، نائب الشّام، في أَسْر تَيْمُور بظاهر

(١) ترجم لها السخاوي بأوسع مما هنا: ـ انظر الضوء اللامع: ١٢/٦٩.

دِمَشْق، ودُفِنَ بقيوده من غير أن يتولّاه(١). واخْتَلَفَت الأقوالُ في موتته، فمن الناس مَنْ قَال: ذَبْحاً، ومنهم من قال: ألقاه تَيْمُور إلى فِيلٍ كانَ معه فَداسَه برجْلِه حتى مات، وكان ذلك في أواخر شهر رجب، وتولّى نيابةَ دِمَشْق بعده الوالدُ، وهي نيابتُه الأولى على دِمَشْق. وكان سُودُون المذكور قَدِم من بلاد الجَرْكَس(٢) صغيراً مع جدَّته لأمّه أختِ الملك الظاهر بَرْقُوق، ومع خالة أمّه أمّ الأتابَك بِيبَرس، والجميع صحبة الأمير أَنَص والد الملك الظّاهر بَرْقُوق، فربّاه الظّاهر ورقّاه إلى أن جعله أمير آخور كبيراً بعد القَبْضِ عَلى الأمير نَوْرُوز الحافِظِيّ. ثمّ وقع له أمور، وقُبِضَ عليه بَعْدَ مَوْتِ الملك الظّاهر بَرْقُوق، وسُجِنَ بالإسكندريّة إلى أن أُخْرِج بعد واقعة الأتابَك أَيْتَمُش. ثمّ ولي نيابة دمْشق بعد مَسْك الأمير تَنم الحسنيّ نائب الشّام ودام بدِمَشق إلى أن وَرَدَ عليه قاصد تَيْمُورلَنْك فوسَّطه، فكانَ ذلك أكبرَ الأسباب في قَتْله، فإن تَيْمُور لم يقْتُل أحداً من نُوَّابِ البلادِ الشّاميَّة سواه.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة موفّق الدين أحمد ابن قاضي القضاة ناصر الدين نصر الله بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح العَسْقلانيّ الحنبليّ، في ثامن عشر شهر رمضان وكانَ مشكورَ السيرة. ولم تطل مدّته في القَضَاء، فإنه وَلي القضاء بعد أخِيه بُرْهَانِ الدين إبراهيم في السنة الماضية.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة تقيُّ الدين عبد الله بن يوسف [بن أحمد بن الحسين بن سليمان بن فزارة بن بدر بن محمد بن يوسف](٣) الكَفريّ ـ بفتح الكاف ـ الحنفيّ الدمشقيّ، قاضي قضاة دِمشق، في العشرين مِن ذي القعدة في أَسْر تَيْمُور.

---

(١) العبارة ناقصة. ولعل المراد: من غير أن يتولى مراسيم دفنه أحد.

(٢) بلاد الجركسي: كانت الأقوام الجركسية تسكن القوقاز الشمالي الغربي (إقليم قوبان) وجزءاً من الساحل الشرقي للبحر الأسود وشبه جزيرة تمان حتى جوار الأبخاري. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١١/٢٠٨ ـ ٢٣٣).

(٣) زيادة عن إنباء الغمر والضوء اللامع.

وتُـوُفِّيَ قاضي القضـاة شهابُ الـدين أحمـد [بن عبـد الله][١] النّحـريـريّ المالكيّ، قاضي قضاة الديار المصريّة، وهو معزولٌ في ثاني شهر رجب.

وتُوُفِّيَ الأميرُ شهاب الدين أحمد بن عمر بن الزَّين[٢]، والي القاهرة، في ثاني عشر شهر ربيع الأوّل، بعد أن ولي شدّ الدّواوين، وولاية القاهرة غير مرّة. وَكانَ مِنَ الظَّلَمة.

وتوفِّيَ الأميرُ سيف الدين أَسَنْبُغَا بن عبد الله العلائيّ الدَّوادار الظاهريّ، في سادس عشر جمادى الأولى، وكان من جُملةِ الدّوَاداريةِ الصِّغَار في دولة الملك الظَّاهر بَرْقوق.

وتُوُفِّيَ الأمير زين الدّين فرج الحلبـيّ نائب الإسكندريَّة بها، في آخر شهر ربيـع الأوّل، وقد وَلَي شدَّ الدّواوين بالقاهرة، ثمّ صارَ من جملة الحجاب، ثمّ وَلِيَ أستاَدارية[٣] الذخيرة والأملاك، ثم وَلي نِيابةَ الإسكندريّة، فدامَ بها إلى أن مات.

وَتُوُفِّيَ الأميرُ زينُ الدين أبو بكر بن سُنقر ابن أخي بهاُدُر الجمالي، في ثالث عشر جمادى الآخرة. وكان وَلي الحجُوبية الثانية بالدّيار المصرية بتقْدِمِة ألف، وتوجَّه أميرَ[٤] حاجّ المحمل، وتنقّل في عدّةِ وَظائف، وطالت أيامه في السعادة،

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) في الضوء اللامـع: «أحمد بن عمر بن الزين، ويعرف بابن الزين».

(٣) الأستادارية هي وظيفة الأستادار. وهو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته. (صبح الأعشى: ٢٠/٤، ٤٥٧/٥ ــ وانظر أيضاً فهرس المصطلحات) وقد يكون الأستادار مختصاً بناحية محدّدة من شؤون السلطان الخاصة مثل استادارية الصحبة وموضوعها تولي أمر طعام السلطان، أو أستادارية الأملاك وهي إدارة أملاك السلطان. وقد أضيف إلى هذه الأخيرة في بعض الأحيان «الذخيرة» فقيل: أستادار الأملاك والذخيرة. والذخيرة تعني أموال السلطان المنقولة. وقيل أيضاً أستادارية الأملاك الشريفة، وقيل: أستادارية الأملاك والأوقاف السلطانية. وكان لأموال السلطان وممتلكاته ديوان خاص يُعنى بإدارة شؤونها وهو «ديوان الخاص»، وسمي أيضاً: ديوان الأستادارية. وفي عهد الظاهر برقوق سمي ديوان المفرد.

(٤) أمير حاج المحمل: ويقال أيضاً أمير الحاج، وأمير الركب، وأمير المحمل. وهو الذي يقوم بالسفر مع ركب الحجاج من مصر إلى الديار المقدسة. ومهمته المحافظة على الحجاج في سفرهم من قطاع الطرق والعمل على سلامتهم حتى عودتهم إلى الوطن. (صبح الأعشى: ٧٤/٧ ــ ٧٥).

وهو منْ بَيتِ رئاسَة وإمرَة.

وتُوفِّيَ الأمير سيفُ الدين بجاس بن عبد الله النَّوْرُوزِيّ أحد مقدّمي الألوف بالديّار المصرية بها ــ بطّالاً ــ بعد ما كبرَت سنّه، في ثاني عشر شهر رجب. وكان لَمّا استعفى من الإمرَة بعد موْت الملك الظاهر بَرْقوق، أنعم بإقطاعه على الأمير شيخ المحموديّ ــ أعني الملك المؤيد ــ فرعاه أستاداره جمالُ الدّين يوسف البيري البجَاسيّ، فعرَف له ذلك الملكُ المؤيد شيخ لما تَسلْطن، وأَحْسن لذُرّيته.

وَتوُفِّيَ الوزيرُ كريمُ الدّين عبد الكريم بن عبد الرزّاق بن إبراهيم بن مَكانس القبطي المصري، أخو الشّاعر فخر الدين، في خامس عشر جمادى الآخرة، وهو معزول عن الوَزَر. وقد وَليَ الوَزَر بالديار المصرية، ونُكِبَ وصودِر غير مرّة، وَجمعَ في بعض الأحيان بين وظيفتي الوَزَر ونظر الخاص معاً. وكان سَيِّيء السيرة، كثير الظلم والرِّمايات. ووُلِّيَ مشيراً في سلطنة الملك الظاهر بَرْقوق، ثمَّ نكب هو وإخوته وماتَ ــ بعد خطوب قاساها ــ يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الآخرة وكانَ مِن أعاجيب الزّمان من الخفّة، والطيش، وسُرْعة الحركة. يقال إنه قال لبعض حواشيه ــ وهو نازلٌ في موكبه بخلعْة الوزارَة، لمَّا أعيد إليها، والناسُ[١] بين يديْه: «يا فلانُ، ما هذه الركْبة غاليةٌ بِعَلْقةِ مقارع[٢]».

وتُوفِّيَ قاضي قضاة الدِّيار المصرية نور الدين علي بن يوسف بن مكّي الدَّمِيري المالكيّ المعروف بابن الجلال، باللجون[٣] من طريق دمشق في جمادى الأولى، وهو مجردٌ صُحْبة السلطان.

وتُوفِيَ الشيخُ الإمامُ الفقيهُ سيف الدين قُطْلوبُغا بن عبد الله الحنفي، في

---

(١) في الضوء اللامع: «والفأس بين يديه».

(٢) العَلْقَة في اللغة: الجذبة تكون في الثوب وغيره إذا مرّ بشجرة أو شوك. ومنها قالوا في العامية المصرية: أكل عَلْقة، أي تعرّض للضرب. ويرادفها في عامية بلاد الشام: أكل قتْلَة.
وفي قوله «ما هذه الركبة غالية بعلقة مقارع» إشارة إلى ضربه بالمقارع نحو عشرين شيباً (سوطاً) على يد بركة في أيام الظاهر برقوق. (انظر الضوء اللامع: ٤/٣١٢).

(٣) اللجون: بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً. (معجم البلدان).

نصف جمادى الأولى. وكان فقيهاً فاضلاً مستحضراً لمذهبه، معدوداً من فقهاء الحنفية.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة بدرُ الدين محمد بن أبـي البقاء الشافعي قاضي قُضاةِ الدِّيار المصرية، وهو معزولٌ عن القضاء، في سابع عشرينَ شهر ربيع الآخر.

وَتُوُفِّيَ قاضي القضاة شرف الدِّين محمد بن محمد الدَّماميني المالكي الإسكندري، قاضي الإسكندرية، ثم ناظر الجيش والخاص بالدِّيار المصرية، في سابع عشرين المحرم. كانَ رئيساً فاضلاً، وَلِي قضاءَ الإسكندرية ثم وَكالةَ بيت المال، ونظر الكسوة[1]، ثم نظر ديوان المفرد، ثم نظر الأسواق. وَوَلِيَ حسبة القاهرة غير مرة، ثمَّ ولي نظر الجيش بالدِّيار المصرية بعد موت القاضي جمال الدين محمود العجمي ـ مضافاً إلى وكالة بيت المال في سنة تسع وتسعين إلى أن صرف بسعد الدين بن إبراهيم بن غراب واستمر على وكالة بيت المال ـ ثم أعيد إلى نظر الجيش والخاصّ معاً، فلم تطل مدته فيهما، وعُزل وأُعيد إليهما ابن غراب، وتولى قضاء الإسكندرية، فدام بها إلى أنْ مات في التاريخ المذكور.

وتُوفِّي قاضي القضاة جمالُ الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطيّ الحنفي، قاضي قضاة الدّيار المصرية ـ وهو قاض ـ في تاسع عشر شهر ربيع الآخر. وكان بارعاً في الفقه والأصول، والعربية، وعلمي المعاني والبيان. وكانَ تَفقَّه في مبادىء أمره على العلاّمة الشيخ قِوام الدين الأتراريّ الحنفيّ شارح

(١) إذا كان المراد بذلك «نظر خزانة الكسوة» فيكون موضوع هذه الوظيفة الإشراف على خاص السلطان من القماش الفاخر الذي كان ينسج في دار الطراز بتنّيس ودمياط والإسكندرية. وقد سميت تلك الخزانة بالخزانة الكبرى، وخزانة الخاص. (صبح الأعشى: ٤٧٢/٣) أما إذا كان المراد بذلك «كسوة الكعبة» فيكون موضوع هذه الوظيفة الإشراف على تجهيز كسوة الكعبة ومتعلقات ذلك. إذ كان ملوك الديار المصرية يجهزون في كل سنة كسوة جديدة للكعبة، وهذه الكسوة تنسج بالقاهرة بمشهد الحسين. وهي من الحرير الأسود مطرزة بكتابة بيضاء في نفس النسج، فيها: «إن أول بيت وضع للناس لَلَّذي ببكّة». وفي آخر دولة برقوق استقرت الكتابة صفراء مشعّرة بالذهب. وكان لهذه الكسوة ناظر مختص بها، ولها وقف أرض بيسوس من ضواحي القاهرة. (صبح الأعشى: ٥٨/٤ ـ ٥٩، طبعة دار الكتب العلمية).

الهداية[١]، ثم على العلامة أرْشد الدين السرائي، وغيرهما بالدّيار المصرية ثُم انتقل إلى حلب، واشتغل بها أيضاً إلى أن برَع وأَفتى ودرَّس، وتفقّه به جماعة كبيرةٌ من العلماء إلى أن طُلِب إلى قَضاء الديار المصرية بعد وفاة القاضي شمس الدين الطرابلسي سنة ثمانمائة، فدام قاضياً إلى أن مات، وقد ناهز الثمانين سنة.

وتُوفِّيَ قاضي قضاة الحنابلة ـ بدمشق ـ تقي الدين إبراهيم ابن العلامة شمس الدين محمد بن مُفلح، الحنبليّ الدّمشقي بها، في شعبان.

وتُوفِّيَ قاضي القضاة صدر الدين أبو المعالي محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن السلمي المناوي الشافعي، قاضي قضاة الديار المصرية، وهو في أسر تيمور غريقاً بنهر الزَّاب[٢]، بَعد ما مرَّتْ به محنٌ وشدَائد، بعد أن ولي قضاء الدّيار المصرية غير مرَّة.

وتُوفِّيَ قاضي القضاة الحنفية ـ بدمشق ـ بدرُ الدين محمد بن محمد بن مقلَّد القدسيّ الحنفيّ، بمدينة غزّة، في شهر ربيع الأوّل، فارّاً من تيْمورلنك إلى الديار المصرية. وكان فاضلاً بارعاً، أفتى ودَرَّسَ وَنابَ في الحكم، ثمَّ اسْتَقَلّ بالقضاء مدَّة.

وتُوفِّيَ السلطان الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد عليّ ابن الملك المؤيّد داود ابن الملك المظفّر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن عليّ بن رسول، صاحب اليمن، في ليلة السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول، بمدينة تعَزِ من بلاد اليمن، عن سبع وثلاثين سنة. وكان

---

(١) الهداية في فقه الحنفية للمرغيناني الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣هـ. وشرحها المشار إليه يسمى: «غاية البيان ونادرة الأقران». (كشف الظنون: ٢/٢٠٣٣، والأعلام: ٢/١٤).

(٢) الزاب: اسم فرعين من نهر دجلة يتصلان من الضفة اليسرى. وهما الزاب الأعلى أو الأكبر، والزاب الأسفل أو الأصغر. (الموسوعة العربية الميسرة: ٩١٥).

وَلِيَ سَلطنة اليمن بعد موت أبيه في سنة ثمانٍ وسبعين وسبعمائة، فدام في الملك إلى أن مات في التاريخ المذكور في هذه السنة. وكانَ ملكاً جليلاً سخياً، مُقبِلاً على أهل العلم، وصنَّف تاريخاً[1] حسناً، وجمع كُتباً كثيرة، وتولى مملكة اليمن من بعده ابنُه الملك الناصر أحمد.

وتُوفِّي السّلطان الأعظمُ ملكُ دَلِّي[2] من بلاد الهند فَيْرُوز شاه بن نصرة شاه وكان من أجلّ الملوك، ومملكته مُتَّسعةٌ جداً، ذكر عنها القاضي شهابُ الدين أحمد بن فضل الله [العمري] أشياء عظيمة في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، من ذلك أن له ألف مُغَن، وألف نَدِيم، وذكر عن سِماطِهِ أشياء خارجة عن الحد وأظنّ أن فَيْرُوز شاه هو حفيد الملك الذي ترجمه القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل الله. قلتُ: ولما سمع تَيْمُورلَنْك بموت فيرُوز شاه بادرَ وتوجه إلى الهند، واستولى على ممالِكهِ حسبما تقدم ذكره في ترجمة الملك الناصر فَرَج هذا، وقام بممالك الهند بعده ابنه محمد شاه وجميع مملكته حنفيّة، بل غالب ممالك الهند.

أمرُ النيل في هذه السنة: الماء القديمُ ثلاثة أذرع سواء. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنا عشر إصبعاً، وهي سنة تحويل[3].

---

(١) من كتبه في التاريخ: «العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك» و«العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية». (الضوء اللامع: ٢/٢٩٩).

(٢) ويقال: «دهلي». وهي اليوم «دلهي».

(٣) أي تحويل خراج هذه السنة إلى السنة التي بعد التالية بسبب الاختلاف بين السنة القمرية والسنة الشمسية. وكان يتم هذا التحويل كل ثلاث وثلاثين سنة. ــ وقد شرحنا هذا الموضوع سابقاً في الحواشي، فانظر فهرس المصطلحات (تحويل السنين).

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر
فرج بن برقوق ــ الأولى على مصر

وهي سنة أربع وثمانمائة:

فيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جَنْتَمُر بن عبد الله التُّرْكُمانيّ الطَّرْخانيّ، كاشفُ الوجه القبلي، في صفر. كان له مع الأعراب أُمورٌ ووقائع، وكان شجاعاً، أبادَهم وأفنى منهم خلائق إلى أن مَهد بلاد الصعيد وقراها.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ المُقرِيء فخرُ الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان البُلْبَيْسِيّ الشافعي، الضرير، إمام جامع الأزهر، وشيخ القراءات، في ثاني ذي القعدة.

وتُوُفِّيَ الشيخُ سيفُ الدين لَاجين بن عبد الله الجَرْكَسِيّ، في شهر ربيع الآخر، عن ثمانين سنة. وكان مُعَظماً عند طائفة الجَرَاكسة يزعمون أنه يملك الديار المصرية، ويشيعون ذلك، ولأجله هرب جماعة من الأمراء من دمشق في واقعة تَيْمُور، وعادوا إلى الديار المصرية لِيُسَلْطِنُوه، فكان ما حصل على أهل الشَّام من تيمُور بسبب هذا المشؤوم الطلعةِ. وكان لاجين المذكور لا يكتم ذلك، بل كان يَعِدُ الناس أنه إذا ملك مصر يبطل الأوقاف التي على المساجد والجوامع، ويُحَرِّق كتبَ الفقه، ويعاقبُ الفقهاء، ويُوَلِّي بمصر قاضياً واحداً من الحنفيّة. وهو من الأتراك لا من الفقهاء، فسلَبه اللهُ ما أمّله قبل أن يتأمّر عشرة، بل مات وهو على جُنْدِيّته. وكان يتمَعْقَل ويدعي العِرفان، مع جهل مُفْرِطٍ، وخفة عقل، وهو مع ذلك مقبول الكلام عند الطائفة إلى الغاية، وببعض كلامه يتمثَّلُ بعضُهم إلى يومنا هذا. وممن أدركناهُ من أتباعه سُودُون الفقيه حَمُو الملك الظاهر طَطَر، وسودُون الأعرج الظاهريّ، وطَرَباي الاتابَك نائب طرابلس، وكانوا يحكون عنه أموراً يقصدون بذلك تعظيمه، لو تأملوها لعلموا أنه رُفِعَ عنه وعنهم القلم.

وتُوُفِّيَ الشيخ المعتقد الصالح شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الناصح في سابع عشر شهر رمضان، ودفن بالقرافة.

أمرُ النيل في هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع وأربعة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وواحد وعشرون إصبعاً.

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق ـ الأولى على مصر

وهي سنة خمس وثمانمائة:

فيها كانت وقعة تَيْمُور لَنْك مع أبي يَزيد بن عثمان متملّك بلاد الروم ـ وقد مرَّ ذكر ذلك ـ وأَسَرَه تيمور ومات في أسره.

وفيها تُوُفِّيَ قاضي القضاة تاجُ الدين بَهْرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميرِيّ المالكيّ، في يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة، عن سبعين سنة، وقد انتهت إليه رئاسة السَّادة المالكية في زمانه.

وتُوُفِّي شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح ـ وصالح أول من سكن بُلْقِينَة[1] ـ ابن شهاب بن عبد الخالق بن مُسَافر بن محمد البُلْقِينِيّ الشافعي، في يوم الجمعة، عاشر ذي القعدة، وصُلِّي عليه بجامع الحاكم[2]، ثم دفن بمدرسته التي أنشأها تجاه داره بحارة بهاء الدين قَرَاقُوش من القاهرة. ومولده ببُلْقِينَة، في ليلة الجمعة ثاني عشر شعبان سنة أربع وعشرين وسبعمائة. وأجاز له من دمشق الحافظ أبو الحجاج[3] المِزِّي، والحافظ

---

(١) بلقينة: قرية من حوف مصر، من كورة بنا، يقال لها البُوب أيضاً. (معجم البلدان).

(٢) ويعرف. بجامع الأنور. أسسه العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨٠هـ وأتمه الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤هـ. (خطط المقريزي: ٢/٢٧٧).

(٣) هو جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزّي الحلبي المتوفى سنة ٧٤٢هـ. كان محدّث الديار الشامية في عصره. (الأعلام: ٨/٢٤٦) ـ راجع أيضاً النجوم: وفيات سنة ٧٤٢هـ.

الذهبي[١]، والمسند أحمد بن الجَزَرِيّ[٢] ــ في آخرين ــ ثم حفظ المُحرَّر[٣] في الفقه، والكافية لابن مالك في النحو، ومختصر ابن الحاجب في الأصول، والشّاطبيّة[٤] في القراءات وأقدَمه أبوه إلى القاهرة، وله اثنتا عشرة سنة، وطلب العلم واشتغل على علماء عصره، مثل: أثير الدين أبي حَيّان[٥]، وأبي الثَّنَاء[٦] محمود الأَصْبَهَانيّ، وتفقّه بجماعة كثيرة، وبرع في الفقه وأصوله، والعربية والتفسير، وغير ذلك، وأفتى ودرّس سنين، وانفرد في أواخر عمره برئاسة مذهبه. وَوَلِي إفتاء دار العدل، ودرّس بزاوية الشافعي المعروفة بالخَشّابيّة[٧] من جامع عمرو بن العاص، وَوَلِيَ قضاء دمشق في سنة سبع وتسعين وسبعمائة عِوَضاً عن تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكيّ، فباشر مدة يسيرة، ثم تركه وعاد إلى مصر واستمر بمصر يُقْرِىء ويشتغل ويُفتي بقية عمره، وانتفع به عامة الطلبة إلى أن مات. وقد استوعبنا ترجمته في المنهل الصافي بأوسع من هذا ــ فلينظر هناك.

وتُوُفِّيَ شيخ الشيوخ بدر الدين حسن بن علي بن الآمِدي خارج القاهرة، في أول شعبان. وكان يُعتقد فيه الخير، ويُقصد للزيارة.

وتُوفِّي السيد الشريفُ عِنَانُ بن مُغَامِس بن رُمَيْثَة المكيّ الحسنيّ بالقاهرة، في أول شهر ربيع الأول.

---

(١) هو أبو عبد الله الذهبي المؤرخ الشهير صاحب تاريخ الإسلام وتذكرة الحفاظ المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

(٢) هو أحمد بن علي بن الحسن الجزري ثم الصالحي. توفي سنة ٧٤٣هـ. (الدرر الكامنة).

(٣) المحرَّر في فروع الشافعية، لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني المتوفى سنة ٦٢٣هـ. (كشف الظنون: ٢/١٦١٢).

(٤) هي قصيدة في القراءات تعرف بالشاطبية ــ واسمها حرز الأماني ووجه التهاني ــ نسبة إلى أبي محمد الشاطبي، القاسم بن فيُّرة بن خلف الرعيني المتوفى سنة ٥٩٠هـ. (الأعلام: ٥/١٨٠، وكشف الظنون: ١/٦٤٦).

(٥) ورد ذكره في وفيات سنة ٧٤٥هـ.

(٦) ورد ذكره في وفيات سنة ٧٤٩هـ.

(٧) الزاوية الخشابية: هي زاوية من زوايا الجامع العمري بمصر، كان الإمام الشافعي يجلس فيها. وكان السراج البلقين يسميها «العامرة» تفاؤلاً. وإنما عرفت بالخشابية لطول مكث المجد عيسى بن الخشاب في تدريسها. (الذيل على رفع الإصر: ١٨٢).

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين آقْبَاي بن عبد الله الكَرَكِّي الظاهري، الخازِنْدَار، وأحد مقدمي الألوف، المعروف بالطَّاز، في ليلة السبت رابع عشر جمادى الأولى بعد مرض طويل، ودفن بالحوش[١] الظاهري بالصحراء. وهو أحد المماليك الصغار الأربعة الذين توجهوا صُحْبة الملك الظاهر برقوق إلى سجن الكَرَك، ولذلك سُمي بالكَرَكيّ. وكان من الأشرار، كثير الفِتن، وقد مرّ من ذكره نبذة كبيرة في ترجمة الملك الناصر فرج. هذا وكان بينه وبين سُودون طاز الأمير آخور الكبير عداوة، فكان يقول له: «أنت طاز وأناطاز ما تَسَعُنا مصر»، فأراح الله الناس منهما في مدة يسيرة.

وتُوفِّيَ الأمير سيف الدين يَلْبُغا السُّودونيّ حاجب حجّاب دمشق، وتولى الحُجُوبيّة من بعده الأمير جَرْكَس المعروف بوالد تَنم الحسني: نقل إليها من حُجُوبِيَّة طرابلس.

وتوفي الأميرُ سيف الدين قَرْقَمَاس الإينالي الرَّمَّاح - قتيلاً بدمشق - في أواخر شهر رمضان، بأمر السلطان. وكان أصله من مماليك الأتَابَك إينال اليُوسُفي، وصار من بعده أميراً بديار مصر من جملة الطّبلخانات، وكان رأساً في لعب الرُّمح ووقع له أمور بديار مصر حتى أخرجه السلطان الملك الناصر منها إلى دمشق، على إقطاع الأمير صُرُق، فثار بدمشق أيضاً وهرب منها، فقُبض عليه عند مدينة بَعْلَبَكّ فقُتل بها في عدة مماليك أُخر.

وتُوُفِّيَ خَوَند[٢] كار أبو يزيد بن مراد بك بن أُورْخان بن عثمان ملك الروم وصاحب بُرْصا[٣]، في أسر تَيْمور - بعد أن وَاقَعَه - ومات في ذي القعدة وكان من أجل ملوك بني عُثمان حزماً وعزماً وجلالة وشجاعة وإقداماً. وقد تقدم ذكر

---

(١) المراد تربه الظاهر برقوق بالصحراء.

(٢) صوابه: «بايزيد الأول (يلدرم) بن مراد الأول (خُدَاوَنْدكار) بن أورخان». - انظر معجم زامباور: ص ٢٣٩.

(٣) مدينة كبيرة في شمال بلاد الروم (آسيا الصغرى). وكانت مقرّ مملكة أولاد عثمان. (صبح الأعش: ٣٤٣/٥).

واقعته مع تيمور في ضمن ترجمة الملك الناصر. هذا وكان أبو يزيد هذا يعرف بيِلْدِرِمْ بايزيد، [ويِلْدِرِمْ] هو باللغة التركية اسم للبَرْق، وهو بكسر الياء آخر الحروف، وسكون اللام، وكسر الدال المهملة، والراء المهملة، وسكون الميم ــ انتهى.

وتُوُفِّي قاضي قضاة المالكيّة ــ بدمشق ــ علم الدين محمد القَفصي المالكي، في حادي عشر المحرم. وكان من فُضلاء المالكية.

وتُوُفِّيَ السلطان محمود خَان، وكان يُعرف بصَرْغَتْمُش، الذي كان تيْمُور لَنْك يدبّر مملكته، وليس له من الأمر مع تيمُور إلا مجرد الاسم فقط. وهو من ذُرِّية جِنْكِز خان، ولهذا كان سلْطَنه تَمُر وصار مُدبِّر مملكته، لكون القاعدة عند التتار لا يَتَسلْطن إلا من يكون من ذُرية الملوك.

وتُوُفِّي الأميرُ شهاب الدين أحمد ابن الوزير ناصر الدين محمد بن رجب، أحد أمراء العشرات بديار مصر.

وتوفي سيف الدين سُودُون بن عبد الله بن علي بك الظَّاهري، الأمير آخور الكبير، المعروف بسودون طاز، أحد أعيان المماليك الذين مر ذكرهم في عدة مواضع، لا سيما واقعته مع يَشْبُك، ففيها ذكرنا أحواله مفصّلاً قُتل في سجن المَرْقَب بالبلاد الشامية بعد ما نُقل إليها من سجن الإسكندرية. وكان سودُون طَاز رأساً في لَعِب الرُّمح، يُضْرب بقوَّة طَعْنِه، وشدة ثباته على فرسه المثلُ. وأما سُرعة حركته، وحُسن تسريحه لفرسه في ميادين اللّعِب بالرمح، فإليه المنتهى في ذلك. وكان أحد الأشرار الذين يثيرون الفتن والوقائع وقد مرّ من ذكره ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانياً.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ذراعان وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً سواء.

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر
فرج بن برقوق ـ الأولى على مصر

وهي سنة ست وثمانمائة:

فيها تُوُفِّي قاضي القضاة ناصرُ الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن الصالحي الشافعيّ، قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية ـ وهو قاضٍ ـ في يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم بالقاهرة. وكان رئيساً نبيلاً كريماً كثير البرِّ والإحسان، إلّا أنه كانت بضاعتُه مُزْجَاةً(١) من العلم.

وتُوُفِّيَ شمس الدين محمد بن البَخَانَسيّ الصعيدي، مُحْتَسِبُ القاهرة، في يوم الثلاثاء رابع جُمادى الأولى، بعد أن وَلِيَ حسبةَ القاهرة غير مرّة بالسعْي والبذْل.

وتُوُفِّيَ الحافظُ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن أبي بكر العراقيّ الشافعيّ، شيخُ الحديث بالدِّيار المصرية، في يوم الأربعاء ثامن شعبان بها ومولده في سنة خمسٍ وعشرين وسبعمائة وسمع الكثير ورحل [في] البلاد، وألَّف وصنَّف وأملى سنين كثيرة وكان وَلِيَ قضاء المدينة النبويّة، وعِدَّة تَداريس، وانتهت إليه رئاسة عِلم الحديث في زَمانه. ومن شِعره فيمن كان يشبه النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ أنْشَدَنَا حافظُ العصر شهابُ الدين أحمد بن حجر ـ إجازة ـ أنشدنا الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقيّ رحمه الله تعالى ـ إجازةً إنْ لم يكن سَماعاً: [البسيط]

[و] سبعةٌ شُبِّهوا بالمصطَفَى قِسَمَا ... لهمْ بِذلك قَدرٌ قَدْ زكا ونما
سِبْطُ النبيِّ، أبو سُفيَان، سَائبهم ... وجَعفرٌ وابنُهُ، ذُو الجودِ، والْقُثَمَا(٢)

وله بالسَّند في الصحابة العشرة المشهودِ لهم بالجنة فقال: [الطويل]

---

(١) المزجاة من البضاعة: القليلة الخسيسة يدفعها كل معروض عليه فلا تنفق. (معجم متن اللغة).
(٢) في هذا البيت إقواء.

وأفْضلُ أصحابِ النبيّ مكانةً ومنزلةً مَنْ بُشِّروا بِجنان
سَعيدٌ، زُبيرٌ، سَعْدُ، عُثمان، عَامر عَليٌّ، ابن عَوفٍ، طلحة، العُمَران

وقد استوعبنا مسموعه ومُصنفاته في المنهل الصافي، حيث هو محلّ الإطناب.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين أُزْبُك بن عبد الله الرمضانيّ الظاهري، أحد أمراء الطبلخانات بديار مصر، في ليلةِ الثلاثاء رابع عَشر شَهر ربيع الأول. وكان من أعيان المماليك الظاهرية.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين قُطْلوبَك بن عبد الله، أستادار الأمير الكبير أيتمُش البجاسِيّ، في يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر. كان وليَ أستاداريّة السلطان في بعض الأحيان مدةً يسيرة، فلم ينجح أمره، وعزل وعاد إلى حاله أوّلاً. وكان له ثروةٌ ومال، غير أنه لم يعظم إلا بصهارته لسعد الدين بن غراب.

وتُوفِّي التاجر بُرهان الدين إبراهيم بن عمر بن علي المحلِّي المصريّ، التاجر المشهور بكثرة المال، في يوم الأربعاء ثاني عشرين شَهر ربيع الأول.

وتُوفِّي الأميرُ شهاب الدين أحمدُ ابن الأمير شيخ علي، في ذي القعدة بدمشق، بعد ما وَلِيَ نيابة صفد وغيرها، ثم صار أمير مائة، ومقدَّم ألف بدمشق حتى مات وكان من أعيان الأمراء.

وتُوفِّي القاضي علاء الدين علي بن خليل الحُكريّ الحنبليّ، في يوم السبت ثامن المحرم.

وتُوفِّي الأميرُ سيفُ الدين آقبُغا الجماليّ الظاهريّ، المعروف بالأطروش والهَيْذُباني، نائب حلب بَها، في ليلة الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وكان من أعيان المماليك الظاهريّة ـ برقوق ـ وممن صار في دولة أستاذه حاجب حجَّاب حلب، ثم وَلِي نيابة صَفَد، ثم ولي نيابة طرابلس بعد الأمير دَمُرْدَاش المحمّدي، بحكم توجُّه دَمُرْدَاش أَتابَكا بحلب، ثم نقله الملك الظاهر إلى نيابة حلب بعد

موت أرغون شاه الإبراهيمي، في سنة إحدى وثمانمائة ودام على نيابة حلب إلى أن خرَج تَنَم نائب الشام عن طاعةِ الملك الناصر، فوافقه آقبغا هذا، وصار من حزبه، إلى أن قُبض عليه مع من قبض عليه منَ الأمراء وحبس مدّة ثم أطلق وولي نيابة طرابلس ثانياً بعدَ الأمير شيخ المحمودي، بحكم أسرِه مَع تيمور، فلم يتم أمره، وأعيد شيخ إلى نيابة طرابُلُس واسْتقر آقبغا هذا أتابكاً بدمشق مدَّة، ثم ولي نيابة دمشق بعد الوالد، بحكم خروجه من دمشق إلى حَلب، فلم تطل أيامه بدمشق، وعُزلَ بالأمير شيخ المحموديّ وتوجَّه ـ بطَّالاً ـ إلى القدس، إلى أن أعيد إلى نيابة حَلَب بعد دُقماق المحمدي، فتوجّه إليها، وأقام بها إلى أن مات في التَّاريخ المذكور.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين دِمشق خُجا بن سالم الدُّوكاري[١] التركمانيّ نائب قلعة جَعْبَر ـ قَتِيلاً بيد الأمير نُعَيْر بن حيّار ـ في سابع عشر شهر رمضان.

وتُوُفِّي الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّين محمد بن مُبَارك شيخُ الرِّباط النبويّ ـ المعروف بالآثار ـ في المحرم.

وتُوُفِّي الشَّيْخُ محمد [بن علي بن عبد الله الشمسي][٢] المعروف بالحرْفيّ في شوال من السنة وكان عالماً بعلم الحرْف، وله مشاركة في غيره.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ثلاثة أذرع وعشرة أصابع. مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعاً وثلاثة عشر إصبعاً، والوفاء خامس توت.

السنة السابعة من سلطنة الملك الناصر
فرج بن برقوق ـ الأولى على مصر

وهي سنة سبع وثمانمائة:

فيها كان الشراقي العظيم بالديار المصرية.

---

(١) في بعض الأصول: «الدوركاري». وفي الضوء اللامع «الدكزي».

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

وفيها كانت واقعة السعيديّة بين الملك الناصر فرج صاحب الترجمة، وبين يَشْبُك، وشيْخ، وجَكَم، وقرا يوسف، حسبما تقدَّم ذكره.

وفيها تُوفِّي الشيخُ الإمامُ العالمُ عبيد الله الأرْدبيليّ الحنفيّ، في آخر شهر رمضان وكان من الفضلاء، معدوداً من فقهاء الحنفيّة.

وتُوفِّي الوزير الصاحبُ بدر الدين محمد بن محمد الطوخيّ، وزير الديار المصريّة. تنقّل في الخِدَم الدّيوانية حتى ولي ناظر الدولة ثم نُقل إلى الوَزَر سنة تسع وتسعينَ بعد مسك ابن البَقَريّ، وتولّى بعده نظر الدولة سعد الدين الهيصم ثم باشَر الوَزَرَ بعد ذلك غَير مرَّة ووقَع له أُمورٌ ومِحَنٌ إلى أن مات ــ بطّالاً ــ في هذه السنة.

وتُوفِّي الأميرُ سيفُ الدين قاني باي بن عبد الله الظاهري، رأس نوبة، وأحد أمراء العشرات بديار مصر، في يوم الخميس أول جمادى الآخرة. وكانَ مِن خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق الصّغار.

وتُوفِّي الشيخُ الإمامُ العالم الفقيه عبدُ المنعم بن محمد بن داود البغدادي الحنبليّ ثم المصريّ بها، في يوم السبت ثامن عشر شوال وقد انتهت إليه رئاسة مَذهب الإمام أحمد بن حنبل، بعدما كتب على الفتوى، ودرّس عدة سنين وكان لما قدِم من بغداد إلى الدّيار المصرية تفقّه بقاضي القضاةُ موفق الدين الحنبلي، وهو جدّ صاحِبنا قاضي القضاة بدر الدين محمد بن محمد بن عبد المنعم ــ رحمه الله.

وتُوفِّي القاضي ناصر الدين محمد بن صلاح الدين صالح الحلَبيّ، الموقع الشافعي، المعروف بابن السَّفّاح، موقّع الأمير يَشْبُك الشّعْباني الدَّوادار، في يوم الثلاثاء ثاني عشرين المحرم.

وتُوفِّي الشيخ نور الدين علي ابن الشيخ الإمام سراج الدين عمر البُلْقِينيّ، في يوم الاثنين سلخ شعبان فُجَاءةً بمدينة بُلْبَيس، وحُملَ منها إلى القاهرة، ودفن

بتُرْبة[١] الصوفية، خارج باب النَّصر عند أبيه وكان مولده في شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة وكان بارعاً في الفقه والعربية، ودرَّس بعد موت أبيه بعدّة مدارس.

وتُوفِّي القاضي شمسُ الدين محمد بن عباس بن محمد بن حسين بن محمود بن عباس الصّلتيّ، في مُستهل جمادى الأولى، بعدما وليَ القضاء بعدّة بلادٍ من معاملة دِمشق وغَيْرها: وليَ قضاء بعلبك، وحِمص، وغزَّة، وحَماة، ثم عمل مالكياً وولي قضاء المالكيّة بدمشق، ثم ترك ذلك بعد مدةٍ وَولي قضاء الشافعية بدمشق ولم تُحمد سيرته في مباشرته القضاء؛ وكيف تُحمد سيرته وهو ينتقل في كلّ قليلٍ إلى مذهب لأجل المناصب! فلو كان يرجع إلى دين ما فعل ذلك، ومن لم يحترز على دينه يفعل ما يشاء.

قلتُ ــ والشيء بالشيء يذكر ــ وهو أنني اجتمعتُ مرةً بالقاضي كمال الدين بن البارزي، كاتب السر الشريف بالدّيار المصرية ــ رحمه الله تعالى ــ فدفع إليَّ كتاباً من بعض أهل غَزَّة، ممن هو في هذه المقُولة، فوجدت الكتابَ يتضمَّنُ السعيَ في بعضِ وظائفِ غَزَّة، وهو يقول فيه: «يا مولانا، المملوك منذ عُزلَ من الوظيفة الفلانية بغزَّة خاطرهُ مكسور، والمسؤول منْ صدقات المخدوم أن يوليه قضاء الشَّافعية بغزَّة، فإن لم يكن فقضاء الحنفيَّة، فإن لم يكن فقضاء المالكية، وإلا فقضاء الحنابلة». فَكتَبْتُ على حاشية الكتاب بخطي: «فإن لم يكن، فمشاعِليّ[٢] ملك الأمراء» ــ انتهى.

أَمرُ النيل في هذه السنة: الماء القديمُ ذراع واحدٌ وعشرة أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وثلاثة أصابع.

---

(١) مكانها اليوم المقابر المعروفة بجبّانة باب النصر. (محمد رمزي).

(٢) المشاعلي: الأصل في المشاعلي أنه هو الذي يحمل المشعل بين يدي الأمير ليلاً، ثم صار علمًا على الجلّاد الذي ينفذ حكم الإعدام.

قال السبكي في معيد النعم: ومن حق الله عليهم (أي المشاعليّة) إذا أرادوا قتل أحد أن يحسنوا القتلة. . . . وأن يمكنوه من صلاة ركعتين قبل القتل فهي سنّة. ومتى أمر ولي الأمر مشاعلياً بقتل إنسان بغير حقّ والمشاعلي يعلم أن المقتول مظلوم فالمشاعلي قاتل له يجب عليه القصاص. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٣٥ ــ ١٣٦).

المصادر والمراجع

الجزء الثاني عشر

١ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧.

٢ ـ أخبار مصر، للمسبّحي ـ تحقيق أيمن فؤاد السيد وتياري بيانكي ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨.

٣ ـ أخبار مصر، لابن ميسَّر ـ تحقيق أيمن فؤاد السيد ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨١.

٤ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي ـ دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٧.

٥ ـ أساس البلاغة، للزمخشري ـ تحقيق عبد الرحيم محمود ـ نسخة مصورة إيرانية عن الطبعة المصرية.

٦ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.

٧ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي ـ مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت ١٩٨٠.

٨ ـ الألقاب الإسلامية، لحسن الباشا ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

٩ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.

١٠ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ـ طبعة كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠.

١١ ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ تأليف لسترانج ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤.

١٢ ـ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان ـ دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤.

١٣ ـ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري ـ تحقيق محمد حسين شمس الدين ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

١٤ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ـ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٤.

١٥ ـ تقويم البلدان، لأبي الفداء ـ باريس ١٨٤٠.

١٦ ـ الجوهر الثمين، لابن دقماق ـ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ـ عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥.

١٧ ـ الخطط التوفيقيّة الجديدة، لعلي مبارك ـ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.
١٨ ـ خطط الشام، لمحمد كرد علي ـ مطبعة الترقي، دمشق ١٩٢٧.
١٩ ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) ـ دار صادر، بيروت.
٢٠ ـ دار الضرب المصرية (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية)، لمنصور بن بعرة الذهبي ـ تحقيق عبد الرحمن فهمي محمد، القاهرة.
٢١ ـ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
٢٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ـ إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
٢٣ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة ـ دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٤.
٢٤ ـ الدولة المملوكية، لأنطوان ضومط ـ دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠.
٢٥ ـ رحلة ابن بطوطة ـ دار صادر، بيروت.
٢٦ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، لخليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩٤م.
٢٧ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ـ (ج ١-٢) تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨ ـ (ج ٣-٤) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢.
٢٨ ـ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ـ طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣ ـ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
٣٠ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي ـ دار مكتبة الحياة، بيروت.
٣١ ـ في التراث العربي، لمصطفى جواد ـ بغداد ١٩٧٥.
٣٢ ـ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، لمحمد رمزي ـ دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤.
٣٣ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ـ دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
٣٤ ـ لسان العرب، لابن منظور ـ دار صادر، بيروت.
٣٥ ـ محيط المحيط، لبطرس البستاني ـ مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٧.
٣٦ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، للبغدادي، ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤.
٣٧ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري ـ تحقيق دوروتيا كرافولسكي ـ المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.
٣٨ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، لياقوت الحموي ـ تحقيق وستنفيلد، جوتنجن ١٨٤٦.
٣٩ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، للمستشرق زامباور ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
٤٠ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي ـ دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
٤١ ـ معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.

٤٢ ــ المعجم الوسيط ــ إعداد مجمع اللغة العربية، القاهرة.
٤٣ ــ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة.
٤٤ ــ الموسوعة العربية الميسرة ــ إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرنكلين، القاهرة ١٩٦٥.
٤٥ ــ الموسوعة الفلسطينية ــ إعداد أحمد المرعشلي وعبد الهادي هاشم وأنيس صايغ ــ دمشق ١٩٨٤.
٤٦ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي ــ طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر ــ وطبعة دار الكتب المصرية.
٤٧ ــ نزهة النفوس والأبدان، للخطيب الجوهري ــ تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٠.
٤٨ ــ النظم الإسلامية، للشيخ صبحي الصالح ــ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨.
٤٩ ــ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية (حوادث عامة ووفيات)	٣
السنة الأولى من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٢	٩٣
السنة الثانية من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٣	٩٥
السنة الثالثة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٤	٩٩
السنة الرابعة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٥	١٠٤
السنة الخامسة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٦	١٠٧
السنة السادسة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٧	١١١
السنة السابعة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٨	١١٧
السنة الثامنة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٧٩٩	١٢١
السنة التاسعة من سلطنة الظاهر برقوق الثانية، وهي سنة ٨٠٠	١٢٦
سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الأولى (حوادث عامة ووفيات)	١٣١
السنة الأولى من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠١	٢٥٩
السنة الثانية من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠٢	٢٦٦
السنة الثالثة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠٣	٢٧٢
السنة الرابعة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠٤	٢٧٩
السنة الخامسة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠٥	٢٨٠
السنة السادسة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠٦	٢٨٤
السنة السابعة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى، وهي سنة ٨٠٧	٢٨٦
المصادر والمراجع	٢٨٩